رحلة الصفار إلى فرنسا

(1845-1846)

محمد بن عبد الله الصفار الأندلسي التطواني



حققها وقدم لها
د. سوزان ميلر

عربها وشارك في التحقيق
د. خالد بن الصغير

رحلة الصفّار إلى فرنسا

(1846-1845)

رحلة الصفّار إلى فرنسا (1845-1846م) / أدب رحلات
محمّد بن عبد الله الصفّار الأندلسيّ التطوانيّ / مؤلّف
حقّقها وقدّم لها : د. سوزان جيلزُن ميلر / أمريكا ◆ عرّبها وشارك في التحقيق : د. خالد بن الصغير / المغرب
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : 44480
الإمارات العربيّة المتّحدة ؛
هاتف 00971 2 6322079
فاكس 00971 2 6312866

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 11-5460 ،
هاتفاكس 00961 1 752308 / 751438

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
e-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفنّي :
محمد سيسي ®
تصميم الغلاف : **ناصر بخيت / السودان**
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردنّ**
الصفّ الضوئي : **القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-976-3

رحلة الصفّار إلى فرنسا

(1845-1846)

محمد بن عبد الله الصفّار
الأندلسي التطواني

حققها وقدم لها:
د. سوزان ميلر

عربها وشارك في التحقيق:
د. خالد بن الصغير

ارتياد الآفاق

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

Ouvrez un guide de voyage, vous y trouverez d'ordinaire un petit lexique, mais ce lexique portera bizarrement sur des choses ennuyeuses et inutiles: la douane, la poste, l'hôtel, le coiffeur, le médecin, les prix. Cependant, qu'est ce que voyager ? Rencontrer. Le seul lexique important est celui du rendez-vous.

افتح دليلا للسفر تجد فيه كالعادة معجما صغيرا ، لكن الغريب أنه ينصب على أمور مملة لا تفيد : من ديوانة وبريد وفندق وحلاق وطبيب وأثمان . ومع ذلك ، ما هو السفر؟ إنه اللقاء . والمفردة الوحيدة المهمة هي مفردة الموعد .

Roland Barthes رولان بارت

L'Empire des signes

« . . . وفي وسط هذا النهر جزيرة هي أصل باريز القديم . . . ولهم بهذه الجزيرة كنيسة قديمة أكبر وأقدم ما عندهم من الكنائس بباريز . وهذا النهر تسافر فيه المراكب والفلايك والبابورات كبارا وصغارا ، فهو مشحون بها في داخل المدينة . وفيه بيوت عظام من الخشب على شكل السفن الكبار ، إلا أنها مسقفة من فوق بسقف منها ، مفتوح وجهها الذي لجهة النهر ، مرساة في طرفه ثابتة ، معدة لغسل الثياب ، تعلوا عند زيادة النهر وتنزل عند نقصانه كما هو شأن المراكب . . . » .

نص الرحلة – ص 168

« . . . ومن منتزهاتهم أيضا ، جنان السلطان الذي فيه النباتات والوحوش بحرية وبرية حية وميتة . واستعملوا للميتة حيلا حتى صارت تُرى كأنها حية ، فترى الحوت لا تشك أنه الساعة أخرج من البحر . وذالك أنهم سلخوه من جلدته وأخرجوها صحيحة وملئوها بتبن أو نحوه حتى صارت كأنها سمكة بلحمها طريا ، ويزيدونها أنواع الأطلية التي تُصبر معها الجثة . . . » .

نص الرحلة – ص 177

« . . . ومن محال فرجاتهم المحال المسماة بالتياتروا ، وتسمى الكومزية وتسمى الأوبرة ، وهو محل يلعب فيه بمستغربات اللعب ومضحكاته ، وحكاية ما وقع من حرب أو نادرة أو نحو ذالك . فهو جد في صورة هزل ، لأنه قد يكون في ذالك اللعب اعتبار أو تأديب أو أعجوبة أو قضية مخصوصة ، ويكتسبون من ذلك علوما جمة . . . » .

نص الرحلة – ص 182-183

إشارة

أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيمانًا من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» و«دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريسًا لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتمامًا يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلبًا على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمنًا الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم

وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

مكتبة عربية لأدب الرحلة . . . من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ ، وصخب لا ينتهي ، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة ، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات ، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير ، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش . مرايا تتعاكس ، بلدان قريبة وبعيدة ، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة . وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها ، بل يستغرق في ملامحها ، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها . . . تلك هي الرحلة ، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير ، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها . هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال ، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان .

***

بدأنا برحلة ، وقلنا إننا سنختتم معًا مائة رحلة ، أما وقد وقفنا على أعتاب الكتاب المائة فأي معجزة هذه . . ولم يمضِ على مشروع «ارتياد الآفاق» أربعة أعوام؟!

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة ، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج ، سالكين دروب الدهشة والخطر ؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين ، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه . أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب ، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات ، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل . إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض ، وسفراؤها إلى العالم ، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات ، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب .

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار تمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر . هذا شيء آخر غير أدب الرحلة ؛ واليوم ، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها ، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها .

الرحلة ، كما آلت إليه ، سفر في الأرض وسفر في المخيلة ، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود .

***

تَهْدفُ هذه السِّلْسلةُ بَعْثَ واحد من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلَةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صورًا لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية

لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صورًا ستملأ مجلدات لا تُحصى عددًا ، خصوصًا في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهّدُ الرأي العام ، تاليًا ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيّلة جائعة إلى السّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركز ، أساسًا ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالبًا ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساسًا ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالة الشّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها

من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسرِّ على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً ، ومخزنًا للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها .

***

أخيرًا ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي شارفت اليوم على المائة كتابٍ أسست ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشفُ عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاكَ تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

***

ختاما ، أحيي رحالة من طراز آخر ، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين ، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم

المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد ، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه ، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين ، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر .

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة ، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام .

محمد أحمد السويدي

أبوظبي - يونيو/حزيران 2006

المقدمة

يعود الفضل إلى الأستاذ الفقيه محمد المنوني في إرشاد الباحثة الأمريكية سوزان ميلار وتنبيهها إلى وجود نسخة فريدة من رحلة الصفار إلى فرنسا ضمن محفوظات الخزانة الحسنية بالرباط . ويتكون هذا المخطوط في مجموعه من مائة وتسع وثلاثين صفحة ، يبلغ طول كل منها 21,5 سنتمترا ، وعرضها 17 سنتمترا . ويتضمن نص كل صفحة واحدا وعشرين سطرا ، كتبت بخط مغربي متأن جله واضح المعالم . ولم يكن هذا المخطوط يحمل توقيعا أو اسما للمؤلف ، غير أن قرائن عديدة ، لا تدع مجالا للشك في أن الرحلة من تأليف الفقيه محمد بن عبد الله الصفار الأندلسي التطواني .

أما موضوع المخطوط ، فهو تقرير عن رحلة قام بها المؤلف إلى باريز في دجنبر/ كانون الأول من سنة 1845 ، حين عين كاتبا للسفير المغربي عبد القادر أشعاش ، الذي بعثه السلطان عبد الرحمن بن هشام في مهمة دبلوماسية إلى فرنسا . وأثناء الرحلة ، حرص الصفار على تسجيل مشاهداته ، وبعد عودته إلى المغرب كتب تفاصيلها ، ربما بإيعاز من عبد القادر أشعاع امتثالا لأمر السلطان .

وينقسم المخطوط في مجموعه إلى ستة أقسام بدأها المؤلف بتوطئة وأنهاها بخاتمة . وتتوسطها أربعة فصول أساسية تتناول مواضيع مختلفة . ومن حيث البنية ، تجمع رحلة الصفار بين خصوصيات أدبيات الرحلة في شكلها الكلاسيكي وعناصر جديدة أكثر حداثة . وفي سنة 1834 ، صدر عن مطبعة

بولاق المصرية كتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريز لمؤلفه رفاعة الطهطاوي الذي قضى في باريز خمس سنوات . وقد تأثر محمد الصفار إلى حد كبير بهذا الكتاب شكلا ومضمونا ، لكن دون أن يكون مجرد مقلد له . إذ تمكن الصفار بفضل اتساع آفاقه الأدبية من إثراء مؤلفه بأشياء أصيلة ، كأبيات شعرية ومقتبسات من القرآن والحديث ، وأقوال مأثورة وأمثال ونوادر ، وبغيرها من المؤشرات الدالة على مكانته العلمية والأدبية . ويخبرنا الصفار نفسه بأن إنجازه لعمله هذا قد تطلب منه شهورا عديدة .

وأمام هذه المعطيات المغرية ، لم تتردد الباحثة سوزان ميلار في اختيار مخطوطة الصفار موضوعا لأطروحة نالت بها درجة الدكتوراه من شعبة التاريخ بجامعة ميشغن الأمريكية سنة 1976 . وتطلب منها بلوغ هذا الهدف بذل جهود كبيرة ، ومواجهة العديد من الصعوبات . إذ أصبحت ملزمة بتقوية معرفتها باللغة العربية ، وبالاستئناس بقراءة الخط المغربي لتستطيع النفاذ إلى مضامين الرحلة وفهم معانيها ، حتى تنقلها إلى الإنجليزية نقلا أمينا خاليا من العيوب . وكان عليها أيضا أن تلم بأدبيات الرحلة عند الغربيين والمسلمين على السواء . هذا ، علاوة على الإحاطة بما كتبه النقاد الأدبيون والأنثربولوجيون في موضوع الرحلة بوجه عام ، مع التركيز على خصوصيات الرحلة المغربية ، حتى تضع رحلة الصفار في إطارها الصحيح . وهذا بالإضافة إلى اقتفائها آثار البعثة السفارية المغربية ، سواء أفي الأرشيف الفرنسي أم في الوثائق المغربية . وبفضل المساعدات التي تلقتها سوزان ميلار من الجانبين المغربي والأمريكي ، فقد حالفها النجاح والتوفيق في مواجهة كل الصعوبات .

غير أنها احتفظت بعملها مرقونا على أحد رفوف مكتبتها مدة قاربت عقدين من الزمن ، فظل الاطلاع على نتائجه مقتصرا على الباحثين المتخصصين . ولم يكتب له أن ينشر ليصبح رهن إشارة عموم القراء الأنكلوساكسونيين إلا في سنة 1992 ، وذلك تحت العنوان الآتي :

Disorienting Encounters: Travels of a Moroccan Scholar in France in 1845-1846. The Voyage of Muhammad As-Saffar. Translated and Edited by Susan Gilson Miller. University of California Press, 1992.

ومما يثير الاستغراب أيضا ، أن هذه الرحلة المهمة لم يسبق نشرها في نصها العربي الأصلي بالرغم من اكتشاف وجودها ضمن محتويات الخزانة الحسنية منذ

مدة ليست باليسيرة . وكان هذا الاعتبار من الأسباب التي دفعتني ، بمناسبة صدور الكتاب أعلاه ، إلى الإقدام على مفاتحة سوزان ميلار في الموضوع والإلحاح عليها في تعريب عملها ونشره ، حتى تعم فائدته غير قراء الإنجليزية في المغرب وفي العالم العربي . وحين سألتني عن استعدادي لأكون طرفا في المشروع ، لم أتردد في القبول على الرغم من ضيق الوقت وكثرة الانشغالات .

وقد اعتقدنا في البداية أن إنجاز العمل بحكم وجود النص العربي للرحلة سيكون سهل المنال ، إذ يكفي تعريب الستين صفحة والهوامش المحررة بالإنجليزية في الدراسة والتحقيق . إلا أننا وجدنا أنفسنا أمام مهمة لا تخلو من صعوبات ، نشير في عجالة إلى البعض منها .

لقد حرصنا على تعريب الأفكار الواردة في الدراسة تعريبا سليما وأمينا دون المس بمضامينها أو التصرف فيها . غير أن الكتاب في نسخته الإنجليزية كان يستهدف بطبيعة الحال جمهورا من القراء غالبيته العظمى من الغربيين . و لذا نجد سوزان ميلار عند ترجمتها لنص الرحلة إلى الإنجليزية تعمل قدر المستطاع على ترجمتها بطريقة حرفية حفاظا على أمانة النص الأصلي . وكلما اعترضتها كلمة عربية فصيحة كانت أم دارجة ، إلا وحاولت إيجاد مقابل لها في الإنجليزية ، مع تقديم شروح وجيزة لها في الهوامش لتيسير فهمها ، وهذا لم يكن أمرا سهلا . غير أنها اضطرت في بعض الأحيان إلى الوقوف عند أشياء تبدو بسيطة ، لكن القارئ الغربي يحتاج إلى شروح لفهمها لأنها غريبة عن ثقافته المادية والدينية . وعند تعريب التحقيق ومراجعة النص العربي للرحلة ، اضطررنا إلى التدخل من جديد خاصة في الهوامش ، إما لحذف بعضها بحكم أن ما تتضمنه من شروح يعتبر بديهيا ومن باب تحصيل الحاصل لدى القارئ العربي عامة والمغربي خاصة ؛ وإما لإضافة هوامش جديدة تتعلق بشرح بعض المفردات التي وإن كانت قد كتبت بالعربية فهي لا تخلو من لبس وغرابة . وحتى نميز بين الهوامش الأصلية ومثيلاتها المضافة ، وضعنا بين قوسين كلمة معرب كلما أضيف هامش جديد ، سعيا إلى تقديم عمل متكامل قدر الإمكان .

ومن الصعوبات التي واجهتنا عند تعريب هذا العمل ، اعتماد الباحثة في بعض الاقتباسات الواردة في الدراسة على الترجمات الإنجليزية لبعض أمهات الكتب العربية مثل مقدمة ابن خلدون أو غيرها . وحتى يمكن العثور على الاقتباس نفسه في لغته الأصلية ، كان لا بد من الرجوع إلى النسختين العربية والإنجليزية معا . وللغرض

نفسه كان لا بد من الرجوع إلى المصادر العربية والمغربية التي أخذت منها بعض المقتبسات بالعربية ونقلت إلى الإنجليزية . وإن زاد ذلك في متاعبنا ، فإنه لم يكن خاليا من المتعة والفائدة .

وتجدر الإشارة إلى أن تعريب هذا الكتاب قد تحقق بمساندة من برنامج الدراسات المغربية بمركز الدراسات الشرقية بجامعة هارفارد الأمريكية الذي يولي اهتماما خاصا للبحث في تاريخ المغرب ومجتمعه . وتعمل الدكتورة سوزان ميلار اليوم أستاذة محاضرة متخصصة في الحضارات الإسلامية في قسم حضارات الشرق الأدنى ولغاته بجامعة هارفارد . كما تشغل منصب مديرة لبرنامج الدراسات المغربية بمركز الدراسات الشرقية بالجامعة نفسها منذ تأسيسه .

ويسعدنا في نهاية هذه المقدمة أن نتوجه بالشكر والامتنان إلى كل الذين ساعدوا على إنجاز هذا العمل في كل مراحله . ونخص منهم بالذكر الفقيد الأستاذ الفقيه محمد المنوني ، رحمه الله ، الذي سبقت الإشارة إلى تفضله بإثارة انتباه سوزان ميلار إلى وجود نسخة من رحلة الصفار بالخزانة الحسنية في الرباط ؛ والأستاذ عبد الوهاب ابن منصور الذي مكن هذه الدراسة مشكورا من كل الوثائق المغربية المتصلة بالموضوع ؛ والفقيد عبد القادر الرزيني بطنجة الذي مد الدراسة أيضا بعينات من وثائقه العائلية . وفي مرحلة التعريب لم يبخل علينا زملاؤنا وأصدقاؤنا الأساتذة بتوجيهاتهم واقتراحاتهم وتشجيعاتهم . ونخص منهم بالذكر ، الأستاذ فوزي عبد الرزاق من جامعة هارفارد ، والأساتذة عمر أفا ومحمد معتصم ومحمد أعفيف وجامع بيضا وسعيد بن سعيد العلوي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، وكذا الأستاذ محمد حميدة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة .

رموز مختصرة
Abréviations

AAE: Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris et Nantes (MDM = Mémoires et documents, Maroc; CPM = Correspondance Politique, Maroc; ADM = Affaires diverses; Maroc).

ADM	:	Voir AAE.
AM	:	*Archives marocaines.*
AN	:	Archives Nationales; Paris.
APT	:	Archives du Port de Toulon.
BSOAS	:	*Bulletin of the School of Oriend and African Studies.*
CPM	:	voir AAE.
Dozy	:	R. Dozy *Supplément aux dictionnaires arabes*, 2 vol., Paris,1967.
EI	:	*Encyclopaedia of Islam*, 1st and 2nd editions.
FO	:	Records of the Foreign Office, Public Record Officice, London.
Gal	:	Carl Brockelmann, *Geshichte der arabischen Litteratur*

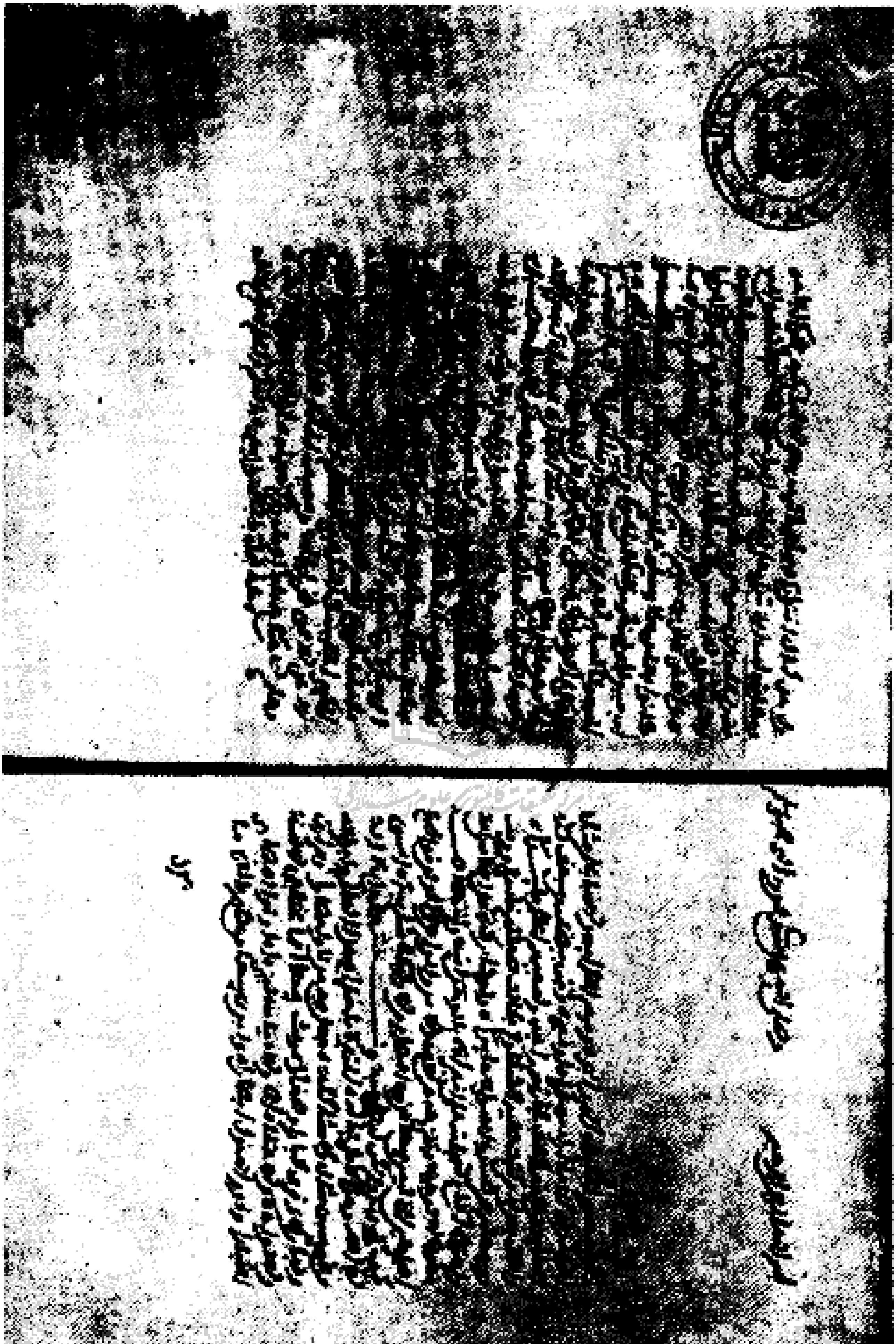
(GAL), 2 vols., Leiden, 1943-49; *supplementbände* (s), 3 vol, Leiden, 1937-42.

Hesp	:	*Hespéris.*
H-T	:	*Hespéis - Tamuda.*
Harrell	:	R. harrell et al., *A Dictionary of Moroccan Arabic: Arabic English*, Washington, D. C., 1966.
IB	:	H. A. R. Gibbb, ed., *The Travels of Ibn Battuta*, 3 vols., The Hakluyt Society, Cambridge, 1958.
MDM	:	voir AAE
MM	:	Archives du Ministère de la Marine, Archives Nationales, Paris.

Ra	:	*Revue africaine.*
RMM	:	*Revue du monde musulman.*
S	:	voir Gal
SEI	:	*Shorter Encyclopaedia of Islam.*



خريطة : مراحل رحلة محمد الصفار من تطوان إلى باريز



لوحة 1 : افتتاحية مخطوط رحلة محمد الصفار

القسم الأول

الدراســـــة

تمهيـــــــد

في يوم من أيام ربيع سنة 1846، وبعد أن عاد محمد الصفار من رحلته إلى فرنسا، حمل القلم وشرع في الكتابة في جو مفعم بالروائح الزكية المنبعثة من الأزهار المتفتحة لأشجار البرتقال المنبثة في البساتين المحيطة بتطوان، مسقط رأسه. وقد استعان في ذلك بحزمة ضخمة كانت أمامه تضمنت العديد من المعطيات التي تذكره بالناس والأماكن، وبمختلف العجائب التي رآها أو سمع عنها خلال رحلته. وبعد أن دعا الله وطلب منه العون والتوفيق، شرع بكامل الصبر والأناة في العمل، وبدأ في تحرير انطباعاته على الورق بأسلوب ثابت هادئ، معتمدا في ذلك على خبرته الطويلة في ميدان الكتابة.

وعند بداية شهر شتنبر/ أيلول، حين بدأت أزهار الربيع اليانعة تتحول إلى دوائر ذهبية اللون، كتب الصفار السطور الختامية لمخطوطته معبرا عن تلك الفرحة الكبيرة التي تهز الفرد كلما فرغ من عمل عسير وشاق بالعبارات التالية: «وهذا ما تيسر للعبد الضعيف جمعه مع تشويش البال وتزاحم الأشغال، ولولا مساعدة من تجب إجابته وتتحتم طاعته، لما كدت ولا قررت أن أفعل شيئا من ذلك»[1]. وتوحي هذه الكلمة الختامية، إلى جانب السرعة التي حررت بها، بأن الطلب الذي كان الصفار بصدد الاستجابة إليه، نابع لا محالة من شخص السلطان نفسه.

لماذا كان المولى عبد الرحمن- أمير المؤمنين وسليل نبي الله محمد صلى الله

(1) انظر الصفحات الأخيرة من نص الرحلة في نهاية هذا الكتاب.

عليه وسلم ، وأحد أعلام سلاطين الأسرة العلوية التي حكمت المغرب خلال فترة تجاوزت قرنين من الزمن- متعطشا هذا التعطش لقراءة ما دونه محمد الصفار في رحلته من أخبار؟ قد يكون من بين تلك الأسباب ، أن السلطان كان يتوقع العثور في الصفحات التي ملأ الصفار سطورها بشكل مكثف على أجوبة قد تشفي غليله حول بعض التساؤلات المحيرة التي كانت تشغل باله بصفة لا تخلو من الإزعاج : أين يكمن سر قوة الفرنسيين؟ كيف تمكنوا من الوصول إلى ذلك المستوى من القوة؟ كيف استطاعوا قهر الطبيعة وإحكام قبضتهم على مسارها بطرق وأساليب مازالت خافية عنا؟ كيف يعيش الفرنسيون حياتهم اليومية ، وكيف يربون أبناءهم وخدامهم؟ ما هي أحوالهم التعليمية ، وكيف يسلون أنفسهم ويروحون عنها ، وماذا يأكلون؟ و باختصار ، ما هو وضع حضارتهم ، وما هي أوجه اختلافها عن حضارتنا؟

تكمن أهمية رحلة الصفار في قدرة كاتبها على تقديم أجوبة عن مثل هذه الأسئلة ، وعلى تسجيل تجربته في صور دقيقة الرسم وذات عمق إنساني . وكانت له القدرة على فتح نافذة على عالم بعيد عن عالمه هو ، ونقل مشاهدته إلى غيره . ومن خلال وصفه الدقيق لما هو جديد ، ويكاد يكون كل شيء جديدا ، نحس بنسيج اللقاء الثقافي : وبقراءتنا لما دونه عن رحلته ، نجد أنفسنا أمام فرصة نادرة تتاح لنا لتقمص شخصية أحد رجال الفكر المغاربة في لحظة حرجة تمتحن معتقداته ومشاعره وتوجهاته .

إن «موعد» الصفار مع الجديد ، على حد تعبير بارت (Barthes) ، يحدث مواجهة أكبر حجما مجد خلالها تجربته مرات عديدة . وتمثلت خلفيات رحلته في أحداث ووقائع أدت ، بشكل عميق ، إلى قلب التصور الذي كان لدى النخبة الحاكمة في المغرب عن قوتها إزاء الغرب رأسا على عقب . وفي الواقع ، كانت الرحلة في حد ذاتها جزءاً من ذلك المجهود الذي استهدف القيام بمحاولة لتصحيح الخلل والتبصر بمعرفة الأسباب الكامنة وراء الإخفاقات والفشل . وقد تميز العصر الذي عاش فيه كاتب الرحلة بالقلق الذي انتاب المغاربة من قدرتهم على مواجهة الغرب المتحكم في جميع مقومات التفوق العسكري . كما تميز أيضا بوجود تخوفات كبيرة من وقع القضايا الخارجية وخطورة تأثيرها على الأحوال الداخلية لنظام اتسم بهشاشته . وكانت هذه القضايا العريضة مطروحة مسبقا قبل الرحلة ، وقد تم صبها في قالب اكتسى دلالات تاريخية ذات أهمية بالغة . وحتى تفهم الرحلة ، يجب علينا أن نضعها في إطارها التاريخي والزمني .

كان أبرز حدث هز جيل الصفار هو الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 . ولما تمكن الفرنسيون من توسيع مجال احتلالهم من المناطق الساحلية للجزائر إلى أعماق البلاد ليصبح احتلالهم لها شاملا ، أدى ذلك إلى تحطيم مفاجئ لاستمرارية المجال الذي كان بين البلدان الإسلامية الممتدة من مصر إلى المغرب منذ القرون الأولى للعهود الإسلامية . وقد أصبح التوغل الفرنسي يعني للمغرب أن دولة مسيحية أصبحت تجاوره على طول حدود ممتدة على أرض سهلية وأخرى صحراوية بكل ما تسمح به من فسح للمجال المغربي أمام الفرنسيين . إن هذا الواقع الجديد ليعتبر انقلابا حقيقيا لم تشهد البلاد مثله من قبل ، ولا بد أن تكون عواقبه متعددة ووخيمة .

ولم تكن تلك أول مرة يجد فيها المغرب نفسه مهددا من الغزاة الوافدين من أوربا ، غير أن التهديد كان مختلفا ومن نوع جديد . لقد اخترق الإيبيريون أجزاء من السواحل المغربية خلال القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، إلا أن احتلالهم لها كان في الأغلب احتلالا مؤقتا وعابرا . وفي القرن السابع عشر ، ارتفعت درجة التوتر بصفة قارة بين المغرب وأوربا في عرض المحيطات ، فتبادل القراصنة المغاربة والأوربيون الهجمات على مراكب بعضهم البعض ، محاولين الرفع من مداخيلهم المالية بدعوى الدفاع عن معتقداتهم الدينية[1] . وفي أواسط القرن الثامن عشر ، شهدت عمليات القرصنة تقلصا واضحا ، وفسح المجال أمام أشكال التبادل المتسمة بدرجة أقل من العنف . وأصبحت الصراعات العابرة من أحد المظاهر المميزة للعلاقات المغربية الأوربية ، كما شكلت التجارة النشيطة والعلاقات الدبلوماسية مظهرا آخر لتلك العلاقات . وشهد عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) إنشاء مرسى جديدة بالصويرة على ساحل المحيط الأطلسي لجلب أنظار التجار الأجانب

---

(1) J. Bookin-Weiner, "The 'Sallee Rovers': Morocco and its Corsairs in the Seventeenth Century", in *The Middle East and North Africa: Essays in Honor of J. C. Hurewitz*, ed. Reeva S. Simon (New york, 1990), p.317.

وتعزيز المداخيل الجمركية لبيت مال المخزن[1] . وبعد ذلك ، جاءت الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، فكان لها تأثير حاسم على مستوى العلاقات بين المغرب وأوربا فانقطعت الصلات بينهما . وعلاوة على ذلك ، أثيرت صراعات شديدة على الحكم في المغرب بعد وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، جعلت البلاد تتخبط في جو من الصدامات وأعمال العنف . ودخلت بذلك الحياة السياسية في مرحلة من التجاوزات بشكل ما تحدثت عنه من قبل أقلام الإخباريين المغاربة وكتاباتهم[2] .

وكان لا بد من انتظار حلول عشرينيات القرن التاسع عشر ، ليتمكن المغرب وأوربا من تجاوز مرحلة سادت فيها الاضطرابات . وفي مختلف أرجاء القارة ، احتفل الأوربيون بحلول السلام على طريقتهم الخاصة ، فاندفعوا برغبة قوية في تحقيق النمو والتطور في كل المجالات ، وشرعوا جادين في البحث عن الأسواق الخارجية والمواد الأولية . وبينما كانت أوربا بصدد الدخول في عهد جديد ، كنا نجد المغرب على عكس من ذلك متجها إلى الانطواء على نفسه ، بل إنه يقدم ، خلال فترة حكم المولى سليمان (1793-1822) ، على قطع جل علاقاته مع الأوربيين . وفي سنة 1817 ، نفذ السلطان قراره القاضي بتفكيك ما تبقى من العناصر المكونة للأسطول البحري المغربي ، فوضع بذلك حدا للحركة التجارية البحرية بواسطة المراكب المغربية[3] . وفي هذا السياق ، أغلقت كل المراسي أمام التجارة الأجنبية ، ومنع

---

(1) Daniel Schroeter, *Merchants of Essaouira: Urban Society and Imperialism in Southwestern Morocco, 1844-1886* (Cambridge, 1988), pp.11-20.

وانظر نسخته المعربة : دانييل شروتير ، **تجار الصويرة ، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ، 1844 - 1886** . تعريب خالد بن الصغير ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة 6 ، 1997 .

(2) أحمد بن خالد الناصري ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تسعة أجزاء ، (الدار البيضاء ، 1956) ، 8 : 72-86 .

(3) عن تفكيك الأسطول المغربي عند بداية القرن الثامن عشر ، انظر : محمد المنوني ، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (الرباط ، 1973) ، 1 : 3-8 . (جميع الإحالات إلى هذا الكتاب من طبعة سنة 1973 ، ما لم يشر إلى خلافه) . انظر أيضا :

J. L. Miège, "La marine marocaine aux XIXéme siècle", *Bulletin de l'enseignement publique au Maroc*, 237 (1956): 51-57.

المغاربة من السفر خارج البلاد إلا بترخيص من السلطان[1] . وحاول خلفه السلطان مولاي عبد الرحمن (1822-1859) تدارك الموقف وتصحيح الخلل ، لكنه فشل في تحقيق ذلك ، فعاد المغرب إلى العزلة التي كان قد فرضها على نفسه بمحض إرادته[2] . ودام الانفصام الذي كاد أن يكون تاما في علاقات المغرب مع الغرب مدة تجاوزت جيلا واحدا . وفي غضون ذلك ، تمكنت أوربا من الدخول في مرحلة حافلة بالتحولات والتطورات الجديدة بأشكال لم يكن بإمكان غالبية المغاربة تصورها آنذاك[3] .

وقد أدى الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى الإسراع بوضع حد لتلك المرحلة وإنهائها ، وزج بالمغرب من جديد في خضم القضايا الأوربية . فوجد السلطان نفسه مكرها على أن يصبح طرفا في قضايا تدخل في اهتمامات جيرانه الجدد المحتلين للجزائر . وكانت بداية التدخل المغربي في تلك القضايا مع الأمير عبد القادر الزعيم الجزائري الذي نظم المقاومة المحلية ضد الفرنسيين ابتداء من 1830 . وكان السلطان قد بادر إلى مده بالزاد والسلاح ، تعبيرا منه بذلك عن قيامه بواجبه الديني الهادف إلى الوقوف في وجه التهديد المسيحي . لكن السلطان كان في الوقت نفسه ، شديد الحذر من جيش الأمير غير النظامي ، وكثير الاحتراس من استغاثته الدينية به ، وأيضا كان يخشى أن يكون سببا في إثارة فرنسا لتقوم بمهاجمة المغرب[4] .

(1) نذكر مثالا على ذلك ، الظهير الصادر عن السلطان مولاي ليمان لفائدة الحاج عبد الرحمن أشعاش بتاريخ 28 شوال 1221هـ/ 1807 يناير 1807 ، يسمح له فيه بالسفر خارج المغرب . داود ، **تاريخ تطوان** ، 3 : 236 .

(2) J. Caillé, "Le dernier exploit des corsaires du bou-Regreg ", *Hesp.*37, 3-4 (1950): 429-437.

(3) من أجل إلقاء نظرة عامة وشاملة ، انظر ما يلي :

J. L. Miège, *Le Maroc et L'Europe*, 4 vols. (Paris, 1961), vol. 2: *L'ouverture*, pp.19-258;

L. Valensi, *Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)*, (Paris, 1969).

(4) عن حركة المقاومة التي قام بها عبد القادر بن محيي الدين المختاري (1807-1883) ، ما بين 1832 وإلى حدود 1847 ، انظر ما يلي :

R. Gallissot, "La guerre d'Abd el Kader ou la ruine de la nationalité algérienne (1839-1847)", *H-T* 5 (1931): 41-119.

استمرت تلك العلاقات الطيبة المشوبة بالكثير من المصاعب بين الطرفين طوال المدة التي اقتصرت فيها فصول الحرب على المجال الترابي للجزائر . لكن مع حلول سنة 1841 ، دخل الصراع الفرنسي المغربي في مرحلة جديدة بصفة مفاجئة . إذ أكد الجنرال بيجو (Bugeaud) ، فور تعيينه قائدا للجيوش الفرنسية ، أنه «لن يسمح للعرب بالقيام بأعمال الحرث أو الحصاد ، ولا حتى بالرعي دون حصولهم على تصريح بذلك منا» ، أي من الفرنسيين . و في نهاية المطاف ، أدى عزمه الشديد على ملاحقة الأمير عبد القادر دون هوادة إلى عبور الزعيم الجزائري للحدود المجاورة والدخول إلى المغرب[1] . وفي يوم 6 غشت/ آب 1844 ، قامت وحدات من الأسطول الفرنسي ، دون سابق إنذار بضرب طنجة بالقنابل . وبعد ذلك بأيام قليلة ، ضربت مرسى الصويرة بالقذائف إلى أن تحولت المدينة إلى خراب . وفي خلال أسبوع واحد ، تمكن الفرنسيون من إلحاق الضرر وتعطيل النشاط التجاري بمرسيين هامين ، ومن توجيه ضربة قوية إلى مداخيل السلطان الجمركية[2] . وفي غضون ذلك ، عبر الجنرال بيجو الحدود فشتت جموع الجيش المغربي في وادي إيسلي ؛ وبذلك ألحقت الهزيمة بالمغاربة برا وبحرا .

== أما عن تفاصيل المبادرات ذات الطابع الدبلوماسي ، فانظر :

P. de Cossé-Brissac, *Les Rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie (1830-1947)* (Paris, 1931).

وانظر كتاب العروي الذي قدم فيه تأويلات جديدة بعد فترة الحماية :

A. Laroui, *History of the Maghrib* (Princeton, 1977), pp. 299-301.

ويعتبر كتاب جوليان أساسيا في الموضوع ، انظر :

C.-A. Julien, *Histoire de l'Algérie Contemporaine* (Paris, 1964), ch.4.

ويقول بول أزان (Paul Azan) إن عبد القادر منح للسلطان «المكانة نفسها التي يستحقها السيد من تابعه» ، انظر :

Julien, *Histoire*, p.142.

(1) ورد ذلك عند جوليان : Julien, *Histoire*, p. 174.

(2) انظر ما رواه شاهد عيان عن هذه الأحداث في كتابه الآتي :

A. H. Warnier, *Campagne du Maroc*, 1844, (Paris, 1899).

ثم بدأت فرنسا تسعى في صنع السلام ، فكتب الجنرال بيجو ما يلي : «الآن يمكننا أن نكون كرماء دون أن نكون ضعفاء ، لأننا ضربناهم بقوة»[1] . وأدى إبرام اتفاقية طنجة في شتنبر/ أيلول 1844 ، ومعاهدة لالة مغنية في شهر مارس/ آذار اللاحق ، إلى تعزيز النجاح الذي حققه الفرنسيون ، في حين كان الثمن الذي دفعه السلطان مقابل كل ذلك غاليا جدا[2] . إذ كان عليه أن يوافق على قبول التعاون مع الفرنسيين في القبض على الأمير عبد القادر ، والدخول في مفاوضات لرسم حدود جديدة مع الجزائر . وبذلك وجد السلطان نفسه مرغما دفعة واحدة ، على التخلي عن معارضته للفرنسيين ، والتسليم بوجوده على التراب الجزائري ، وهو اعتراف حقيقي بواقع لم يكن موجودا من قبل .

وفي غضون ذلك ، حاول المخزن أن يضع حدا للكارثة . وتؤكد الكتابات المعاصرة - حسب ما جاء عند محمد المنوني- على ما تميز به رجال المخزن المركزي والعلماء وقتئذ ، من تخبط في الحيرة وعجز عن التفكير السليم[3] . وترتب عن ذلك بروز اتجاهين اثنين : تمثل أولهما في النداء الموجه للقيام بالجهاد . والثاني ، في محاولة للبحث في النصوص التقليدية ، عن تفسيرات لفهم أسباب وقوع تلك الكارثة[4] .

ويوحي كلا الاتجاهين ، على الأقل ، بوجود بعض من عناصر النخبة الذين

---

(1) ورد ذلك عند : Cossé - Brissac, *Rapports*, p. 96.

(2) يوجد نص هذه الاتفاقية والمعاهدة أعلاه في :

H. M. P. de la Martinière et N. Lacroix, *Documents pour servir à l'étude du nord-ouest african*, 4 vols. (Alger, 1894-97), 2: 517-521.

(3) المنوني ، مظاهر 1 : 13 .

(4) عبر عن الاتجاه الأول من خلال قصيدة تخميسية من نظم الوزير ابن إدريس مطلعها :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم   إلى الجهاد فما في الحق من غلط

المنوني ، مظاهر 1 : 20 ؛ وأيضا :

M. Lakhdar, *La vie littéraire sous la dynastie 'Alawide* (Rabat, 1971), pp. 316-317, 327-335.

أما الاتجاه الثاني ، فيمكن تلمسه عبر تأليف وضعه أحد علماء فاس محمد بن عبد القادر الكيلاني المعروف بالفقيه الكردودي ، تحت عنوان : **كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على** ==

حاولوا البحث من الداخل ، عن مرشد يرشدهم إلى الكيفية التي يجب أن تتم بها ردود الفعل على التهديدات الفرنسية القادمة من الجزائر . غير أن عناصر أخرى داخل الجهاز المخزني ، كانت ترى أن ذلك الاتجاه المستمد لعناصره من السلف ، لم يصبح ملائما لمستجدات العصر ، وأن الحاجة أصبحت ماسة للبحث عن معلومات ومعطيات جديدة . إن أبواب المخزن كانت ما تزال مفتوحة وقابلة لأن تتسرب منها بعض التصورات والأفكار الجديدة . ومنذ أواسط أربعينيات القرن التاسع عشر ، بدأ نوع من الرغبة في معرفة أحوال أوربا ينتاب بعض العناصر القليلة ذات النفوذ داخل الجهاز المخزني . وإذا لم تكن قد صارت من دعاة الإصلاح بمعناه الدقيق ، فإنما أصبحت تتحمس إلى «البحث» و«المشاهدة والسماع» (على حد تعبير الصفار) لما يمكن للغرب أن يقدمه من أشياء جديدة[1] . ولعل هذا الفضول كان قد استمد وجوده من تقارير الرحالة الأوربيين والمغاربة وغيرهم من المسلمين ، الذين نقلوا أخبارا عن التحولات العلمية والتقنية العظمى التي تحدث في مختلف أرجاء أوربا . بل لعله كان بسبب ظهور كتب الرحلات كرحلة المصري رفاعة الطهطاوي إلى باريز التي وجدت طريقها إلى مكتبة ابن إدريس وزير السلطان[2] ؛ بل الآكد أنه جاء نتيجة الهزيمة العسكرية . في بداية الأمر ، بدا أنه من الممكن الخلوص انطلاقا من هذه المصادر ، إلى أنها هي التي كانت وراء ظهور فكرة إرسال بعثة إلى أوربا لمعاينة مظاهرها الحضارية . لكنها كانت فكرة مليئة بالتناقضات ومشحونة بكثير من مظاهر الريبة والشكوك . ومع ذلك ، تبين في نهاية المطاف أنها فكرة حان موعد إدخالها حيز التنفيذ .

== هذه الأمة ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم D1281 . نشر أيضا في المطبعة الحجرية بفاس ، دون تاريخ ، وذكره المنوني في كتابه مظاهر 1 : 13-15 . وأيضا عند العروي :

A. Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocaine (1830-1912)* (Paris, 1977), pp. 276-278.

(1) .Laroui, *Origines*, pp. 273-274, 278

(2) عن هذه الإشارة إلى خزانة ابن ادريس ، انظر الصفحة 215 من المرجع المذكور في الهامش السابق رقم 16 . أما عن الطهطاوي ، فانظر الهامش رقم 127 فيما سيأتي .

أثيرت فكرة توجيه سفارة مغربية، للمرة الأولى، أثناء المفاوضات التي كانت جارية حول معاهدة لالة مغنية، حينما اقترح الفرنسيون على السلطان إيفاد مبعوث عنه إلى فرنسا قصد إدخال «التغييرات والتحولات التي يتطلبها الوضع الجديد[1]» حيز التنفيذ. إلا أن المخزن أبدى تحفظا من ذلك العرض، فمرت عدة شهور دون أن يصدر عنه جواب في الموضوع، بينما كانت هناك بعض العناصر داخل الجهاز المخزني تتدارس الفكرة. ولم يخف بوسلهام بن علي أزطوط، نائب السلطان وممثله أمام الهيئة الدبلوماسية، لم يخف عن الوسيط الفرنسي في المفاوضات، أنه يتبنى موقفا مؤيدا للمصالحة مع فرنسا، غير أن وجهات نظره تلك لم تجد بعد آذانا صاغية داخل القصر. وجاء في أحد التقارير، أنه عبر عن موقفه بالعبارات التالية: «إن التحالف مع فرنسا شيء مناسب لنا، وهذه الفكرة ليست مقبولة بعد بشكل تام من طرف الإمبراطور... غير أنها بدأت تدور في خلده، وسأعمل على رعايتها بكل ما أملكه من وسائل[2]». ونتيجة لهذا الموقف المشجع للفرنسيين، كلف ليون روش (Léon Roches) الذي اشتهر بموهبته وتمسكه الصارم بمبادئه، بمهمة التحضير لتلك السفارة وتنظيمها[3]. وتحقيقا لذلك، ظل روش على اتصال مستمر بكل من النائب

---

(1) AAE/ MDM 9/370، رسالة دولارو de la rue إلى ابن ادريس، 22 مارس 1845.

(2) AAE/CPM 14/119-122، روش (Roches) إلى كَيزو (Guizot)، 24 غشت 1845. كان بوسلهام بن علي أزطوط عاملا على طنجة والعرائش، وفي الوقت نفسه نائبا وممثلا للسلطان أمام قناصل الدول الأجنبية المقيمين بطنجة. وظلت العلاقات الخارجية في المغرب خاضعة في تسييرها لموظفين مخزنيين يقيمون بالشمال، فيقومون بمهمة ربط الصلات بين السلطان وممثلي الدول الأجنبية دون أن يكون هناك اتصال مباشر وحقيقي بين الأجانب وشخص السلطان وبقية العناصر العليا داخل الجهاز المخزني.

(3) ابتدأ ليون روش (Léon Roches) حياته مع الجيوش الفرنسية في الجزائر سنة 1832. وفي سنة 1837، خلال مرحلة الهدنة، أصبح هو الكاتب الخاص للأمير عبد القادر الجزائري، واتخذ لنفسه اسم عمر بن الروش. وفي 1839 التحق من جديد بحاشية الجنرال بيجو (Bugeaud)، ولعب =

السلطاني بوسلهام بن علي في العرائش وبالوزير محمد ابن إدريس في القصر السلطاني[1] .

وفي غضون ذلك ، تزايد تحمس الحكومة الفرنسية للسفارة المغربية ، خاصة وأن فوائدها السياسية أصبحت واضحة المعالم . لأن حلول سفير مغربي بالديار الفرنسية ، سيقدم للرأي العام الفرنسي الذي كان يعيش نوعا من الانقسام ، الدليل القاطع على أن الأهداف المتوخاة من حرب الجزائر الطويلة الأمد والباهظة التكاليف قد تم بلوغها . وفي هذا الصدد كتب ليون روش ما يلي : «على الإمبراطور أن يقدم لملكنا سلاحا فعالا يمكنه من الصمود أمام الرأي العام لرعيته ، والسلاح المطلوب هو السفير»[2] . وأيضا كانت في ذهن ليون روش نظرة أخرى عن المغرب ، البلد الذي أُدِّبَ ورُوِّض ، وبالتالي أُلحِق هو أيضا ، بصفوف الدول الإسلامية الخاضعة منذ زمن إلى فرنسا . وعبر روش عن وجهة نظره الخاصة التي تقول إنه قد يأتي اليوم الذي يتحالف فيه السلطان تحالفا مماثلا «لما هو موجود بيننا وبين كل من سلطان القسطنطينية وباشا مصر وباي تونس . . . عليكم بالقدوم إلى بلدنا للبحث عن المدربين الذين سيزودون تركيا

= دورا أساسيا في سفارة أشعاش ، حيث كان مرافقا للبعثة المغربية في رحلتها إلى باريز . انظر الملف الخاص عن مساره في :

AAE, Dossier personnel "Léon Roches" ، بالإضافة إلى ما يلي :

M. Emerit. "La légende de Léon Roches", "*Revue africaine* 91, 410 - 411 (1947): 81-105, et Léon Roches, *trente - deux ans à travers l'Islam*, 2 vols. (Paris, 1884 - 87).

غير أن هذا الكتاب الذي سجل فيه روش مذكراته لا يغطي الفترة التي تعنينا هنا دراستها .

(1) محمد ابن ادريس (1794 – 1847) كان صدرا أعظم خلال فترة حكم السلطان عبد الرحمن بن هشام ، وشاعرا ممتازا ، وأحد رجال الدولة المحنكين داخل الجهاز المخزني . كان في الأصل وفيا لاتجاهه المعادي لأوربا ، إلا أن موقفه قد تغير بعد هزيمة إيسلي ، فناصر فكرة توجيه سفارة إلى فرنسا . انظر الناصر الفاسي ، «محمد ابن ادريس وزير مولاي عبد الرحمن وشاعره» ، البحث العلمي ، 1 ، (يناير - أبريل 1964) : 80 – 157 .

(2) AAE/CPM 14/182 ، روش إلى ابن ادريس ، 12 شتنبر 1845 . أما عن موضوع النقاشات السياسية التي أثيرت في فرنسا حول حرب الجزائر ، فانظر ما يلي :

F. P. G. Guizot, *France under Louis Philippe, 1841 - 1847* (London, 1865), pp.117, 130.

ومصر وتونس بخيرة الفرق العسكرية ، ولتتمكنوا من دراسة علومنا وصناعتنا»[1] .

هناك ضغوط وأسباب كثيرة ، دفعت المغاربة في تلك الظروف إلى التفاوض . وقد كان أولها الوضعية الخاصة بالأمير عبد القادر ، إذ كانت فرنسا تمارس ضغوطها على المغرب لإبعاد الأمير عن التراب المغربي ، بينما كان السلطان بحاجة إلى مزيد من الوقت . وحاول روش البرهنة على أن لجوء المغرب إلى المطالبة بالمزيد من الأناة والصبر بتوجيه الدعوة إلى فرنسا مباشرة من باريز قد تكون درجة إقناعه أقوى من الاتصالات الدبلوماسية غير المباشرة في المغرب[2] . علاوة على ذلك ، فقد كانت في مشاهدة فرنسا مباشرة مصلحة وفائدة . ومن الممكن أن تكون من الأفكار التي أوحت بقبول تلك السفارة ، مسألة إتاحة الفرصة أمام إمكانية جمع المعلومات والمعطيات مباشرة ، وبواسطة مبعوث يحظى بالثقة الكاملة ، بدلا من الاعتماد على وسطاء قد تحوم شكوك كثيرة حول صدقهم ودرجة ولائهم . وفي الأخير ، فإنه من الممكن أيضا أن يكون السلطان قد اقتنع بأن التفاوض في مثل تلك الحالات يمثل أفضل الحلول . وإذا كان الجهاد هو أحد مظاهر العلاقات مع البلدان غير الإسلامية ، فإن الصلح والمهادنة هما أيضا من الوسائل التي يلجأ إليها الحكام المسلمون منذ العهود الباكرة . وما دام هناك إجماع على اعتبار الممارسة الدبلوماسية مع غير المسلمين تخدم مصالح الجماعة وما دامت القضايا المتعاقد عليها ذات طابع مؤقت قصير الأمد ، فإنها كانت منذ زمن ، من الأدوات السياسية المستحسنة والجاري بها العمل[3] .

---

(1) AAE/CPM 182/14 ، روش إلى ابن ادريس ، 12 شتنبر 1845 .

(2) AAE/CPM 14/152 - 153 ، رسالة روش إلى الجنرال دولا مورسيير (de La Morcière) ، 3 شتنبر 1845 . وكتب السلطان إلى بوسلهام بأن أهداف السفارة هي «إظهار محو ما كان صدر بين الإيالتين من الغيام ورجوع ما كان بينهما إلى حاله الأول» ، بالإضافة إلى احتمال أن الفرنسيين قد «يبطلون شرط الحاج عبد القادر [. . .] والمقصود الأهم هو اغتنام فك أسارى المسلمين من أيدي أعداء الدين» . غير أن المصادر الفرنسية لا تتحدث بتاتا عن هذه النقطة الأخيرة . رسالة السلطان إلى بوسلهام ، 22 جمادى الثاني 28/1261 يونيو 1845 ، مسجلة ضمن محفوظات مديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17561 ، ومنشورة في الجزء الثاني من دورية **الوثائق** ، ص . 28 - 29 .

(3) أولى ثقاة المسلمين اهتماما خاصا للشروط التي تستوجب السفر إلى بلدان غير البلدان الإسلامية . وتنص التعاليم الإسلامية على ألا تشد الرحال الا في اتجاه الأماكن التي تقيم بها عناصر ==

وأملت سوابق الماضي كيفية تشكيل الأعراف والتقاليد الدبلوماسية لدى المسلمين . وبخلاف ما كانت عليه الدول الأوربية ، التي كانت ترعى مصالحها

== الجماعة المسلمة دون غيرها . والمعنى الأساسي لمصطلح الهجرة ، هو الهروب بعيدا من دار الكفر ، واللجوء إلى دار الإسلام . وبهذا يكون التوجه في سفر إلى بلاد الغرب ، ينطوي في حد ذاته على إشكاليات عدة ، كما شكل نقطة هامة أثيرت حولها نقاشات عديدة في أوساط العلماء . انظر ما يلي :

Dale F. Eickelman and James Piscatori, eds., *Muslim Travellers: Pilgrimage, Migration, and the Religious Imagination* (Berkeley and Los Angeles, 1990).

وانظر بوجه خاص المساهمة التي قدمها ضمن المجموعة نفسها خالد مسعود تحت عنوان :

"The Obligation to Migrate: The Doctrine of Hijra in Islamic Law", pp.29 - 49.

وفي المجموعة سابقة الذكر نفسها ، انظر المساهمة التي قدمها عبد الرحمن المودن تحت عنوان :

" The Ambivalence of Rihla: Community Intergration and Self - definition in Moroccan Travel Accounts, 1300 - 1800 ", pp.69 - 84.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر :

Laroui, *Origines*, pp.320 - 321 ; M. EL - Mansour, "Moroccan Perception of E urpean Civilization in the Nintheenth Century" in *Morocco and Europe*, ed. George Joffé, Center of Near and Middle Eastern Studies, School of Oriental and African Studies, University of London, Occasional Paper 7 (London 1989), pp.37 - 45.

بالإضافة إلى مقال لعبد المجيد القدوري تحت عنوان : «صور عن أوربا من خلال ثلاث رحلات مغربية وبعض المراسلات الرسمية» ، في : مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 15 (1989 – 1990) : 45 – 66 . وقد أبدى علماء فاس معارضتهم التامة لأي اتصال مع غير المسلمين على جميع المستويات ، مما أدى إلى اصطدامهم مع التجار المحليين المتطلعين إلى ممارسة التجارة الخارجية فيما وراء البحار . عن ذلك انظر :

N. Cigar, "Socio-economic Structures and the Development of an Urban Bourgeoisie in Pre-colonial Morocco", *Maghreb Review* 3, 3 - 4 (May - August 1981): 67.

وعن معالجة هذه القضية انطلاقا من رحلة الصفار انظر ما سيأتي في مختلف صفحات هذا الكتاب .

الخارجية بالاعتماد في ذلك على قناصل مقيمين في مختلف أرجاء المعمورة ، فإن غالبية الدول الإسلامية بما فيها المغرب ، لم تكن تعتمد ، إلى حين حلول العصر الحديث على وجود هيئة دبلوماسية محترفة ، ولم تكن دشنت بعد مسطرة إنشاء السفارات الدائمة خارج حدودها . وجرت العادة دائما على إسناد مهمة القيام بالمفاوضات إلى مبعوثين خاصين يختارهم حاكم البلاد ، فيتوجهون في رحلتهم إلى الخارج لتنفيذ المهام المنوطة بهم ، ثم يعودون إلى بلدهم الأصلي بمجرد إنهائها . ومع ذلك ، فإن وقوع الاختيار على شخص ما ليكون مبعوثا إلى بلد أجنبي ، كان تشريفا حقيقيا وكبيرا له . ومن ثم فإن وقوع الاختيار على شخص ليتوجه في مهام دبلوماسية كان أمرا مرغوبا فيه بل كان الناس يتهافتون على الفوز بتلك الحظوة . وفي ذلك الإطار ، ما لبثت أن شاعت فكرة اقتناع السلطان وعزمه على توجيه مبعوث عنه إلى فرنسا ، حتى أصبح موضوع انتخابه للشخص المناسب موضوعا للكثير من التخمينات والأقوال المتضاربة .

بلغ ليون روش ، عن طريق مخبريه الموجودين داخل القصر السلطاني ، أن موضوع السفارة أصبح حديث الساعة وأن ألسنة الجميع قد أصبحت منشغلة به . وكان لكل فريق مرشحه الخاص به ؛ إذ جاء في تقرير للقنصل الفرنسي بطنجة إيدم دو شاستو(Edme de château) ، أن «ابن إدريس اقترح مرشحا واحدا ، وأن بوسلهام اقترح واحدا غيره ، في حين كان الإمبراطور يميل إلى اختيار أحد أثرياء تجار فاس»[1] . وقد حاول ليون روش التأثير على السلطان حتى يقدم على اختيار مبعوث جيد ، فعمد إلى التذكير بأيام السلطان المولى إسماعيل والملك لويس الرابع عشر ، حينما اتسمت العلاقات بين بلديهما بمظاهر «العظمة والأبهة ، والنتائج الطيبة» ، فبذل قصارى جهده لحث المغاربة على تعيين «شخص تجتمع فيه جميع الصفات

(1) AAE/CPM 14/83 - 84 ، دو شاستو (de Chasteau) إلى كَيزو ، 3 غشت 1845 . في البداية أشار الفرنسيون إلى ترشيح كل من مصطفى الدكالي وأحمد التمسماني ، وهما تاجران ولهما علاقات قوية مع الخارج . غير أن نية السلطان لم تكن كذلك . وحسب مضمون إحدى الرسائل المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية ، فإن السلطان كان يفضل مبعوثا له «عارفا بأمور الخزنية ليس واحدا من التجار» . رسالة ابن ادريس إلى بوسلهام ، 14 رجب 19/1261 يوليوز 1845 . مسجلة تحت رقم 17571 .

المميزة : وهي أن يكون ذا مظهر خارجي مهيب ، متصفا بالذكاء واتقاد الذهن ، وأن يكون من ذوي الحسب والنسب ، ويحتل مكانة سامية في الدولة»[1] .

وصلت في آخر الأمر أخبار تفيد أن السلطان اتخذ قراره في الموضوع . وبلغت مسامع ليون روش ، من «أحد أصدقائه الموجودين بالقصر السلطاني في فاس» ، أن الاختيار قد وقع على عبد القادر أشعاش ، عامل تطوان . وفي حينه ، بادر ليون روش إلى تحرير رسالة وجهها إلى وزير الخارجية الفرنسي كيزو(Guizot) ، تضمنت وصفا يطري شخصية أشعاش ، حاول من خلالها تغطية ما كان ينقصه عن فصول حياته وأصوله من دقة ، باختلاق نوع من الحماسة المبالغ فيها ، نقتبس منها ما يلي :

«كان أسلافه من الموركسيين المبعدين من إسبانيا في القرن الخامس عشر ، واستقر في المكان الذي تقع فيه اليوم تطوان ، ويعتبرون مؤسسين لها . ومنذئذ ، آل منصب الباشا لفائدة كبير الأسرة . وأصبحت الباشوية حكرا على عناصرها عن طريق الوراثة . . . وتم ذلك بشكل لا مثيل له في المغرب . وهكذا فإن أشعاش من أهل الحسب والنسب ، والجاه الرفيع . وإن كان يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ، فهو واسع الاطلاع وله ما يكفي من التجربة الدولية . فهو يحظى بكامل الثقة ، وعلاقاته حميمة بالإمبراطور ، ويملك ثروة طائلة ، كما سبق له أن زار مكة . . . وسيكون من المستحيل حقا العثور في المغرب على رجل أكثر ملاءمة منه»[2] .

كان أشعاش الابن البكر لإحدى الأسر التطوانية الثرية ذات النفوذ ، وقد سبق لأبنائها تقلد مهام السلطة والسهر على تسيير شؤونها مدة استغرقت ثلاثة أجيال متعاقبة . وكان جده عبد الرحمن أشعاش ، أول من اكتسب مكانة سياسية بارزة بين كل أفراد الأسرة ، إذ استطاع أن يشغل منصب عامل على تطوان ثلاث مرات . وكان والده محمد أشعاش عاملا على المدينة نفسها ، واشتهر ببأسه الشديد وشخصيته القوية . فكان مهاب الجانب ، يخشاه الناس ، حتى قيل إنه كان يحكم تطوان بيد من

---

(1) AAE/COM 14/106-107 ، روش إلى بوسلهام ، 10 غشت 1845 .

(2) AAE/CPM 14/253-254 ، روش إلى كيزو ، 20 أكتوبر 1845 . وعلل السلطان وقوع اختياره على أشعاش في رسالة وجهها إلى خادمه بوسلهام بن علي في 18 شوال 20/1261 أكتوبر 1845 ، بقوله : «لما رأينا من رزانته وعقله ولكونه من بيوتات الرياسة والخدمة» ، محفوظة بمديرية الوثائق الملكية ، تحت رقم 10795 .

حديد . وفي هذا الصدد كتب عنه مؤرخ مدينة تطوان محمد داود أنه «اسدل رداء الأمن على جميع إيالته ، حتى بلغ من الأمن في مدته ، أن كان النساء يبتن في الجنانات والغراسي وحدهن بدون رجل لا يخفن إلا الله» ، على غرار ما ورد تكراره في الأدبيات التقليدية المتعلقة بموضوع الأمن والسكينة . وكانت صرامته وولاؤه لشخص السلطان ، سببا في تدعيم مكانة أسرته وضمان إحكام استمراريتها في بسط نفوذها على تطوان . وعند وفاته في 1845 ، انتقلت مهام باشوية المدينة إلى ولده البكر عبد القادر[1] .

ولم تمض سوى أشهر قليلة على تسلم عبد القادر أشعاش لمهامه الجديدة ، حتى كافأه السلطان باختياره مبعوثا عنه في سفارة إلى الخارج . علاوة على ذلك ، كان عمره أصغر بكثير مما كتبه ليون روش ، إذ يحتمل عدم تجاوزه سن الثامنة والعشرين . ويمكن أن يتساءل المرء كيف وقع الاختيار على شخص ذي تجربة قليلة لتنفيذ مهمة فائقة الصعوبة ، تتطلب من المكلف بها مؤهلات كبيرة . صحيح أن عبد القادر أشعاش لم يكن حديث العهد بشؤون الحياة العامة ، بحكم قضائه إلى جانب والده بضع سنوات تتلمذ عليه خلالها في مختلف الجوانب والقضايا المتعلقة بتسيير مصالح المدينة ومرافقها ، وأيضا في كل ما له صلة بالأمور السياسية على المستوى المحلي ، أو في إطار العلاقات مع القصر السلطاني والمستويات العليا من الجهاز المخزني[2] . لكن أشعاش بعيدا عن مستوى تكوينه التعليمي وعن مؤهلاته وقدراته المتنوعة ، كان يملك ما هو أهم من ذلك بكثير ، ألا وهو ثروته الطائلة التي سمحت له بتحمل كل الأعباء المالية لمصاريف البعثة السفارية . ويبدو أن هذا العنصر كان ، إلى جانب عوامل أخرى ، هو العامل الأقوى الذي حسم اختيار المخزن دون سواه من أجل تلك المهمة .

---

(1) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 3 : 276 - 294 . قدم فيها مؤرخ تطوان وصفا مطولا للفترة التي شغل خلالها محمد أشعاش منصب عامل على المدينة .

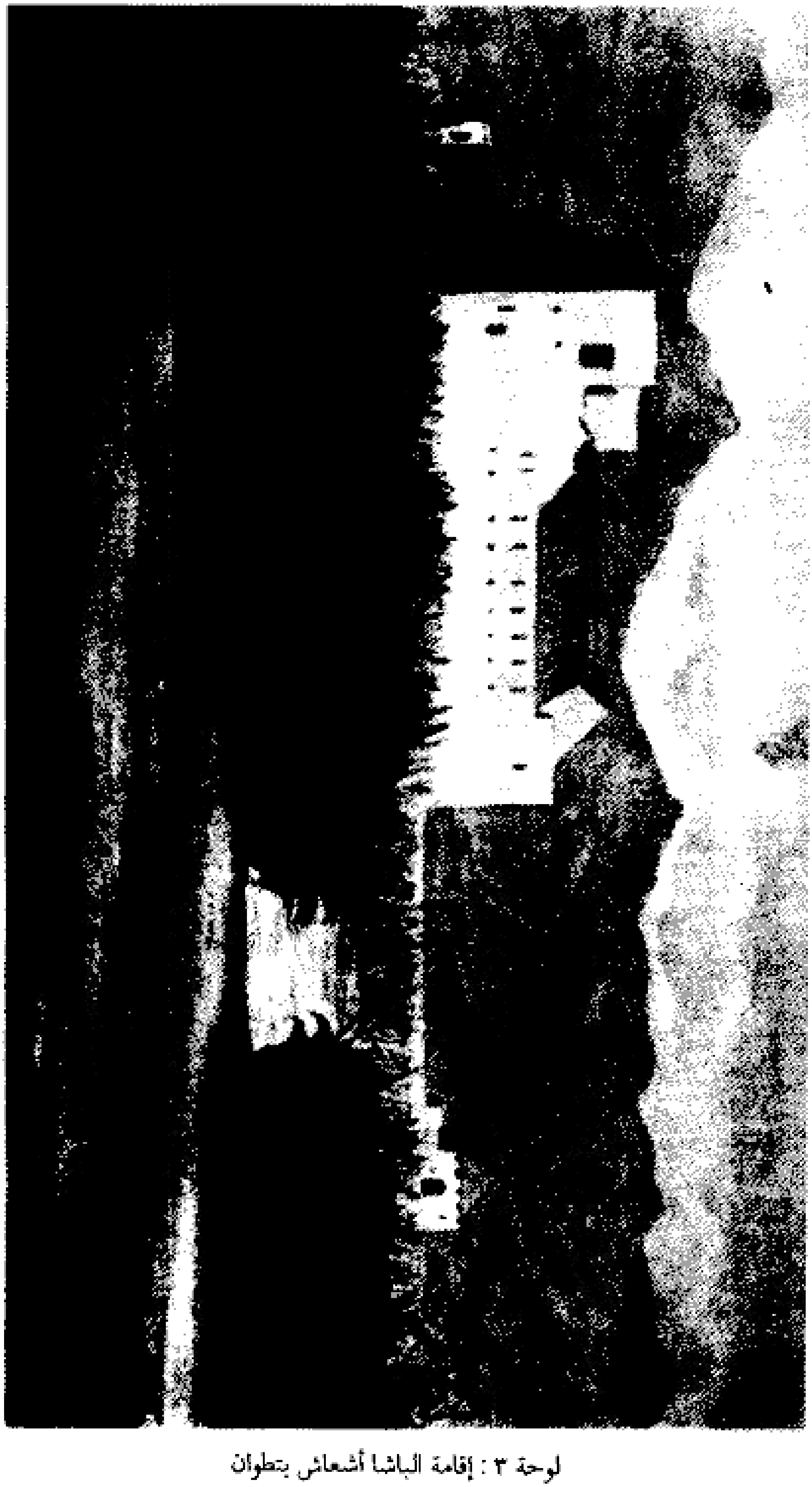
(2) لم يكن أشعاش على حظ كبير من الثقافة والتعليم ، وفي ذلك تأييد لما سبق للعروي تأكيده ، من أن غالبية السفراء الذين وقع عليهم الاختيار للتوجه في بعثات دبلوماسية إلى الخارج كانوا أشباه أميين ، انظر : (*Origines*, p.215) .

ويوجد في مجموعة " AAE/ADM "Voyage de Sidi Aschasch, Pacha de Tetouan, 1845 ، والتي سوف نشير إليها من الآن فصاعدا هكذا : AAE/ADM Voyage ، يوجد تقييد بخط يده الرديء لا يحمل تاريخا .



لوحة 2 : بيت الباشا أشعاش بمرسى مرتيل

رسم بيلير (Lt. Bellaire) ، مجموعة أنكوس (Angus) ، المفوضية الأمريكية القديمة بطنجة



لوحة ٣ : إقامة الباشا أشعاش بتطوان

رسم بيلير (Lt. Bellaire) ، مجموعة أنكوس (Angus) ، المفوضية الأمريكية القديمة بطنجة

إذ اجتمعت في شخص أشعاش كل الشروط الضرورية : فهو جليل المقام ، ذو خبرة ودراية بالشؤون العامة ، وفي حوزته ثروة مالية تعفي المخزن من تحمل التكاليف الباهظة التي تستلزمها السفارة[1] .

وتضمنت الرسالة السلطانية التي عين بموجبها عبد القادر أشعاش مبعوثا إلى الديار الفرنسية ، تعليمات إضافية حول كيفية إعداد نفسه للرحلة والتهيؤ لها ، بالعبارات التالية :

«خديمنا الأنجب عبد القادر أشعاش ، وفقك الله وسلام الله عليك ورحمة الله تعالى وبركاته . وبعد ، فقد كانت تكررت الإشارة والطلب قبل بتوجيه باشدور لدولة الفرنصيص لإظهار تقرير الصلح والمهادنة . وكنا استشرنا والدك رحمه الله في حياته ، فوافق على ذلك ، وقال : إن كان يتوجه أحد غيره يحتاج إلى تقويمه بما يحتاج إليه ، وإن توجه هو بنفسه لا يحتاج لشيء[2] . وكان إذ ذاك لم يظهر لتوجيه الباشدور وجه لما كان وقع من الجنس المذكور ، واليوم أكثر الإلحاح في ذلك .

وقد شرح الله صدرنا لتوجيهك باشدورا لباريز ، لما توسمنا فيك من النجاعة وعلو الهمة والمعرفة بالأبهة والقوانين . فبوصول كتابنا هذا إليك ، اشرع في التأهب لذلك ، وعين من يصحبك في وجهتك من ذوي العقل والمروءة والدين والمعرفة بقوانين الأجناس . ولابد لك من عالم[3] يقيم أمر الدين من صلاة وقراءة ، وما

---

(1) AAE/CPM 14/253-254 ، روش إلى كيزو ، 20 أكتوبر 1845 . وفي هذا الصدد كتب روش ما يلي :

«إن اقتراحه تحمل كل مصاريف السفارة هو الذي جعل قرار السلطان يكون لصالحه» . وكان والده وعد السلطان قبل ذلك بأنه لو اختاره سفيرا ، ليتكفلن بكل نفقات السفارة . رسالة مولاي عبد الرحمن إلى عبد القادر أشعاش ، 18 رمضان 20/1261 شتنبر 1845 ، مسجلة ضمن محفوظات مديرية الوثائق الملكية تحت رقم 10794 .

(2) وفي ذلك إحالة إلى رغبة والد عبد القادر أشعاش في تحمل الأعباء المالية للسفارة .

(3) يمكن العودة إلى المراجع التالية لإلقاء نظرة على نماذج من العلماء في المغرب :

E. Burke III, "The Moroccan Ulama, 1860 - 1912: An Introduction ", and K.Brown, "Profile of a Nineteenth - Century Moroccan Scholar".

وكلاهما منشور ضمن المجموعة التالية :

Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions in the Middle East since 1500, ed. Nikki R. Keddie (Berkeley, 1972). pp. 93 - 125, 127 - 148.

يعرض من جوانب أخبارهم ، فإنهم يبحثون المسلمين كثيرا ، عموما وخصوصا في أمور الاعتقادات والديانات ، لتوجد جامعا لما لابد منه من الأمور .

وهيء ذلك على سعة . وحين تبقى عشرة أيام للعيد أقدم لحضرتنا الشريفة لتحضر عيد الفطر ، وتتوجه من عندنا قاصدا وجهتك ، وتصحب معك ما هيأنا بقصد الإنعام عليهم من سباع وغيرها مما يناسب .

فإنه لا كبير عمل في ذلك ، ولا تحتاج إلى عقد ولا حل ، وإنما أنت مكلف بإيصال الكتاب وما معه ، ورد الجواب إن شاء الله تعالى . والله يصلحك ، والسلام»[1] .

مرت زهاء سنة كاملة على التاريخ الذي اقترحت فيه لأول مرة فكرة توجيه سفارة مغربية ، قبل أن يكون أشعاش على استعداد للانطلاق ، رفقة أعضاء البعثة إلى باريز . ومع اقتراب الموعد ، أصبح ليون روش واثقا بأن مجهوداته سوف تبدأ تؤتي أكلها بعد حين ، فكتب مبتهجا العبارات التالية : «إن ثورة قد وقعت في القصر السلطاني . . . وهذه الثورة كلها لصالحنا . وإننا على أبواب التمكن من بسط نفوذ فرنسا بشكل يفوق نفوذ بقية جميع الدول ، إذا استطعنا معرفة كيفية استغلالها»[2] .

المركب ميتيور (Le Météore)

في غضون الأسبوع الأول من شهر نونبر 1845 ، حلت بطنجة الباخرة التي تقرر ركوب أعضاء البعثة السفارية المغربية المتوجهة إلى فرنسا على متنها . وكان ذلك المركب الذي يحمل اسم ميتيور (Météore) قد جهز بتجهيزات خاصة منذ البداية

---

(1) رسالة السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى عبد القادر أشعاش ، 4 رمضان 1261/6 شتنبر 1845 ، وهي مسجلة ضمن محفوظات مديرية الوثائق الملكية تحت رقم ٤٦٥٧١ . وقد نشرت في المجموعة الثانية من دورية الوثائق ، تحت رقم 178 ، ص . 75 - 76 (الرباط ، 1976) .

(2) AAE/CPM 15/169-176 ، روش إلى دو شاستو ، 5 نونبر 1845 [؟] ، أشير في جانبها إلى عبارة «سرية» «Confidentiel» انظر أيضا كتاب كايي :

J. Caillé, *Une mission de Léon Roches à Rabat en 1845* (Casablanca, 1947).

ليتخذ مركبا استشفائيا للعلاجات الأولية للمرضى عند الضرورة . وحصلت الاستفادة من خدماته طوال المدة التي استغرقتها الحملة الفرنسية على الجزائر ، فنقلت على متنه الفرق العسكرية من مدينة تولون (Toulon) ، في اتجاه وهران . وغالبا ما كان يعاد إلى فرنسا محملا بأعداد من المرضى والمصابين . وقام القنصل الفرنسي بجولة تفقدية لمرافق المركب ، فكتب في أعقابها إلى باريز رسالة وجهها إلى وزير الخارجية كَيزو (Guizot) ، عبر له فيها عن عدم رضاه عن ذلك الاختيار . فاشتكى إليه صغر حجم المركب ، وأن قائده الملازم الأول جويفروي (Goeffry) كان برتبة عسكرية متواضعة لا ترقى إلى المستوى المطلوب ، ومن ثم فكلاهما غير ملائم ولا يناسب مقام البعثة وجلالها[1] . غير أن المركب ذات الحجم الكبير لم تكن متوافرة بكثرة ، فكانت الحاجة ماسة إليها بسبب أجواء الحرب في الجزائر ، ولا سبيل لتجاوز تلك العقبة . ولذلك لم يجد ليون روش بدا من ضرورة التوجه في رحلة قصيرة إلى جبل طارق ، واقتنائه من هناك لكل ما هو ضروري ، لإعطاء المركب مظهرا يليق بمقام تلك المناسبة ، بما في ذلك الأثواب التزيينية والستائر والأثاث والبسط غيرها . وكانت الغاية هي تجهيز الجناح المخصص لإقامة السفير المغربي ، وتجميله وفقا للطراز المشرقي . فوضعت طاولات قصيرة القوائم على أرضية فرشت أساسا بالزرابي والبسط . وعلى الرغم من ضيق الغرف ، قيل إن جناح إقامة أعضاء البعثة توافرت فيه كل وسائل الراحة ، وكان مظهره الخارجي لطيفا[2] .

منذ أوائل دجنبر 1845 ، كان أفراد المجموعة الصغيرة من الفرنسيين الذين أوكلت إليهم مهمة مرافقة البعثة المغربية إلى فرنسا مجتمعين في طنجة . وكان يرأسهم بطبيعة الحال ليون روش ، وإلى جانبه أوكَست بوميي (Auguste Beaumier) . ووصف هذا الأخير بأنه «رجل شاب على مستوى كبير من الذكاء ، ويتكلم شيئا من

---

(1) AAE/CPM 15/52-55 ، دو شاستو إلى كَيزو ، 5 نونبر 1845 .

(2) AAE/CPM 15/67-69 ، روش إلى كَيزو ، 13 نونبر 1845 ؛ بالإضافة إلى :

AN/MM/BB4 - 642, 1846, "Missions particulières. Météore. Mission à Tanger".

وهو عبارة عن تقرير صفحاته غير مرقمة من إنجاز قائد المرك جويفروي (Goeffroy) . أما عن انطباعات الصفار حول السفر بحرا ، فهي موجودة في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

العربية»[1] . وكان يعمل وقتئذ كاتبا خاصا للقنصل الفرنسي دوشاستو . وفي 6 دجنبر غادروا جميعا طنجة بحرا في اتجاه تطوان التي وصلوها في اليوم نفسه . وعند دخولهم المدينة ، وجدوا أزقتها وسطوح منازلها ممتلئة عن آخرها بالسكان الذين بدت مظاهر الفضول واضحة على وجوههم ، وكان أشعاش ينتظر وصولهم قاعدا في الرياض الموجود بمحل إقامته ، فأحدث مظهره وقعا إيجابيا في نفوسهم . وكتب دوشاستو على أثر ذلك قائلا : «إن ابتسامته ظريفة وتصرفاته لبقة ؛ وأعتقد أن حكومة الملك ستكون راضية عن اختياره سفيرا إليها»[2] .

وسرعان ما تبين أن أعضاء البعثة المغربية لم يكونوا على استعداد للانطلاق في رحلتهم نظرا لهبوب رياح عاصفة في تلك الليلة ، مما دفع إلى إبعاد المركب «ميتيور» إلى عرض البحر اتقاء لمخاطر العاصفة . ولمدة أيام عديدة ، لم تسمح الأحوال الجوية المضطربة بعودته إلى الساحل . وأخيرا ، اجتمع أعضاء السفارة في صبيحة يوم 13 دجنبر على الشاطئ ، وأرسل القائد جويفروي زورقا كبير الحجم لحملهم إلى «الميتيور» . وما لبث «أن اكتسح ذلك الزورق جموع المغاربة الذين لا شك في أنهم كانوا يرغبون في ركوبه» حسب ما كتب جويفروي في يوميته . وفي غضون ذلك ، كان بعضهم الآخر منهمكا في توديع السفير : «فقام أحدهم بتقبيل كسوته ، وقبله آخر في كتفه ، بينما قبل الثالث يديه» . وحين صعد المغاربة على متن «الميتيور» ، أمر

---

(1)ولد أوكست بوميي سنة 1822 في مرسيليا ، فدرس العربية وأصبح كاتبا خاصا للقنصل الفرنسي دو شاستو (de Chasteau) سنة 1839 . وبعد عودة السفارة المغربية ، قضى جل مساره الدبلوماسي في المغرب ، فكان نائبا قنصليا في الرباط ، ثم قنصلا بالصويرة إلى حين وفاته بها سنة 1876 . وكانت له إلى جانب ذلك اهتمامات علمية (انظر : AAE/MDM 4/209 – 222) فكتب مقالات في مجلة :

Bulletin de la Société de Géographie

كما ترجم إلى الفرنسية كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس ، حول تاريخ فاس لمؤلفه ابن أبي زرع المتوفى في 1325 هـ . أنظر أيضا :

AAE, Dossier Presonnel "Beaumier" ، بالإضافة إلى :

J. Caillé, "Auguste Beaumier: Consul de France au Maroc", *Hesp.* 37(1950: 53 - 59

(2) AAE/CPM 15/189-193 ، دو شاستو إلى كيزو ، 5 دجنبر 1846 .

القائد ملاحيه بالإقلاع . وعلى امتداد اليوم الأول ، ظل السفير وبقية المرافقين له ، واقفين على ظهر المركب محدقين بأعينهم إلى البحر في تأمل عميق هادئ[1] .

وبالإضافة إلى شخص السفير ، تضمنت لائحة المسافرين على متن «الميتيور» خلال هذه الرحلة ، أسماء المغاربة المرافقين له . وكان من بينهم صهر أشعاش محمد اللبادي ، وهو رجل مسن عانى كثيرا من ألم دُوار البحر . وطوال المدة التي استغرقتها الرحلة ، بدا الانشغال الكبير لرئيس البعثة المغربية براحة صهره وسلامة أحواله الصحية . ثم بعد ذلك صهره الآخر ، الحاج العربي العطار ، الذي وصفه جويفروي «بأنه رجل وسيم ، يتراوح سنه بين الأربعين والرابعة والأربعين» ، يتكلم الإسبانية ، ويبدو أنه يفهم الفرنسية أيضا . وقد سبق له القيام برحلات عديدة إلى جبل طارق ، علاوة على سفره إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج . وكان الفقيه محمد الصفار ، البالغ من العمر حوالي خمس وثلاثين سنة ، ثالث المقربين من الحاشية الضيقة لأشعاش . وقال عنه قائد المركب جويفروي ، إنه بدا له «شديد التحفظ ، وأقل بشاشة وانشراحا مما كان عليه الآخرون» . وكان هؤلاء الثلاثة ينفردون لوحدهم بحظوة تناول وجبات الطعام مع السفير . وهناك شخص رابع اسمه أحمد العياط ، وصف بأنه هو «المسؤول عن تدبير شؤون السفير وقضاء حاجياته» . غير أنه لم يكن يسمح له بالجلوس على مائدة السفير ، بينما كان يقيم معه في الغرفة نفسها . بالإضافة إلى ذلك ، كان هناك تسعة مخازنية يرافقون البعثة لخدمة أعضائها[2] .

وبعد أن زالت الدهشة عن المغاربة وقل وجلهم من البحر وبدأوا يستأنسون به ، عادت الحياة فوق المركب إلى حالتها الرتيبة والعادية . فعند أوقات تناول الوجبات ، كان أشعاش والمقربون إليه يجلسون إلى مائدة القائد جويفروي . وعلى الرغم من

---

(1) AN/MM/BB4 - 642 ، تقرير جويفروي (Goeffroy) . بالإضافة إلى :

APT/2C201/journal du bord, Météore ، «الميتيور» ، 13 دجنبر 1845 .

(2) وردت أسماؤهم ضمن لائحة ركاب «المتيور» ، وقد كتبت فيما يبدو كما تنطق ، ولذا فيها شيء من التحريف البسيط : عبو العطيطر ، أحمد الزغل ، حجي أحمد اليعقوبي ، الطاهر بريول ، أبو السالم العمري ، محمد القراصي ، الحاج عبد الرحمن شولون ، محمد علو الدريسي ، ومحمد مختار الذي أشير إليه بصفة الترجمان . انظر :

APT/IC 2754/1845, Météore, Rôle d'équipage, "passagers à la table du commandant".

اتخاذ هذا الأخير لكل الاحتياطات الضرورية على مستوى مؤونة التغذية لجعلها رهن إشارة ضيوفه ، فإن أشعاش فضل الاعتماد على مؤونته الخاصة المتكونة من : «ثورين اثنين ، وأربعين كبشا ، وست مائة من الدجاج . . . ومقادير من البيض والخضروات والتفاح والعنب» ، فوضع كل ذلك بمخازن المركب الفرنسي قبل انطلاقه من تطوان . علاوة على ذلك ، فإنه لم يظهر المغاربة تحمسا كبيرا لمواد الطبخ الفرنسي ، بل فضلوا أن يهيئوا طعامهم بأنفسهم :

«وخاصة الطبق المشهور المسمى بالكسكس الذي لا يمكنهم الاستغناء عن تناوله . فكان يقدم إليهم في ظهيرة كل يوم . إنهم متدينون جدا ، وتمسكهم شديد بتعاليم القرآن . فهم لا يشربون الخمر أبدا ، وحين كنا نشربه أمامهم ، لم يصدمهم ذلك فيما يبدو ، ولربما كانت لهم رغبة تذوقه ولو على سبيل التجربة . . . وحاول أحد الحاضرين ممازحة الفقيه ، بقوله إنه بفضل اطلاعه الواسع لابد وأن يجد آية من القرآن ترخص له شرب الخمر»[(1)] .

فباستثناء وجبات الطعام ، لم يكن هنالك شيء يذكر يمكن القيام به في المركب . وقد قام جويفروي ببرمجة شيء من الفرجة الليلية كالألعاب النارية ، تسلية لضيوفه وسعيا منه في جعل الرحلة ممتعة . وفي 17 دجنبر ، تم بلوغ سواحل فرنسا ، وفي يوم 19 كان الوصول إلى مرسيليا التي نال فيها الجميع قسطا من الراحة قبل التوجه إلى باريز . ووجهت الدعوة إلى السفير لزيارة المدينة رفقة أعضاء البعثة ، غير أن أشعاش رفض الاستجابة لها ، ملحا على ضرورة الإسراع بالتوجه إلى باريز دون تأخير . وكان رفض قبوله تلك الدعوة السياحية من الأمور التي أربكت مضيفيهم الفرنسيين ، وبدأت تروج في أذهانهم تصورات وانطباعات غامضة عن الطريقة الواجب نهجها مع زوارهم «الشرقيين» . وفسر أحد الفرنسيين ذلك الموقف الغريب للسفير المغربي بأنه تعبير إضافي عن حماسة دينية مفرطة : «ككل المسلمين ، فقد فهم أن واجبه الأول عند الوصول إلى البلاد هو تقديم نفسه إلى حاكمها ، الذي يرى

---

(1) AN/MM/BB4 - 642, rapport de Goeffroy. تقرير أنجزه جويفروي .

أنه السيد الوحيد والمطلق على كل رعاياه»[1] .

غادر أعضاء البعثة المغربية مرسيليا يوم 21 دجنبر ، واتجهوا برا راكبين العربات ، في طريقهم نحو الشمال ، مخترقين وادي الرون . وفي يوم 27 من الشهر نفسه ، وصلوا إلى أورليان (Orléans) ، وبها كان مبيتهم قبل الدخول إلى باريز . وفي صبيحة اليوم الموالي ، وهو اليوم الخامس عشر منذ انطلاقهم من تطوان ، ركبوا قطارا خاصا نقلهم من أورليان إلى باريز ، فكانت تلك أول رحلة قام بها المغاربة في القطار . وعند وصولهم إلى باريز في وسط النهار ، ذهب بهم مباشرة إلى المكان المخصص لإقامتهم والذي يحمل العنوان التالي : 66 شارع الشانز- إيليزي (Champs-Elysées) .

مشاهدات الصفار في باريز

كانت باريز خلال أربعينيات القرن التاسع عشر ، أكبر العواصم الأوربية وأرقاها على الإطلاق . وربما كانت لندن هي عاصمة العالم المالية ، غير أن باريز كانت قطب الرحى في الثقافة العالمية التي كانت تتدفق منها مشعة بكل ما لديها من ثقة في نفسها بجمالها البالغ أعلى درجات الكمال والنضج . وكانت باريز قد عرفت بعلو كعبها في ميدان الأزياء والموضة ، وبرعت فيها بدرجات جعلتها تنصب نفسها حكما فريدا على مسارها ومآلها . وكانت الحشود الكبيرة من الزوار الوافدين على باريز لمشاهدة صناعتها وفنونها ، وآخر إبداعاتها في عالم الأزياء وغيرها من مظاهر الأناقة والجمال ، تذكر الباريزيين بتلك الدرجات العليا من التطور والرقي اللذين بلغهما وقتئذ المجتمع الفرنسي .

وكان وصول البعثة المغربية إلى باريز كافيا لإثارة اهتمام جل الباريزيين على

(1) AAE/CPM 215-216 ، بورسي (Pourcet) ، إلى كَيزو ، 19 دجنبر 1845 . قارن مع الرحلة المغربية التي قام بها إلى إسبانيا خلال القرن السابع عشر ، الوزير الغساني ، الذي رفض قبول الدعوات التي وجهت له في طريقه للاستراحة فأجاب بقوله : «لا يمكننا القيام بموضع من المواضع ما لم نصل البلاد التي نحن قاصدون إليها والطاغية الذي توجهنا إليه» . **رحلة الوزير في افتكاك الأسير** ، ترجمها إلى الإسبانية وحققها ثم قام بنشرها ألفريد البستاني (طنجة ، 1940) ، ص .9 . وكل الإحالات تتعلق بالنص العربي للرحلة .

اختلاف مشاربهم وانشغالاتهم . وساد في أرجاء المدينة عبير خاص حول مبعوث السلطان ، تعلق بالمكانة الخاصة التي كان يحتلها المغرب في ذاكرة الفرنسيين الشعبية . ذلك البلد القريب منهم جدا من الناحية الجغرافية ، والبعيد جدا من حيث طريقة عيشه وعقلية سكانه ، إلى درجة أن «المغربي أصبح يبدو في نظرهم لا يختلف عن الصيني تماما»[1] . وكانت هناك أيضا ملامح السفير الوسيمة اللافتة للنظر ، التي أثارت في الأذهان مزيدا من التصورات المفعمة بالرومنسية وروح المغامرة . «لقد شد المبعوث الوافد من المغرب . . . عقول الباريزيين . فكل شيء فيه يذكر بسلاطين المورسكيين في غرناطة وبآل ابن سراج ذوي الأصول العريقة التي انحدر منها هو نفسه»[2] . وتمت الإشارة بكامل الدقة إلى ملابسه التي وصفت جميعها من أعلى رأسه إلى قدميه :

---

(1) حين وردت الأخبار الأولى في جريدة «الإلوستراسيون» الفرنسية *L'Illustration* ، بتاريخ 3 يناير 1846 ، معلنة وصول السفير المغربي ، فقد وعدت قراءها بتقديم «كامل التفاصيل ، وأكثرها غرابة حول السفير» .

(2) الجريدة نفسها ، بتاريخ 10 يناير 1846 . ويتعلق الأمر بأبطال قصة رومنتيكية - تراجيدية ألف فصولها شاتوبريان (1848 - 1767) (FranÇois - Auguste - René de Chateaubriand) . تحت عنوان :

Les aventures du dernier Abencerage (Paris, 1826) واستمد وقائعها من الوضع القائم في إسبانيا خلال القرن الخامس عشر . وانظر أيضا :

Hassan Mekouar, Washington Irving the Arabesque Tradition (Ph.D.dissertation, Brown University, 1977), pp.30 - 31; EI I, s.v "Abencerages".

(المعرب) : والمقصود هنا أسرة بني سراج التي اقامت بالأندلس منذ القرن الثامن الميلادي ، ودخلت في صراعات قوية مع الزكريين الذين كانوا سببا في سقوط غرناطة سنة ٢٩٤١ كما هو معلوم . وكانت المغامرات الأسطورية لأفراد هذه الأسرة قد وردت روايتها عند :

Ginés Perez de Hita: Historia de la guerras civiles de Granada (1604).

انظر : Mourre, Dictionnaire d'histoire universelle, s.v "Abencerage" p.23



لوحة 4 : سفير المغرب إلى فرنسا الحاج عبد القادر أشعاش

عن جريدة الإلوستراسيون L'Illustration ، 10 يناير 1846

«السفير رجل شاب عمره ثمان وعشرون سنة ، حسن المنظر متوسط القامة ، رقيق الملامح ، وعيناه لطيفتان معبرتان ، وله يدان صغيرتان جميلتا الشكل . ويلبس . . . طربوشا[1] حادا في نهايته ، وتحيط به عمامة من الثوب الموصلي الرقيق . ويحيط برأسه ثوب أحمر اللون من الكشمير . . . ويرتدي فوق عدة أقمصة قصيرة لباسا فضفاضا ، يسمى الجلابة ، وهي اللباس الوطني في المغرب . وذلك الجلباب مثبت على جسده بحزام يشده . وحين كان الباشا يعزم على الخروج ، فإنه يضع فوق كل ذلك سلهامين[2] إضافيين ، أحدهما من الصوف والثاني من ثوب ثقيل رمادي اللون . ويلبس سروالا لطيفا من الحرير الأبيض ، ويحتذي بلغة صفراء[3] كان يضغط دائما على مؤخرتها بقدميه» .

وبعد مدة قصيرة من وصول أعضاء البعثة المغربية ، نشرت جريدة الإلوستراسيون L'Illustration مجموعة من الصور للسفير ومرافقيه . فساهمت بتلك الصور المرئية في تعزيز ما تداولته الألسن من كلام عادي في الموضوع . وعبرت باريز عن رغبتها الأكيدة في أن يشكل المغاربة خلال ذلك الخريف ، أبرز حدث مثير للاهتمام والإعجاب داخل الأوساط الاجتماعية الباريزية . فتوالت الدعوات إلى الحفلات الراقصة ، وإلى السهرات ومختلف مظاهر الفرجة المقامة لغايات خيرية . كما التمس البعض الحصول من رئيس البعثة على المال والهدايا ، وكتبت في حقه القصائد الشعرية . كما وردت على السفير رسائل ينطوي بعضها على نصائح مسداة إليه وأخرى على تحذيرات . وكان أوكَست بوميي (Auguste Beaumier) السكرتير الشاب الذي فوض إليه أمر السهر على تنفيذ الجدول الزمني للبعثة ، يحاول جاهدا بذل كل ما في وسعه ، لضمان السير العادي لحياة السفير المغربي ومرافقيه تجنبا لكل ما قد

---

(1) تمت كتابته هكذا sarbush ، وهو القبعة أو غطاء الرأس المصنوع من ثوب اللباد ، ويسميها دوزي «بغطاء الرأس الذي يتميز به الأمراء» انظر :

Dozy, *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes* (Beyrouth, s.d), pp.222.

(2) وجاءت تسميتها بالفرنسية هكذا بورنوس (bournous) ، المعروف في العربية بـ«البرنس» وعند المغاربة بـ«السلهام» .

(3) ورد اسمها بالفرنسية هكذا بابوش (babouches) .

يزعجهم أو يقلق بالهم . وهذا هو الوصف الذي قدمه بوميي نموذجا لبرنامج يومي بتاريخ 17 يناير 1846 :

«أيقظني بعض المتقدمين بملتمسات على الساعة الثامنة ، أجبت بعدها على عدد من الرسائل الموجهة إلى سفير المغرب كان لابد من الرد عليها بلباقة . . . فوصل عدد قارب الاثني عشر من الخدم لإطلاعي على جدول الأعمال المخصص لذلك اليوم ، ثم أجريت الحسابات الخاصة بالأيام السالفة . وبعد ذلك ، قمت بزيارة السفير ومرافقيه لتفقد أحوالهم والاستجابة لطلباتهم : فمنهم من احتاج إلى طبيب ، وآخر إلى حلاق ، أو إلى حمام . ثم حضر الجميع لتناول وجبة خفيفة ، كنت خلالها ترجمانا لبعض الضيوف المدعوين . وبعد ذلك وصلت تعليمات بالتوجه مباشرة إلى شان دو مارس (Champs - de - Mars) وجاء روش في الوقت وعين لكل من السفير ومرافقيه عربات ركوبهم . وعبرنا باريز محفوفين بجماهير بدت على محياهم مظاهر الفضول وحب الاستطلاع . وعند الوصول إلى المدرسة العسكرية ، صعدنا إلى أعالي شرفة هناك . وفي الساعة الثالثة ، عدنا برفقة السفير ، فكتبت ما كان ضروريا من رسائل الشكر . . . وبعد ذلك تفحصت من جديد برنامج الأنشطة المخصصة للمساء ، ووضعت ، في الحدود الممكنة ، قائمة بمصاريف ذلك اليوم . . . تلا ذلك تناول عشاء فاخر ، استغرقت مدته ساعتين ، بثمن ستمائة فرنك عن كل يوم . فأخذت شيئا من القهوة ، وأجريت دردشة قصيرة بالعربية ، ثم ركبنا العربات في اتجاه المسرح الإيطالي . . . وعدنا في الثانية عشرة ليلا . . . ومن ثم إلى فراش النوم»(1) .

وبعد ستة أسابيع من الأنشطة المكثفة بشكل مماثل لهذا البرنامج المرهق ، كتب بوميي متأوها : لقد اشتقت جدا إلى «العودة من جديد إلى هدوء طنجة وإلى غرفتي الصغيرة ، لأنني أشعر بانهيار كامل لقواي»(2) .

خصص السفير المغربي أيامه الأولى في باريز لتنفيذ المهمة الدبلوماسية التي بعثه السلطان من أجلها . ففي يوم 30 دجنبر ، قدم أوراق اعتماده إلى الملك الفرنسي

---

(1) AAE/ADM/Voyage, s.d ، خلال مقامه بباريز ، كان بوميي يكتب بطريقة منتظمة إلى دوشاستو في طنجة . وتوجد في الملف نفسه مسودات لتلك الرسائل إلى جانب مجموعة كتابات مختلفة جمعت أثناء الرحلة . وعن مشاهدات الصفار لأنشطة ذلك اليوم انظر الصفحات اللاحقة .

(2) نفسها ، بوميي إلى دوشاستو ، 8 فبراير 1846 .

في حفل استقبال بقصر التويلوري (Tuileries) ، وسلمه أيضا الرسالة التي وجهها إليه السلطان عبد الرحمن بن هشام[1] . وتتناول الرسالة المذكورة (الملحق رقم 4) موضوع الأمير عبد القادر ، إذ طلب السلطان الحصول على مزيد من الوقت للتمكن من تنفيذ خطة تستهدف إبعاده عن المغرب دونما حاجة إلى بذل جهود مضنية في سبيل ذلك ، كما جاء في الرسالة . وتضمنت هذه الأخيرة انتقادا مغربيا لموضوع التسوية الجديدة للحدود بين المغرب والجزائر ، وانتهت باحتجاج شديد على محاولات التوغل الفرنسية في السواحل الجنوبية[2] .

وتطلبت الإجابة على الرسالة السلطانية أزيد من شهر ، إذ عبر كَيزو وزير الخارجية الفرنسي في رسالته الجوابية عن اعتقاده أنه «سيكون من الأفضل نسيان الماضي»[3] وتفادي العودة إلى استعراض جملة من الشكاوى القديمة . وفي نظره أن الهدف من سفارة أشعاش إلى باريز كان هو اتخاذ المغاربة فرجة استعراضية لا أكثر . ووردت في مذكرات كَيزو معطيات إضافية عن الجوانب السياسية للسفارة المغربية ، فقدمها على أنها فرجة خالية من الجوهر وليس لها مدلول حقيقي . فقال في معرض حديثه عن أشعاش ، إنه كان «شابا عربيا ذا شخصية مقبولة ، على مستوى من

---

(1) توجد رسالة التفويض إلى أشعاش عند عبد الرحمن بن زيدان في كتابه **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** ، 5 أجزاء ، (الرباط ، 1929 – 1933) ، 5 : 170 ؛ أيضا داود ، **تاريخ تطوان** 3 : 295 . وتوجد ترجمة بالفرنسية للرسالة نفسها في : AAE/MDM/123 – 125 . وكتب أشعاش إلى أخيه حول استقبال الملك الفرنسي له (الملحق رقم 2 ، ثم **الوثائق** 2 : 119 – 121) .كما نقل دوشاستو إلى الوزير ابن ادريس أخبار أنشطة أعضاء البعثة السفارية في باريز من خلال رسالة وجهها إليه ، وهي مسجلة بمديرية الوثائق الملكية ، تحت رقم 17570 ، ومؤرخة في 28 محرم 26/1262 يناير 1846 .

(2) رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن إلى الملك لوي فيليب مؤرخة في 7 محرم 6/1262 يناير 1846 ، وهي محررة بخط يد محمد الصفار ، وتوجد في : AAE/ADM. ٤/٥٤١ أما عن محاولات التوغل الفرنسية فكانت قد تمت بالفعل على مقربة من وادي نون في الجنوب ، في الطريق التجارية الفاصلة بين الصويرة وتنبكتو ، انظر :

AAE/MDM 9/297 - 299, "Mission d'exploration des côtes de Wadnoun (1843)" ; Miège, *Le Maroc* 2: 146 - 154,

(3) AAE/MDM 4/155-160 ، رسالة كيزو إلى أشعاش ، 14 فبراير 1846 .

الجدية والتواضع والدماثة ، لبقا لطيف السلوك . وكان أشعاش شديد الاهتمام بإظهار تمسكه الشديد بعقيدته ، واتسامه بالاحترام وعلو المنزلة . كما كان حرصه شديدا على أن يتم استقباله بطريقة جيدة تقديرا لشخصه أو لشخص السلطان الذي كان يمثله أكثر من عزمه على تحقيق هدف سياسي معين» . وكان إرساله إلى باريز «دليلا للتعبير بواسطته عن علاقات الصداقة بين المغرب وفرنسا»(1) . ويكشف كيزو النقاب ، من خلال تعليقاته الواردة في مذكراته ، كيف أن السفارة في أعين الفرنسيين كانت لا بد من أن تكون متناغمة مع الإطار الأوربي المتميز بنظرته المتمحورة على الذات إزاء الأحداث ، وبشكل هيمنت فيه رغبتهم الواضحة في استعراض مظاهر التفوق الفرنسي . إن ما تميز به ضيوفهم المغاربة من كياسة ومجاملة ، بالإضافة إلى حضورهم القوي فعلا ، قد اعتبر في حد ذاته مؤشرات ناطقة بالنجاح الذي حققته فرنسا في اتباعها سياسة خارجية تهدف ، حسب تعبير كيزو ، إلى «ضمان سلامة ممتلكاتنا في إفريقيا»(2) . وعبر أيضا عن اعتقاده بأن الزيارة كانت ناجحة ، لأنها أدت - كما بدا له- إلى جعل المغاربة قريبين أكثر من أي وقت مضى ، إلى قبول فرنسا كعنصر له حضوره الدائم في المنطقة . وكانت قراءته تلك للأحداث صائبة في عمقها ، لأن السفارة وجدت مكانا لها ضمن نوادر التاريخ الفرنسي ، كفصل من فصوله المثيرة التي اهتم مؤرخو الحقبة الاستعمارية بتدوينها ، واعتبارها دليلا على «عظمة فرنسا» وعلى نجاحها في بسط نفوذها على شمال إفريقيا ، الأمر الذي كان من العسير تفاديه(3) .

وبعد انتهاء أشعاش من تنفيذ مهامه السياسية ، أطلق العنان لنفسه ولأعضاء البعثة المرافقين له للاستمتاع بباريز وعالمها العجيب . وعلى عكس ما كتبه الصفار

---

(1) Guizot, *France under Louis - Philippe*, p.222.

(2) المرجع نفسه ، ص 204 .

(3) J. Cillé, "Un ambassadeur Marocain à Paris (1845 - 1846)", *Le monde FranÇais* 16. 49 (Octobre 1949): 86; "Ambassades et missions Marocaines en France", *H - T* I, I (1960): 65 - 67.

لم يول المؤرخون الفرنسيون انتباههم إلى ما دونه محمد الصفار عن رحلته ، وإن كان مييج قد أشار إلى أن سفارة أشعاش لم تدرس بما فيه الكفاية . انظر : J - L. Miège, *Le Maroc* 2: 205, note 1

في رحلته حين قال : «فما كنا نخرج من المحل الذي كنا نازلين به إلا في بعض الأوقات» ، كان أعضاء البعثة المغربية يعيشون حياة اجتماعية نشيطة تحت العيون اليقظة لمضيفيهم الفرنسيين . ورفضت الاستجابة لبعض دعوات الضيافة لاعتبارها لا تناسب مكانة السفير ومرتبته : «فكنا والحمد لله في أعينهم عظاما ، ينظرون إلينا دائما بعين الاحترام والتعظيم ، ولو كنا مبتذلين نكثر في الدخول والخروج لكنا بخلاف ذلك» . وكان بوميي (Beaumier) يجيب عن تلك الدعوات برسائل خطية أرفقت في حالات عديدة بهدايا تذكارية من السفير . ومن الأعمال الإحسانية التي قام بها أشعاش تكرمه بمنح «فقراء باريز مبلغ 5000 فرنك ، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية» . وأثارت حاتمية السفير وكرمه انتباه الصحافة الباريزية التي تحدثت كثيرا عن شخص السفير واعتبرته رجلا ذا ثروة عظيمة «امتلأت يداه بالهدايا» .

وكانت أروع الهدايا وأجملها هي التي قدمت إلى الملك ، فقد سلم إليه أشعاش قبل مغادرة باريز وفي أثناء حفل استقبال بقصر التويلوري ، ستة خيول عربية ، بالإضافة إلى مجموعة من الحيوانات المتوحشة . وكانت تلك الحيوانات الموجهة إلى حديقة النباتات (Jardin des Plantes) ، عبارة عن أسد ونعامتين وثلاثة غزلان بالإضافة إلى صنف من الماعز البري غير معروف في أوربا ، سماه الفرنسيون هكذا : «mouton à manchettes» . ووجدت الصحافة صعوبة في التعبير عن تقديرها لقيمة تلك الهدايا في نمطها العربي ، فجاء في تعليق كتبته جريدة الإلوستراسيون L'il-lustration أنه قد : «كان السلاطين المغاربة يحملون معهم الماس والعطور هدايا ، فإذا بأبناء الصحراء يهدوننا اليوم الأسود و الغزلان»(1) .

العودة إلى المغرب

ودع أشعاش وأعضاء البعثة المرافقين له باريز يوم 27 فبراير 1846 . وبعد إلحاح شديد من الفرنسيين ، عرج الجميع في اتجاه الجنوب على مدينة تولون (Toulon) التي كان مرساها مقرا أساسيا لوحدات الأسطول الفرنسي . وعند وصولهم هناك ، قاموا بجولة استطلاعية لأحد المراكب الحربية التي كانوا يجهلون مساهمتها المباشرة

---

(1) العدد الصادر بتاريخ 10 يناير 1846 .



لوحة 5 : تقديم هدايا السلطان مولاي عبدالرحمن إلى لويس فيليب



لوحة 6 : صنف من الماعز البري المغربي هدية إلى حديقة النباتات

عن جريدة الإلوستر اسيون L'Illustration ، 21 فبراير 1846

في ضرب مدينتي طنجة والصويرة بالقنابل في عام 1844[1] . وأخيرا كان وصولهم إلى مرسيليا ، فتوقفوا أياما عديدة لاقتناء مقادير كبيرة من الحرير والأقمشة المطرزة بالذهب لفائدة السلطان والصدر الأعظم[2] . وفي اليوم الثاني من شهر مارس ، صعد الجميع إلى «الميتيور» ، فوصلوا إلى تطوان بعد ذلك بخمسة أيام . وقد استُقبلوا بحرارة كبيرة عند عودتهم ، وهذا ما كتبه أحد الفرنسيين في الموضوع :

"اكتظت الشوارع بممثلين عن كل فصائل الطرقيين وبالعلماء الوافدين من مختلف المساجد ، وهم يحملون أعلام الزوايا على اختلاف ألوانها . . . واقترب الباشا من أعضاء كل مجموعة واحدة تلو الأخرى وهو يقرأ معهم آيات من القرآن ، بينما كان بعض الصالحين يحاول التقرب منه ومنحه بركات الرسول . . . النساء والصبيان والشيوخ كلهم بادروا إلى السطوح ، وكانوا يرتدون الملابس الخاصة بأيام الأعياد . وكان الحي اليهودي بصفة خاصة في أبهى حلله ، بفضل ما كانت تتجمل به نساؤه من ملابس مطرزة ومجوهرات بديعة . فحيت تلك النساء الباشا بزغاريدهن وهتافاتهن ، بينما اصطف رجالهن على جوانب الطرقات مقبلين باحترام كبير سلهام الباشا وكذا ركبتيه"[3] .

وقبل أن يدخل أشعاش إلى بيته ، اتجه إلى المسجد مباشرة حيث يوجد قبر والده ، فشكر الله هناك على حسن العودة وعلى إنهاء مهمته بنجاح .

وعلى التو ، اتجه السفير نحو مراكش لإطلاع السلطان على تفاصيل المهام التي

---

(1) زار المغاربة المركب الحربي جيمابيس (Jemmapes) الذي كان يرسى تولون يوم 25 فبراير 1846 AAE/CPM 16/35-37 ، رسالة بورسي (Pourcet) إلى كيزو ، 2 مارس 1846 . وقد ساهم هذا المركب في ضرب طنجة بالقنابل إذ كان «متموضعا في مواجهة القصبة وعلى مسافة لا تبعد عن المدينة مقدار رمية البندقية» ، انظر كتاب: Warnier, *Compagne du Maroc*, p.96

(2) غادر أشعاش فرنسا حاملا معه ستا وأربعين لفة من البضائع تزن في مجموعها 2064 كيلوكَراما ، انظر :

AAE/ADM/Voyage, "Police de chargement".

(3) AAE/CPM 16/71-74 ، بورسي إلى كَيزو ، 13 مارس 1846 . يتكلم معظم يهود الجهات الشمالية من المغرب اللغة الإسبانية ، لانحدارهم من اليهود المبعدين عن إسبانيا منذ القرن الخامس عشر الميلادي .

قضاها في فرنسا[1] . وفي يوم 22 مارس 1846 ، التقى القنصل البريطاني جون دراموند هاي (J. D. Hay) ، الذي كان أيضا في طريقه إلى مراكش ، بأشعاش في الرباط ، فتناولا الشاي معا هناك . وكتب هاي في مذكراته متحدثا عن أشعاش ما يلي : «إنه ليعتبر بحق من أحسن المغاربة الذين رأيتهم ، ويبدو أنه قد زالت عنه تلك الدرجات المعهودة من التعصب عند المغاربة بعد زيارته باريز»[2] . وحسب ما جاء عند دراموند هاي ، فقد أحاط السلطان استقبال السفير أشعاش بكل مظاهر التشريف والإجلال ، وفي ذلك دليل على رضى السلطان عن سلوك مبعوثه أثناء وجوده في الخارج .

وعاد أشعاش إلى تطوان لممارسة مهام الباشوية على المدينة ، غير أنه ما كان بمقدرته نسيان أولئك الذين نزل عندهم ضيفا في الديار الفرنسية . وتفيدنا بعض النصوص الموجودة ضمن الوثائق الفرنسية أنه كتب إلى دوشاستو (De Chasteau) العبارات التالية : «إذا كانت لكم رغبة شيء ، فأخبروني بها ، وبعون الله تعالى سوف ألبيها لكم»[3] . ونجده بالفعل خلال ربيع 1846 وصيفه ، يزود القنصل الفرنسي بمعلومات قيمة عن بعض القضايا المحلية[4] . وما لبث أن ظهر مناصرون آخرون لفرنسا ، فتوسعت دائرة الأشخاص الذين اعتادوا الحصول على المال من الفرنسيين بمن فيهم كبار موظفي المخزن . وحسب المصادر الفرنسية ، فإن الوزير ابن إدريس قد حصل من الفرنسيين على مبلغ قيمته 29,290 فرنك بالعملة الإسبانية الذهبية المعروفة قديما بالدبلون . كما وافق بوسلهام بن علي على تسلم ما قيمته 10,360 فرنكا بعد أن أقسم على «كتمان ذلك» . وتلقى عامل الريف المدعو بن عبو وعودا بالحصول على ما قدره 18,000 فرنك سنويا «طالما استمر في قيامه بأعمال يكون من شأنها

(1) وثائق عائلية ، ابن ادريس إلى محمد الرزيني ، 20 ربيع الأول 18/1262 مارس 1846 .

(2) J. H. D. Hay, *Journal of an Expedition to the Court of Marocco in the year 1846* (Cambridge, 1848), p. 45.

(3) AAE/CPM 16/68 ، أشعاش إلى دوشاستو ، 10 مارس 1846 .

(4) AAE/CPM 17/212 ، دوشاستو إلى كَيزو ، 27 شتنبر 1846 . يحدثه فيها عن التقرير الذي بعث إليه به أشعاش حول وصول قطع صغيرة من الأسطول البريطاني إلى تطوان .

خدمة مصالح فرنسا»(1) . فتحولت بذلك توقعات ليون روش إلى حقيقة ، إذ حدثت بالفعل ثورة داخل البلاط السلطاني ، وتمكنت فرنسا من تدعيم موقفها إلى ذلك الحين . فكتب القنصل البريطاني دراموند هاي بلهجة لا تخلو من الحسرة أنه : «لا يمر يوم واحد دون أن أسجل التراجع الحاصل لنفوذنا والتزايد الواضح لنفوذ الفرنسيين»(2) .

ونظر المغاربة أيضا بعين الرضى إلى تلك السفارة ؛ فبعد عودة أشعاش ، قرر كَيزو أن يرفع ضغوط بلاده عن السلطان ، ليترك أمامه حرية اختيار الطريقة التي يراها مناسبة لمعالجة قضية الأمير عبد القادر(3) . ونتيجة لحرمانه من المعونات المغربية ، لا يستبعد أن يكون المقاوم الجزائري قد قرر تسليم نفسه والذهاب إلى المنفى . غير أن

---

(1) AAE/CPM 18/160-165 ، دوشاستو إلى كَيزو [؟] ، 12 فبراير 1847 . وذكر العروي أن بعض الأسر شرعت في الحصول على مبالغ مالية كبيرة ، فأصبحت بذلك «أوفى حليف للمصالح الأوربية» ، انظر : *History*, p. 322 . وكانت أعمال الارتشاء من القبيل نفسه سارية المفعول في الإمبراطورية العثمانية منذ القرن الثامن عشر ، حيث أصبحت «شيئا مكملا لا يمكن العدول عنه عند إبرام كل الصفقات أو العمليات» . انظر :

Thomas Naff, "Ottoman Diplomatic Relations with Europe in the Eighteenth Century: Patterns and Trends", in Thomas Naff and Roger Owen, eds., *Studies in Eighteenth Century Islamic History* (Carbondale, 1977), p.95.

(المعرب) : ولم يستثن محمد الصفار من ذلك ، إذ نجده يتسلم من جون دراموند هاي ، النائب البريطاني ، مبلغا ماليا قيمته مائتا جنيه استرليني مكافأة له على موقفه المساند للمقترحات البريطانية أثناء المفاوضات الخاصة بمعاهدة 1856 . انظر : FO.99/72 ، رسالة سرية من هاي إلى كلارندن ، طنجة ، 13 نونبر 1856 في كتابنا : المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856 – 1886) ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، الطبعة الثانية 1997 ، ص . 122 .

(2) FO,Public Record Office 99/31 ، هاي إلى بالمرستون ، 4 نونبر 1846 . ورد ذكرها عند فلورنوي :

F. R. Flournoy, British Policy toward Morocco in the age of Palmerston (Baltimore, 1935), p.116.

(3) Guizot, *France under Louis-Philippe*, pp. 198-206. وقد اهتم الناصري في الجزء التاسع من كتابه الاستقصا بتسجيل مظاهر التلاشي المستمر للعلاقات بين السلطان والأمير عبد القادر ، إذ اتهم هذا الأخير بـ«استفساد القبائل» ، (ص . 50) ، وبأنه «رام الاستبداد بل والتملك على المغرب» (ص . 56) . وتلقى المغاربة خبر القبض عليه في جو من الفرح والاغتباط (ص . 58) .

هذا الانسجام في المصالح بين المغرب وفرنسا كان ظرفيا ، إذ أدت ثورة عام 1848 إلى محو كل آثاره بصفة تامة . وفي أعقاب ذلك ما لبثت الأطماع الأمبريالية أن برزت من جديد وبدرجة أقوى مما كانت عليه من قبل ، جعلت الدولتين تدخلان مرة أخرى في دوامة الصراع و المواجهة[1] .

أما الفقيه محمد الصفار ، فبعد مدة قصيرة من عودته إلى تطوان ، فقد شرع في كتابة فصول رحلته . وربما كانت لديه نية كتابتها منذ البداية ، لأنه اتخذ كناشا سجل فيه كل المعطيات التي عاينها خلال مشاهدته اليومية . ومن المحتمل أيضا أن يكون أشعاش هو الذي أمره بذلك ، حتى يتمكن من تقديم تقرير مفصل ومكتوب عن الرحلة إلى السلطان مولاي عبد الرحمن . ومن الأمور الأكيدة التي لا يتسرب إليها أدنى شك ، هو أن أهم ما خلفته تلك السفارة من أثر حقيقي هو الرحلة في حد ذاتها . وإذا كان الزمن قد أسهم في نسيان اسم السفير ، وكذا في نسيان الهدف الذي وجهت السفارة من أجله ، فإن اسم كاتبها محمد الصفار ظل على العكس من ذلك ثابتا ، بل إنه سيظل كذلك على مر العصور لا محالة .

الصفار وجوانب من حياته

اسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ، أندلسي الأصل ، تطواني المولد[2] . أتى أجداده من مدينة جايين (Jaén) الأندلسية ، وكان والده يلقب

---

(1) يمكن العودة إلى ما ميبج عن النتائج المترتبة على السفارة وعن تطورات العلاقات المغربية الفرنسية انظر : Miège, *le Maroc* 2:214-220.

(2) يعتبر كتاب تاريخ تطوان لمؤلفه محمد داود المصدر الأساسي لحياة محمد الصفار ، 7 : 78-98 . وقد استفدنا في هذه الدراسة من مصادر أخرى نذكر منها ما يلي : تقييد في ترجمة الوزير الصفار ، مجهول المؤلف ، ومحفوظ بالخزانة الحسنية تحت رقم 12419 ، سنشير إليه من الآن فصاعدا هكذا : التقييد المجهول ؛ أحمد الرهوني ، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين** ، 6 : 523-533 ، المكتبة العامة بتطوان ؛ العباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، تحقيق ونشر عبد الوهاب ابن منصور ، 10 أجزاء (الرباط ، 1974 - 1983) 7 : 34-35 ؛ محمد غريط ، **فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان** (فاس ، 1347/1928) ص . 70-71 .

بالجياني . يجهل كل شيء عن تاريخ ولادته كما هو شأن المعاصرين له ، وعن فصول حياته الأولى ، مع أن البيت الذي شهد ولادته ما يزال قائما إلى اليوم في تطوان . وهو مسكن بسيط من طابقين ، لا تحتوي جهاته الداخلية على أي من مظاهر الزينة التي عادة ما تتميز بها دور الأثرياء[1] . وتوحي بساطة البيت بأن أسرة الصفار كانت متواضعة ، وربما كانت غنية من ثقافتها وأصلها المتميز ، لكنها لم تكن على حظ من الثروة المادية .

حلت أسرة الصفار بمدينة تطوان رفقة الجموع المهاجرة فرارا من حروب الاسترداد الإسبانية ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، للالتحاق ببقية المسلمين الأندلسيين الذين أعادوا بناء مدينة تطوان ، واتخذوها قاعدة للانطلاق منها وشن هجمات مضادة على إسبانيا و الثغور الأجنبية المجاورة لسبتة وطنجة . ثم هاجر جزء من الأسرة إلى فاس ، غير أن الفرع التطواني منها تجذر وترعرع في أحضان تلك المدينة المغربية الشمالية وربوعها . وتعتبر الصورة التي كانت لدى محمد الصفار عن تطوان مسقط رأسه ، والأحاسيس الشاعرية التي انتابته عند مغادرته إياها ، دليلا قاطعا على مدى ارتباطه العميق بها[2] .

إن لكل مدينة مغربية خصوصياتها الفريدة ، ولا تُستثنى تطوان من ذلك . إذ أنها تمتد على هضبة واقعة بين الجبال والبحر الأبيض المتوسط ، وتميل في وجهتها إلى الأراضي البرية الداخلية أكثر من انفتاحها على البحر . وعلى امتداد قرون عديدة ، التحق بالعناصر المنحدرة من الأصول الأندلسية العريقة ، سيل من سكان الجبال الوافدين من الريف أو من منطقة جبالة ، والذين جذبتهم تطوان إليها بأسواقها النشيطة وبساتينها اليانعة المعطاء . وإذا كانت المرسى المجاورة لها في مارتيل تعرف اليوم ركودا مطلقا ، فإنها قد عاشت فيما مضى حركة تجارية دائبة . وعلى الرغم من أنها لم ترق إلى رتبة المرسى الرئيسية للبلاد ، فإنها قد شكلت مع ذلك ، صلة وصل بين الطرق التجارية النشيطة في اتجاه الشرق والجنوب . وازدهرت في أحضانها نماذج

---

(1) وذلك ما لاحظته سوزان ميلار في عين المكان خلال زيارة قامت بها شخصيا في شهر ماي من سنة 1973 .

(2) انظر الصفحات الأولى من متن الرحلة فيما سيأتي .

من أثرياء التجار[1] المتميزين ببرانسهم وجلاليبهم النظيفة الناصعة البياض والذين كانت لهم مشاركة ما في التجارة الدولية . وحاول سكان تطوان الاستفادة من بعدهم النسبي عن مراكز السلطة المخزنية ، فسعوا جاهدين في الوصول إلى «الرفع من مقدار ثرواتهم عن طريق التجارة ، واستمتاعهم في سلام وسكينة ، بما يجدونه من سعادة في الآداب والفنون»[2] .

وكان ثراء المدينة يجذب الأنظار إليها ، مما جعلها تكون بين الفينة والأخرى ، مسرحا لمظاهر العنف والاضطراب . وفي سنة 1820/1236 دخل إلى المدينة بعض القبليين المؤيدين للمولى إبراهيم ، أحد المتنافسين على السلطة مع السلطان المولى سليمان ، «[. . .] واستولوا على مال المرسى ، وعلى مخازن السلطان وما فيها من سلاح وكتان وملف وغير ذلك [. . .]»[3] . وفي أحيان أخرى ، كان السلطان يتدخل في الحياة التجارية الحرة لتطوان ويقوم – حسب التعبير المخزني – بـ «أكل» ممتلكات التجار الذين تفاحشت ثرواتهم بشكل أصبح باديا للعيان[4] . لكن حياة الهدوء كانت في غالبية الأوقات مخيمة على المستوى المحلي للمدينة ، وإن تخللتها في بعض اللحظات اضطرابات ظرفية ثمنا لما كانت تعرفه مرساها من إيقاع تجاري على حظ وافر من الرخاء .

وفي بعض الأحيان ، كانت تلك التجارة تلزم التطوانيين بالاغتراب مؤقتا

---

(1) تعني لفظة « التاجر» في التعبير العامي المغربي ذلك التاجر النموذجي الناجح ، الذي غالبا ما تكون له مساهمة بشكل من الأشكال في التجارة الدولية .

(2) انظر المراجع التالية :

G. S. Colin, *EI* I, S.V. "Tittawin "; J.D. Latham, "The Reconstruction and Expansion of Tetuan: The Period of Andalusian Immigration", *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A. R. Gibb*, ed. G. Makdisi (Leiden, 1965), pp. 387-408; A. joly, "Tétouan", 2 ème partie, "Histoire", AM 5 (1905): 198-264, 313-318.

(3) الناصري ، الاستقصا ، 8 : 152 .

(4) في سنة 1826/1242 ، قبض القائد محمد أشعاش بأمر من السلطان مولاي عبد الرحمن على اثنين من أعيان تجار تطوان ثم «استصفى من أموالهما ما وصلت إليه يده . . . وبعث بالكل إلى السلطان» ، تطوان ، 3 : 278-279 .

والذهاب متنقلين بعيدا عن مدينتهم . وكانوا ينطلقون في رحلاتهم مبحرين من مرسى مارتيل في اتجاه مراكز البحر الأبيض المتوسط ، أو غيرها من الجهات النائية . فحل البعض منهم بالجزائر ، ووصل قليل منهم إلى جهات من بلدان أوربا . في 1797/1212 نجد التاجر عبد الرحمن مدينة يحصل من أمناء تطوان ، على شهادة تثبت عزمه على «[. . .] السفر في البحر لبر النصارى لتجارة رائجة إن شاء الله ، فأظهر لشهوده ما بصندوقه من المال ، فكان عنده أربعة آلاف وخمسمائة وسبعون ريالا ونصف ، مع ضبلون عدده ستة وثلاثون ، وعشرون من المطبوع[. . .]»[1] . وقد وصف محمد الصفار الحاج العربي العطار ، أحد أعضاء السفارة المغربية إلى فرنسا ، بالشخص «الماهر بسياسة المخالطات وجوب الأقطار»[2] . وكان أفراد أسرة العطار من مشاهير رجال الأعمال التطوانيين الذين اعتادوا القيام بعمليات تجارية في الخارج . ومن ثم كان التطوانيون يتحلون بحق ، بسمات الفطنة واليقظة المعهودة لدى رجال الأعمال الناجحين ، وهي من الصفات التي غالبا ما اعتقد الناس خطأ أن سكان فاس ينفردون بها انفرادا متميزا عن غيرهم . لكن – علاوة على ذلك– كانت لديهم تلك المسحة غير المحلية التي جعلتهم متحررين في سلوكهم أثناء تعاملهم مع الأجانب . وكانت تلك الخاصية من الصفات النادرة في الفترات الزمنية الباكرة من مغرب القرن التاسع عشر .

غير أن وجود اتصالات مع الأجانب لا يعني بالضرورة قبولهم ، لأن مدينة سبتة القريبة كانت قاعدة أمامية مسيحية لها احتكاك بهوامش تطوان وأطرافها ، بشكل يجعلها تحس وكأنها يُمارس عليها ضرب من الانتهاك العنيف لحرمتها . وكذلك حال طنجة غير البعيدة ، التي كانت مصدرا لعدوى الأجانب[3] . وخلق القرب الشديد

(1) تطوان ، 3 : 236 .

(2) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(3) احتلت البرتغال سبتة عام 1415 ، وظلت منذ ذلك التاريخ في قبضة الأجانب . إذ انتقلت إلى يد إسبانيا في 1580 ، ثم أحكم عليها الإنجليز قبضتهم في 1810 ، فأعيدت إلى إسبانيا عند نهاية الحروب النابليونية . أما طنجة ، مكان إقامة الهيئة الديلوماسية ، فقد كان بقية المغاربة ينظرون إليها دائما بعين الريبة . انظر :

.A. Rey, *Revue des deux mondes*, "Le Maroc et la question d'Alger", (1840) : 618 . 24

وقد ورد فيها مقتطف من كلام للوزير ابن ادريس قال فيه إن طنجة « هي مدينة المسيحين» . ==

من أوربا عند سكان تطوان نوعا من الإحساس المعقد الممتزج بمشاعر الألفة والازدراء في آن واحد . وشهدت المدينة نمو روح نضالية خاصة ، فاعتبر معها العديد من التطوانيين أنفسهم حاملين لواء الجهاد في حرب ضد الاحتلال المسيحي . في سنة 1791 ، ساند التطوانيون حركة مولاي اليزيد القائم ضد والده سيدي محمد بن عبد الله . وكان السبب الرئيسي الذي حملهم على ذلك ، هو تجاهل هذا الأخير لمسألة الوجود الإسباني في سبتة . وقام مولاي اليزيد بمحاصرة المدينة المحتلة ، وعلى الرغم من فشل جهوده ، ظلت تطوان مخلصة في ولائها له ، في حين نظرت إليه بقية جهات المغرب نظرة احتقار وازدراء[1] .

وهناك مصدر آخر شجع أهل تطوان على الارتباط الشديد بروح النضال الإسلامي ومبادئه . إذ كانت تطوان – منذ القرن الثامن عشر– مركزا لحركة دينية نشيطة مكثفة . وتمحورت تلك الحركة بصفة أساسية حول الزاوية الدرقاوية ، المؤسسة حديثا في منطقة غير بعيدة عن تطوان ، فانتشرت من هناك لتعم بقية أرجاء المغرب . وأصبحت الزاوية الدرقاوية قبلة للزوار ، فترددوا عليها للمشاركة في طقوسها التعبدية من تلاوة ذكر وغناء وجذبة ، وغيرها من الممارسات المعروفة عند مختلف الزوايا والطرق الصوفية المغربية . وما لبثت الزاوية الدرقاوية أن بسطت نفوذها على المدينة . وحين أعلن المولى سليمان ، لأسباب سياسية ودينية ، معارضته الشديدة لتقديس الأولياء ولكل ما يصاحبه من طقوس لدى الزوايا والطرق الصوفية ، أثيرت ضده في تطوان وأحوازها مشاعر العداء . وتبعا لذلك ، لم تتردد كل عناصر التشكيلة الاجتماعية التطوانية ، كرجال الزوايا والعلماء والتجار والأعيان ، في تقديم العون والمؤازرة لخصمه مولاي سعيد . وعمت الفرحة الكبيرة سكان مدينة تطوان حينما بلغهم خبر تنازل المولى سليمان عن الحكم لفائدة ابن أخيه مولاي عبد الرحمن بن

== ويضيف راي معلقا على ذلك بقوله : «Ce n'est plus le Maroc, ce n'est pas encore l'Espagne» ، «إنها ليست من المغرب في شيء ، ولكنها ليست بإسبانيا» .

(1) تطوان ، 3 : 191 .

هشام سنة 1822[1] .

هذه هي الأرضية التاريخية لمدينة تطوان ، مسقط رأس محمد الصفار . تلك المدينة التي يمكن أن يصادف فيها المرء ، جنبا إلى جنب ، مظاهر أسلوب العيش الرفيع الموروث عن الأندلس ، مع أساليب حياة الريف المعروفة بمظاهرها الشديدة القساوة ؛ وكذا سيادة الأذواق الحضرية الراقية إلى جانب روح المجاهدين النضالية ؛ كما تجد أيضا بين أحضان مساجدها علوم الدين السنية الأصلية وإلى جانبها الممارسات التعبدية التي أحدثتها الزوايا والطرق الصوفية . إن هذه المتناقضات هي التي شكلت مكونات المحيط الذي أبصر فيه محمد الصفار النور وترعرع فيه .

وقد بدأ محمد الصفار مرحلته التعليمية في تطوان ، فتعلم على يد شيوخ عصره ، وإن كانت أسماؤهم مجهولة لدينا[2] . واتجه بعد ذلك إلى فاس لقراءة العلوم بجامع القرويين صحبة رفيقه الحميم محمد عزيمان ، الذي أصبح فيما بعد قاضيا بتطوان[3] . ولم تكن هناك مدة محددة يتلقى خلالها المتعلمون دروسهم في القرويين ، غير أن جل الطلبة ، لا يقضون فيها بوجه عام سوى أربع سنوات أو خمس . ومع ذلك ، فقد مكث محمد الصفار بفاس مدة استغرقت أزيد من ثماني سنوات ، انهمك خلالها في دراسة علوم الفقه والحديث والنحو والأصول ، على يد العالم

(1) عن هذه الفصول المتعلقة بتاريخ المدينة ، انظر : **تطوان** ، 3 : 206-224 ، 258-265 . أما عن الزاوية الدرقاوية فيمكن الرجوع إلى مادة «درقاوة» في : «Darkawa» ، *EI* 2 وهناك سبب آخر لامتعاض التطوانيين من المولى سليمان ، وهو تضييقه الخناق على التبادل التجاري مع الخارج ، مما كان له تأثير سلبي مباشر على السير العادي و المربح لأعمال التجارة بمرسى تطوان ، انظر :

J. Brignon et al., *Histoire du Maroc* (Paris. 1967), p.281.

(2) **تطوان** ، 7 : 78 . لم يترك لنا الصفار أية فهرسة تتضمن لائحة بأسماء شيوخه وعناوين الكتب التي قرأها بتوجيه ورعاية منهم .

(3) المرجع نفسه . وشكلت التربية التقليدية في المغرب موضوع دراسة أنجزها إيكلمان تحت عنوان :

D. Eickelman, "The Art of Memory: Islamic Education and its Social Reproduction", *Comparative Studies in Society and History* 20, 4 (1978): 495 - 516.

انظر قائمة المصادر والمراجع المستفيضة التي أثبتها إيكلمان في الكتاب أعلاه .

الشهير ابن عبد الرحمن الحجرتي[1]. ولابد من أن يكون قد حضر الجلسات المسائية التي كانت تعقد خارج جامع القرويين، والتي كان بعض الطلبة المتميزين يدرسون فيها علم البلاغة والإنشاء، من أجل التحكم الصحيح في ناصية اللغة العربية. ولما عاد الصفار إلى تطوان في 1836/1252 أصبح يلقب بالفقيه دليلا على إحاطته بالفقه وما إليه من العلوم الشرعية.

تجاوز الصفار بالتعلم في فاس تحصيل الأدوات الشرعية الكافية لممارسة مهام القضاء على سبيل المثال. فبعد إنهاء دراسته بدرجات من الامتياز، كان الصفار على أتم استعداد لاحتلال أعلى المراتب في المجتمع المغربي، ولأن يكون ضمن صفوف الخاصة بكل ما تتميز به من تعارض مع فئة العامة[2]. إن تردد الصفار على الأوساط العلمية واحتكاكه بمؤسساتها في فاس، قد منحه وهو شاب في مقتبل العمر من أسرة بسيطة، نوعا من «التجربة الاجتماعية المكثفة»[3] ذات الأهمية البالغة، التي سمحت له بالدخول مباشرة واحتلال مكانه ضمن العناصر الاجتماعية المكونة للنخبة الحضرية ولو على مستواها الجهوي. واعتمادا على رسائل التوصية المسلمة إليه من أساتذته المرموقين، تمكن الصفار في وقت وجيز من فرصة عمل تتلاءم وتكوينه، فاشتغل عدلا بمدينة تطوان[4]. وكان العدول يحظون بالتقدير والاحترام لدى عامة الناس، لمعرفتهم بأمور الشرع واتصافهم بالاستقامة والأمانة. ويؤكد محمد

---

(1) واسمه الكامل هو أبو العباس بن محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الحجرتي، شيخ الجماعة بجامع القرويين، كان يعتبر من كبار علماء عصره في المغرب. توفي سنة 1886/1303. محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، 3 أجزاء. (فاس، 1898)، 2 : 206، 3 : 9. Lakhdar, *La vie littéraire*, p.357 note 193.

(2) انظر مادتي : «الخاصة والعامة»، في : *EI* 2, "al-khassa wa'l-Amma".

(3) Eickelman, "Art of Memory", p.496.

(4) تتلخص وظيفة العدلية في العقود والرسوم في مختلف المجالات والمعاملات بين الأطراف المعنية بها وتوثيقها، وذلك بوضع خاتم القاضي عليها. كما يتقن العدل الأسلوب الخاص بتحرير العقود الشرعية وفقا لمقاييس محددة لابد من الالتزام بها. وتحمل الوظيفة نفسها تسمية مخالفة في البلدان الإسلامية المشرقية هي الشاهد، انظر: Dozy, R. P. A., *Supplément aux dictionnaires arabes*, 2 vols, Beyrouth, 1981, 2 : 103.

داود أن الصفار كان يجمع بين تلك الميزتين معا ، واستطاع أن يصبح بسرعة من أبرز العدول الموجودين في تطوان . كما كان يقدم الفتاوى في القضايا الدينية ، وينوب أحيانا عن القاضي في اتخاذ القرارات . ويحتمل أنه كانت لديه طموحات ليصبح قاضيا على تطوان .

كان الصفار إضافة إلى مهام العدلية يدرس بمساجد تطوان مواد الحديث والفقه[1] . كما اعتمد تقديم دروس عمومية عند الضحى من كل يوم في مواضيع المعاملات ، ودروس أخرى في العبادات فيما بين العشاءين . ومما لاشك فيه أن تلك الأيام قد شكلت أوقات حبور وطمأنينة له . إذ حظي عند التطوانيين أهل بلدته بالاحترام والتقدير ، فانغمس في تلك البيئة المريحة التي وفرتها له تطوان مسقط رأسه ، منشغلا بمهام التدريس وخطة العدالة . كما نعم الصفار بحياة عائلية مستقرة بعد زواجه بالشريفة مباركة بنت المؤذن ، فكانت له منها بنتان تزوجتا في تطوان ، وما زالت ذريتهما تعيش بهذه المدينة إلى اليوم[2] .

غير أن حياته الهادئة لم تبق على ذلك الحال بصفة دائمة ، وربما عرفت نهايتها بعد مصاحبته عامل تطوان محمد أشعاش ، وملازمته لابنه عبد القادر أشعاش الذي تولى المنصب نفسه بعد وفاة أبيه . وتقول المصادر إن الصفار قد أبعد على مضض عن متابعة القيام بمهمتي التدريس والعدلية ، وموست عليه بعض الضغوط لحمله على الدخول في خدمة باشا المدينة . ونظرا لمكانة الصفار الجهوية ، وتمكنه العميق من أسرار اللغة العربية وعلوم الشريعة ، فقد أصبح مستشارا لعبد القادر أشعاش في كل القضايا ذات الصبغة الشرعية الصرفة . ويبدو أن دخول الصفار مرحلة الممارسة لمهامه

---

(1) كان من بين تلامذته الشيخ المفضل أفيلال أحد رجالات تطوان المعروفين آنئذ . وقد ترك كناشة أشار فيها إلى أنه بدأ دراسته لكتاب **مختصر خليل** مع الصفار في 1842/1258 ، و**لامية الأفعال** لابن مالك في 1244/1259 ، **تطوان** ، 7 : 78 - 79 . و**المختصر** كما هو معلوم هو تلخيص لموطأ الإمام مالك ، وضعه الشيخ خليل بن إسحاق الجندي ، GAL S 2 :96 . أما **لامية الأفعال** فهي في موضوع النحو وقواعد اللغة ، وقد وضعها جمال الدين بن علي ابن مالك ، *GAL S.* 1 : 526 والألفية أيضا منظومة في النحو لابن مالك ، 522 : *GAL S . 2*.

(2) بعد مغادرة الصفار لمدينة تطوان ، فتح بيتا جديدا في فاس وتزوج هناك مرات عديدة إلى أن بلغ عدد الزيجات أربعا ، وهو العدد الذي تسمح به الشريعة الإسلامية . كما كانت له عشرة مع عدة إماء .

الجديدة قد تم على الشكل الآتي :

«وسبب اتصال الفقيه الصفار بالسلطان الأعظم مولانا عبد الرحمن نور الله ضريحه ، أنه أمر كافة عمال إيالته بأن يتخذوا الكتاب من المدن الذين يحسنون الإنشاء والترسيل حيث كانت مكاتبهم ترد على الأعتاب الشريفة بخط طلبة البادية الذين لا يفهمون خطابا ولا يحسنون جوابا ولا يعرفون نحوا ولا لغة . ومن جملة العمال ، عامل تطوان الحاج عبد القادر أشعاش ، فطلب من الفقيه الصفار أن يأخذ بيده في أجوبة المكاتب التي ترد عليه من الحضرة الشريفة ، فامتنع من ذلك ، ولا زال يستعطفه حتى ساعده على ذلك . ولما وصل أول كتاب كتبه على لسان العامل المذكور لسيدنا مولانا عبد الله ، استحسنه وقال : الآن أتخذ أشعاش الكاتب»[1] .

وحين أمر السلطان مولاي عبد الرحمن عامله على تطوان ، عبد القادر أشعاش ، بالاستعداد تهييئا لرحلته إلى فرنسا ، طلب منه اختيار «عالم يقيم أمر الدين من صلاة وقراءة» ، وكان من الطبيعي جدا وقوع اختياره على محمد الصفار . وقد أظهر الصفار حب استطلاع كبير أثناء وجوده في فرنسا ، فسجل أمورا كثيرة في أوراقه تسجيلا مفصلا . فهو مثلا يهتم بتذوق أنواع الطعام ، ويحاول التقرب من مظاهر البذخ ومن كل ما تتميز به الحياة الأوربية من مظاهر أثارت استغرابه وإعجابه بما كانت تزخر به من تنوع . وفي هذا الصدد كتب بوميي (Beaumier) إلى دوشاستو (de Chasteau) في طنجة بما يلي : «إن الفقيه ... مشغول طوال الوقت . وإن لديه موهبة عقلية نادرة ، وهو بصدد إنجاز بحث حقيقي ، فقد كتب أشياء كثيرة»[2] . وعلى امتداد صفحات الرحلة ، بدا الصفار مفعما بالحيوية وبدقة الملاحظات . وجدناه يعبر عن مشاعر الإعجاب أمام جمالية المرأة ، ويبدي تحسراته أثناء قيامه بالوضوء استعدادا للصلاة ، بل ويتألم متبرما من الساعات الطوال التي كانت تستغرقها وجبات الطعام . أما وجهات نظره وأفكاره فهي متباينة من صفحة إلى أخرى ؛ بعضها مبتذل وعادي لا أصالة فيه ، وبعضها الآخر أصيل بكل ما في الكلمة من معنى . ولم تكن الرحلة عند الصفار مجرد سلسلة من الأشياء المثيرة ، بل تجاوزتها لتكون

---

(1) **التقييد المجهول** ، صفحاته غير مرقمة . وقد بدأ الصفار مهامه الجديدة على عهد محمد أشعاش والد عبد القادر أشعاش ، حسب ما جاء عند الرهوني .

(2) AAE/ADM/Voyage ، بوميي إلى دوشاستو ، 29 يناير 1846 .

تجربة لتكون تجربة حقيقية على درب التحولات . لكن بعد قضاء خمسين يوما في الخارج ، لم يخف اشتياقه إلى مدينته تطوان وإلى بيته بقوله : «معاهد أنسنا ومطاب عيشنا ومسقط رؤوسنا وعش أفراخنا ومثار نشاطنا وأفراحنا»(1) .

وبعد أن عاد الصفار إلى تطوان ، استأنف مزاولة مهام العدلية ، وإلقاء الدروس في الجامع ، إضافة إلى قيامه بمهمة الكتابة في خدمة الباشا عبد القادر أشعاش(2) . وفوق هذا وذاك ، انهمك محمد الصفار في تحرير رحلته لتقديمها كتقرير مفصل ليرفع إلى حضرة السلطان . وبعد أن أتم الصفار ذلك العمل الشاق ، عاد إلى الظل ، ولم يقع في فصول حياته شيء يستحق الذكر خلال السنوات القليلة التالية .

غير أن هذه المرحلة ما لبثت أن انتهت في شهر رمضان من سنة 1850/1267 ، حين فقد عبد القادر أشعاش حظوته السابقة عند السلطان مولاي عبد الرحمن . وبحكم العلاقات الحميمة القائمة بين باشا تطوان ومحمد الصفار ، وجد الفقيه الكاتب نفسه في وضعية غير مريحة . وقبيل حلول عيد الأضحى ، أمر السلطان عامله على تطوان بالقدوم إليه في فاس لتقديم هدية العيد كما جرت العادة بذلك . وقد امتثل أشعاش واتجه في طريقه إلى فاس مصطحبا معه محمد الصفار دون أن تساوره أي شكوك في نوايا سيده ، وهذه رواية محمد داود لبقية الأحداث :

«ولما وصل إلى فاس مع القائد الحاج عبد القادر أشعاش – وكان المترجم له [أي الصفار] كاتبا له – استدعاهما الفقيه الخطيب السيد الكبير الفاسي للغذاء معه بداره ،(3) فاعتذر القائد المذكور بأنه سيذهب إلى دار المخزن لتقديم هديته إلى

(1) انظر الصفحات السابقة من هذا الكتاب بالإضافة إلى تعاليق بوميي «لقد بدأ السفير والمرافقون له . . . يحسون بالشوق إلى بلدهم» . AAE/ADM/Voyage ، بوميي إلى دوشاستو ، 8 فبراير 1846 .

(2) عثر محمد داود ضمن أوراق محمد الصفار على رسوم عدلية تحمل علامة توقيعه المعروفة عند العدول بالدبانة ، وتحمل تواريخ تبتدئ بسنة 1845/1263 . وفي ذلك دليل على متابعة الصفار لمزاولة وظيفة العدلية بعد عودته من فرنسا .

(3) عبد الكبير بن المجذوب الفاسي (توفي سنة 1879/1296) ، ينحدر من أسرة فاسية عريقة ، وكان خطيبا بضريح مولاي إدريس في المدينة نفسها . انظر :

E. Lévi-Provençal, *Les historiens des chorfa* (Paris, 1922), p.346.

واستقى محمد داود معلوماته من القاضي سيدي عبد الحفيظ الفاسي حفيد سيدي عبد الكبير الفاسي المشهور .

السلطان . وتغدى الصفار بدار السيد الفاسي ، فكان من لطف الله به أنه لما صلى العصر وأراد الخروج ، استمهله صاحب الدار إلى أن فات وقت الهدية . فلما خرج الصفار من الدار ووصل إلى الصفارين ، وصله نبأ إلقاء القبض على القائد المذكور وعلى من كانوا معه ، فعاد للزاوية الفاسية من حينه بها محترما»[1] .

وقد حاول الصفار ، في أثناء احتمائه بحرم الزاوية ، أن يتفاوض في إمكان إطلاق سراحه ، وربما تشفع له بعض معارفه في فاس وتدخلوا لصالحه لدى الجهاز المركزي للمخزن . ولا يستبعد أن يكون السلطان ما زال يذكر شخصيا أن الصفار هو كاتب الرحلة السفارية إلى فرنسا . ومهما كانت الأمور ، فقد سمح للصفار بمغادرة الضريح الذي احتمى به . ولم يُكتف بغض النظر عن علاقاته الحميمة بعبد القادر أشعاش ، بل وجهت إليه الدعوة للالتحاق رأسا بحاشية السلطان[2] .

أما مصير القائد أشعاش ، فقد كان أقل حظا من صاحبه . فبينما ظل الصفار آمنا على نفسه بحرم الزاوية ، زج بأشعاش ومعه كل أفراد أسرته في غيابات السجن . ثم صودرت كل ممتلكاتهم وبيعت ، لتعود مداخيلها إلى بيت المخزن . وتظل الأسباب التي أدت إلى خراب أسرة أشعاش غير واضحة بما فيه الكفاية . إلا أن المعطيات المفصلة المتعلقة بالممتلكات المُصادرة كما نشرها محمد داود ، توحي بأن ثروة الأسرة

---

(1) تطوان ، 7 : 79 – 80 . كانت مقابر بعض الأولياء «حرما» يمكن أن يجد فيه المتابعون ملجأ آمنا لأنفسهم . غير أن هناك اختلافا بين المصادر في اختيار الصفار للضريح الذي احترم به . إذ يقول محمد داود بلجوئه إلى الزاوية الفاسية ، ويؤيده في ذلك ما هو وارد في **التقييد المجهول** . أما الرهوني ، فيعتقد أن الصفار قد فر لاجئا إلى ضريح مولاي إدريس ، وهو الحرم التقليدي المعروف في فاس . أما الزاوية الفاسية ، فهي المركز الديني لمؤسسها سيدي عبد القادر الفاسي (المتوفى في 1680) ، وتوجد في حي القلقليين بفاس ، انظر :

N. Cigar, *Muhammad al-Qadiri's'Nashr al-Mathani': The Chronicles* (London, 1981), p.132 et note 7; Lévi-provençal, *Les historiens*, pp.264 - 265.

أما الصفارين فهو حي صغير يتوسط قلب مدينة فاس قرب خزانة القرويين . والاسم مأخوذ عن الحرفيين الذين يصنعون هناك الأواني النحاسية وغيرها .

(2) **تطوان** ، 7 : 79 . ويؤكد داود أن الوزير ابن ادريس كان مؤيدا لرسائل التشفع الموجهة إلى السلطان وساعد على إخراج محمد الصفار من المأزق .

كانت طائلة ومن الأهمية بمكان . ولا يستبعد أن تكون رغبة السلطان مولاي عبد الرحمن في حيازتها سببا رئيسيا في تغيير موقفه من آل أشعاش[1] . ومن المحتمل أن يكون قد أطلق سراح أشعاش ، وسمح له بالعودة إلى تطوان ليعيش هنالك حياة عادية . وفي عام 1862 أعاد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن تعيين أشعاش عاملا على تطوان ، لكنه ما لبث أن صادف صعوبات جديدة ، فأقيل من منصبه . وقضى أشعاش ما تبقى من عمره خديما مخزنيا بسيطا في مدينة مكناس إلى حين وفاته بها سنة 1865/1282-1866 . ولم تتمكن أسرة أشعاش بكل ما كانت تتميز به من جاه وأبهة ، من استعادة سالف مجدها الذي عاشت في أحضانه حينا من الدهر بمدينة تطوان[2] .

أما المرحلة الثانية من حياة الصفار ، وتشمل الفترة الطويلة التي قضاها في خدمة المخزن على المستوى المركزي ، فهي محيرة جدا لكل من يحاول تتبع فصولها وجمع شتاتها في وحدة متناسقة . وقد أحيطت حياته خلال تلك المرحلة التي يمكن تسميتها بالمخزنية ، بكثير من الغموض والسرية . وذابت كل عناصره الذاتية والفردية لتصبح منغمسة في خضم الوجود الواسع والحضور القوي لشخص السلطان وبلاطه ، والذي تتمحور كل العناصر التي تكون الأطر والموظفين المخزنيين حوله كالقطب المركزي . وكانت تبدو كل جوانب الحياة في البلاط ومظاهرها خاضعة في جميع جزئياتها إلى تقنينات بروتوكولية صارمة يصطلح عليها في التعبير المخزني بلفظة «القاعدة» . وبموجبها تتحدد كل التصرفات الواجب احترامها داخل البلاط ، بدءا من طريقة تقديم الشاي وانتهاء بكيفية استقبال سفراء الدول الأجنبية . وكان يتم تشكيل الموظفين الوافدين على المخزن من جهة نائية من مختلف ربوع البلاد وفقا لتلك القاعدة ، وبطريقة تجعلهم يصبحون منصهرين في إطار عينة اجتماعية واحدة متراصة ومتلاحمة الصفوف . حيث يتخلى كل واحد منهم عن ولاءاته الجهوية المعهودة لديه بالأمس ، ليتحول إلى مخلوق جديد يخلص بكل كينونته وجوارحه إلى المؤسسة السلطانية دون غيرها . وكان انعزالهم عن بقية أفراد الرعي يزداد قوة نتيجة عدم استقرارهم في مكان واحد ، بفعل حياة التنقل والترحال الدائمة التي كان

---

(1) تطوان ، 3 : 303 ، 309 - 334 .

(2) تطوان ، 6 : 11 ، 88 - 91 .

يعيشها السلطان وحاشيته ، وتحركه في موكبه من مكان إلى آخر . فقد يستقرون بعض الأحيان في أحد القصور السلطانية ، وتكون الخيام أحيانا أخرى مأوى لهم ومقاما .

ومقابل ذلك ، كان الموظف المخزني العامل بداخل البلاط يحقق بعض المكاسب . إذ يجد نفسه في غنى عن تحمل أعباء مصاريف حياته اليومية على جميع المستويات ، من مسكن وطعام وكسوة . وفي عهد السلطان مولاي عبد الرحمن ، لم يكن كبار موظفي البلاط السلطاني يتقاضون أي رواتب أو أجور محددة . فكانوا من الناحية النظرية ، مرتبطين مباشرة في كل حاجياتهم بشخص السلطان الذي يمكن أن ينعم عليهم بدور للسكنى أو بقطع أرضية يستغلونها فلاحيا ، وأيضا بالكسوة وحتى بمقادير مالية في بعض الأحيان . لكنهم في الواقع ، يستغلون سلطتهم المستمدة من مكانتهم كعاملين في خدمة البلاط ، فيكونون ثرواتهم الشخصية . وبصفة عامة ، فقد كان كبار موظفي المخزن يحيون دائما في بحبوحة من العيش ، وينعمون باليسر والرفاهية ، بل وحتى ببعض مظاهر الترف[1] .

ولو كان لدى المرء حرية الاختيار ، لكان من الصعب عليه جدا مقاومة جاذبية الحياة داخل البلاط . وما حدث لمحمد الصفار ، هو أنه لم تتح له فرصة لتحديد اختياره ؛ إذ أصبح محروما من حماية راعيه بالأمس في تطوان عبد القادر أشعاش ، ودب إليه اليأس والاكتئاب من جراء المدة التي قضاها محبوسا بحرم الزاوية ، فلم يبق أمامه سوى الارتماء في أحضان الخدمة المخزنية داخل القصر السلطاني . وعاش الصفار طوال الثلاثين سنة اللاحقة منغمسا إلى أقصى الحدود في الوسط المخزني المركزي القريب جدا من شخص السلطان ، فما لبثت فردانيته أن انصهرت في بوتقة النسيج المخزني العريض ، ليصبح جزءا لا يمكن فصله عن مكوناته وارتبطت حياته

---

(1) تتضمن المراجع التالية وصفا للحياة بداخل البلاط السلطاني خلال القرن التاسع عشر :

E. Aubin, pseud. (Léon Descos), *Morocco of To-day* (London, 1906), ch.12; E. Michaux-Bellaire, "Au palais du sultan marocain", *RMM* 5, 8 (août 1908): 647 - 662;

وللمؤلف نفسه مادة المخزن «مخزن» في *EI* I, s.v. "Makhzen" . وأهم ما صدر في هذا الباب باللغة العربية ، كتاب عبد الرحمن ابن زيدان ، العز والصولة في معالم نظم الدولة ، في جزئين ، (الرباط ، 1929 – 1933) ، الجزء 1 .

ارتباطا وثيقا بذلك النسق .

وحين حل الصفار بالبلاط السلطاني ، لم يُلحق بمجموعة الكتاب المتخصصين في تحرير المراسلات المخزنية ، بل أسند إليه السلطان مولاي عبد الرحمن مهمة السهر على تربية أفراد الأسرة السلطانية وتعليمهم ، ومن بينهم الأمير مولاي الحسن ، الذي أصبح فيما بعد سلطانا على المغرب كما هو معلوم . وبالمقابل ، فإن الصفار قد كانت «مونته تأتيه من طعام مولانا عبد الرحمن رحمه الله من داره السعيدة صباحا ومساء» . وفي أعقاب ذلك ، أصبح الصفار بصفة تدريجية قريبا من أفراد الأسرة السلطانية ، ولم يمض سوى وقت ضئيل حتى ظهرت مواهبه واتضحت معالمها ، فتطورت العلاقات بين الطرفين على الشكل التالي :

«وكان السلطان نفسه يحضر مجلسه حالة تلك القراءة مع الشرفاء (يعني أبناء السلطان وأحفاده) ، ويقدمه للصلاة إذا لم يحضر الإمام الراتب . ويستغرق معه جل الأوقات في المذاكرة في العلوم . وكان يكتب لجلالته المكاتيب الخاصة . فكان وظيفه لدى السلطان المذكور كأنه السكرتير الخاص الذي يباشر الأعمال التي لا ينبغي أن يطلع عليها إلا من كان كامل الأمانة موضعا لكامل الثقة»(1) .

وبعد أن تحول الصفار من مدرس إلى كاتب خاص يتمتع بثقة السلطان الخاصة ، انتهى به المطاف إلى الارتقاء لمنصب الصدر الأعظم في السنوات الأخيرة من حكم السلطان مولاي عبد الرحمن ، وهو أعلى المراتب التي يمكن أن يطمح إليها موظف مخزني(2) . وكانت مهمته الجديدة تتمثل في الجلوس إلى جانب السلطان ، والعمل على تنفيذ أوامره ، والبقاء على اتصال مستمر عن طريق المراسلة ، مع جميع الموظفين المخزنيين من المستويات المحلية . وعلى الرغم من أن العلاقات بين السلطان ووزيره قد تختلف حسب الظروف ، فإن هنالك نقطة أساسية واضحة تماما ، وهي أن الصدر الأعظم لا بد من أن يتمتع بثقة السلطان الكاملة حتى يمكنه البقاء في منصبه . ومن الأمور المثيرة المعبرة عن خصوصيات محمد الصفار ، صموده الطويل الأمد وبقاؤه مدة

---

(1) تطوان ، 7 : 81 - 92 .

(2) ليس هناك إجماع بين المصادر على تاريخ تعيينه ، ويصل الاختلاف الموجود إلى حوالي سنتين ، لأن الصفار كان يقوم بمهام الصدارة العظمى مدة طويلة قبل بداية تعيينه بصفة رسمية . تطوان ، 7 : 81-92 .

قاربت ثلاثة عقود من الزمن طرفا فعالا في مركزية السلطة المخزنية . ويعتبر هذا رقما قياسيا له أهميته في عالم المخزن المعروف بتقلباته العديدة .

وبمجرد ما أصبح الصفار صدرا أعظم للدولة ، بادر في الحال إلى إقصاء منافسيه مستعينا في ذلك بمكانته السامية الجديدة . وحسب ما هو وارد عند محمد غريط ، فقد كان هنالك وقتئذ رئيس البروتوكول المعروف بقائد المشور[1] ، «لما له من كمال الأثرة ونفوذ المرة ومزيد الخبرة ، قد استولى دونه على مواد النفع وموارد الأخذ والدفع» ، فاشتكى الصفار أمره إلى السلطان الذي أقاله من منصبه . وبعد ذلك ، يضيف محمد غريط «استبد الوزير بتدبير أعماله وتنفيذ أشغاله ، متمريا ضرعها منتقيا زرعها ، [و] أن ما جمعه وبتطوان أودعه»[2] .

ولا تسعفنا المصادر إلا بمعلومات طفيفة وخاطفة حول ما تبقى من فصول حياة

---

(1) «المشور» ، هو الساحة الواسعة الأرجاء الموجودة عند مدخل القصر السلطاني . وقائد المشور موظف مخزني يتولى مسؤلية الحرس الموجود خارج القصر ، إلى جانب إشرافه على تنظيم الإجراءات الخاصة بحفلات استقبال سفراء الدول الأجنبية أو غيرها من الأنشطة الرسمية للمخزن المركزي . ابن زيدان ، العز 1 : 133 – 134 .

(2) غريط ، فواصل الجمان ، ص . 70 – 71 . أما **التقييد المجهول** ، فنجده على عكس ذلك يعدد صفات الاستقامة في حق محمد الصفار . وأصبح هذا الأخير رجلا ثريا عند ممارسة مهامه مع المخزن . وتتميز سكناه ومحل إقامته التي اشتراها فيما بعد في تطوان بتنميقاتها الجميلة الأشكال وبزخارفها الرفيعة على الخشب . وكانت مهامه تتيح أمامه فرصا عديدة لتحقيق المكاسب المادية ، لأن العادة كانت جارية بتقديم المشتكين هبات وهدايا مالية إلى وزير الشكايات (انظر الهامش رقم 105) ، «تتناسب مقاديرها مع حجم الشكاية وأهميتها» كما جاء ذلك عند :

Michaux-Bellaire, "Un rouage du gouvernement marocain: La beniqat ech chikaïat de Moulay Abd el Hafid", *RMM* 5, 6 (Juin 1908): 252.

وتضمنت وصية الصفار – وهي وثيقة خطية يبلغ طولها ستة أمتار وعرضها ثلاثون سنتمترا – لائحة مطولة بالممتلكات والعقارات والديون المخلفة والأشياء الثمينة التي كان يملكها . ويستفاد منها أنه ترك بعد وفاته أزيد من ثلاثين عقارا موزعة على مدن تطوان وفاس وزرهون ومراكش بقيمة 42,883 ريال . لكنه بقيت عليه ديون بلغ مجموع قيمتها 2600 ريال أداها عنه السلطان مولاي الحسن لأصحابها ، وثائق عائلية ، تطوان .

الصفار أثناء مساره الطويل في خدمة المخزن المركزي. ففي صيف سنة 1859 مثلا، حين ساءت صحة السلطان مولاي عبد الرحمن سادت الشكوك حول مصير الولاية، فكان الصفار المركز الأساسي الذي اعتمد عليه المخزن. وجاء في أحد التقارير الفرنسية، أنه تم «استدعاء طبيبين إنجليزيين إلى مكناس في شهر غشت لإجراء فحوص عليه فأكدا بأن حياته أشرفت على النهاية. وكان الصفار هو المتحكم الحقيقي في زمام الأمور»[1]. كما لعب الصفار أيضا دورا أساسيا في تولية خلف السلطان المتوفى، سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859-1873) الذي كانت ميوله الإصلاحية واضحة المعالم[2].

وكانت من الأهداف الأساسية للسلطان الجديد، محاولة تحقيق نوع من العقلنة لبنيات الدولة؛ فعمل إلى جانب وزيره محمد الصفار على إنشاء منصب حديث العهد في المغرب هو منصب وزير الشكايات، للنيابة عن السلطان في الرد عن التظلمات الصادرة على المستويات المحلية من مجموع البلاد، وكلف محمد الصفار بتحمل أعباء تلك المهمة الجسيمة. وتتلخص مهمة هذا الوزير في تلقيه جميع أنواع الشكايات، والبت أحيانا في البعض منها شخصيا «حسب رغبة السلطان»، وإحالة بعضها الآخر على حاكم البلاد وسيدها أحيانا أخرى. وكان السلطان يستمع شخصيا إلى المتقدمين بشكاويهم مرة في الأسبوع، ليؤكد بذلك دوره التقليدي كرئيس أسمى لهيئة القضاء، وأنه هو آخر هيئة شرعية يمكن اللجوء إليها في البلاد للبت بصفة نهائية وحاسمة في القضايا ذات الصبغة الشائكة أو المعقدة[3]. ويقدم

---

(1) Miège, *Le Maroc* 2: 359 note 4.

(2) نفسه. وفي 1873 لعب الصفار دورا هاما في تهدئة ثورة الدباغين في فاس، حين أقنع السلطان مولاي الحسن بعدم إطلاق المدافع على المدينة بقوله: «يا مولانا إن فاس جوهرة فريدة في المغرب، فإذا هدمناها فمن أين لنا أن نأتي بفاس أخرى»، تطوان، 7 : 89؛ المنوني، **مظاهر** 1 : 299 - 300.

(3) انظر المراجع التالية:

Laroui, *Origines*, p.113; Mohamed Lahbabi, *Le gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle* (Rabat, 1958), pp.173 - 181.

أنشئت وزارة الشكايات بهدف التخفيف من حدة الكرب والحزن الذي حل في نفوس المغاربة ==

لنا ابن زيدان لمحة عن مهام هذه الوزارة نقتبسها من كتابه إتحاف أعلام الناس :

«وعاد المترجم [السلطان] في تقسيم أيام الأسبوع أنه كان - قدس الله روحه - يقابل أصحاب المظالم وأرباب الشكايات بنفسه . يوم الأحد يقدم له الوزير المكلف بسماع المظالم و تقييد دعاويهم في زمام المشتكين كل باسمه ونسبه ومحل استيطانه وتقرير دعواه ، فيأخذ المترجم الزمام وينادي المقيدين به واحد بعد واحد ويبحث كلا على حدته بحثا مدققا حتى يأتي على جميعهم . فمن وافق مقاله ما هو مقيد عنه وقع بما يراه نظرة الأسد في إنصافه ممن ظلمه . ومن وقعت منه أدنى مخالفة يتتبع قضيته ويحلل كلامه أدق تحليل حتى يتضح له وجه الحق ، فيقضي بما يراه . هذا كله ووزير الشكاية واقف بإزاء المترجم [السلطان] وبيده تقييدة مثل التي بيد صاحب الترجمة [السلطان]»(1) .

وظل الصفار على رأس تلك الوزارة طوال فترتي حكم السلطانين سيدي محمد بن عبد الرحمن وخلفه المولى الحسن ، إلى حين وفاته في سنة 1881/1298 .

و بقي الصفار متمسكا إلى النهاية وبصفة قارة بخصلتي الاستقامة والرزانة اللتين تميز بهما منذ بداية مسيرته . وبخلاف العديد من الذين أثيرت ضدهم حفيظة السلطان وانتهى المطاف بإبعادهم في سنواتهم الأخيرة ، نجد الصفار ينهي الفصول الأخيرة من حياته في جو من الهدوء والطمأنينة ، تماما كما كان أمره في البداية . وعلى الرغم من كبر سنه ، نجده ملازما لحاشية السلطان أثناء كل التحركات والتنقلات التي كان يقوم بها المخزن المركزي بمختلف أرجاء البلاد . وفي إحدى حركات مولاي الحسن ، أصيب الصفار بوعكة صحية بينما كانت المحلة السلطانية تعبر المناطق الجبلية الممتدة بين فاس ومراكش ، فانتاب السلطان قلق كبير على أثرها ، فقيل إنه جعل محفته رهن إشارة وزيره الذي كانت حالته الصحية لا تسمح له بركوب الفرس . وحين اقتربت المحلة السلطانية من منطقة دار ولد زيدوح التادلية ،

= في أعقاب الاحتلال الإسباني لتطوان في 1859 . وعن هذه الوزارة ، انظر ما كتبه ابن زيدان ، العز 1 : 50 - 54 ؛ المنوني ، مظاهر ، الطبعة الثانية ، (الدار البيضاء ، 1985) ، 1 : 43 ، بالإضافة إلى الهامش 102 أعلاه .

(1) يشمل هذا الوصف وزارة الشكايات خلال فترة حكم السلطان مولاي الحسن ، الذي تولى الحكم كما هو معلوم بعد سيدي محمد بن عبد الرحمن . الإتحاف ، 2 : 516 .

توفي محمد الصفار[1] . وأمر السلطان بتحضير جنازته وتهييئها للدفن والصلاة عليه . ثم وضع جثمانه من جديد فوق محفة السلطان وحمل عليها إلى مراكش ، فأقبر في ضريح الولي الصالح سيدي يوسف بن علي الموجود خارج باب أغمات أحد أكبر أبواب الحضرة المراكشية[2] .

وكان دفن محمد الصفار بجوار الولي الصالح سابق الذكر تنفيذا لأمره أصدره السلطان مولاي الحسن ، مكافأة له على المدة الطويلة التي قضاها من حياته في خدمة المخزن . ومن المتناقضات الصارخة أن يكون تفاني الصفار في خدمة مؤسسة المخزن مدة طويلة هو الذي جعل اسمه يظل محفوظا ، في حين سرعان ما نسي إنجازه الكبير في أدب الرحلة . وكل الذين أرخوا لحياة محمد الصفار ، ركزوا جميعا على صب حياته في قالب من التقوى والخصال الحميدة ، باحثين عن كل ما يظهر فردانيته وسمو منزلته . ولم يتجاوز أي منهم ، باستثناء الفقيه محمد داود[3] ، الإشارة بطريقة عابرة وعرضية إلى رحلته التي قام بها إلى فرنسا . كما أن أحدا منهم لم يكلف نفسه عناء التساؤل أو التفكير في الآثار أو العواقب التي كانت لتلك الرحلة على سلوك حياة محمد الصفار خلال ما تبقى من حياته . كما أننا لم نستطع أن نعرف من كل الذين كتبوا عنه ، هل كان لتجربة الصفار الخارجية تأثير معين على سياسة المخزن أم لا ، بالرغم من أنه قد عاش في فترة كثر خلالها الحديث عن البرامج الإصلاحية وفقا للنمط الغربي بل وكانت وقتئذ من أبرز قضايا الساعة .

ونعلم جيدا أن دقة الملاحظة والجودة في التعبير الباديتين بوضوح كامل من

---

(1) كانت أسرة ولد زيدوح من الأسر الكبيرة التي غالبا ما زودت المخزن برجال أكفاء مارسوا مهامهم كقواد في منطقة تادلة .

(2) يعتبر سيدي يوسف بن علي أحد صلحاء القرن الثاني عشر ميلادي ، وهو واحد من سبعة رجال المعروفين بمراكش ، انظر :

G. Deverdun, *Marrakech: Des orgines à 1912*, 2 vols. (Rabat, 1959 - 66): vol.I, pp. 378 - 79; vol.2, planche 39.

(3) انظر ما كتبه محمد داود عن السفارة المغربية إلى فرنسا في : **تطوان** ، 3 : 259 – 309 . بينما اعتقد المراكشي خطأ أن الرحلة كانت إلى إنجلترا . وقد تدارك هذا الخطأ عبد الوهاب ابن منصور عند تحقيقه لكتاب **الإعلام** ، 7 : 35 ، الهامش 1 .

خلال صفحات الرحلة قد كانتا أيضا من الصفات المطلوبة في الأوساط المخزنية ، وأن ما اتصف به الرجل من ذكاء ولباقة سبق أن مكناه من إيجاد الطريق التي أدت به إلى فرنسا ، قد كانت كذلك من بين المزايا المطلوبة أيضا في حاشية البلاط السلطاني . لكن ، حتى يمكننا اكتشاف خصوصيات الرجل وتجربته الفريدة ، فإننا ملزمون بالعودة إلى الرحلة ذاتها . وكما أن الحديث عن فصول حياة محمد الصفار يعزز فهمنا لمضمون رحلته ، كذلك ستساهم قراءتنا لمتن الرحلة في تعميق معرفتنا بجوانب إضافية من حياته .

صدفة اللقاء مع الجديد

تكمن أهمية رحلة الصفار إلى فرنسا ودلالاتها العميقة ، في ما تتميز به من فرادة وطابع عالمي . وقد انبعث ، من خلال صفحات الرحلة ، صوت من الماضي حيا بكل ما في الكلمة من معنى ، ليتيح لنا فرصة الدخول إلى عالم يبدو اقتحامه أمرا عسيرا . وإذا كانت قيمة الكتابات الخاصة بالرحلات تكمن في حرفيتها وفي ما تتميز به من «إحالة مستمرة على الحاضر»[1] ، فإننا نجد أنفسنا هنا أمام ما هو واقعي . إن الواقعة المشعة ، والانطباع القائم على أساس سذاجة مستبصرة يحتويان في داخلهما على جانب روائي إنساني . ونتيجة لمعرفتنا المحدودة بالعصر ، وفي غياب أصوات أخرى تتكلم بوضوح مماثل ، فإن خصوصيات الرحلة هي التي ستوسع درجات فهمنا .

غير أن الرحلة تضرب أيضا على أوتار تتجاوز ما هو واقعي ، وخاصة حينما يفحص النص بنظرات وعيون أخرى غير النظرة التاريخية الصرفة . وأقترح في هذا القسم ، تقديم بعض الطرق الهادفة إلى تأويل رحلة الصفار التي تنطوي على مستويات عميقة المعاني . وكانت لدى الأنثروبولوجيين تبصرات بطبيعة التجربة المكتسبة من خلال الرحلات ، كما أسهب النقاد الأدبيون في الحديث عن بنية

(1) Paul Fussell, *Abroad: British Literary Traveling between the Wars* (New York, 1980), p.203.

ويبدو المدى الذي أثر به عمل فوسيل النقدي في قراءتي للصفار واضحا .

الرحلة وعما يتضمنه أسلوبها من تعبير حكائي ، فكانت استفادتي منهما معا لتذليل الصعاب وبلوغ الهدف المنشود .

وذكر الناقد بول فوسيل (Paul Fussell) أن أدب الرحلة فن أدبي يحتوي على نمطين إدراكيين متباينين ، أولهما هو الفعلي والبعيد عن الأوهام ، أي العالم المادي الملموس ؛ وثانيهما هو النمط الخيالي ، الذي يتحول فيه الخاص إلى ما هو عام ، والشيء الحقيقي إلى ما هو تصوري ، كما تتحول فيه الملاحظة إلى تهيؤات . «إن كتاب الرحلة شبيه بقصيدة شعرية في إعطائها دلالات عالمية لنسيج محلي صرف»[1] . وكان موضوع اهتمامات فوسيل هو كتابات الرحلات البريطانية في فترة ما بين الحربين العالميتين . غير أن الملاحظات التي أبداها وكذا تعليقاته الصائبة تنطبق بقوة مماثلة على رحلة محمد الصفار . مما يوحي بان أجود نموذج لهذا الفن الأدبي ، وبغض النظر عن خصوصياته الثقافية ، غني بمزايا ذات طابع عالمي مماثل .

ويكتسي السفر إلى أماكن بعيدة للغاية منا ، طابعا سحريا ، بل ويكون بمثابة حدث كفيل بتغيير مجرى حياتنا . وقد أثار الأنثروبولوجيون الانتباه منذ مدة طويلة إلى مدى التأثير الذي يحدثه السفر في السلوك لبشري وعلى القدرات الإدراكية لبني الإنسان ، وخاصة قدرته العجيبة على نقلنا من مستوى ما هو عادي أو «دنيوي» ، إلى مستوى زمان ومكان ما يلبثان أن يصبحا مليئين بخصوصيات «القداسة»[2] . وسواء أكان السفر من أجل المتعة أم كان في إطار القيام بالواجب الذي تفرضه طبيعة العمل ، فإن السفر فترة فاصلة تفرض ذاتها على الحياة اليومية ، وهي فاصلة بين ما

---

(1) نفسه ، ص 214 .

(2) يذكر نيلسون گرابورن (Nelson H .H. Graburn) كتابات كل من دوركهايم (Durkheim) ، وموس (Mauss) ، وليش (Leach) ، وفان جينيب (Van Gennep) ، معتبرا إياها ذات أهمية خاصة لصياغة المفاهيم المتعلقة بالقدسي والدنيوي في علاقاته مع الرحلة .انظر كتابه :

Nelson H. H. Graburn, "Tourism: The Sacred Journey", in Valene Smith, ed., Hosts and Guests: *the Anthropology of Tourism*, 2nd ed. (Philadelphia, 1989), pp.24, 26.

وانظر أيضا :

V. Turner and E. Turner, *Image and Pilgrimage in Christian Culture: Anthropological Perspectives* (New York, 1978), ch.I.

تتميز به هذه الأخيرة من رتابة وما هو مثير للإعجاب . وبالفعل ، فإن مجرد التعاقب الحاصل بين حالتي العادي والخارق للعادة ، قد يصبح مقياسا لمرور الزمن ذاته . وقال نيلسون كرابورن (Nelson Graburn) في هذا الصدد ، بأن التعاقبات المتباينة بين ما هو قدسي ودنيوي ، هي إحدى السبل التي تسلكها لعد مراحل حياتنا وقياسها . إن السفر يساعدنا على تحديد الزمن بالنسبة لأنفسنا ، وذلك بتقسيم الحياة إلى أجزاء منفصلة ومطبوعة بما يمكن تسميته طقوس المغادرة والعودة[1] .

إن هذين الحدثين ، أي مرحلة الذهاب أو المغادرة التي غالبا ما تتسم بكونها مؤلمة وموجعة ، ومرحلة العودة المليئة عكس ذلك بالفرح والانشراح ، هما اللذان يحتل السفر موقعا وسطا فيما بينهما ، ويسموان به إلى مستوى الشيء غير العادي . ويؤكد فوسيل على تلك البنية «الثلاثية» التي يتميز بها السرد الروائي للرحلة ؛ إذ يقوم الشخص المركزي ، كما هو حال البطل الرومانسي ، بمغادرة الأشياء المألوفة لديه ويرمي بنفسه نحو المجهول : «أولا ، بداية الرحلة بالانفصال عن المألوف ؛ وثانيا ، محاولات التأقلم والشروع في خوض المغامرة ؛ وثالثا ، عودة البطل واندماجه مجددا في المجتمع»[2] . إن الرحلة لشبيهة بنوع من «الحياة المصغرة ، ذات البداية المشرقة ، ثم وسطها ، فنهايتها . . . المطبوعة بطقوس تزج بنا زجا وبلا رجعة نحو العدم»[3] .

ويبدو من خلال رحلة محمد الصفار ، أن الابتعاد عما هو مألوف ، والانتقال إلى حالة ذات مستوى شعوري وفكري أسمى ، أمر واضح لا غبار عليه . وعلى الرغم من كون العالم المغربي بعيدا تماما عن كونه من الوجوه البطولية المغامرة ، فقد كان مع ذلك مقبلا على خوض تجربة مثيرة . ويمكننا من خلال تعابيره معاينة مدى تأثره العميق ، إذ لم يتمالك نفسه حينما أشرف على مغادرة تطوان فجادت قريحته بالبيتين التاليين :

أتطواننا الغــراء هل يســـعــد الدهر
بأوبتنا كـيــمـــا يعــود لنا الوصل؟

---

(1) Graburn, "Tourism", pp.24 - 25.

(2) Fussell, *Abroad*, p.208.

(3) Graburn, "Tourism", p.26.

وهل يبـدوا أو يدنوا مـحـيـاك بعـدما
تلاطمت الأمـواج ويجـمع الشـمل؟[1]

وتضاعفت آلام الصفار من جراء الفراق بخوفه من هول البحر . فالرحلة عبر البحر تفوق كثيرا مستوى المجهول ، بل هي مغازلة صريحة للموت . وهنا أيضا ، فإن هذا الشعور نموذجي متبادل بين الناس ، لأنه غالبا ما يخشى المسافر في أعماقه أن يموت بعيدا عن موطنه الأصلي .

كما تكون مرحلة العودة مشحونة أيضا بالصعوبات . فعند الرجوع إلى الأمور المعتادة ، يجد المسافر نفسه مشدودا بين تناقضات مشاعره الوجدانية . إذ لا تعني العودة إلى البيت مجرد التمكن من تجديد الصلة بالأحبة لطول الشوق إليهم ، بل تعني أيضا الرجوع إلى القيود والالتزامات التي تفرضها عليه الحياة اليومية ، وأن يترك من ورائه ذلك الطابع السحري العجيب المميز للرحلة[2] . وإذا كانت رحلة الصفار لا تحتوي على أي وصف لظروف العودة إلى البلد ، فإنها تتضمن تعبيرا شعوريا عميقا بلغ ذروته القصوى من السمو . فقد جاء في الصفحة الأخيرة من مخطوط الرحلة ، عندما ودع الصفار فرنسا هذا القول : «وأستغفر الله مما جنت يداي ، وأبصرت هناك عيناي من المناكر الشنيعة ، وسمعته أذناي من الإشراك والكفريات الفظيعة»[3] . وكانت الملاحظة عبارة عن خاتمة : إذ تضمنت اعترافا منه بأهمية الأشياء العجيبة التي شاهدها ، وتنكرا في الوقت نفسه لمعايشته إياها مدة من الزمن . وبذلك يتحرر الصفار من افتتانه بالتجربة المقدسة ، ويشرع في العودة إلى المألوف والمعتاد ، وهو واع بما يفعل .

إن البنية الثلاثية للرحلة تجعلها ترتفع إلى مستوى «القصة الرمزية للحياة الإنسانية ذاتها»[4] . وكما هو الشأن في الحياة ، فقد تتخللها لحظات من البهجة والحبور ولحظات أخرى من التعاسة والأسى . وتعلقت بعض الأشياء التي شاهدها الصفار في فرنسا بأمور ذات صلة بالحياة المدنية . غير أنه كانت للكثير منها أيضا

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(2) Graburn, "Tourism", p.27.

(3) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(4) Fussell, Abroad, p.209.

علاقة بما صادفه من أشياء غريبة وأخرى عجيبة وشاذة ، بل ومعاينته لأشياء لم يكن ليتوقعها أبدا لأنها لم تدر في خلده من قبل . إن جدة الموضوع عليه كانت مصدرا لصعوبته ، كما كانت في الوقت نفسه مصدرا لإعجابه . وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأرضية الثقافية التي ينتمي إليها محمد الصفار ، أمكننا أن نفهم كيف أن الأشياء غير المعهودة التي لم يسبق له رؤية مثلها كانت موضوع شكه وريبته . وكيف أن الجديد لا يمكن أن يشكل في اعتقاده سوى الخطر المحدق لا محالة . وقد أشار فرانز روزنتال(Franz Rosenthal) ، قائلا إنه في عصر المخطوط يكون «النجاح النهائي للأفكار الجديدة التي لا تتماشى مع الأنماط الفكرية السائدة . . . نجاحا غير مضمون . وإذا لم تحظ فكرة جديدة بموافقة مجموعة عريضة من العلماء خلال مدة زمنية وجيزة ، فالأحرى بها أن تدفن في رفوف إحدى المكتبات ، مع وجود آمال ضئيلة في اكتشافها من جديد في وقت لاحق»[1] . وفيما يتعلق بشخص وجد نفسه ملزما بكتابة تقرير يتعلق بقضايا معقدة وبأمور غير معهودة ، فإن مسألة الثقة به تبدو غير كبيرة . وحتى يتسنى له ضمان القبول لأفكاره تلك ، كان عليه بالضرورة العمل على صبها في قوالب معروفة ، وتقديمها وفقا للأشكال المعترف بها وقتئذ ، والمقبولة من لدن سَدَنَة الأعراف والتقاليد . وخوفا من أن يكون مآل تقريره هو أن يرفضه السلطان سيده العارف ببواطن الأمور ، فإنه كان على وعي تام بان أفضل وسيلة لبلوغ الهدف هي الالتزام باحترام الأعراف السائدة[2] .

وهنالك ضغوط أخرى كان لها تأثيرها الواضح على محمد الصفار . إذ لابد من التذكير أن السلطان كان مهتما بالمشروع شخصيا ، مما جعله يرقى إلى مستوى عال من الجدية . ولا يستبعد أن يكون التقرير موضع اهتمام ومناقشة مستفيضة في البلاط السلطاني ، وربما قرأه السلطان مولاي عبد الرحمن شخصيا . وربما كان أيضا البعض من حاشية السلطان من أصدقائه أيام الدراسة ، والبعض الآخر من أفراد الأسرة أو

---

(1) Franz Rosenthal, *The Technique and Approach of Muslim Scholarship, Analecta Orientalia* 24 (Rome, 1947), p.57.

وكان ذلك هو المصير الذي آلت إليه مخطوطة محمد الصفار . وربما اعتبر السلطان مضمون الرحلة ضمن القضايا السرية للمخزن وقتئذ ، انظر: Laroui, Origines, p. 512

(2) انظر نماذج من عناوين الرحلات المغربية في بيبليوغرافية هذا الكتاب .

من أولئك الذين تربطهم به بعض العلاقات الزبونية ، وجميع هؤلاء ينتمون إلى طبقته الاجتماعية . وحتى لا يُلحق الصفار بنفسه ولا بولي نعمته عبد القادر أشعاش أي خزي أو أذى ، كان عليه بذل قصارى جهده لتحقيق أفضل النتائج الممكنة . فكان لابد له من أن يظهر عبر أسلوب كتابته وروايته لمختلف فصول الرحلة ، كل الخصال الحميدة التي كان يتصف بها كخاصية الوقار والاطلاع الواسع ، والحرص على سلامة الأفكار من العيوب الإيديولوجية ، حتى يضمن لها أوفر حظوظ القبول لدى العناصر المكونة للوسط المخزني في مستوياته المركزية . علاوة على ذلك ، كان عليه أن يحرر تقريره عن الرحلة بأسلوب أدبي رفيع يعكس مدى تمكنه من ناصية اللغة العربية وأسرارها .

فما هي عناصر الأسلوب التي منحته المزايا الرفيعة المطلوبة؟ أولا وقبل كل شيء ، هناك القرار الذي اتخذه الصفار لصياغة تقريره في قالب الرحلة ، وهي من الأجناس الأدبية ذات الأصول العريقة في التقاليد الكلاسيكية . وإذا كانت الكتابات المتعلقة بالرحلات معروفة منذ أزمنة بعيدة وفي أماكن عديدة ، فإن ذلك الجنس الأدبي قد عرف نموه بصورة زاهية في كل من الأندلس وبلدان المغارب . وبفعل الإيمان العميق لسكان المغرب ، وبعدهم الجغرافي عن منابع الإسلام الأولى في شبه الجزيرة العربية ، كانوا حريصين أشد الحرص على أداء فريضة الحج . وكانت الروايات الخاصة بالرحلات الحجازية ، التي يشارك فيها الحاج مغامرته مع الآخرين ، نموذجا مثاليا للقصة ذات الطابع القدسي . ويتم المرور فيها بالمراحل التالية التي تعتبر أبرز المحطات المكونة للبنية السردية للحكاية : بداية من التوسل والتضرع إلى الله ، إلى مراحل الرحلة ، ثم المخاطر التي صودفت أثناء الرحلة ، وأخيرا بلوغ الهدف المنشود الذي كان يبدو بعيد المنال في البداية . وكان الوصول إلى الديار المقدسة من أكثر الأمور إثارة للمشاعر ، إذ تنضوي تحته كل وقائع الرحلة . ويعطي بلوغ ذلك الهدف شكلا ومغزى حقيقيا للرحلة ، فيجعلها تكتسي دلالات فعلية بشكل لا يمكن أن يتأتى تحقيقه في حالة الاقتصار على رواية ذات طابع كرونولوجي بسيط . وعلى مستوى الزمن ، فإن أدب الرحلة قد يمتد ليشمل روايات تتعلق برحلات مخصصة لأغراض أخرى ، كالتوجه بعيدا طلبا للعلم ، أو الذهاب في بعثة سفارية في إطار مهمة دبلوماسية . غير أن أفضل نموذج للرحلة وروايتها على الإطلاق هو الكتابات المتعلقة بالرحلات الحجازية نحو الديار المقدسة .

وكان أدب الرحلة تقليدا مغربيا متأصلا جدا في خلفية محمد الصفار الثقافية ، مما يَسَّر الشكل المنطقي الذي صَبَّ فيه تجربته في ميدان الرحلات . والأهم من ذلك ، هو أن ذلك النهج كان معروفا عند قرائه ، لأن قراءة التوطئة التي افتتح بها رحلته والشبيهة جدا بالعبارات المعهودة في افتتاحيات نصوص الرحلات الحجازية ، كفيلة بمنح هؤلاء القراء مزيدا من الاطمئنان ، كما هو حال غالبية النصوص ذات الطابع التقديسي التي تفتتح دائما بديباجة مطولة من التعاويذ والأدعية المماثلة[1] .

(1) عن أدبيات الرحلة عند العرب ، انظر :

M.Hadj-Sadok, "Le genre 'Rihla'", *Bulletin des études arabes* 8, 40 (1948): 195-206; *GAL S* 3, index, s.v. rihla; *EI* 2, s.vv. "Djughrafiya", "Hadj".

وعن الأسفار والرحلات إلى الغرب ، انظر :

B. Lewis, *The Muslim Discovery of Europe* (New York, 1982); I .Abu-Lughod, *The Arab Rediscovery of Europe: a Study in Cultural Encounters* (Princeton. 1963); Henri Pérès, *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930* (Paris, 1937).

وعن الرحلات الإسلامية ، انظر :

Dictionary of the Middle Ages, vol.12, s.v. "Travel and Transport, Islamic", by Richard Bulliet.

بالإضافة إلى العمل بالغ الأهمية الذي أنجزه أندري ميكيل تحت عنوان :

André Miquel, *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle*, 4 vols.(Paris, 1967-1988), vol 1, ch.4 et vol.2, ch.7.

وانظر أيضا الهامش 25 سابق الذكر في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

أما عن الكتابات المغربية في موضوع أدب الرحلة ، فانظر ما يلي : عبد السلام ابن سودة ، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، في جزئين ، (الدار البيضاء 1960-1965) ، 2 : 333-370 . وقد أشار فيه المؤلف إلى حوالي 240 عنوانا ، جلها رحلات حجازية غير منشورة . ومن المصادر الأخرى ، محمد الفاسي ، «الرحلة السفارية المغربية» ، في **البينة** ، 1 ، 6 (أكتوبر 1962) : 11-24 ؛ «الرحالة المغاربة ومآثرهم» ، في **دعوة الحق** ، 2 ، 4 (يناير 1959) 22-25 ، وكتب هذا المؤلف نفسه تقديما لكتاب **الإكسير في افتكاك الأسير** ، لمحمد بن عثمان المكناسي ، نشره محمد الفاسي (الرباط ، 1965) . وانظر أيضا : M. Lakhdar, *La vie littéraire* ، بالإضافة إلى محمد المنوني ، **المصادر العربية لتاريخ المغرب** ، الجزء 1 (الدارالبيضاء ، 1983) ، والجزء 2 (المحمدية 1989) .

وفي الحقيقة ، إننا نجد أنفسنا هنا أمام مشكلة . ذلك بأن أسمى أشكال الرحلات وأكثرها اتساما بالورع والتقوى هي التي تشد فيها الرحال إلى منابع الإسلام الأولى ومعاقل الإيمان المقدسة . أما أن تكون هذه الرحلة قاصدة بلاد الغرب ، ففي ذلك قلب للأمور رأسا على عقب : فهي رحلة في اتجاه اللامقدس بل إلى ما يعتبر مدنسا من وجهة النظر الإسلامية التقليدية . إذ يكون الرحالة المسلم المتوجه إلى بلاد الغرب عرضة للخضوع إلى المقاييس والإغراءات السائدة في مجتمع يعتبر فاسدا في جوهره . وهناك لابد من مواجهة المسلم لصعوبات كبيرة للقيام بالشعائر والواجبات الدينية . كما أنه يكون مهددا في كل وقت وحين بما يلوث عقيدته أو يدنسها . وكان المشكل المطروح سواء على الصفار أم غيره من الرحالة المسلمين المتوجهين إلى أوربا ، هو كيفية التخلص من رائحة ذلك الدنس الملتصقة بهم ، وكيفية تبرير سلوكهم حتى يلقى القبول من إخوانهم في الدين والعقيدة .

وكان الصفار على وعي تام بهذا المشكل القائم ، فواجهه متسترا وراء عبارة لها وزنها ، ألا وهي : مصالح الأمة . وبناء على ذلك ، فإن الرحلة إلى بلاد الغرب تستحق أن تتمتع بموافقة جماعة المسلمين لأنها مطابقة للقيم الدينية الهادفة إلى حماية المؤمنين . وفي هذا السياق ، قال الصفار إن السلطان أرسل البعثة السفارية «جريا على عادته في الحرص على انتظام أمر الخاص والعام» ، وأضاف معززا كلامه بما يلي : «ولم يزل هذا دأب أئمة الأمة وحماة الملة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث لذلك كبراء أصحابه ، وفيه إسوة . وتابعه في ذلك الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون»[1] . ليست هناك على الإطلاق سلطة أعلى من هذه السلطة – وهي سابقة سنها المسلمون الأوائل – يمكن أن يستند إليها محمد الصفار ليمنح مغامرته طابع المشروعية ويجعلها أمرا مقبولا ومستحسنا . وسبق لكرابورن القول إن إجماع الجماعة على رأي واحد في مسألة السفر أمر مهم لموضوع الرحلة . إذ هناك ما يبرر الوقت المستهلك والجهد المبذول اللذين كان من الممكن إنفاقهما لتحقيق أهداف اجتماعية أخرى[2] . وهكذا يكون الصفار ، بإيجاد رابطة لجهوده مع قداسة الحج ، وبحديثه عن النتائج الإيجابية المكتسبة في الماضي عبر الطرق الدبلوماسية ، قد بحث عن كل ما

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(2) Graburn, "Tourism", p.28.

من شأنه أن يبارك خطواته ، إذ وضع مشروعه في سياق تيار له تقاليد عريقة وموغلة في الزمن .

وبالرغم من افتقار الصفار إلى معرفة سابقة ومباشرة بالبلاد الفرنسية ، فمن الأكيد جدا أن يكون قد تمكن مسبقا من تكوين أفكار وتصور تصورات تتعلق بأوربا ، معتمدا في ذلك على غيره من الذين حلوا قبله بربوعها . وهذا فضلا عن معرفته الشخصية بخصائص النظام الاجتماعي بوجه عام . ولم يقتصر تكوينه على تزويده فقط بالنمط الأدبي للرحلة ، بل مكنه أيضا من اكتساب مفاهيم تتعلق بالطريقة التي تتكون بموجبها البنيات المجتمعية . وفي هذا المجال ، كان مصدره الأساسي هو كتابات ابن خلدون ، المؤرخ والفيلسوف والمنظر الاجتماعي المغاربي ، الذي عاش خلال القرن الرابع عشر الميلادي . وكانت المقدمة أهم وأغنى المصادر على الإطلاق التي استقى منها الصفار أفكاره ، سواء في مواضيع الجغرافيا والمجتمع ، أم حول طبيعة السلطة السياسية بكل مكوناتها[1] .

وانصب اهتمام ابن خلدون على ظاهرة العمران وعلى الكيفية التي يعبر بها عن ذاتيته داخل المجتمع . وعنده أن أفضل طريقة يمكن لبني البشر سلوكها لضمان عيش سليم هي أن يعيشوا متكتلين ضمن مجموعات . وأن بقاء المجموعة وازدهارها يظل مرتبطا بدرجة التعاون والتآزر الموجودين بين العناصر المكونة لها . وحينما قال الصفار إن فرنسا مركز للحضارة ، كان يرى أمامه تجسيدا لأفكار ابن خلدون ، لما شاهد عددا

---

(1) كل الإحالات الواردة في هذا الكتاب على المقدمة مأخوذة عن النسخة الإنجليزية التي وضعها روزنتال :

F. Rosenthal, *the Muqaddimah: An Introduction to History*, 3 vols. (Princeton, 1967).

ويحتوي الجزء الجزء الأول منها على ترجمة لابن خلدون . بينما نجد تلخيصا مركزا لنظرية ابن خلدون في الدولة ضمن الفصل الرابع من كتاب روزنتال الذي يحمل العنوان التالي :

E. I. J. Rosenthal, *Political Thought in Medieval Islam* (Cambridge, 1968).

وللاطلاع على وجهة نظر مغربية في الموضوع ، يمكن الرجوع إلى كتاب علي أومليل :

Ali Oumlil, *L'histoire et son discours* (Rabat, 1982).

(المعرب) : وعند تعريبنا أو تعاملنا مع الفقرات المتعلقة بابن خلدون اعتمدنا على الطبعة العربية الصادرة في بيروت سنة 1978 .

هائلا من السكان وهم يشتغلون بحيوية كبيرة وبانسجام وتوافق تامين . كما تبنى محمد الصفار المفاهيم الخلدونية المتعلقة بالسلطة السياسية . وكان الفيلسوف المغاربي يؤمن بأن بني الإنسان أنانيون بطبعهم ، ولابد من استعمال القوة لكبح جماحهم . ومن الخصائص المميزة للمجتمعات المحكمة التنظيم ، هي أن يكون على رأسها ملك قوي تحت إمرته جيش شديد البأس ، ولديه إمكانات مالية متينة يستند عليها لتدبير كل شؤونه . إن اهتمامات الصفار - كما تبدو من خلال صفحات الرحلة - بالقضايا العسكرية والمالية ، لم تكن مجرد انعكاس لمشاكل كانت قائمة وقتئذ في المغرب ، بل كانت في الوقت نفسه إسقاطا لاعتقاداته المكتسبة من قراءته لكتابات ابن خلدون ، والتي تعتبر المال والرجال دعامتين أساسيتين لا مناص منهما لضمان استمرار الدولة ووجودها .

إن نظريات ابن خلدون المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي قد زودت محمد الصفار بأفكار واضحة المعالم عن المجتمعات الفاعلة والمنتجة . وكل الأشياء التي شاهدها الصفار في فرنسا من دور وبنايات مشيدة ، وورشات عمل وحوانيت نابضة بالحيوية ، إلى جانب الحقول المزروعة والأراضي المحروثة وغيرها ، كانت دلائل ناطقة بدرجات التقدم الحضاري ، بشكل مماثل لما سبق له الاطلاع عليه في صفحات المقدمة . وحتى الخطبة التي ألقاها ملك فرنسا من أعلى عرشه يوم الاحتفال بمطلع السنة الجديدة ، كانت تعبيرا عن المفاهيم الخلدونية المدونة في المقدمة المتعلقة بمظاهر السلطة عند الملوك[1] . وتعتبر كل هذه الأفكار جزء من الثقافة التقليدية المنقولة عبر الأجيال من العلماء المغاربة إلى الأجيال اللاحقة ، وفي وسط ضيق من المتعلمين في مستوياتهم العليا ، وهي معروفة لدى العناصر ذات التكوين الجيد . ومن الطبيعي أن تجد مثل تلك الأفكار صدى لها ، بل وأن تلقى الاستحسان في ذهن كل هؤلاء عند قراءتهم للرحلة . إن استحضار الصفار لابن خلدون واحتماءه بأفكاره قد فسحا له مجالا واسعا للتصرف بكامل الحرية . ذلك بأن تقديمه لتصوراته المتعلقة بفرنسا وفقا للنمط الخلدوني ، جعله قادرا على التعبير عن مدى إعجابه بالفرنسيين وبكل ما حققوه من منجزات ، مع إمكانية بقائه في الوقت نفسه في إطار الحدود الثقافية المسموح بها . وكان بوسعه القيام بذلك ، لأن المجتمع الفرنسي كان يبدو له - على الأقل من حيث

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

مظاهره المادية الخارجية - منسجما مع فكرة الدولة الإسلامية محكمة التنظير والتسيير ، والسائدة إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي .

وإذا كان ابن خلدون قد ساهم في وضع اللبنات والأسس التي بنى عليها الصفار رحلته ، فإن الطهطاوي هو الذي زود الفقيه التطواني بمواد البناء . وإذا اكتفى الصفار بإشارة عابرة إلى اسم الرحالة والمفكر المصري المذكور ، فإن المقارنة بين متني الرحلتين تبين أن الصفار أخذ أشياء كثيرة عن الطهطاوي[1] . ولا نستطيع الجزم بأن الصفار قد اطلع على كتاب الطهطاوي خلال مدة وجوده في فرنسا ، أو بأنه وجد نسخة من تخليص الإبريز في المغرب بعد عودته . غير أن ما يبدو واضحا ، هو أن كتاب الطهطاوي كان مفتوحا أمام الصفار في بعض النقط ، واستمد منه أشياء عديدة ، نظرا لوجود أوجه تشابه كبيرة في الأسلوب والشكل وفي بعض التفاصيل . بل وهناك تصرف واضح في عبارات الطهطاوي من حيث أسلوبها الأصلي ، بشكل لا يمكن أن ينظر إليه من حيث الأعراف الغربية إلا بأنه من باب السرقة الأدبية . غير

---

(1) ولد رفاعة الطهطاوي في طهطا بمصر العليا سنة 1801 ، وتلقى دراسته بجامع الأزهر . وفي 1826 أرسله الخديوي محمد علي إلى باريز ليؤم مجموعة من الطلبة في الصلاة . درس في باريز لمدة خمس سنوات ، فتعلم الفرنسية بطلاقة ، ولخص انطباعاته حول فرنسا في كتاب تحت عنوان : **تخليص الإبريز في تلخيص باريز** ، وقد نشر بمطبعة بولاق بعد مدة قصيرة من عودته إلى مصر . وحظي ذلك الكتاب بشعبية كبيرة ، فترجم إلى التركية ، كما كان معروفا أيضا عند المثقفين المغاربة . وقد صدرت له حديثا ترجمة إلى الفرنسية أنجزها أنور لوقا :

Anouar Louca, *L'or de Paris: Relation de voyage, 1826-1831*, (paris, 1988).

وكانت وفاة الطهطاوي سنة 1873 . أما عن فصول حياته وأفكاره ، فانظر ما يلي :

A.Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, (London, 1967), pp.69-83 ; J. Heyworth-Dunne, "Rifaah Badawi Rafi at-Tahtawi: The Egyptian Revivalist", *BSOAS* 9 (1937-1939): 961-967, 10 (1940-1942): 399-415; A Badawi, Rifaa Rafi at-Tahtawi, 2nd ed. (Cario, 1959) ; Abu-Lughod, *Arab rediscovery*; et Anouar Louca, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle* (Paris, 1970), ch.2.

ووردت إشارة الصفار العابرة للطهطاوي هكذا : «الرفعة أفندي» ، انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

أن ذلك ليس من عيوب الأعراف والتقاليد الإسلامية ، بل يعتبر على العكس من ذلك مؤشرا على مدى كفاءة الكتاب واعتماده على مصادر من الدرجة الأولى تستحق كامل الثقة بل والاقتداء بها .

ولما كان الطهطاوي رجلا عالما شأنه في ذلك شأن الصفار ، فقد كان عليه القيام بدور مماثل ، وهو تقديم الوعظ والنصائح الدينية إلى مجموعة من المسلمين غير المتبحرين في شؤون الدين ، أثناء إقامتهم في وسط تسود فيه ثقافة أجنبية عنهم . وقد كان مصدر المعرفة الذي نهل منه الرجلان واحداً ، كما كانت نظرتهما إلى العالم عاثلة ، هذا رغما عن عدم وقوع لقاء سابق بين شخصيهما . إذ كانت تجمع بينهما نوع من القرابة الروحية التي جعلت الصفار يطمئن إليه ، ويستمد منه كل ما كان في حاجة إليه بطريقة بسيطة . وكان الصفار يقدر الطهطاوي لسبب آخر ، هو أن العالم المصري سمحت له الظروف بالمكوث مدة قاربت خمس سنوات في باريز ، بينما لم يقم هو نفسه بالعاصمة الفرنسية سوى خمسين يوما . ويعترف الصفار بأنه لم يتردد في البحث عند الطهطاوي عن كل ما يعوزه في تجربته الشخصية وخاصة في كل ما يتصل بخصوصيات المجتمع الفرنسي .

غير أن هناك حدودا واضحة للتشابه الموجود بين الرحلتين ، لأن الظروف التي تمت فيها كل واحدة منهما تظل مختلفة . وحينما غادر الطهطاوي مصر متجها إلى فرنسا خلال سنة 1826 ، كانت الحركة الإصلاحية في بلاده قد أخذت طريقها منذ مدة ، بفعل وجود إرادة حديدية لدى حاكم البلاد محمد علي باشا[1] . وإن مظاهر التغيير وأغاطه التي بدأت تحدث على أرض الواقع في الديار المصرية لم تؤخذ بعد بعين الاعتبار في المغرب ، ولم تعرف بداياتها الأولى إلا بعد مرور عشرات السنين . إذ كان العديد من المصريين يدرسون ويناقشون مواضيع في الفلسفة الفرنسية وعلوم السياسة ، والقوانين والأعراف الاجتماعية ، والمعرفة العلمية ، وكلها أشياء لا عهد للمغاربة وقتئذ بفهمها أو بتقديرها حق قدرها . والدليل على ذلك ، هو الغياب الكلي والمطلق عند محمد الصفار في رحلته لبعض المواضيع الوارد ذكرها في كتاب الطهطاوي . ولابد من التذكير أيضا بأن الطهطاوي كان مبعوثا إلى فرنسا من لدن قائد

---

(1) عن حركة الإصلاح في مصر ، انظر الآتي :

A. L .as-Sayyid Marsot, *A Short History of Modern Egypt* (Cambridge, 1985), pp.54-66.

سياسي كان يوجد يومئذ في وضعية المهاجم . هذا في حين كان الصفار قد أرسلته زعامة تعيش في فترة اتسمت بالتراجع . وكان هدف الطهطاوي هو أن يكون مدافعا عن الإصلاحات ، بينما لم تتجاوز نوايا الصفار مستوى القيام بالمشاهدة وتحرير وصف لها على هيئة تقرير . ومن جهة أخرى ، فإن رحلة الطهطاوي لقيت كل التشجيع ونالت إعجاب الخديوي بها ، بينما لم يقرأ رحلة الصفار إلا عدد محدود من الأشخاص الموجودين ضمن حاشية السلطان ، والذين كانت مواقفهم من التغيير مشكوكا في طبيعتها إلى حد كبير . ويمكن القول في نهاية التحليل إن كل هذه العوامل المتباينة قد حددت طبيعة كلتا الرحلتين وجعلت إحداهما تختلف عن الأخرى .

غير أن ما ينفرد به الصفار في رحلته ، هو أن ملاحظاته تأتي مباشرة فورية . فقد شاهد فرنسا بعيون الرجل الذي يفضل التوصل إلى معرفة الأشياء عبر التجربة المباشرة والمعيشة ، بدلا من المعرفة المكتسبة من الكتب . ومن ثم جاءت رحلته مليئة وغنية بالانطباعات الحية التي خالجته في حينها وعبر عنها بكامل الصدق والوفاء . إن مفهوم الملاحظة الشخصية أو المشاهدة ، يعني محاولة التعلم واكتساب المعرفة دونما حاجة إلى عنصر وسيط . إذ كان الرحالة الكلاسيكيون يعتبرون ذلك النهج طريقة مثلى وذات فعالية كبيرة لكسب المعرفة[1] . وكانت إشارة الصفار إلى هذا المبدأ بصريح العبارة ، بل وذهب إلى حد تدعيمه بأمثلة ملموسة . ويقول في هذا الصدد : «وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر»[2] . وأتحفنا الصفار من خلال وصف مشاهداته بتفاصيل دقيقة ، وكأنه يريد إقناعنا بحضوره الفعلي وبمعاينته الحقيقية وقتئذ لتلك الأشياء الموصوفة . وعلى الرغم من عدم الاستيعاب الكلي لوظيفة الأشياء التي كلف نفسه عناء وصفها ، فإنه لا يتوانى عن التفصيل في الحديث واصفا جزئياتها الكبيرة والصغيرة ، لأن التدقيق في التفاصيل شيء ذو قيمة

---

(1) «ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر جودة التعليم وملكة المتعلم [. . .] وحصوله ملكته» . المقدمة ، انظر ، ص . 399-400 ، من الطبعة العربية . وعن المزيد من الإشارات المتعلقة بمدى أهمية الحقيقة المعيشة لدى رحالة العصر الوسيط ، انظر الآتي :
Eickelman, "Art of Memory", p.501 note 20; A. Miquel, *Géographie humaine 1*: 135.

(2) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

في حد ذاته ، وفيه إدراك للحقيقة . وفي ذلك الإطار قدم الصفار جاهدا شروحا دقيقة حول مجموعة من التجارب العلمية المليئة بالألغاز ، كما أحصى بالعد والعدد الشموع المضيئة لإحدى قاعات الأكل . بالإضافة إلى نقله الأمين لأشكال القناطر وبنياتها وتصاميمها الهندسية المعقدة .

وإذا كان الصفار حريصا على تصوير تلك الأشياء بكل تفصيلاتها ، فإن هدفه لم يكن مجرد الوصول إلى تقديم صورة عنها أقرب إلى الحقيقة ، بل هو أنه يؤكد لنا بالبراهين عمق وجوده الفعلي بين أحضان تلك الأشياء الموصوفة . وبالرغم من أن الوفاء والحرص على مسايرة التقليد ، كان جيل محمد الصفار لا يزال يعتبره مقياسا أساسيا للحقيقة ، فإن تأكيده على فردانيته ، وتقديمه لتجربته كعمل مستقل وقائم الذات ، هو بمثابة مؤشر على بداية ظهور الجديد ، وبأسلوب أدبي أكثر واقعية ، يجمع بين الحاكي والحكي عنه بشكل أكثر حميمية وإيحاء بالألفة مما كان معهودا في الماضي . إنها ليست مجرد تفاصيل وتدقيقات لأشياء ورد الحديث عنها بطريقة اعتباطية حبا في ذكر التفاصيل لذاتها ، بل هي في واقع الأمر تأكيد للذات ، وتنبيه إلى أن الأمر يتعلق بصدفة لقاء حقيقية مع الجديد[1] .

وعلاوة على ذلك ، فإن الصفار يفرق بطريقة متأنية بين ما شاهده بعينيه ، وبين ما قاله الآخرون له ، وفي هذا مزيد من الرفع لمقدار مصداقيته . إذ تكررت عنده عبارات من قبيل : «يزعمون أن» ، أو «يقولون إن» ، وما شابهها من المؤشرات المنبئة بأن الخبر الوارد قد أتاه من مصدر ثان ، ربما كان هو الترجمان المرافق لأعضاء البعثة ، مما يجعلنا ننظر إلى الخبر بعين الريبة والحذر على الفور . وتنبه الصفار إلى أن الفرنسيين كانوا يسلكون خطة مدروسة بإحكام من خلال برنامج الزيارات الذي حضروه لإطلاع أعضاء البعثة على مختلف مظاهر الحياة الفرنسية . فقد ظل المغاربة تحت المراقبة المباشرة لمضيفيهم الفرنسيين ، فنقلوهم من مواضع سياحية إلى أخرى ،

---

(1) انظر على سبيل المثال رحلة الغساني ، افتكاك ، التي لا توجد فيها سوى أوصاف مقتضبة للأشياء التي شاهدها الرحالة المغربي بالمقارنة مع ما قدمه محمد الصفار . وعن تنامي الواقعية في كتابه القصة في الأدب الإنجليزي خلال القرن الثامن عشر ، انظر :

Ian Watt, *the Rise of the Novel: Studies in Defoe, Richardson and Fielding* (Berkeley, 1957), ch.1.

لخلق «أحسن الانطباعات لديهم بعظمة فرنسا وقوتها»[1] . ولم يفت الصفار التعبير عن استيائه من التعريج المتعب بأعضاء البعثة السفارية إلى مدينة تولون (Toulon) لحملهم على مشاهدة بعض من وحدات الأسطول الفرنسي . كما امتلأ قلبه بالحسرة والأسى في أعقاب الاستعراض العسكري الذي جرت وقائعه في ساحة شان - دومارس (Champ - de Mars) . ويحتوي متن الرحلة على تراتبية ضمنية للحقيقة ، مصحوبة بملاحظات مباشرة على أعلى المستويات . إذ لجأ الصفار إلى نقل المعلومات المستمدة من المصادر الإسلامية في الوسط ، بينما وضع الأخبار المستقاة من المسيحيين الذين كان ضيفا عليهم في المؤخرة . وكان بارعا بالفعل في إفصاحه عن القيمة الحقيقية لكل منهما .

وعلى الرغم من تحمس الصفار للحقيقة ، فإنه لم يستطع أن يقدم لنا سوى انطباعات جزئية حول فرنسا . وذلك لأنه ظل محصورا بين أشياء شاهدها وبعض الأمور التي استطاع إدراك كنهها . وقد ظن الصفار ، مثله في ذلك مثل الطهطاوي ، أن فرنسا هي باريز بمفهومها الواسع ، أي مدينة الصالونات ، والشوارع الفسيحة ، والمدينة الزاخرة بمختلف المظاهر الاستعراضية[2] .

إن الصفار لم يشاهد غير القليل من المظاهر القاتمة والسيئة لأعماق الحياة الباريزية : من انتشار للفقر و المرض وممارسة الدعارة ، وارتفاع لأعداد العاطلين عن العمل ، إلى جانب الفوارق الصارخة والمؤلمة الموجودة بين الأثرياء و البؤساء ؛ وكلها قضايا شغلت بال رجال الأدب المعاصرين من ذوي النزعة الاحتجاجية على الواقع

---

(1) العبارة مأخوذة من التعليمات الموجهة من كَيزو (Guizot) إلى بورسي (Pourcet) وأورباين (Urbain) ، انظر : AAE/CPM ، 23/15 نونبر 1845 . وعبر الملك لوي فليب عن الفكرة نفسها بصريح العبارة ، في رسالته إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام في موضوع زيارة السفير المغربي بقوله : «وقد أمرنا وزراءنا أن يبالغوا في إكرامه وتبجيله لكي تطيب له بلادنا وأن يعرضو عليه كل ما فيها من عجائب الفنون والصنايع» . من رسالة لويس فيليب إلى مولاي عبد الرحمن ، 13 فبراير 1846 ، مسجلة ضمن محفوظات مديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17575 ، انظر : (الملحق رقم 3) .

(2) سبق للمستشرق الفرنسي سيلفستر دو ساسي (Silvestre de Sacy) ، أن لاحظ كيف عمم الطهطاوي أحكامه على الفرنسيين انطلاقا «مما هو سائد لدى سكان باريز». Louca, *L'or*, p.218.

الاجتماعي المر السائد وقتئذ في فرنسا[1] . وقد كانت باريز ، في نظر الصفار ، مدينة تقطنها نساء عفيفات ، ويعمرها رجال جادون مجدون في عملهم لا يبغون غير خدمة مصالح دولتهم العادلة والمحكمة التنظيم . وبذلك كانت باريز ، هي ذلك الموضع السحري الحافل بكل ما هو رمزي ، وهي أيضا المكان الطبيعي الذي تحققت على أرضيته أهداف الرحلة . إن الصفار حين نسب تلك المجموعة من الصفات المثالية إلى باريز ، قد ارتقى بها إلى درجة ما هو مقدس ، وكثف من درجة الحوار مع بلده تكثيفا أدى إلى وجود معنى تحتي متميز وقائم الذات لرحلته .

ولا بد من أن يخلق التعاقب الموجود بين المقدس وما هو دون ذلك في موضوع الرحلة ، توترا لا مفر منه في وعي الرحالة ، بين المكان الذي تمت زيارته والمكان الذي خلفه وراء ظهره . ورغم محاولتنا الهادفة إلى تناسي موطننا ، فإن هناك لحظات لا تعد ولا تحصى أثناء الرحلة لابد أن تذكرنا[2] به . وإن تجربة الرحلة أشبه ما تكون بمرآة ذات وجهين ، أحدهما يعكس ما هو جديد ، والآخر يحتفظ بصورة الأشياء المعروفة . وبصفة حتمية ، يجد المرء نفسه وقد بدأ يفكر وفقا لأسلوب المتناقضات ، سواء منها ما هو متلائم أم غير متلائم مع الأشياء الجاري بها العمل في الموطن الأصلي للرحالة المسافر . وقد أثارت السرعة والظروف المريحة التي كان يتم بها التنقل في أرجاء فرنسا لدى الصفار ما تعرفه أحوال السفر و التنقل في المغرب من صعوبات ؛ كما ذكرته المراعي الخصبة التي شاهدها عبر نوافذ العربة بحقول بلاده اليانعة الأكثر اخضرارا .

وعند نقط الاختلاف هذه ، ينقلنا الكاتب ليقربنا إلى حد بعيد من إدراك طبيعة تلك السيرورة الخيالية التي تقع فيها الرحلة . وتلك هي اللحظات التي يصبح فيها الإيقاع بين العالم الداخلي والخارجي منسجما بما فيه الكفاية وبالشكل الذي يسمح

---

(1) في سنة 1842 كتب أوجين سو (Eugene Sue) سلسلة من المقالات في جريدة جورنال دي ديبا (*Journal des débats*) ، تحت عنوان : "Les mystères de Paris" ، أطلع فيها القراء على «العالم السفلي المخيف لباريز نتيجة للفقر وسيادة العنف» . انظر :

David Pinkney, *Decisive Years in France, 1840-1847* (Princeton, 1986), p.97.

(2) I.de Sola Pool, "Effects of Cross-national Contact on National and International Image", in H. Kelman, ed., *International Behavoir, a Social-psychological Analysis* (New York, 1965), p.122.

لنا بالاستماع إليه دون عناء . وسبق للفرنسي كلود ليفي - ستروس (Claude Lévi Strauss) أن لاحظ في كتابه «المدارات الحزينة» (Tristes Tropiques) ، أن السفر يعني التمزق على ثلاثة مستويات ، هي : الزمان والمكان و العلاقات الاجتماعية[1] . وحسب أندري ميكيل (André Miquel) ، فإنه عندما يتعلق الأمر بالرحالة المسلمين خلال العصر الوسيط ، تسمح لهم الرحلة إلى بلدان غير إسلامية بكل ما تنطوي عليه من تنافرات عديدة ، بإتاحة الفرصة أمامهم بشكل لا مثيل له لتجاوز التفاهات المعهودة لديهم من جراء تجربتهم في الحياة اليومية وتحديهم للخيال[2] . وحتى يتسنى للمرء التوصل إلى فهم حقيقي للدينامية المحركة لصدفة اللقاء الثقافي ، يلزمه الولوج إلى داخل المجال الشعوري للرحلة ، حتى يبلغ نقطة الانحراف ، حيث تصبح القيم المتراكمة لديه عاجزة عن التعبير ، وأيضا حيث تكون صدفة اللقاء مع الجديد منعشة ومنشطة لقوة التفكير . وسبق أن قال ألان تراشتنبيرك (Alan Trachtenberg) ، في هذا الصدد : «إننا نبحث عن براهين ثقافية في تلك اللحظات الدقيقة التي يحدث فيها الاتصال بين الأشياء الجديدة ومثيلتها القديمة المعتادة لدينا ، ونعمل على إدخال قوة الأشياء ذاتها ، ضمن وعينا التاريخي ، لترسيخ رد فعل تجاهها ثم استحضاره داخل مجال شعورنا»[3] . وبذلك ، يمكن النظر إلى رحلة الصفار من منظور آخر ، فتصبح مجموعة من التداخلات المفعمة بالحيوية «بين أشياء جديدة وعادت قديمة» تمثل تلك القوة المميزة لردود فعله إزاء ظواهر معينة وهي في أوج الطراوة . وسنقوم فيما سيأتي بفحص لهذا التجاور بين المشاعر والأشياء ، وفقا للتصنيف الثلاثي الذي وضعه ليفي - ستروس والمتضمن للزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية ، بصفتها

---

(1) وردت تلك الملاحظة عند أندري ميكيل في كتابه : *Géographie humaine* I : 115 ، واعتمد فيها على قراءة أحد فصول كتاب ليفي ستروس ، انظر :

Claude Lévi-Struss, *Tristes Tropiques*, trans. J. Russell (New York, 1970), chapter entitled "The Quest for Power", pp.38-46.

(2) *Géographie humaine I*: 115, 120.

(3) وردت هذه العبارات ضمن مقدمة الكتاب التالي :

Wolfgang Schivelbusch, *The Railway Journey: The Industrialization of Time and Space in the 19th Century* (Berkeley, 1986), p.XV.

عناصر أكد مدى قابليتها للتمزق خلال اللحظات التي تستغرقها الرحلة .

لقد وجد الصفار نفسه منذ وصوله إلى فرنسا أمام مشاهد وأشياء مثيرة كانت جميعها غير معهودة لديه . وشكلت العلاقة بين الزمان والمكان عنصر ارتباك فوري وآني لدى محمد الصفار ، بفعل التباين التكنولوجي الموجود بين فرنسا والمغرب . إذ قدم الرحالة من عالم يتنقل فيه المسافرون على الأقدام أو على الدواب ، ليحل بأوربا التي دشنت وقتها انتقالها من مرحلة الاعتماد على القدرات الحيوانية إلى القوة الميكانيكية . وفي المغرب يمكن أن يقطع المسافر مسافة طولها ثلاثة أو أربعة أميال في ساعة زمنية ، حسب الأحوال التي تكون عليها مسالك المرور . أما في فرنسا فقد كانت نسبة السرعة حسب المدة الزمنية ، تفوق ذلك بمرتين حتى في حالة استعمال وسائل النقل المعتمدة على القوة الحيوانية ؛ إذ بلغت سرعة الأكداش الفرنسية في أربعينيات القرن التاسع عشر حوالي ستة أميال في الساعة ، وهي نسبة تبدو مع ذلك هائلة جدا في نظر إنسان مغربي[1] .

وكان لقاء الصفار للمرة الأولى مع تلك الأبعاد الجديدة للسرعة أثناء تنقله في العربة بين مرسيليا وأورليان . وعندما صعد إليها ، انخدع بمظهرها فبدت له من فرط تجهيزاتها وكأنها «في الحقيقة بيت من البيوت» ، لكنها ما لبثت فجأة أن بدأت تجرها الخيول في عرض الطريق بسرعة كبيرة ، جعلت البيت الهادئ يتحول إلى قذيفة تخترق الأجواء وتحطم كل المفاهيم المعروفة عن قدرة الجسم البشري على قطع المسافات . وحينما ركب الصفار متن القطار لعبور المسافة الفاصلة بين أورليان وباريز ، ارتبكت في ذهنه كل المفاهيم المعهودة لديه عن العلاقة بين عنصري المسافة والزمن . وعلى الرغم من أن السكة الحديدية كانت لا تزال في خطواتها الأولى ، فإن القاطرة كانت تتحرك بسرعة أكبر من عربات الخيول بمعدل يقارب الثلاثين ميلا في الساعة[2] .

لقد وصف الصفار ذلك الإحساس الغريب الذي انتابه حينما وجد نفسه

---

(1) انظر ما كتبه العروي حول سرعة التنقل ونسبها في المغرب : Laroui, *Origines*, pp.54-44 . أما المعطيات المتعلقة بفرنسا ، فهي مأخوذة عن بينكني : Pinkney, *Decisive Years* . واستفدنا في المناقشات التالية حول السكة الحديدية في بداياتها الأولى ومدى تأثيراتها النفسية في الركاب مما كتبه شيفيلبوش : Schivelbusch, *Railway Journey*, ch.4

(2) Pinkney, *Decisve years*, p.53.

محمولا على متن عربة القطار، فقال بأنه: «يسير ... سيرا لم يعهد مثله في الإسراع يكاد أن يساير الطير في الهواء ... وكنا ننظر إلى جوانب الطريق فلا نرى ما فيها من الأحجار أو غيرها إلا كأنها خيوط متصلة ذاهبة معنا، ولا نحقق الحجر ولا غيره»[1]. إن هذه الإشارة إلى الشعور بالطيران لم تكن أمر مقصورا على الرحالة المسلمين دون غيرهم، لأن الرحالة الأوربيين استعملوا أيضا تعبيرا مماثلا على وجه التقريب عند حديثهم عن ركوب القطار للمرة الأولى؛ وهو شعور يفقد عنصري الزمان والمكان قوتيهما المعهودتين لدى الشخص، لأن الرحلة التي كان من المفروض أن تستغرق في المغرب أياما معدودة قد تمت في ساعتين ونصف فقط. إننا نعرف جيدا أن تصور فكرتي الزمان والمكان وكذا العلاقات القائمة بينهما، من الأمور المحددة ثقافيا؛ كما أننا نعرف أيضا أنه من الممكن الاستئناس بتلك العلاقات عن طريق التجربة المتكررة. وكانت تلك هي الحالة عند ركوب القطار الذي أصبح في آخر الأمر من الأشياء الروتينية سواء عند الغربيين أم عند غيرهم. وما تتميز به حالة محمد الصفار أنها تجعلنا حاضرين بين أحضان الجديد ومعايشين للحدث في حالته الخالصة من أي مشاعر أو معرفة مسبقة لعناصره.

وتحتوي الرحلة على أمثلة دقيقة وأساسية أخرى عن العلاقات القائمة بين عنصري الزمان والمكان. وقد انتقل الصفار، أثناء وجوده في فرنسا، من عالم يقاس فيه الزمن بطقوس العبادات إلى عالم يقاس فيه العنصر نفسه، وفي غالبية الأحيان، بالحركات الميكانيكية لعقارب الساعة. و في المغرب، كما هو الحال أيضا في جميع بلدان العالم الإسلامي، فإن إيقاع اليوم تتحكم فيه أوقات الصلاة ومواعيدها. إذ يستيقظ المرء ليصلي صلاة الصبح، ويتناول وجبة الغذاء بعد صلاة الظهر، ثم ينهي نهاره بأداء صلاة العشاء. وكان إيقاع الحياة الإسلامية بكل مظاهرها يسير في عالم الذكور وفقا لأوقات محددة تتحكم فيها مواعيد الصلاة، سواء أتعلق الأمر بإبرام عقود وصفقات أم تعلق بتحديد لقاءات أو ما شابه ذلك. وبعبارة أخرى، كان تذكير المرء بأوقات اليوم وساعاته يتم دائما بواسطة نداء المؤذن المنبعث من صوامع المساجد. وبذلك كان إيقاع مواقيت الصلاة أدق وسيلة توقيت يمكن أي يطمئن لها المسلم، كما يطمئن سكان العاصمة البريطانية لندن لساعة بيكَ بن الشهيرة.

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب.

وحين كان الصفار بعيدا عن موطنه ، وبحكم وجوده في أرض غير إسلامية ، فقد وجد نفسه فجأة محروما من تلك المؤشرات الثقافية المحددة لعنصر الزمن . فقال لنا إن اللقاء مع الملك لوي فيليب (Louis - Philippe) قد حدد موعده «في عاشرة النهار» ؛ وإن حفل الاستقبال بالقصر الملكي بمناسبة رأس السنة الجديدة هو «أول يوم من يناير عندهم» . أي أن فرنسا كانت من حيث عنصر الزمن أرضا تسود فيها الساعة الميكانيكية والتقويم المسيحي ، ويقاس فيها الوقت بفوارق زمنية محددة . وكانت توجد في المغرب أيضا ساعات ، لكنها غالبا ما كانت تتخذ تحفا تزيينية[1] . وقد شاهد الرحالة الأوربيون نماذج منها في بعض الديار الراقية ، لكنها نادراً ما كانت تموضعات عقاربها مطابقة للتوقيت الصحيح . ولا يعني ذلك أن المغاربة كانوا يجهلون الساعة الميكانيكية ، لأن العكس هو الصحيح ، وإنما كان اهتمامهم بها غير كبير[2] . فالمشكل الذي كان يعاني منه الصفار ليس هو معرفة الساعة بدقة خلال اليوم ، بقدر ما كان منشغلا من الناحية الدينية بالمواعيد التي تُحدد مواقيت الصلاة بموجبها .

وهناك جانب أساسي آخر من جوانب الحياة اليومية شكل حقلا تتتبع فيه الصفار مرة أخرى وهو يخوض مغامرة المواجهة مع الجديد ، ألا وهو الحد الفاصل بين المجالين الخاص والعام . وسبق لمايكل جيلزنان (Michael Gilsenan) أن قال بأن «المجال ليس نوعا من الأشكال الجاهزة ، بل هم عبارة عن مجموعة من البنيات والعلاقات التي لا بد من الاطلاع عليها . . . واكتسابها بالتالي بطريقة ثابتة خلال الحياة اليومية»[3] . إن حاجيات بني الإنسان وأنشطتهم متباينة من ثقافة إلى أخرى ، والمجال هو الميدان الذي تمارس على أرضيته تلك الوظائف على اختلافها . ولعل تعرف الفرد الأجنبي على القوانين المعقدة التي تحدد المجال ووظائفه الاجتماعية المتغيرة

---

(1) ونستثني من ذلك طبعا ، الساعات الموجودة في القصور السلطاني والجوامع الكبيرة التي يحرص على ضبط توقيتها لتحديد أوقات الصلاة بشكل سليم .ابن زيدان ، العز ، 1 : 138-139 .

(2) أشار جون دراموند هاي أثناء وصفه لإحدى دور الأعيان بمدينة الرباط ، إلى أنها : «كانت مفروشة على النمط المغربي الرفيع ، وكانت بها زرابي من مختلف الأصناف ، وعدة مرايا وساعات . وكان يُطلق العنان للساعات لكي تختار لنفسها التوقيت الذي ترغب فيه» ، انظر : *Journal*, p.43 .

(3) Michael Gilsenan, *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Arab World* (New York), 1982), p.187.

ليعتبر من أصعب تجارب الرحلة عليه . فلا بد من أن يتوصل الرحالة إلى الاستئناس بها عن طريق التعلم أو من خلال الأمثلة ، وكل فشل في تعلمها يمكن أن تترتب عنه معاناة وحيرة شديدة . وجل الذين سافروا إلى الخارج لا بد من أن تكون لديهم حكاية واحدة على الأقل ، تتعلق بسوء فهم ثقافي ناتج عن خطأ في تأويل تلك الرموز التي تشكل الحدود الفاصلة بين الثقافات .

وصادف الصفار ، أثناء وجوده في فرنسا ، صعوبات في فهم طبيعة العلاقات القائمة على مستوى المجال المجتمعي . وعلى سبيل المثال ، قدم لنا وصفا لأحد المنازل الفرنسية النموذجية فقال : «وأما أشكال دورهم فإنها مخالفة لشكلنا ، فإن دورهم ليست بالساحة والفوقي والسفلي والبيوت والغرف كما عندنا ، فإنهم يتركون ساحة الدار خارجة عنها مرفقا لها لوقوف نحو الكراريص والدواب . . . وتلك البيوت . . . وكلها لها طاقات كبارا جدا منها تضيء ، تشرف على الأسواق والشوارع»[1] . إن التناقض الموجود بين محتوى هذا الوصف والدار المغربية التقليدية مثير جدا للاهتمام : إذ لا نجد في المغرب نوافذ لتوفير إمكانية الإطلال على الشارع ، كما أنه ليست هنالك نقطة معينة يمكن من خلالها ، وانطلاقا من الخارج ، مشاهدة ماهو بداخل الدار . ذلك بأن الجزء الداخلي للدار يعتبر مكانا خصوصيا صرفا ، وتشكل فيه الساحة التي تتوسط الدار مجالا تجري بين أحضانه مختلف مظاهر الحياة العائلية ، ولا سبيل لوجود مكان لوقوف الدواب . وبعبارة أخرى ، فإن المجال بداخل المنزل المغربي يشكل رابطة قوية بين تداخلات اجتماعية كثيفة تفتقدها فرنسا[2] .

ويشكل فناء الدار في المغرب مجالا يمكن للأجنبي عن البيت الوقوف فيه دون انتهاك حرمته الداخلية ، ودون إحراج النساء اللواتي لا يرغبن في الظهور أمامه . وكان ولوج الصفار إلى إحدى الدور الفرنسية مباشرة دون حاجة إلى المرور عبر ساحتها تجربة فريدة لم يعرفها من قبل . علاوة على ذلك ، فقد وجد بعد ولوجه إلى الدار أن داخلها مفتوح تماما على الخارج بفعل وجود نوافذ كبيرة ، والضوء يغمر أرجاء البيت الداخلية ،

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(2) انظر التصميم الخاص بإحدى الدور التطوانية النموذجية في المرجع الآتي :

Ernst Rackow, Beiträge zur Kenntnis der Materiellen Kultur Nordwest-Marokkos: Wohnraun, Hausrat, Kostüm (Wiesbaden, 1658), p.5 and Tafel 4.

مما جعل كل محتوياته تكون مفضوحة وبالتالي عرضة للمشاهدة . إن هذا الانفتاح التام ، وما يترتب عنه من كشف عن أفراد العائلة وممتلكاتهم الموجودة داخل البيت حتى تكون عرضة للمشاهدين ، ليعتبر ظاهرة جديدة تختلف تماما عن الحماية التي توفرها الجدران المحيطة بالحياة العائلية في المغرب . وبعبارة أوضح ، فإن المفاهيم المتعلقة بجوانب الحياة العائلية الخاصة لا بد من مراجعتها في الإطار الخاص بفرنسا .

إن قدرة الصفار على إدراك الحدود المجالية قد ارتبكت بشكل أكبر حينما بدأ استكشافه لمختلف جوانب الممارسات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال ، أعجب محمد الصفار بالحمام فقدم عنه وصفا مطولا حين قال : «وفيه أيضا كذالك بيوت أخر من الخشب هي حماماتهم هنالك معدة للاستحمام بداخلها بيوت صغار بأغلاقها . وفي كل بيت حوض يملأ بالماء سخنا أو باردا أو بهما ليعتدل . . . وهذا حمامهم ، وليس عندهم حمام على شكل حماماتنا»[1] . وهناك جوانب أخرى أكد الصفار من خلالها على مدى خاصية الانعزال المحيطة بعملية الاستحمام فقال : «وذلك البيت مضى بطاقة كبيرة لها غلف من الزجاج ، عليه من داخل ساتر رقيق يمنع التكشف ولا يحجب الضوء»[2] . ويمكن المرء أيضا الاستحمام في غرفته ، فيطلب من الخدم إتيانه بالماء . وبعبارة أخرى ، فإن الحمام عند الفرنسيين مسألة خاصة صرفة ، تدخل ضمن تلك اللائحة المقتضبة من الأنشطة الجسدية الواجب على الفرد القيام بها بمعزل تام عن الآخرين إما من باب الحياء وإما من باب التواضع .

أما في المغرب ، فإن الحمام يمثل فضاء مختلفا تماما عن كل هذا : إذ يتم الاستحمام في غرفة واسعة ومفتوحة لا توجد بها أية جدران تفرق بين مهاجع صغيرة وفردية . كما يمكن أن يستغرق الساعات الطوال ، ويشكل حدثا اجتماعيا مهما للفرد خلال يومه ذلك[3] . وقد يتبادل الناس الأخبار والوقائع المثيرة داخل الحمام ، كما قد يتحدثون فيه عن قضايا التجار والمال ، أو يضربون فيه المواعيد لتنفيذ بعض المشاريع البسيطة أو الهامة . أي أن طقوس الحمام تمثل تجربة اجتماعية جذابة للرجال والنساء على السواء ، رغما عن كونها تتم في جو من التفرقة الجنسية بين

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(2) نفسها .

(3) Rackow, Beiträge, p.7.

الذكور والإناث كما هو حال أغلب الوقائع الاجتماعية . وكان يعتبر غياب الحواجز بداخل المجال المكون للحمام ، وإتاحته حرية المرور والالتقاء بين الأفراد وأجسادهم عارية ، شيئا لائقا ولا عيب فيه . وبعبارة أخرى ، كان الحمام مسألة تدخل في إطار اهتمامات الناس بصفتهم يمثلون جماعة وليس بقضية شخصية تخص الفرد وحده . ومع إعجاب الصفار الكبير بالطابع التكنولوجي المميز للحمام ، فإنه ظل غير مقتنع بضرورة الانفراد والانعزال أثناء الاستحمام . وأشار الصفار ملمحا إلى أن تلك المميزات التكنولوجية ربما لم توظف في محلها المناسب ، إذ كان بالإمكان استغلال تجهيزات من ذلك القبيل بطريقة أكثر نفعا ، كتمكين المرء من القيام بالشعائر التي كانت بالفعل غير متوافرة .

وأصبحت درجة الارتباك إزاء الحدود المجالية الفاصلة أكثر ارتفاعا ، حينما تعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين الرجال و النساء ، والتي اختلفت المقاييس المتحكمة فيها بشكل جذري عما هو سائد في المغرب . ويبدو أن استيعاب الصفار لدروسه كان سريعا في هذا الإطار ، بل نجده تواقا إلى مشاطرتنا إياه تلك المعرفة المكتسبة . لقد تقمص الصفار دور المرشد المعين ، وشرع في توجيه النصائح لنا حول كيفية معاملتنا للنساء بالطريقة المناسبة لو كُتب لنا نحن أيضا أن نكون يوما ما في فرنسا ، فقال ما يلي : «وأما العفيفات منهن ، فإن من دخل بيت زوجها وهي هنالك ، فإنه لا يعد من الظرفاء والأدباء إلا إذا أبدأها بالتحية وخاطبها خطاب مباشة وملاطفة في عفة . وبذلك ينشط زوجها ويزداد عنده فاعل ذالك رفعة ومحبة»[1] .

إن الأمور قد انقلبت تماما هنا رأسا على عقب ، لأن الصفار الذي ينتمي إلى ثقافة تقليدية يعتبر فيها اللقاء بين الرجل والمرأة من قبيل الأشياء النادرة ، يجد أمامه إمكانات عديدة للتفاعل مع النساء الفرنسيات اللواتي كن عنده موضع إعجاب وتقدير كبيرين . هذا في الوقت الذي كانت فيه النساء في المغرب يضعن الخمار على وجوههن أثناء وجودهن خارج البيت حتى يكن محجوبات كليا عن العيون ، بل وكن يظللن حبيسات الجدران والأبواب لكي لا يصبحن عرضة للمشاهدة المفضوحة بأعين الغرباء . أما في فرنسا ، فإن هناك غياب يكاد يكون مطلقا لمثل تلك الحدود الفاصلة بين الطرفين . إذ تختلط النساء مع الرجال في الصالونات ، ويتزين بملابس تكاد لا

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

تستر إلا أجزاء من جسدهن ، بل وتعرض شعورهن وصدورهن وأذرعهن شبه العارية دون إحساس بالخجل . أما في الشارع ، فإنهن تكشفن عن وجوههن ، وتحدقن بأعينهن في كل الاتجاهات بكامل الحرية والانطلاق .

لقد أحس الصفار بنشوة عارمة نتيجة لاقترابه الشديد من النساء . وحينما شرع في وصف سلوكهن وملابسهن ، تحول فجأة إلى شاعر ، وعمد إلى أسلوب السجع للرفع من المستوى الجمالي لأسلوب كتابته والتعبير بصدق عن مشاعره الفياضة . ومن خلال أسلوبه البلاغي المتأنق ، نحس بشوقه العميق إلى القيام بتجربة حسية ، لأن بعضا من العديد من تلك الصور التي قدمها الصفار ، وإن كانت جلها غير أصلية ، توحي بوجود محاولة لديه للتكتم على شهوانيته الجنسية التي هي من الطبائع الفطرية لبني الإنسان قاطبة . وكذلك كان الصفار ، كما هو الحال مع جميع الأشياء ، يظهر مكبوتاته ويبديها . .وبخلاف الطهطاوي الذي كانت وجهات نظره في النساء الفرنسيات أقل إيجابية ، رأى الرحالة المغربي أنهن قد كن في الجملة عفيفات فاضلات . وبطبيعة الحال ، فإن الصفار لم يكن يفهم الفرنسية ،لكن يبدو أنه أدرك أن الحواجز البدنية والجمالية القائمة بين الرجل والنساء في المجتمع المغربي يوجد في فرنسا ما يقوم مقامها على هيأة مجموعة من الأعراف والطقوس الأخلاقية المصطلح عليها باللياقة واللطافة أو الكياسة (Politesse) التي تكون حاضرة بكل ثقلها كلما كان اللقاء بين الرجال والنساء . وبناء عليه ، فقد ركز الصفار اهتمامه على أن يلقن الآخرين مبادئ أولية في موضوع السلوك القويم الواجب نهجه سواء أثناء الإقبال على النساء والترحيب بهن أم عند توديعهن ، حتى لا يرتكب المرء أي خطأ في إطار هذا المجال الحيوي من العلاقات الاجتماعية .

وكانت الرحلة مليئة باللقاء مع الجديد ومع الأشياء المتميزة بغرابتها أو بطابعها المثير ، فكانت تلاحق الرحالة مرحبة به في كل وقت وحين . غير أن تلك الأشياء الغريبة كان لها أيضا منطقها الداخلي الخاص بها . وبالنسبة للصفار ، فإن فرنسا كانت تعني ذلك البلد الذي يسود فيه النظام ، فما من موقع يقع عليه بصره إلا ويشاهد فيه الدلائل الناطقة بمدى النجاح في وضع الأشياء في أماكنها الصحيحة : فالأشجار تنمو في صفوف منتظمة مستقيمة ، والحقول محروثة بطرق هندسية بديعة ، والشوارع أنيقة ومحتويات الخزانات مرتبة بدقة ، والعساكر يمشون في صفوف متراصة ، والخيول مطيعة لراكبيها ، وحتى النساء يصففن شعورهن بكامل الدقة

والعناية . إن فرنسا هي بلاد النهج القويم والتخطيط البديع ، والبلد الذي أُخضعت فيه الطبيعة للإنسان ، والوطن الذي روض سكانه حتى يكونوا طائعين لحكامهم . وأمام كل هذا الواقع ، ما كان منه إلا أن أبدى حسرته على ما كانت تعرفه بلاده من نقيض لكل ذلك :

«مع ضعف الإسلام وانحلال قوته واختلال أمر أهله ، فما أحزمهم وما أشد استعدادهم ، وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم . وما أقدرهم على الحروب ، وما أقواهم على عدوهم ، لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين ، إنما ذلك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب ، وإتباع قوانينهم التي لا تنخرم»[1] .

وفي الوقت الذي سلم فيه الصفار بتحكم الفرنسيين في مقاليد الأمور ، وحقيقة الواقع تؤيد ذلك ، فإنه قد كان أيضا على إدراك تام بأن ذلك النظام الظاهر للعيان بمعالمه الواضحة ينم عن وجود تخطيط عميق تندرج فيه كل مكونات المجتمع بشكل يجعلها جميعها مسخرة لخدمة الإنتاج . ويكمن هنالك السر العجيب لتلك القوة الخفية التي يلمسها ويحس بها غير الأوربيين عند مشاهدتهم ذلك النظام الذي يعم كل مظاهر الأشياء وجل جوانب الحياة الأوربية . إن الأطفال المهذبين ، وصفوف الأشجار المنتظمة مؤشرات خارجية نابعة في أصلها من وجود نظام اجتماعي يشك فيه الصفار ويخشى أن يكون غير متلائم مع ما هو سائد في بلده المغرب . إذ يبدو للصفار بأنه نظام معقلن ، شديد الفعالية ، وأحكمت كل عناصره لتحقيق غايات اقتصادية بدلا من مقاصد دينية . ولا حاجة لنا إلى القول إن ذلك النظام الاجتماعي قد بدا أيضا لمحمد الصفار متميزا جدا بشموليته وقوته ، إلى درجة أن مجرد التفكير في مجاراته أو الدخول في منافسة معه قد يكون كافيا ليخلق في نفسه مشاعر اليأس[2] .

لقد أتيحت للصفار وهو في أوربا فرصة الإطلالة على عالم آخر ، فشاهد ما يمكن للعقل البشري تحقيقه حينما يفسح أمامه المجال لممارسة قدراته الإبداعية ، غير أن ذلك العالم كان بعيد المنال . صحيح أن هنالك بعض المخترعات في فرنسا التي

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب .

(2) حول تأثير الأفكار الأوربية المتعلقة بالتنظيمات في مصر القرن التاسع عشر انظر :

Timothy Mitchell, *Colonizing Egypt* (Cambridge, 1988), ch.1.

اعتبرها الصفار نافعة ومفيدة ، وأنه سلم بمدى تفوق الفرنسيين في الميادين ذات الصلة بقضايا التكنولوجيا ومختلف مظاهر الحياة اليومية . ولكنه يلاحظ ، على المستوى الديني ، أنهم لا زالوا يعيشون في الكفر ، فقال في هذا الصدد تاليا قوله تعالى في سورة الروم : ؟يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون؟[1] . إذ من الممكن أن تكون علومهم مثيرة للإعجاب ، وطرق معاملاتهم عالية المستوى ، وبيوتهم نظيفة . لكن يوجد لديهم على المستوى الأخلاقي صدع كبير يعسر ترميمه : ألا وهو فساد إيمانهم بملكوت الله . ولا يتعلق الأمر هنا فقط بمجرد تصريح حذر بالولاء بقدر ما هو تعبير صريح عن إيمان عميق . ولم ينفرد الصفار عن غيره بتصريحه العلني بولائه للإسلام في الفقرات الأخيرة من رحلته ، لأن غيره من الرحالة إلى المشرق سلكوا نهجا مماثلا : «إن كل شيء في طريقة تفكيرهم يدفع بهم إلى التنكر للواقع ، أو على الأقل إلى عدم الاعتراف به . ويبدو أنهم يريدون القول بأن هذا عالمكم ، أما عالمنا فهو مختلف عن ذلك»[2] .

ويقودنا هذا إلى نقطتنا الأخيرة . إذ يمكن قراءة رحلة الصفار - وغيرها من كتب الرحلات العربية التي يعود تاريخها إلى الحقبة نفسها - بطرق عديدة . أولا ، فهي مصادر إخبارية ذات فائدة لإعادة بناء تصورات خاصة للواقع ، إذ تكون بمثابة خزان تودع فيه الوقائع لوضع المشاهد المتباعدة في الزمان والمكان في إطارها الحقيقي . ثانيا ، وكما سبقت لنا ملاحظة ذلك ، يقدم لنا هذا الصنف من الكتابة نظرات خاطفة عن التجربة الإنسانية خلال الرحلة ، وتتيح فرصة المشاركة في تلك اللحظات التي يقع فيها الاتصال بين الرحالة والعالم الخارجي والتي تضيء المشاعر الداخلية المواكبة للرحلة . لكن هناك أيضا بعدا ثالثا تحققه كتابات الرحلة ، وتصبح له معان خاصة

---

(1) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب

(2) Laroui, *Origines*, p. 228 ، وكانت ظاهرة «الإنكار» أيضا من المميزات الخاصة التي كانت ترد في روايات الحج لدى مسيحيي العصر الوسيط ، حيث كانت الرغبة في التعرف على الأشياء الغريبة ، من الأشياء «المسيئة إلى سمعة الحج» ؛ لأن الحاج المسيحي «المثالي» هو الذي يقوم برحلته «وعيونه متجهة صوب الأرض» ، حسب ما جاء عند هووارد في كتابه :

D. R. Howard, *Writers and Pilgrims: Medieval Pilgrimage Narratives and Their Posterity* (Berkeley, 1980), pp.23-24.

حينما نحاول جاهدين التوصل إلى الأشكال الثقافية المختلفة عما هو سائد عندنا . وبما أننا نتحول إلى طرف مرافق للرحالة طوال رحلته ، فإننا لا نكون منشغلين فقط بما شاهده الرحالة في أوربا ، بل نكون أيضا مهتمين بالكيفية التي شاهد بها تلك الأشياء ، وبالطريقة التي انعكست بها على مشاعره وذكرته بما هو سائد في بلده . إن فرنسا وباريز هما المرآتان اللتان نقرأ فيهما تصورات الصفار لمواقع أكثر بعدا ، بما في ذلك الحقول الخضراء والأزقة المزدحمة والسهرات والحفلات الراقصة ، التي شكلت جميعها لوحة رسمت عليها صورة أخرى عن مكان لا نعرف عنه نحن القراء الأجانب إلا القليل ، فكان ذلك المكان هو المغرب كما هو وارد في تصورات محمد الصفار .

وأخيرا ، وعلى مستوى آخر ، فإن هذه الأشياء المحكية تتجاوز مجرد القيام بالرحلة لتدخل في مجال آخر يجعلها ذات ترنيمات أخلاقية ، تزداد قوتها بفضل تلك الميزة الكونية التي يتضمنها إحلال الشيء محل الشيء الآخر . وهنا تصبح الرحلة مجازا ، ويتحول الرحالة إلى صانع أسطورة ، وتصبح القصة خرافة . إن نموذج بنيتها - المتمثل في مرحلة الانطلاق وفصول المغامرة ثم العودة - ليس هو الأمر الوحيد الذي يجعل الروايات المتعلقة بالرحلة تكتسي صبغة كونية ، بل هناك أيضا الدلالات و المعاني التي يستخلصها الرحالة نفسه من الرحلة . وفي حالة محمد الصفار ، فإن المغزى من روايته واضح جدا : فهو يقول لنا إنه بإمكان المرء الذهاب إلى أرض الافتتان ، وإلى المكان الذي يجمع في نفسه بين الخبيث والطيب ، ثم ينغمس فيه ويعود إلى بلده حكيما سالما من الأذى .

هذا هو الدرس الذي تقدمه الرحلة . لكن لا يمكننا الجزم فيما إذا كانت مضامينها قد أقنعت أولئك الذين قرأوها خلال عصره أم لم تقنعهم . ومما لا شك فيه أن الرحلة قد تُدوولت ونوقشت في الأوساط الخاصة لحاشية السلطان ، ثم أودعت بالخزانة السلطانية حيث أهملت مدة تجاوزت قرنا من الزمن . ولم يكن الصفار يعتقد أبدا ولا تصور أحد أن مخطوطته ستظل راقدة زمنا طويلا لتشع بنورها على قراء ينتمون إلى عصر آخر فتمتعهم .

القسم الثاني

التحقيق

الفصـــل الأول
توطئـــة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله مسير الخلائق في البر والبحر ، وميسر الطرائق والأسباب لمن شاء أن يسوقه إلى ما أراد من عمران أو قفز . وفق بفضله من سبقت له العناية من خلقه ، فكانت تجارتهم رابحة ولسعيهم أعظم فائدة . وأضل بعدله من كتبت عليه الشقاوة ، فكانت صفقتهم خاسرة ، ووجهتهم عن صوب الصواب حائرة . ؟ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة؟[1] . أقام سبحانه على انفراده بالوحدانية ، واختصاصه بنعوت الألوهية وتنزه عن الأين والأمد والوالد والولد ، قواطع البراهين التي ليس فيها لذوي البصائر من الارتياب شائبة . ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾[2] .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنفرد باختراع هذا العالم وإبداعه من غير سبق ولا مشاكلة . جعل فيه مدنا وأمصارا وبراري وقفارا وقرى كبارا وصغارا ، وبث فيها أمما مختلفي الألسنة والألوان والاعتقادات والأديان ، ليزداد أولوا البصائر

---

(1) سورة النحل ، الآية 93 . وتعني «الأمة» هنا مجموعات بشرية تجمع بينها روابط قد تكون عرقية أو لغوية أو دينية ؛ وحين تستعمل لفظة «أمة» ، فإنها غالبا ما تعني بوجه خاص العناصر البشرية التي تتكون منها شعوب المجموعة الإسلامية . انظر مادة «أمة» في : *SEI*, S.V. "Umma".

(2) سورة الأنعام ، الآية 101 .

اعتبارا وذووا العقول إبصارا . وأبدى فيها من عظيم آثاره ما يدل على كمال اقتداره . فيا عجبا كيف يُعصى الإله ، أم كيف يجحده الجاحد و في كل شيء له آية تدل على أنه الله الواحد؟

فسبحانه من إله قسم الخلق إلى موحد ومشرك ، ومطبوع على قلبه ومن هو لحقائق التوحيد والإيمان مدرك . وعجل لقوم طيبتهم في الحيوة الدنيا ، وادخر لآخرين مقيم النعيم ورفع الدرجات العليا جزاء بما كانوا يعملون . ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾[1] .

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله ، سيد العرب والعجم والمبعوث لسائر الأمم ، المؤيد بخوارق المعجزات الباذل جهده في إبلاغ الدعوات ، حتى عمت من أرض المغارب والمشارق ، فمن أجاب نجا ومن عاند علت سيوف الله منه المفارق . حتى أذل بعزة الله أنوف الطغيان وغطى دينه الحق على سائر الأديان . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأحزابه ، صلاة تامة زكية أبدية مباركة سنية دائمة سرمدية ، نفوز بها بفضل الله بالمقامات العلية والإكرامات الهنية . ونسلك بها على منهاجه القويم ، بجاه قدره العظيم عند الرب الكريم الرحمن الرحيم ، لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره .

أما بعد ، فإنه لما شرح الله صدره مولانا[2] عمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الكبير الجليل الشهير المعظم الممجد الأسمى الموقر المؤيد الأحمى فخر الجلة وسيف الملة ، جمال الإسلام وعلم الأعلام .

ملك الزمان وقرة الأعيان
قمر التمام ودرة الأكنان
ملك تجمل بالجلالة وازدهى
بالعلم والحلم العظيم الشان

---

(1) سورة الأنبياء ، الآية 23 .

(2) «مَولى» أو «مُولاي» ، في اللهجة الدراجة المغربية . وهو من الألقاب التي ينعت بها سلاطين المغرب الشرفاء وينادون بها : *Dozy 2:* 632 . والمعني بها هنا هو السلطان عبد الرحمن بن هشام (1859-1822) .

نجل السـلاطين من سـلالة أحـمـد
أعظم بفـخـره عـابد الرحـمـان

وكـيف لا وهو شـريف المنتـمى والحـسب وعلوي المقـدار والنسـب ، وحـسني الأخلاق والتفرع عن سيد العجم والعرب . أدام الله له نصرا وتأييدا ومهد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيده عبيدا . ووفر من سوابغ النعم حظوظه وأقسامه وأظفر بأعناق الأشقياء حسامه . ومد على الدنيا بساط سعده ووهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وجعل الخلافة كلمة باقية في عقبه[1] وبارك في عمره ومتع الأنام به .

وألهمه لأن يوجه نائبا عنه لعظيم جنس الفرنسيس[2] ، لمصلحة تعود على المسلمين والإسلام ، حسبما اقتضاه حسن نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد ، وجريا على عادته في الحرص على انتظام أمر الخاص والعام . ولم يزل هذا من دأب أيمة الأمة وحماة الملة ، فقد كان النبي صلى عليه وسلم يبعث لذلك كبراء أصحابه وفيه أسوة ، وتابعه على ذالك الخلفاء الراشدون والأيمة المهتدون[3] حسبما يعلم من محله .

---

(1) كان سلاطين المغرب قبل عهد الحماية الفرنسية ، يصرون على الجمع بين لقب «الخليفة» بكل ما ينطوي عليه من معان روحية ، ولقب «السلطان» الذي يرمز إلى أن الأساس الذي تقوم عليه مشروعيتهم في الحكم لا ينحصر في نفوذهم العائلي و السياسي فحسب بل يشمل أيضا سلطتهم الدينية . وعن موضوع الخلافة ، انظر :

H. A. R. Gibb, "The Sunni Theory of the Caliphate", in *Studies on the Civilization of Islam*, eds. Stanford J. Shaw and William R. Polk (Boston, 1962), pp. 141-50.

وانظر كذلك مادة «خليفة» في : *SEI*, S.V. "Khalifa "

(2) كان اللقب الرسمي الذي يحمله لوي فليب (Louis-Philippe) (1848-1830) هو ملك فرنسا (Roi de France) ، غير أن الصغار كلما أشار إليه في بعض صفحات الرحلة كان يذكره بلفظة «سلطان» عوضا عن «ملك» ، وذلك اقتداء بما كان معمولا به في تحرير المراسلات المخزنية .

(3) وفي ذلك إشارة إلى الخلفاء الأربعة الذين تحملوا أعباء الخلافة بعد وفاة الرسول بالعدل والاستقامة وحسن التدبير ، مما جعلهم يصبحون قدوة ونموذجا مثاليا للأجيال اللاحقة من المسلمين .

وكان له نصره الله من حسن النظر في خديمه[1] الأنصح وثمرة غرسه الأنجح، الساعي بحسن سياسته في تنفيذ أوامره السعيدة، وتدبير مصالح رعاياه القريبة والبعيدة، القائد[2] الأمجد الرئيس الأسعد، الحاج عبد القادر ابن القائد المرحوم، السيد محمد أشعاش كان الله له في المعاذ والمعاش، ما اقتضى تعيينه لذلك وتخصيصه بما هنالك. وأمره أن يصحب معه أمينين[3] عاقلين ذكيين من أهل الوجاهة والذكى بتطوان مع من لا بد لمثله منه من طالب[4] وأتباع وخدمة وأعوان، وسائر ما فيه للإسلام والمسلمين زيادة رفعة وظهور على عبدة الأوثان، القائلين بالأبوة والبنوة. وفي الحديث: «رحم الله امرءا أظهر من نفسه في هذا اليوم قوة».

فانتخب أرشده الله من أرباب الصدور ممن حكم لهم الوقت بالاجتلاء على منصة التصدير والظهور، صهره الأرضى و[كفء][5] كريمته الأحظى، المعروف عند الحاضر والبادي أبا عبد الله محمد بن الحاج محمد اللبادي. والحاذق اللبيب الوجيه الأريب، الماهر بسياسة المخالطات وجوب الأقطار، الحاج العربي بن الحاج عبد الكريم العطار. واقتضى حسن نظره بالكاتب[6] لما لم يطلع على ما فيه من المعائب، أن اختاره لصحبته لما هو من شأنه من المئارب. وكان من الحزم لمن تغرب عن وطنه ونئا

---

(1) «الخديم» هي التسمية التي كان يخاطب بها جميع الموظفين المخزنيين مهما اختلفت درجاتهم ومستوياتهم والمهام المنوطة بهم. انظر: Dozy 1 : 354 ; Laroui, *Origines*, p. 117

(2) «القائد»، موظف مخزني يعينه السلطان، ويمكن أن تسند إليه مهام متعددة ومختلفة. وتعني هنا – في حالة عبدالقادر أشعاش – عاملا على مدينة كبيرة. ابن زيدان، **العز**، 1، ص 412.

(3) «الأمين»، موظف مخزني تسند إليه مهام لها علاقة بالمستفادات والجبايات والشؤون المالية بوجه عام. وكان الأمناء في تطوان يقومون بمهام المراقبة والتفتيش في المرسى إلى جانب تحصيلهم للرسوم على الصادرات والواردات، والقيام بالأداءات التي يأمرهم السلطان بتقديمها إلى المعنيين بها. ابن زيدان، **العز**، 1، ص 396–397.

(4) «الطالب» وتعني لغويا الشخص الذي يكون بصدد الدراسة وتعلم أصول الدين الإسلامي. غير أن هذه التسمية كانت تطلق أيضا في المغرب على بعض الأشخاص المتعلمين الذين يكسبون قوتهم اليومي عن طريق التجارة، انظر: Laroui, *Origines*, pp. 90, 441.

(5) هذه الكلمة غير واضحة في النسخة الأصلية للرحلة، وربما هي [كفء]، أي زوج، (المعرب).

(6) وكان المعني هنا هو محمد الصفار.

أن يقيد كل ما سمع ورأى . لما قد يوجد في ذالك من العلوم والعبر ، وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر . ومن حكم الأولين : «ما شبعت عين من نظر ، ولا أذن من خبر» .

عزمت إذ ذاك بحول الله أن أسود هذه الأوراق ، بما نراه ونسمعه في هذه السفرة وما يتعلق بها بما رق أو راق . على أني حاطب ليل وساحب ذيل ، لست من خيل هذا الميدان ، ولا لي بما يستحسن من يدان . إلا أني جعلتها تذكرة لنفسي ، لأخبر بذلك من سألني عنه من أبناء جنسي . فليعذرني أولوا الإنشاء والبلاغة ، وليسقط عني التكليف أهل الاستعارة والكناية . والله أسأل أن يستر معايبنا ويوفقنا لصالح عمل يرضاه منا .

فأقول ومن الله أستمد المأمول : كان خروجنا من معاهد أنسنا ومطاب عيشنا ومسقط رؤوسنا وعش أفراخنا ومثار نشاطنا وأفراحنا ، بلدتنا تطوان أبقاها الله محفوظة على توالي الأزمان ، ضحوة يوم السبت في شهر ذي الحجة الحرام ، مضت منه ثلاث عشرة ليلة متم عام أحد وستين ومايتين وألف[1] . وعندما زمزم الحادي بالارتحال أنشأ لسان الحال وساعده المقال فقال :

أتطواننا الغراء هل يسعد الدهر
بأوبتنا كيما يعود لنا الوصل؟
وهل يبدوا أو يدنوا محياك بعدما
تلاطمت الأمواج ويجمع الشمل؟
سقت ديمة هطلا ربوعك وارتوى
حمى طالما كان السباق به يحلوا
فأوصيك بالأحباب خيرا وإنني
على عهدهم باق ولو نأت السبل

فركبنا من البلد حتى بلغنا مرساها . وقد كان بعث لنا من نحن متوجهون إليه مركبا عظيما من مراكب النار المعروف بالبابور[2] ، قد انتخبه لنا من أحسن ما عنده استجلابا للألفة وحفاظا للمودة . فركبنا في فلائك صغار وسرنا حتى بلغنا ذالك

(1) ويوافقه بالميلادي يوم 13 دجنبر 1845 .

(2) ومعناها المركب البحري ، وهي مأخوذة عن الإسبانية (vapor) . ابن زيدان ، العز ، 1 ، ص . 414 .

السفين ، وصرنا في جوفه كما يصار في لحده الدفين . فأنزلنا رءيسه فيه أحسن منزل ، وجعلنا من محال إقراره ودويه بمعزل . وتلقانا أهله بالبشر والسرور وحسن البشاشة وجميل البرور ، فأدخلونا قمرة[1] فيها زرابي جيدة نقية وفرش رفيعة وطية . وقال لنا لسان حالهم ومقالهم ، كونوا في عيشة هنية وإكرامات سنية ، فنحن معكم على سيرة مرضية . وعندما تتام طلوعنا ورجع من كان يشيعنا ، قلع المركب مخاطفه وهز للمسير أعطافه . فقلنا بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾[2] . ثم أطلق مدافع الفرح والبحر لنا بسكونه قد سمح ، فسرنا متوكلين على الحي القيوم ، موقنين بأن لا دافع ولا منجي إلا الله سبحانه : ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾[3] . وقال ابن العربي[4] : «من أراد أن يوقن أن الله هو الفاعل وحده وأن الأسباب ضعيفة ، فليركب البحر» . وهو كما قال ويقال : «من ركب البحر فقد خاطر بنفسه ، وأشد منه خطرا من صحب السلطان بغير علم» . هو لا شك أن راكب البحر دود على عود ، خلق ضعيف في خلق قوي ، تتلاعب فيه الأمواج فلا أحد من دون الله ينفعه بعلاج[5] . وكانت وجهتنا لمدينة مرسيليا التي هي على ساحل هذا البحر من جهته الشمالية .

---

(1) «القمرة» ، أصلها من الإسبانية (cámara) ، والمقصود بها هنا الغرفة المخصصة لإقامة المسافرين على متن المراكب ، *Dozy* 2: 411.

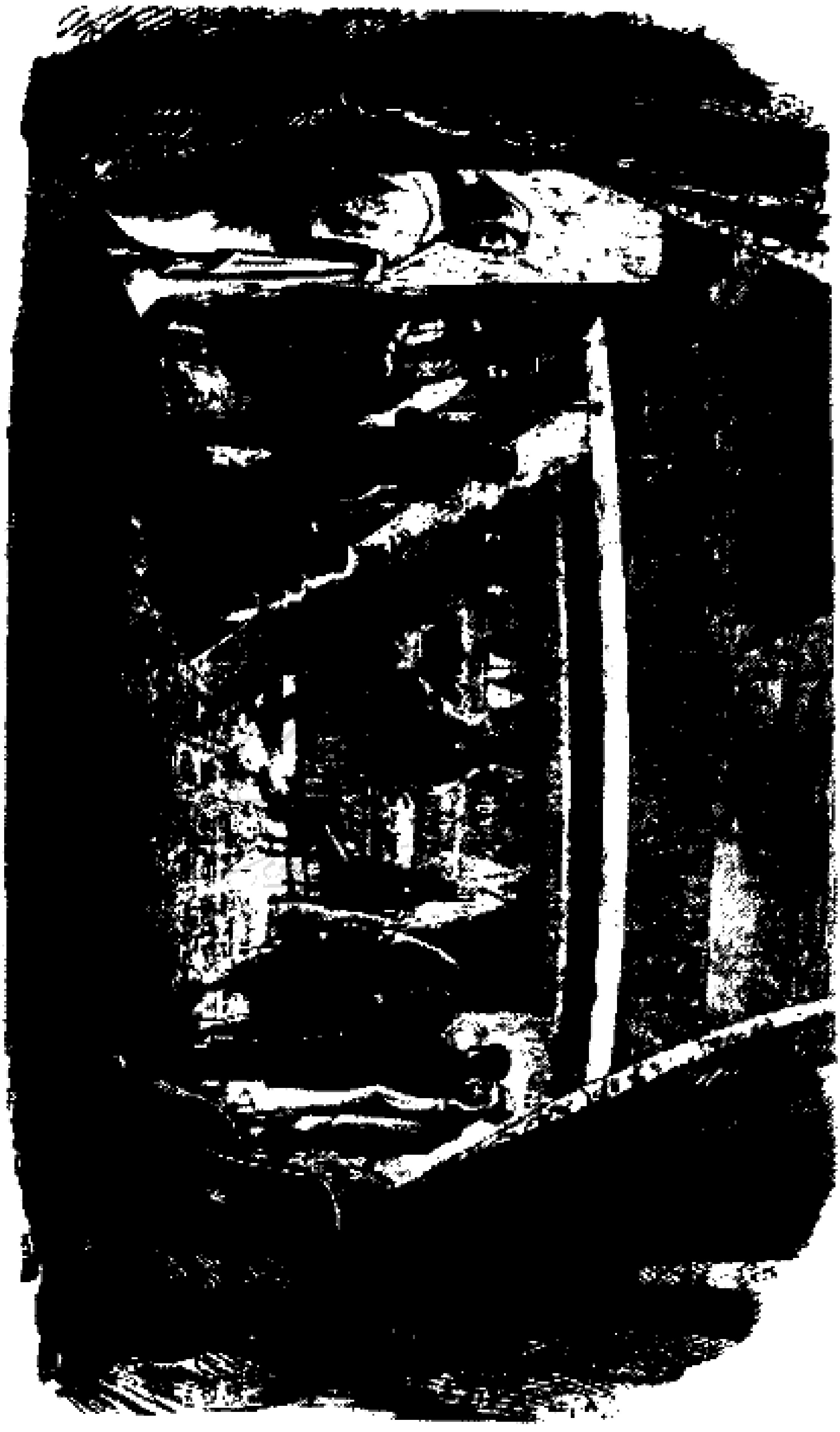
(2) سورة هود ، الآية 41 .

(3) سورة الإسراء ، الآية 67 .

(4) هو محمد ابن العربي من مشاهير رجال التصوف ، أندلسي الأصل ، كانت وفاته في دمشق عام 638 هـ /1240م . انظر مادة «ابن العربي» في *SEI* s.v. "Ibn (al) Arabi" .

(5) غالبا ما تحدث اليونان والرومان عن البحر بنوع من الإعجاب والتمجيد المثاليين ، غير أن العرب - على العكس من ذلك - غالبا ما تحدثوا عن البحر في كتاباتهم بطريقة لا تخلو من النفور . وقد جاء ضمن إحدى مراسلات عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب في موضوع البحر ما يلي : «إن البحر لخلق عظيم يشبه المطية التي يركب عليها الضعفاء كما تزحف الديدان على فروع الشجرة» ، انظر :

At-Tabari, *Annales*, ed. M.J. de Goeje et al. (Leiden, 1879-1901), I : 2821, anno 28. (648-49).



لوحة 7 : أعضاء السفارة المغربية ومرافقوهم على متن «المتيور»

عن جريدة الإلوستراسيون L'Illustration ، 28 فبراير 1846

واعلم أن هذا البحر يسمى البحر الرومي لكثرة ما على سواحله من بلاد الروم[1]

== وردت الإشارة إليها في المقدمة 39 : 2 Muqaddimah . وقد استعمل أبو الحسن علي التامكروتي في كتابه النفحة المسكية في السفارة التركية تعبيرا مشابها ، انظر الصفحة 39 من ترجمة هنري دو كاستري تحت عنوان :

Relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589-1591, traduction, H. de Castries. (Paris, 1929).

(المغرب) : وانظر النص العربي للرحلة نفسها ، وقد صدرت مؤخرا بتقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2002 ، ص . 81 : «فأخذنا نسير في تلك المواسط وغور ، وننجد بين الأمواج ونغور ، ونصبح ونمسي لا نرى إلا السحاب والبحور ، أزرق على أزرق ، نحن دود على عود ، في خطر الأسر والغرق» . وعن نظرة المغاربة إلى البحر وعلاقتهم به ، انظر أيضا أعمال ندوة : «البحر في تاريخ المغرب» ، تنسيق رقية بلمقدم ، منشورات كلية الآداب بالمحمدية ، 1999 .

وعلى الرغم من وجود المغاربة ، بحكم وقوع بلادهم جغرافيا على مقربة من البحر ، فإنهم نادرا ما كانوا يختارون مهنة الملاحة مصدرا أساسيا للعيش ، وتعكس الأدبيات الشعبية بعض مظاهر الخوف الذي كان ينتاب المغاربة من البحر . انظر :

L. Brunot, *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et salé* (Paris, 1921), pp. 1-12.

(1) «الروم» هو المصطلح الذي كان يشير به العرب خلال العصر الوسيط إلى اليونان والبيزنطيين . غير أن مصطلح «الرومي» امتد وأصبح يشمل في معناه العام «المسيحي» . بينما تعني «بلاد الروم» أوربا المسيحية . وحسب ما جاء عند كَويتاين (S. D. Goitein) فإن مصطلح «الرومي» كان يستعمله يهود مصر الناطقون بالعربية في نصوص الكَنيزة ، لكن ابتداء من القرن الثاني عشر برزت كلمة «إفرنجي» (المشتقة من « Frank») ، مع التمييز بين الأوربيين الموجودين في الشرق (الروميين) وأمثالهم في الغرب «الإفرنجيين» . وبعد القرن الثالث عشر ، استعملت كلمة «فرنسا» في رسائل الكَينزة إشارة بذلك إلى فرنسا . انظر :

S. D. Goitein, *A Mediterranean Society*, 5 vols. (Berkeley, 1967-1988), 1: 43.

و في المغرب ، يعرف الأوربيون عند عامة الناس بمصطلح « نصارى» أو «نصرانيين» . وعند استعمال الصفار لبعض المصطلحات المماثلة ، فإنه يعني بكل منها أمرا بعينه : 1 . «بلاد الروم» التي يقصد بها جميع البلدان التي تتكون منها أوربا المسيحية . 2 . «بلاد الفرنسيس» ويعني بها أرض ==

خصوصا جهته الشمالية ويسمى البحر الشامي لأنه ينتهي إلى بلاد الشام[1] ، ويسمى البحر المتوسط . ويعرف الآن عند عامة أهل المغرب بالبحر الصغير ، لأنه في مقابلة المحيط الذي يسمونه الكبير[2] . ومبدؤه من الخلج المتضايق بين طنجة وطريفة ، في عرض نحو اثني عشر ميلا ، وهو المسمى بالزقاق ويعرف عند العامة بالبوغاز[3] . وهو ما بين سبتة وقصر الجواز المعروف بالقصر الصغير[4] في جهة الجنوب ، وبين الجزيرة الخضراء وطريفة في جهة الشمال ، وليس له منفذ للمحيط إلا من هذا الزقاق ، ومبدؤه هذا هو في الإقليم[5] الرابع .

وبيان ذالك أن شكل الأرض عند الحكماء كرة ، وأنها محفوفة بعنصر الماء ، كأنها عنبة طافية انحسر الماء عن بعض جوانبها ، وهذا الذي انحسر عنه الماء من الأرض هو النصف من سطح كرتها فهي شكل دائرة أحاط الماء بها من جميع جهاتها ، والماء المحيط بها هو الذي يسمى البحر المحيط[6] . وهذه الدائرة يقسمها

== الفرنسيين . 3 . فرانسا : لم يرد سابقا اسم هذا البلد إلا تحت عبارة «بلاد الفرنسيس» ، كما تشهد بذلك نصوص الوثائق المخزنية . وحين حل الصفار بفرنسا وسمع بتسميتها الأصيلة : فرانس (France) ، شرع هو الآخر في استعمالها . ولمزيد من المعلومات انظر :

Lewis, *Muslim Discovery*, pp. 20, 140; *IB* 2: 415 note 14.

(1) «الشام» هو التسمية العربية التي كانت معروفة عن بلاد سوريا خلال العصر الوسيط .

(2) وهو المحيط الأطلسي .

(3) وهي التسمية التي يطلقها المغاربة على مضيق جبل طارق . انظر : Harrell, p.41 في حين يقول التامكَروتي إن الكلمة تركية . النفحة ، ص . 43 .

(4) «القصر الصغير» هو النقطة التي كان ينطلق منها المغاربة لشن حملاتهم على الإسبان . ومن ثم جاءت تسميته بقصر الجواز . انظر :

E. Michaux-Bellaire, "El-Qçar Eç-Çeghir", *RMM* 16, 12 (1911): 350.

(5) أصل كلمة «إقليم» من اليونانية (Klima) ، وتعني نطاقات معينة من المساحات المكونة للأرض عند خطوط العرض . انظر : *Muqaddimah* 1 : 111

(6) جاء عند ابن خلدون : « [. . .] أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه ما انحسر الماء عن بعض جوانبها [. . .] وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط [. . .] » ، المقدمة ، طبعة بيروت الصادرة سنة 1978 ، ص . 44 .

بنصفين خط من المشرق إلى المغرب وهو المسمى خط الاستواء . فإذا وقفت في هذا الخط واستقبلت المشرق ، فما يبقى عن يمينك فهو الجنوب ، وما عن يسارك فهو الشمال ، وما بعد خط الاستواء لجهة الجنوب كله أو جله خلاء لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس ، وإنما العمارة فيها بعد خط الاستواء لجهة الشمال ، والمعمور في هذه الجهة ، أربع وستون درجة من خط الاستواء ، والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود .

فالمعمور إذن من هذا المنكشف من الأرض مقدار ربعه . وهذا المعمور هو الذي قسمه الحكماء أقساما سبعة وسموا كل منها إقليما[1] ، فهي المراد بالأقاليم السبعة . وهذه الأقسام متساوية في العرض ، مختلفة في الطول لأن طولها من المغرب إلى المشرق ، وعرضها من الجنوب إلى الشمال . فالإقليم الأول أطول مما بعده ، وكذا الثاني إلى السابع ، فهو أقصرها على ما اقتضاه انقسام نصف الدائرة . فمبدأ الإقليم الأول عرضا خط الاستواء ، ذاهبا في العرض إلى جهة الشمال . وطوله من المغرب إلى المشرق ، فهو مار مع خط الاستواء من المغرب إلى المشرق ، يحده من جهة الجنوب خط الاستواء ، ومن جهة الشمال الإقليم الثاني . ومبدأ الثاني عرضا من حيث انتهى الأول ، وطوله أيضا من المغرب إلى المشرق . فيحد من جهة الإقليم الأول ، ومن جهة الشمال الإقليم الثالث ؛ وهكذا فالأول أطولها والأخير أقصرها ، لأن أطول خط في الدائرة هو نصفها ، وقد أسلفنا أن خط الاستواء يقسمها بنصفين . ثم قسموا كل إقليم من هذه الأقاليم في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ، فلذلك تسمعهم يقولون أن الموضع الفلاني في الجزء الرابع أو الخامس مثلا من الإقليم الأول أو الثاني الخ . . .

فابتداء هذا البحر الصغير من الخليج المذكور وهو الجزء [ ][2] من الإقليم الرابع ، وانتهاؤه في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع أيضا على ألف فرسخ[3] ومائة وستين

---

(1) انظر الهامش أعلاه في الصفحة السابقة .

(2) ترك الصفار فراغا أبيض في مخطوطته ، ربما لعدم معرفته بالمرتبة التي كان يحتلها ذلك الجزء من الإقليم الرابع ، خاصة وأن ابن خلدون لم يذكر شيئا عن تلك النقطة في المقدمة .

(3) «الفرسخ» أصل الكلمة من الفارسية «فرسنك» (farsang) . وتعنى المسافة التي يمكن أن يقطعها الإنسان مشيا مدة ساعة . ويذكر ابن خلدون أن «الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع» ، أي حوالي =

فرسخا من مبداه ، وعليه هنالك سواحل الشام . وعندما يخرج هذا البحر من الخليج المذكور ، ويذهب مشرقا فينفسح جنوبا وشمالا ، حتى يدخل من جهة الجنوب في الإقليم الثالث ، ومن جهة الشمال في الإقليم الخامس ، حسبما ذكر ذلك كله ابن خلدون[1] . وعليه من جهة الجنوب طنجة ثم سبتة ثم تطوان ثم سواحل الريف ، وفيها مليلية وبادس وهما للإصبنيول[2] . ثم وهران والجزائر وسائر ما كان من عمالتها ، وهي الآن بيد الفرنسيس . ثم تونس وسفاقص وسوسة وسائر سواحل إفريقية[3] ثم جربة على جون هناك ، ثم طرابلس ومسراته مدفن سيدي أحمد زروق[4] نفعنا الله به . ثم جون يعرف بجون الكبريت[5] . ثم درنة وغيرها من بلاد

== ثلاثة أميال عربية ، أو ثلاثة أميال ونصف إنجليزية *Muqaddimah* 1 : 96. ابالإضافة إلى الهامش 19 من الصفحة نفسها . وفي المقدمة (طبعة بيروت 1978) ، ص . 45 .

(1) اعتمد الصفار في كل هذا القسم على ما كتبه ابن خلدون في المقدمة ، وبالضبط على «المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض والإشارة الى بعض ما فيه من الأشجار والأقاليم» انظر :
Muqaddimah 1: 129-133, 139-143.

(2) احتل الإسبانيون مليلية في 1497 ، وتنوزل عن باديس للإسبان في 1564 . انظر :
C.-A. Julien, *History of North Africa: Tunisia, Algeria, Morocco* (London, 1970), pp. 206, 226, 253.

(3) وهي التسمية العربية لتونس في العصر الوسيط . زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت ، دون تاريخ) ، ص . 148-149 .

(4) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي ، المعروف بزروق ، ولد سنة 846 هجرية موافق 1442 ميلادية . وهو من مشاهير الفقهاء والقضاة ، وكان يحظى بالكثير من التقدير والتبجيل في كل أرجاء بلدان الشمال الإفريقي . انظر : كتاب نشر المثاني للقادري ، ترجمة نورمان سيكار :
Al-Qadiri, (trans. Cigar), *Nashr*, p. 160 and note 13; Léi-Provençal, Les *historiens*, p.187, note 3.

(5) الموضع الذي يتحدث عنه الصفار هنا هو خليج سرت ، غير أننا لم نعثر في أي من القواميس الجغرافية المعروفة على اسم لمكان يحمل كلمة «الكبريت» التي يستعملها هنا الصفار . هذا مع العلم أن مادة الكبريت لها أهميتها القصوى في صناعة البارود والأدوية ؛ وربما كانت المنطقة المذكورة مصدرا لها في فترة من الفترات . انظر مادة «كبريت» في : *EI* 2, "Kibrit"..

برقة[1] . ثم الإسكندرية ، ثم مر كذالك إلى سواحل الشام . وعليه من جهة الشمال طريفة ثم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ثم مالقة ثم المرية وسائر سواحل الأندلس وهي الآن المعروفة باصبانية ، وهي كلها للإصبنيول إلا جبل طارق فإنه للانكَليز . ثم بلاد فرانسا ، وأول مراسيها مما يلي الإصبنيول مرسى صغيرة يقال لها بور بندر[2] . ثم مرسيليا ، ثم طولون وسائر سواحل فرانسا . ثم يليها بلاد إيطاليا ، ومنها مدينة جنوة ، وهي للصردوا[3] ، ثم مدينة الكرنة وهي للكرنيز[4] . ثم بعدها مدينة رومة العظمى ، وليست على الساحل بل في البر . ثم نابل وهي للنبليطان وهو جبل خارج في البحر ، وعند انتهائه جزيرة سيسليا فصل بينهما فاصل صغير يسمى بوغاز مسينا ، وهي للنبليطان أيضا . ثم دخل البحر في جون خلف نابل ، ويسمى ذالك الجون غلف فنسية ، وانتهى هنالك إلى بلاد النامسا ومنها فنسية[5] المنسوب لها الغلف المذكور .

ثم على شاطئ هذا الجون مما يلي النامسا قبالة نابل ، بلاد الترك والغرناوط[6] . وهناك جزر كثيرة متزاحمة . ثم يلي بلاد الترك على هذا الساحل بلاد المورة[7] ، وهي للكَريكَ[8] . ثم دخل البحر في جون صغير خلف المورة ، ورجع إلى بلاد الترك . ثم انحصر في خليج متضايق يعرف ببوغاز شانة قلعة[9] ، ثم انفسح يسير إلى مدينة

---

(1) وهو اسم كان يطلقه الجغرافيون العرب في العصر الوسيط على مدينة المرج والمنطقة المحيطة بها ، والواقعة في ما كان يعرف بقورينة الإغريقية القديمة ، وهي ليبيا اليوم ، انظر مادة «برقة» ، في : *EI* 2, "Barka" .

(2) واسمها بالفرنسية بور فاندر (Port-Vendres) .

(3) ويعني بها السردينيين .

(4) ويقصد بذلك ليفورنو (Livorno) ، وهي اليوم من المدن الإيطالية .

(5) المعروفة اليوم بـفنيزيا (Venezia) ، وهي من المدن الإيطالية .

(6) يعني بالغرناوط بلاد ألبانيا .

(7) وهي موري (Morée) ، وجاءت هذه التسمية نتيجة لانتشار شجرة التوت على أرضها انتشارا كبيرا (من اليونانية morea واللاتينية morus) ، وتسمى أيضا البيلوبونيز (Péloponnèse) (المعرب) .

(8) وهم الإغريق أو اليونان .

(9) وأصلها من التركية (çanakkale) ، وهي مركبة من كلمة (çanak) التركية ومعناها القدرة ، ومن لفظة (kale) قلعة العربية بمعنى الحصن ، والمقصود بها هنا مضيق الدردنيل .

القسطنطينة العظمى وهي اسطانبول[1] . ثم خرج في خليج أيضا يسمى خليج القسطنطينة ، وانفسح في بلاد الموسكوا[2] . وهذا البحر المنفسح في بلاد الموسكوا هو الذي يعرف عند العامة بالبحر الأكحل ، ويسمى عند الترك قارَادَانِز وهما كلمتان : فقار هو الأسود ، ودانيز هو البحر باللغة التركية ، يعني البحر الأسود بتقديم الصفة كما هي قاعدة تركيب العجم . وهنالك انحصر هذا الداخل هنا ، ثم ذهب من بوغاز شانة قلعة على مدينة إزمير . ثم عليه هنالك وبعده أمم كثيرة من الروم والأتراك ، إلى أن وصل لبلاد الشام ، ودار إلى جهة الإسكندرية ، وهذا منتهاه .

وفي هذا البحر جزر كثيرة عامرة ؛ فمنها جزيرة يابسة[3] وميورقة وماعون[4] ، وكلها للإصبنيول قرب بلاده . ومنها جزيرة سردانية وهي للصردوا ، ومنها جزيرة كرسيكة وهي للفرنسيس ، ومنها جزيرة صقلية وهي للنبليطان ، وهي التي تسمى الآن سيسليا وتقدم ذكرها[5] . ومنها جزيرة مالطة المشهورة ، وهي في حكم الانكَليز . ومنها جزيرة كريت قبالة المورة . ومنها جزيرة قبرس قبالة سواحل الشام . وفيه جزر أخرى صغيرة كثيرة خصوصا في بلاد الترك والمورة .

رجع إلى ما كنا فيه . فبعد مسيرنا أربعة أيام ونحن في أرغد عيش وأهنا مقام ،

---

(1) استعمل الرحالة المغاربة كلا التسميتين . في القرن الرابع عشر الميلادي ، أشار ابن بطوطة إلى أن «أحد الجزئين المكونين لمدينة القسطنطينية هو استنبول . وهو الواقع على الضفة الشرقية للنهر» .IB 2: 508 أما في القرن السادس عشر ، فقد سماها التامكَروتي بالقسطنطينية ، النفحة ، ص .43 . ولمزيد من التفاصيل حول أصول تلك التسمية ، انظر :

D. J. Georgacas, "The Names of Constantinople", *Transactions of the American Philological association* 78 (1947): 366-67; *EI* 2, s.v. "Istanbul".

(2) والمقصود بها روسيا القيصرية ، وترد في المراسلات المخزنية خلال القرن التاسع عشر هكذا : المسك ، أو «الموسك» أو الموسكوا ، انظر محفظات المغرب وروسيا بمديرية الوثائق الملكية في الرباط (المغرب) .

(3) وهي جزيرة إيبيزة (Ibiza) .

(4) وهي جزر مينورقة ومايورقة (Majorque) و(Minorque) .

(5) تمكن الأغالبة منذ القرن التاسع الميلادي من احتلال صقلية ، فظلت تحت السيطرة العربية لمدة قاربت المائتي سنة . القزويني ، آثار البلاد ، ص . 215-216 ؛ وكذلك :

P. Hitti, *The Histoiry of the Arabs* (New york, 1967), pp. 602-606.

ترفعنا الأمواج طورا وتخفضنا أخرى مع سكون الرياح واعتدال الهواء . وبقرب المسافة تزاد البشـرى ، وقد كنا على وجل من هوله المبين ، إذ كان ركوبنا فيه في شهر دجنبير[1] . فسلمنا الله من كيده وإن أصاب بعضنا نصيب من ميده . وفي اليوم الخامس ، بدا منه بعض اضطراب يسير ، وقد أشرفنا على غلف ليون[2] الذي مجازه في غالب الأوقات صعب عسير . وكان للمركب بشيء من الفحم حاجة ومسيس ، فاقتضى ذلك دخولنا لمرسى بور بندر التي هي أول مراسي الفرنسيس . فأرسينا فيها ظهر يوم الأربعاء[3] ، فسكن الفؤاد وزال الدهش ، ورجع لكل واحد منا نشاطه وزال ميده وانتعش .

وهي مرسى صغيرة ، لاكنها لإتقانها وإحكام صنعتها وحسن مداخلها وبناء شواطئها تلحق أو تفوق الكبيرة . ليس فيها رياح ولا تمويج ، فيصير المركب في داخلها كأنه في وسط صهريج ، يبقى سائرا حتى يلتصق بالشاطئ ، ويربط حباله في أخراص[4] غليظة من الحديد ، مسمرة في الحجارة العظيمة التي بني بها الشاطئ المذكور . وعلى باب هذه المرسى أبراج للمدافع وفنارات عظيمة عالية على جبال هنالك تضيء بالليل ليهتدى بها إلى المرسى . وعلى هذه المرسى قرية صغيرة تسمى بالاسم المتقدم ، وإليها تنسب المرسى . فيها ديار وحوانيت على الشاطئ ، يباع فيها

---

(1) يتميز التقويم القمري المعمول به عند المسلمين بعدم الاستقرار ، مما جعله غير صالح لضبط مواقيت الأعمال الفلاحية . وفي المغرب كانت الشهور معروفة بأسمائها اللاتينية منذ وقت باكر ، أي منذ السنوات السابقة للفترة ما قبل الاستعمارية . وكان المغاربة يستعملون الشهور الرومانية في كلامهم اليومي الدارج ، ويسمونها بالأشهر الفلاحية . بينما خصصوا التقويم الإسلامي لضبط تواريخ المراسلات المخزنية والأعياد الدينية ، انظر :

A. Joly, "Un calendrier agricol marocain" *AM* 3, 2 (1905): 301-319; *Dozy* 1: 425.

(2) ويعني بذلك خليج الأسود (Golfe de lions) ، ولا علاقة له بمدينة ليون المعروفة الواقعة كما هو معلوم في وسط فرنسا (المعرب) .

(3) «كان النقص الحاصل في الماء والفحم ، بالإضافة إلى الرياح الشديدة ، من الأسباب التي جعلت قائد المركب يقرر الدخول إلى المرسى المذكورة» ، روش إلى كيزو ، بور فاندر ، 17 دجنبر 1845 .

(4) أخراص وخراص في اللغة هي جريدة النخل . أما المقصود بأخراص عند الصفار هنا فهي مأخوذة من مفردها خُرص أو خُرصة ، وهي الحلقة التي توضع في الأذن . ويعني بها الحلقات الحديدية الدائرية الشكل التي تُشد بها حبال المراكب الراسية . *Dozy* 1: 362 (المعرب) .

المأكولات من خبز ولحم وفواكه وخضر وغير ذالك . وعليها كثير من بساتين العنب ، وهي من البوادي لا من الحواضر . ولم نر في مرساها من السلع إلا بوطات[1] ، الخمر ولعلها ببادية العنب .

فبتنا بها وأخذ المركب ما كان يحتاجه وأصبحنا بها ، وعند ارتفاع النهار قلعنا منها ودخلنا في غلف ليون وقد طمحت له العيون . فلقينا من هدوه وطيب المسير فيه ما كان نادرا من أمره . إلا في نحو ثلاث ساعات من آخر اليل اضطرب بنا شيئا ما ، فأصبحنا صباح يوم الجمعة في مرسى مرسيليا ، فحمدنا الله على السلامة وبلوغ الغاية وقطع المسافة . فكانت مدة سفرنا فيه بعد إسقاط الإقامة المذكورة خمسة أيام .

وبعد ارتفاع النهار جاءنا كبير البلد وطلع إلينا للمركب ، فسلم تسليم البشاشة وأبدى من وجهه طلاقة وهشاشة . وأنزلنا في إعزاز وإكرام وتوقير وفرح وإعظام . وعند نزولنا أطلقوا المدافع حتى ملأ خبر وصولنا من الأقصى والأدنى المسامع ، فدخلنا البلد فتلقونا بالبشر والألطاف والبرور والاسعاف . وصفف لنا كبيرهم العساكر خيلا ورجالا تعظيما لنا وإجلالا . وأركبونا في أكداش[2] منتخبة تجرها خيل مزينة ، إلى أن أوصلونا إلى دار سنية ، فأقمنا بها في عيشة هنية[3] بقية يوم النزول ، ويوم السبت بعده . وفي ضحوة يوم الأحد أزمعنا الرحيل منها قاصدين مدينة باريز ، إذ هي كرسي سلطنتهم وقرار مملكتهم .

---

(1) من الإسبانية (bota) ومعناها البرميل (المعرب) .

(2) يسمى المغاربة العربة التى تجرها الخيل «الكوتشي» أو «الكودشي» وجمعها «أكداش» . وأصلها من الإسبانية (coche) . والاسم معروف عند المغاربة منذ زمن ، حيث ورد ذكره عند الغساني في رحلته إلى إسبانيا خلال القرن السابع عشر افتكاك ، ص . 9 . وكتب شيني في هذا الصدد ، أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757–1790) «لم يكن يظهر أبدا أمام الناس إلا ممتطيا صهوة فرس أو راكبا في عربته ذات العجلتين» :

L. Chenier, *The Present State of the Empire of Morocco*, 2 vols. (London, 1788), 2: 307-308.

(3) كانت إقامة أعضاء السفارة في فندق الشرق (Hôtel d'Orient) AAE/CPM 15/215-216. بورسي (Pourcet) إلى كيزو ، 19 دجنبر 1845 . انظر أيضا رسالة أشعاش إلى السلطان مولاي عبد الرحمن ، 20 ذي الحجة 1261/20 دجنبر 1845 ، وهي محفوظة بمديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17578 .

الفصل الثاني
فصل في سفرنا في البر من مرسيلية لباريز

اعلم أن قانون السفر في هذه البلاد أن المسافر لا يحمل معه زادا ولا فراشا ولا خزانة ولا غير ذالك، وإنما يحتفظ بدراهمه ورياله وذهبه، فبذالك يبلغ المنى من كل آماله وبلوغ أربه[1]. وذالك أن هذه الطريق كلها أو جلها عمران، فلا يفارق المار عمارة حتى يدخل في أخرى. وكلما وصل عمارة وجد فيها أسواقا يباع فيها من كل شيء يحتاجه المسافر. وفيها دار أو ديار تسمى عندهم الأوكنضة، وتسمى البوصاضة(2).

---

(1) غالبا ما تحدث الأجانب عن المخاطر والمتاعب الكبيرة التي يطرحها السفر والتنقل عبر مختلف أرجاء المغرب. وحينما يكون السفر تحت إشراف المخزن وعنايته، فإنه عادة ما كان الموظفون المخزنيون المحليون من عمال وقواد يزودون المسافرين بالمؤونة الضرورية؛ ومع ذلك لم يكن حصولهم على تلك المؤونة مضمونا دائما مما كان يضطرهم في الغالب إلى حمل زادهم أو إلى شرائه والحصول عليه بمختلف الطرق التي تسمح لهم بها الظروف، Hay, *Journal* p.71 أما حمل المسافرين للنقود، فكان محفوفا دائما بالمخاطر لانتشار اللصوص في المسالك والطرق، Laroui, *Origines*, p.63.

(2) «الأوكنضة»، أصلها من الإيطالية (locanda)، وهي عبارة عن حانة صغيرة تتوفر في الوقت نفسه على مطعم للأكل وعلى عدد قليل من الغرف للإيواء. وقد وصفها الطهطاوي بأنها «مواضع معدة للطعام والشراب مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات في غاية النظافة والظرافة وفيها محال للنوم»، تلخيص، ص. 114؛ L'or, p. 148 بينما يقول الصفار إنها مكان خاص للنوم، ويمكن شراء المواد الغذائية من خارجها، وفي ذلك شبه كبير بما هو معهود في المغرب. فقد قدم لنا جاكسن وصفا لفندق بمدينة فاس جاء فيه، أنه «بناية من ثلاثة طوابق [...] تحتوي على ما بين الخمسين أو المائة من الغرف الصغيرة [...] حيث جرت العادة أن يحمل المسافر معه ما يمكنه ==

والفرق بينهما أنه إن كان فيها موضعا الثواء والطعام فهي الثانية ، وإن كان فيها موضع الثواء فقط وكل واحد يأتي بطعامه من السوق فهي الأولى . وهي دار كبيرة ذات بيوت كثيرة في فوقيها ، وكل البيوت لها طاقات كبار على قدر قامة الإنسان أو أكثر تشرف على ما تحتها من الشوارع والأسواق .

وكل بيت فيه فراش واحد أو أكثر للنوم بغطائه ووطائه وستوره ، والكل في غاية النظافة واللين . وقد تكون أرضه مفروشة بالزرابي الجيدة يطأها الداخل بنعله ، إذ ليس من عادتهم خلع النعال إلا إن دخل فراش النوم . وكل طاقات البيت عليها ستور من الحرير أو غيره مما يضاهيه . وفيه عدة من الشوالي[1] للجلوس عليها ، ولا يعرفون الجلوس بالأرض أصلا ، ولا تطاوعهم لبستهم له لضيق سراولهم . وفي وسطه طبلة من رفيع الخشب أو المرمر معدة للكتابة عليها ونشر الكتاب إن كان ، ونحو ذالك من وضع شيء عليها وغيره . وفيه خزانة من العود الجيد يشرق وكأنه المرءات ذات جوالق[2] ، عديدة ليحفظ فيها ما يعز عليه من أمتعته وثيابه وغيرها ، وقد يكون فيه

= اتخاذه فراشا للنوم ، لأن تلك الفنادق غير مجهزة بالأفرشة ، باستثناء حصير يسمح لك باستعماله إلى جانب ما تحمله معك من وسائل خاصة ؛ وإذا كنت في حاجة إلى وجبة أكل خفيفة ، فليس بإمكانك الحصول عليها داخل الفندق ، بل يجب شراؤها من دكان خارجي يبيع المأكولات أو من حانوت لأحد الجزارين» .

J. G. Jackson, *An Account of the Empire of Morocco and the District of Suse* (Philadelphia, 1810), p.123.

كان «الفندق» من الأماكن الخاصة بإيواء عامة الناس عند تنقلاتهم ، وخاصة منهم أهل البوادي ، في حين كانت تهيأ للشخصيات الهامة من مستوى محمد الصفار ، عند زيارتهم لمدن مغربية أخرى ، أماكن خاصة للإقامة . وهي عادة ما تكون من دور كبار الأعيان . أما «البوصاضة» ، فأصلها من الإسبانية (posada) ، وهي المكان المخصص لإيواء المسافرين ليلا ، بالإضافة إلى تمكينهم من إبدال خيولهم المرهقة بأخرى مستريحة .

(1) مفردها شلية ، وأصلها من الإسبانية (silla) ، وهي الكراسي ، *Dozy* 1: 783 .

(2) جاء في **المعجم الوسيط** ، ج 1 ، ص .131 عن الجوالق ، أنها تسمى أيضا «الغرارة» ، ومعناها كما هو وارد بالمعجم نفسه ، ص .654 : وعاء من الخيش ونحوه وهو أكبر من الجوالق . والمقصود بالجوالق عند الصفار أكياس تحفظ بها الملابس ، (المعرب) : وأشكر الأستاذ سعيد بن سعيد العلوي الذي مكنني من قراءة هذه الكلمة غير الواضحة في المخطوط ، ومن معناها كما أوردته أعلاه .

أكثر من واحدة . ومن لازم كل فراش خزانة صغيرة عند رجليه ، بداخلها إناء نظيف للبول . وفي غالب البيوت مكَانة[1] كبيرة وثريات وحسك للشموع ، ومرءات كبيرة واحدة أو أكثر في غاية الصفا والمتونة مبنية في الحائط ، حتى أنه من شدة صفائها وطولها [تظهر] لغير المتأمل أنها طريق نافذة . ومن لازم كل بيت من بيوت هذه الدار غراريف[2] مملوة بالماء ، كل واحد منزل في وسط إناء واسع ، ومعه فويطات صغار نقية مطوية للتنشف بها والتنظيف . وفي غالب البيوت تصاوير وتماثيل من البلدان والأشجار وأشخاص الحيوانات والسفن والبحار وغير ذالك . ولهم بها اعتناء كبير فلا يخلوا منها محل ، وإن كان شيئا قليلا . وقد يكون في هذا البيت غراريف من النوار المصنوعة من الكاغيد ونحوه ، يغطونه بزجاجة ليبقى لونه دائما محفوظا من التغيير . ويوجد في بعضها آلة السنتير[3] الذي هو من جملة ملاهيهم وأنواع موسيقاتهم .

ومن لازم كل بيت كانون[4] صغير مبني بالرخام ونحوه على شكل لطيف ، توقد فيه النار بالحطب زمن البرد والشتاء ، وعليه مدخنة نافذة للهواء ، فلا يتأثر البيت بالدخان أصلا لإحكام تلك المدخنة وليبس الحطب ونظافته ، وهذا ضروري لكل بيت رفيعا كان صاحبه أو وضيعا . ويكون في البيت أيضا الدواة والقلم ، وسائر

---

(1) جمعها مواكَن ، وهي التسمية التي كان المغاربة ولا يزالون يطلقونها على مختلف أنواع الساعات . انظر : أحمد الصبيحي ، **معجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي** ، تقديم محمد حجي (سلا ، 1990) ، مادة «المكَانة» ، ص . 164–165 . ويرى محمد ابن عزوز حكيم أن أصلها من الإسبانية (maquina) ، انظر كتابه :

Glosario de quientas voces espanolas usadas entre los marroquies en el arabe vulgar. (Madrid, 1953) (المعرب) .

(2) مفردها غراف ، والمقصود بها هنا أوان يغرف بها الماء ، انظر *Dozy* 2 : 207–208 (المعرب) .

(3) وهو آلة البيانو ، انظر مادة «سنطير» ، *Dozy* 1 : ٦٩٤.

(4) وهو المعروف في المغرب بالمجمر أو النافخ حسب الجهات ، وهو من وسائل التدفئة خلال الفصل البارد ومن أدوات الطبخ التقليدية المستعملة لتحضير الطعام على اختلاف أشكاله . انظر :

Harrell, p.60; L. Brunot, *Textes arabes de Rabat*, 2 vol. (Rabat, 1952), 2M 703.

أما الكانون الذي أشار إليه الصفار ، فهو المعروف عند الفرنسيين ب (cheminée) ، واستعماله مقصور على التدفئة كما هو معروف .

آلات الكتابة . وهذه الذي ذكر هو أثاث بيوتهم كلهم ، وإن اختلفت أوصافه بالجودة وضدها باعتبار الغنى والفقر .

وفي تلك الدار خدمة كثيرون ، رجالا ونساء وطباخون . وقشينة[1] الطبخ محتوية على آلات الطبخ كلها وسائر ما يطبخ . فإذا دخلها الداخل ، أطلعوه لبيت من بيوتها ، فإن كان غرضه الأكل فقط ، فيأمر الخادم يأتيه بما يريد منه من مطبوخات وفواكه وحلاوات وغير ذالك . فإذا فرغ من الأكل وأراد الخروج ، أتاه الخادم بورقة فيها ما يلزمه في ذالك من الثمن . وإن كان غرضه مع ذالك في البيات والإقامة ، يبقى هنالك ما شاء ويختار من البيوت ما أحب ، كل على قدره . وكل ما يريد ياتيه به الخادم ، ولا يحتاج في دعاء الخادم إلى كلفة ، بل ولا إلى تحرك من موضعه . وذالك لأنهم جعلوا داخل كل بيت خيط ولكل خيوط البيوت أو جملة منها اتصال ببعضها بعضا ، فإذا جبذ ذالك الخيط ، وصلت حركته إلى ناقوس ، فيتكلم الناقوس فيأتي الخادم سريعا ، ويعرف من أي بيت هو بعلامة لهم في ذالك .

وبهذا الذي ذكرنا ، يستغني المسافر في هذه البلاد عن حمل الزاد وما عطف عليه ، ومن قانون السفر في هذه البلاد ، أن المسافرين لا يركبون ظهور الدواب بسرج ولا بردعة ولا غير ذالك ، ولا يسافرون على أرجلهم ، إلا إن كان واحدا من العسكر الرجالة أو من الفقراء ، وإنما السفر هنا في الأكداش والكراريص[2] والخيل تجرها ، وهي على أشكال وأنواع . فمنها شكل مربع يسع أربعة من الناس ، كل اثنين على منصبة متقابلين جالسين ، ويتمكن كل منهم أن يمد رجليه لكن تحت المنصبة المقابلة

---

(1) «قشينة» ، وتنطق بالكاف هكذا «كشينة» ، وإن وردت عند الصفار بالقاف ، وأصلها من الإسبانية (cocina) ، أي المطبخ . انظر : *Dozy* 2 : 481.

(2) مفردها كروصة ، وأصلها من الإسبانية (carroza) . وهي عربة ذات عجلات أربع تجرها الخيول ، انظر : *Dozy* 2:. 464 انتبه الرحالة الأربيون أثناء تنقلاتهم عبر أرجاء البلاد المغربية ، خلال القرن التاسع عشر ، إلى غياب وسائل النقل ذات العجلات . وذكر جون دارموند هاي في الصفحات 121–122 من كتابه *Western Barbary: Its Wild Tribes and Savage Animals* (London.: 1861) أنه شاهد «على جانب الطريق عربة في حالة يرثى لها» ؛ وأضاف قائلا : «وكان شكلها أسوأ من أقدم العربات المصرية التي كنت قد رأيت نموذجا منها بعيد اكتشافها على ضفاف نهر النيل . وكانت تلك وسيلة النقل الوحيدة ذات العجلات التي صادفتها في المغرب» .

له لأنه فارغ . وفي جوانبه طاقات بأبواب الزجاج الصافي ، يرى منها الطرق والدنيا والناس . وإن شاء فتحها إن لم يخف من حر ولا برد ولا غبار ونحوه ، وإن خاف من شيء من ذالك أغلقها ويبقى له الضوء والنظر . وعلى كل منصبة مضربة[1] صغيرة ليجلس عليها الجالس . وفيه محال لإنزال بعض الحوائج الخفيفة ، وكله من الخشب الجيد الصافي أرضه وجوانبه وسقفه . فهو في الحقيقة بيت من البيوت ، لا يخاف راكبه من ريح ولا مطر ولا شمس ولا حر ولا برد لأنه داخل بيته . وإن أراد أن يخفي نفسه ولا يعرفه أحد ، فيرخي من داخله على الطاقات ستورا معدة هنالك ، ويطلقها إذا تأذى بشعاع الشمس ونحوه .

وبخارجه من قدام موضع لجلوس الذي يسير الدواب التي تجره ، وبمؤخره خارجه أيضا موضع آخر يجلس فيه خادم معين للمسير أو خديم الراكب ، وارتفاعه من الأرض بمقدار ذراعين[2] ، وهو مرفوع على كراريط[3] لطاف تربط من مقدمها بالخيل التي تجر واحدا أو أكثر . وقد يكون ركوب المسير على واحد من الخيل التي تجر ، وبيده سوطه الذي يزجر به الدواب فتعدوا عدوا سريعا ، فيكون مشيه في غاية السرعة يضاهي إغارة الخيل .

ومنها شكل مستطيل يسع عددا كثيرا من الناس قد تكون وجهتهم واحدة ، وقد يكون غرض أحدهم في أثناء الطريق فينزله حيث أراد ، ويحمل غيره من هنالك إن كان . وغالب من يركبه جماعة متآلفون كالرجل وزوجته وأولاده وأقاربه أو هو وأصحاب له ليبقوا مجتمعين في محل واحد . وقد يكون هذا الشكل بطبقتين إحداهما فوق الأخرى ، وقد يكون بقطعات منفصلة من بعضها بعضا . وقد يجعل على ظهره من فوق حوائج المسافر وأمتعته مغطاة بما يكنها من المطر ونحوه . ومنها شكل آخر يسع اثنين فقط وفيها أشكال أخر .

---

(1) ويجب قراءتها هكذا «مضرَّبة» بالراء المشددة وهي الفراش الذي قد يستعمله المغاربة للجلوس أو النوم أو لهما معا ، وقد تكون صغيرة أو متوسطة أو كبيرة الحجم حسب الحاجة . (المعرب) ، انظر :
Hans Wehr, p.540.

(2) «الذراع» ، وحدة عربية للقياس ، وتبلغ حوالي نصف متر .

(3) مفردها كريطة ، وأصلها من الإسبانية (carreta) . وهي العربة الصغيرة ذات العجلتين ، انظر : 164 : Dozy 2 ، وكذا : الغساني ، افتكاك ، ص 39 .

ومنها أشكال أخر لحمل السلع والأثقال ولا سقف لها، إلا أنهم يغطون السلعة بما يمنع وصول المطر لها بإحكام وإتقان، بأن يجعلوا عليه أقواسا من رقيق الخشب، ويمدون عليها ثوبا غليضا من ثياب القلاع ويحبذونه ويسمرونه، فتصير السلعة في داخله كأنها في وسط الخيمة فلا يصيبها المطر أصلا. ويجعل المسير موضعه تحت هذا الساتر، فلا يصيبه المطر أيضا. والحاصل أن المطر لا يمنع من السفر في هذه البلاد، لأنه لا يصيب المسافر ولا أمتعته منه شيء ولا تتأثر به الطريق لما سيذكر.

ومنها ما هو معد لحمل ما ثقل من حجارة وحديد ونحو ذالك، ويجره الكثير من الخيل المربوط بعضها في بعض، فيعددون الخيل الجارة على مقدار ثقل المجرور. وليس عندهم في هذا كبير مشقة ولا تعب، ولو كان المحمول بلغ الغاية في الثقل بحيث يزن القناطير العديدة، فلا يكون معه إلا شخص واحد يربط الدواب بثالة الجر ويحلها. وأما المحمول فهو لازم لموضعه لا ينزل منه إلا عند منتهى السفر، ونقله على الأرض تجره الكراريط المربوطة في الدواب. وبهذا يسهل عليهم حمل الأثقال العظيمة بغير كلفة ولا مشقة. ولا يحملون شيئا على ظهور الدواب، وما تحمله الدابة الوحدة على ظهرها قد تجر أضعافه عشر مرات وحدها بشرط أن تكون الطريق على ما سيذكر.

ومن جملة علومهم التي يتعاطونها علم جر الأثقال، ولهم فيه تأليف. ولا تسمع في طرقهم إلا دوي الجر وصوت السلاسل التي يربط بها ما ذكر. ومشي الأثقال يكون بالهوينا، بخلاف مشي كراريص الركاب فإنها في غاية السرعة. والذي سهل لهم ذالك تسطيح الطرق وإصلاحها وتعاهدها، لهم بها اعتناء كبير وهي عمدتهم في جل الأمور. فالطريق عندهم كأنها سطح بيت لا يوجد فيها خضخاض[1] ولا حفر ولا شوك ولا حجر ولا غير ذالك. ومهما انثلم شيء بادروا بإصلاحه، فلا يغفلون عن تعاهدها. وفي طريقنا هذه، ما مررنا على موضع منها إلا وجدنا بجانبي الطريق أكداسا من الحجر يمينا وشمالا أعدت هناك لإصلاحها. وغاية ما يفعلون في ذالك، أنهم يعمدون إلى تلك الأحجار فيكسرونها حتى تصير ذات شناقيب[2] ليستحكم

---

(1) من الخضخضة وهي تحريك الأشياء بطريقة عنيفة إلى حد ما، والمقصود بها هنا ذلك التحريك المزعج الذي يحس به المسافر عند التنقل في طريق غير مستوية أو لوجود الحفر بها. (المعرب).

(2) جاءت عند دوزي بحرف الغين بدلا من القاف، مفردها شنغوبة وجمعها شناغيب، وتستعمل في الحديث عن النتوءات البارزة في الخشب أو الحجر. Dozy 1: 792 (المعرب).

التحام بعضها ببعض مع التراب ، فإذا حصل الخلل في موضع منها فرشوا فيه تلك الحجارة وسووها والكراريط تدقها في حال مرورها عليها حتى تصير أصلب ما يكون . وإن كان بجانبها جرف ، بنوا بطرفها وسادة تدعمها . وجل حافتها في كثير من المواضع مغروس بالأشجار العظام تظلل الطريق . وليس لهم نهر ولا خندق ولا حفير ولا خليج إلا عليه قنطرة[1] . فما رأينا في طريقنا هذه من يخوض نهرا قط برجله أو دابته . ولا تجد في الطريق شقا أصلا ، كلها مسطحة مستوية ، لا تعثر الدابة ولا الكروصة في شيء منها أصلا . ومن شدة اعتنائهم بها أنا وجدنا في مواضع منها أناسا بيدهم شطاطيب[2] يسوون بها أثر مشي الكراريط ، لئلا يتتابع مشيها في محل واحد فيصير شقا أو حفرة تتأذى بها الطريق .

ومن اعتنائهم بها أيضا أنهم جعلوا في كل البلدان أو جلها موازين يزنون بها أثقال ما في الكراريص . وبيان كيفيتها أنها دفة غليظة من الخشب مركبة على شيء تحتها ، إذا أحست بالثقل نزلت بقدر ما يكون عليها من الثقل . ولهم رشوم[3] في

---

(1) كانت القناطر نادرة في المغرب خلال أربعينيات القرن التاسع عشر ، وإن كانت تتوفر البلاد على نماذج منها . فقد أشار جون دراموند هاي إلى مروره ، وهو في طريقه إلى مراكش سنة 1846 ، على قنطرتين ذوي بناء محكم متين ، تتكون إحداهما من خمسة أقواس وتقع على مقربة من منطقة الشاوية ، قيل إن أعمال بنائها أنجزت على يد أحد الإسبانيين . في حين تتكون الثانية من خمسة وعشرين قوسا ، وتقع قرب مراكش . غير أن عبور جل الوديان والمجاري المائية في المغرب كان لابد من أن يتم بواسطة المراكب . وذكر دراموند هاي أن عبوره لواد سبو صحبة جماعة من مرافقيه ، قد استنفذ منه يوما كاملا ، إذ «بدأت عملية العبور مباشرة بنقل الخيول والأمتعة دفعة واحدة [. . .] على متن مركب قديم حالته مزرية جدا [. . .] وكان الواد عريضا سريع الجريان . ولم يكن يتوفر المركب إلا على مجدافين ، فاستغرقت كل من مراحل العبور أزيد من ساعتين ؛ وبالرغم من شروعنا في عبور الواد مع بداية النهار ، فإننا لم ننته من ذلك إلا مع غروب الشمس». Hay, *Journal*, p.20

(2) مفردها شطابة بتشديد الطاء على وزن فعالة : أداة للتشطيب ، وهي المكنسة ، *Dozy* 1: 756 ، (المعرب) .

(3) مفردها رشم ، ومعناها هنا أرقام لتعداد المسافات ، *Dozy* 1: 532 ، (المعرب) .

نزول القنطار[1] مثلا وءاخر للقنطارين وءاخر للعشرة مثلا ، وهكذا ، فكلما زاد الثقل زادت اللوحة في الهبوط . فإذا وصلت الكروصة إلى ذالك الموضع ألجئوها للمرور على تلك اللوحة ، فتخرج الخيل وتبقى كراريط الكروصة على تلك اللوحة فتنزل بمقدار الثقل ، فيعرفون كم فيها من وزن . ثم بعد ذالك ينظرون نواعير[2] الكراريط هل يحمل مثلها ذالك الثقل أم لا . ولهم حد في عرض حاشيتها بقدر ما تحمل من الثقل ، فكلما كان أثقل كانت الحاشية أعرض . وإذا كانت حاشية الناعورة رقيقة والمحمول ثقيل ، أثرت أثرا قويا في الطريق ، فيصير أثرها شقا فيسري منه الفساد للطريق . ولهم في هذا الميزان غرض آخر ، وهو اختبار المحمول هل زاد أو نقص أو لم يزد ولم ينقص لأجل المكوس[3] التي يؤدونها عند دخولهم البلدان بما يماكس عليه أو

---

(1) أصل الكلمة يوناني ، وهي وحدة للوزن تبلغ مائة وتسمى أيضا بالهندردوايت (وفي اللاتينية centenarium) ، وكان يساوي في المغرب 100 رطل ، أو حوالي 50 كيلوكَراما . غير أن وحدة القياس المعتمدة على أساس الرطل تختلف في المغرب من منطقة إلى أخرى ، وأيضا حسب السلعة الموزونة . وبصفة عامة ، عادة ما كان يساوي الرطل حوالي 500 كَرام ، انظر : Laroui, *Origines*, pp.49-50; *Dozy* 2: 421.

(2) مفردها ناعورة ، وهي الأداة العربية المعروفة المستعملة في أعمال الري ، لكن الصفار يعني بها عجلات العربة . ولما كانت عربات النقل ذات العجلات نادرة جدا في المغرب أيام محمد الصفار فإن مصطلح العجلة أيضا كان مجهولا غير متداول ، وبالتالي فكلما دعت الضرورة إلى الحديث عن العجلة اقتصر في ذلك على استعمال لفظة الناعورة ، انظر :

G. S. Colin, "La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe", Hesp.14 (1932): 32-49; Thomas Glick, *Islamic and Christian Spain in Early Middle Ages* (Princeton, 1979), pp.236-239.

(3) مفردها مكس ، وهي من الكلف المخزنية المفروضة على السلع عند دخولها أو خروجها من أبواب المدن ، تدخل ضمن الضرائب غير الشرعية . ويقصد الصفار بالمكوس هنا رسوم الدخول المعروفة تحت اسم « l'octroi » وهي من الواجبات الضريبية التي كان يسمح للبلديات بفرضها على رواج بعض السلع الاستهلاكية . وكانت المكوس المغربية شأنها في ذلك شأن رسوم الدخول الفرنسية مصدرا لكثير من مظاهر التوتر بين المخزن وسكان الحواضر بوجه خاص . المنوني ، **مظاهر** 1 : 297-301 ؛ انظر «مكس» في : .SEI, s.v "Maks" وكذا :

E. Michaux-Bellaire, "L'organisation des finances au Maroc", AM 11 (1907): 181, 189, 206-207, 213-216.

عند خروجهم ، ليلا يحمل فيها خفية ما لم يدفع عليه مكسا .

ولهم وكلاء ونقباء على الطريق بخصوصها يتعاهدون إصلاحها ويقومون به ، لا شغل لهم إلا ذالك ، والغالب أن تكون دورهم على الطريق . ومن اعتنائهم أنه كلما افترق طريقان ، نصبوا في مفرقهما عمودا فيه لوح مكتوب فيه أين تخرج هذه وأين توصل هذه . وسهولة الطريق سبب في سهولة المقصد . ولهم في جوانبها رشوم بالغباري للأميال[1] ، فحيثما كان المسافر منها يعرف كم مضى له من محل خروجه ، وكم بقي له للمحل الذي يقصده .

ثم إن السفر يتيسر في هذه البلاد ليلا ونهارا من غير مشقة ولا تعب ، وذالك لما عندهم من الأمان التام[2] . فلا يخشى المسافر من لص ولا قاطع طريق ولا متعرض . ولأجل ذالك لا ترى فيهم من يحمل سلاحا قط ، وإنما يحمل السلاح العسكر فقط في حال احتياجه إليه . ولسهولة الطريق فيتمكن الإنسان من المشي فيها كل وقت من ليل أو نهار ، ولو كانت في وسط بلد ، لأن بلدانهم لا تغلق أبوابها اكتفاء بالحراس ، وغالبها لا سور لها ولا أبواب ، ففي أي وقت وصلتها تدخلها .

ولعدم إعياء الدواب وتعبها لأنها تتبدل هي وسائقها في كل ساعة ، ففي

---

(1) الميل ، من وحدات قياس المسافة المستعملة عند العرب والأوربيين على السواء . جاء عند ابن خلدون أن الميل يعادل أربعة ألف ذراع ، أي حوالي كيلومترين . *Muquaddimah* I: 96 ، ثم الهامش رقم 19 من الصفحة نفسها . أما رشوم الغبار ، فهي الأرقام العربية .

(2) من العلامات الدالة على كفاءة الحكام ، النجاح في ضمان أمن الطرقات وسلامة المتنقلين عبر أرجاء البلاد ، Muqaddimah. 3 : 2 وكان المسافرون ملزمين بالاعتماد على أحد عثلي المخزن المحليين لحماية أنفسهم من مخاطر الطرق . وقد أشار جون دراموند هاي إلى أن البادية المغربية «مليئة باللصوص ، فأرغم السلطان قبيلتين أو ثلاثا على نصب الخيام قرب الطريق لحماية المسافرين من شرورهم» . انظر : Journal, p.25 ، لكن حينما ينتقل الموكب السلطاني في ما يسمى بـ «الحركة» ، يصبح الأمر ممارسة سياسية الهدف منها إثبات وجود السلطة المخزنية : انظر :

J. Dakhlia, "Dans la mouvance du prince: La symbolique du pouvoir itinérant au Maghreb", *Annales: Economies, Sociétés*, Civilisations 43, 3 (mai-juin 1988) : 735-760.

الطريق إصطبلات[1] ، وتسمى بلغتهم البوسطة فيها خيل كثيرة . إذا وصلها الراكب ترك فيها ما عنده من الخيل وأخذ غيرها مستريحة ، ويذهب معها من هنالك من يسوقها إلى أن يمشي ساعة ونحوها فيجد بوسطة أخرى فتتبدل فيها الخيل وسائقها أيضا وهكذا ، فتبقى الخيل التي تجر دائما مستريحة ويبقى مشيها سريعا لا يتغير . وقد تبدل علينا في ذهابنا من مرسيليا لباريز ما يزيد على ثمانماية فرس ، وكنا بثلاثة أكداش يجرها أحد عشر فرسا ، ثلاثة وثلاثة وأربعة[2] .

ولأن المسافر لا يمنعه السير من النوم لتيسره في الكدش ، وإن لم يكن بأكمله لعدم تمكنه من الامتداد . والسفر قطعة من العذاب كيفما كان ، كما أفصح عنه الحديث الكريم ، فإنه يمنع كمال لذة النوم مع غيره . ولما جلس إمام الحرمين موضع أبيه سئل لم كان السفر قطعة من العذاب ، فأجاب على الفور : لأن فيه فراق الأحبة . ولا يعارض كونه قطعة من العذاب حديث ابن عباس وابن عمر[3] مرفوعا : سافروا تغنموا ، وفي رواية ترزقوا ، وفي رواية تصحوا . لأنه لا يلزم من الصحة بالسفر لما فيه من الرياضة والغنيمة والرزق أن لا يكون قطعة من العذاب لما فيه من المشقة .

ومن واصل السفر في هذه الطريق ليلا ونهارا ، يصل من مرسيليا في نحو ثلاثة أيام . وبهذا السير تسير البراوات[4] والمكاتيب من إحداهما للأخرى ، فتصل في ثلاثة أيام أو أقل ، مع أن المسافة بينهما لمن كان راكبا على ظهر الدابة ما يقرب من الشهر .

---

(1) مفردها إسطبل ، وأصلها من اللاتينية (stabulum) ، وبالإسبانية (Establo) . *Dozy* 1: 26 ؛ انظر مادة «إسطبل» في : *EI* 2 s.v. "Istabl".

(2) وربما أراد الصفار أن يقول هكذا : «تجرها أحد عشر فرسا ثلاثة وأربعة وأربعة» ، حتى يكتمل عدد الإحدى عشر فرسا (المعرب) .

(3) كان ابن عمر وابن عباس من الشخصيات البارزة في صدر الإسلام . وكان ابن عمر المتوفى سنة 693 ميلادية هو الولد البكر للخليفة عمر بن الخطاب وأحد صحابة الرسول ﷺ المقربين . أما عبد الله ابن العباس المتوفى عام 687 ميلادية فقد كان ابن عم الرسول ﷺ وقد اشتهر بمعرفته العميقة للحديث والشريعة . انظر مادتي «عبد الله بن العباس» و«عبد الله بن عمر بن الخطاب» في : *SEI*.

(4) مفردها برية أو برا ، وقد تعني أصنافا متعددة من الوثائق ، كالعقد أو الوصل أو غيره ، لكنها تعني هنا الرسائل العادية التي يبعث بها الأفراد إلى بعضهم عبر البريد ، انظر : *Dozy* 1: 63 (المعرب) .

ومررنا في طريقنا هذه على مدن وقرى ، وأراضي وطاء وجبال ورُبى . واعلم أن هؤلاء القوم ليس عندهم في مساكنهم أخصاص[1] ، ولا خيم ولا نوايل[2] ، وإنما يعرفون البناء لا غير . إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر ، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن يوجد فيها ما يوجد في الحاضرة من الأسواق وما يباع فيها وغير ذالك . وقد رأينا في طريقنا هذه ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تدبيرهم . فهم جادون كل الجد في عمارة الأرض بالبناء والغرس وغيره ، لا يسلكون في ذالك طريق التساهل ولا يصحبهم فيه تغافل ولا تكاسل . فلا ترى عندهم شيئا من الأرض ضائعا أصلا ، ولا ترى عندهم خرابا ولا أرضا مواتا[3] حتى أن الأرض التي ترابها رديء ينقلون لها التراب الجيد من أرض أخرى . ويعطون لكل نوع من الأرض ما يستحقه ، فما يصلح للحرث يحرث وما يصلح للغرس يغرس ، ويفرقون أيضا في الغرس بين ما يصلح في الأرض الحارة والباردة وهكذا ، وما يصلح لحفر تراب البناء والحجر يتركونه له وهكذا .

وأشجارهم كلها أو جلها مستنبتة ولو كانت في رؤوس الجبال أو بطون الأودية[4] ، ولا يحاشون من ذالك موضعا . حتى أنهم يغرسون الأشجار في مجاري

---

(1) مفردها الخُص ، وجمعها أخصاص وخصوص وخصاص ، وهي البيت المصنوع من القش أو القصب أو من أغصان الشجر . *Dozy* 1: 375 (المعرب) .

(2) مفردها نوالة ، وفي الإسبانية (naguela) ، وهي مسكن من القش أو القصب غالبا ما يوجد في بوادي شمال المغرب . *Dozy* 2: 746-747 (المعرب) .

(3) لاحظ جون دراموند هاي أثناء تنقلاته أن البادية الممتدة بين مدينتي طنجة والرباط «تكاد تكون خالية من السكان» ، وأضاف مشيرا إلى أن المناطق الممتدة مباشرة في اتجاه الجنوب تتوفر على «بادية ذات مجالات زراعية محروثة حرثا جيدا أفضل مما سبق أن رأيناه إلى ذلك الحين ، [. . .] حيث بدت لنا حقول ناظرة من القمح والشعير» :

Journal, p. 54 ؛ وانظر أيضا : Laroui, *Origines*, 34-38

(4) كانت الغابات في المغرب معرضة للخطر بفعل استعمالها المكثف كمجال رعوي : «كان الماعز يبذل قصارى جهده لابتلاع البراعم والنباتات الجديدة ، بينما استمر سكان البلاد في ممارسة عادتهم القبيحة ، وهي تحطيم جذوع الأشجار لاستخدام خشبها في تحضير الفحم ، واستعمال الأغصان الشائكة لتزريب حقولهم» ، انظر : Aubin, *Morocco*, p. 12.

الخنادق والسيول وحافات الأنهار ، ولا تتأثر بشيء من ذالك ولا يحملها السيل . وذالك لأنهم لا يغفلون عن تعاهدها ، يعالجونها كل وقت بما تستحقه من تنقية وغيرها . وليس اعتناؤهم قاصرا على الأشجار المثمرة ، بل هي عندهم بالنسبة لغيرها قليلة . فغالب أشجارهم لا ثمار لها ، وإنما فائدتها الظل والحطب والخشب . ومما عندهم من الأشجار المثمرة الزيتون بناحية مرسيليا وطولون[1] ، عندهم هناك منه كثير ، وشجره لا يتعاظم عندهم كما يكون بالمغرب[2] ، بل غالبه يجنبه الإنسان من الأرض ، وهم يتعمدون ردعه فيبقى دائما صغيرا ليعظم حبه ويشتد غصنه . وزيتهم في غاية الحلاوة والصفا ، حتى أنه يضرب المثل بزيت فرانسا فيما ذكر ، ويجلب القليل منه للأقاليم لحلاوته .

وعندهم أيضا كثير من أشجار اللوز ، خصوصا ناحية مرسيليا وما يقرب منها حلوه ومره . واعتناؤهم بالمر كالحلو أو أكثر يستعملونه في حلاوات[3] ، ويعقدون عليه الصابون وغير ذالك . وعندهم كثير من أشجار اللوز بل الجوز وتوت دود الحرير ، وذكره عندهم أكثر من الأنثى[4] . وعندهم كثير من أشجار التفاح والإجاص والبرقوق ، وحب الملوك والمشماش قليل فيما رأينا . وأما ثماره فلا ينقطع عندهم ، لاكن بعد تيبيسه وترقيده بالسكار ، فلا تخطيه مائدة . وكذالك أشجار التين قليلة عندهم ، إنما رأينا منها شيئا يسيرا بناحية مرسيليا وطولون .

---

(1) ويعني بها مدينة تولون (Toulon) .

(2) ويعني الصفار بتلك التسمية بلاده المعروفة بالمغرب الأقصى وليس بلاد المغرب الكبير ، لأنه يشير إلى بقية بلدانه بأسمائها المعروفة ، وهي الجزائر وإفريقية التي كانت تطلق على تونس . وفيما يتعلق بمسألة شعور المغاربة بالحس الوطني أو بالهوية المغربية ، انظر :

Laroui, *Origines*, pp.57-59.

(3) يريد الصفار أن يقول الحلويات (المعرب) .

(4) والمقصود به هو شجر التوت . غير أن إشارة الصفار هنا إلى ذكره وأنثاه تظل غير واضحة . وبما أن هناك بعض أشجار التوت غير المثمرة ، فربما هي التي صنفها الصفار من قبيل الذكور ، انظر مادة «التوت» في : *Encyclopaedia Britannica*, 1990 ed., s.v. " Mulberry ". .

وأشجار اللشين[1] كثيرة عندهم ، لكن يجعلونها في صناديق ونحوها . فإذا كانت أيام الصيف والحر أخرجوها للفضاء ، فإذا جاء البرد والثلج والشتا أدخلوها للبيوت لشدة البرد عندهم خوفا من يبسها . رأينا منها بباريز بيوتا كثيرة ، وهي منزلة فيها على أحسن ترتيب ، ولها طاقات وسقف من الزجاج . فإذا كان يوم مشمش فتحوها ليدخل لها الهواء ، وإذا كان يوم برد أغلقوها ، وتلك الصناديق كبار ، وكذالك الأشجار التي فيها رأينا تاريخ واحدة في صندوقها مر لها فيه ما يزيد على أربعماية سنة . ويدخلون تلك الصناديق ويخرجونها بجر وحركات على ما عُهد من حيلهم في ذالك . ولم نر عندهم اللشين مغروسا بالأرض إلا يسيرا منه حوز طولون ، وأخبرونا أن لهم منه أيضا بجزيرة في البحر قبالة طولون[2] ، وأشجار الرمان عندهم قليلة رأينا منها أيضا في البيوت .

وغالب أشجارهم الصفصاف ونحوه مما يعلوا ويعظم ، وفائدته عندهم الظل أيام الحر ، واستفاد ما يخرج منه من الحطب بالتنقية أو قطعه من أصله . وللحطب عندهم شأن وبال ، وتاجر الحطب عندهم كتاجر الذهب ، لما تقدم من إيقادهم النار في كل بيت دائما أيام البرد . فتجد عندهم ساحات كبار جدا فيها جبال من الحطب ، كله يابس نظيف مقطوع قطعا صغارا نحو الذراع ، ويباع عندهم بالوزن لا بالأحمال . وليس عندهم غابة مباحة للاحتطاب ، بل كل واحد يحتطب من ملكه ويغرس الأشجار في فدانه أو بستانه بقصد ذالك ، وإن كانت غابة فهي مملوكة لأربابها لا مُباحة .

ولهم قوانين في قطع الأشجار . منها أن من له غابة يقسمها على مقدار ما تبلغ

---

(1) وقد تنطق أيضا بالتاء في بعض جهات المغرب ، هكذا : «اللتشين» ، وهو البرتقال ، من فصيلة الحوامض . وأشار د . هاي إلى كثرة ذلك المنتوج خلال القرن التاسع عشر في أحواز الرباط إلى درجة أن «غلته قد بيعت أحيانا قبل جنيها بما يقارب ١ شلنغ عن كل ألف برتقالة» .Journal, p. 43 أما جاكسن ، فذكر أن أحواز مدينة «تطوان كانت تنتج ألذ أصناف البرتقال في العالم على الإطلاق ، هذا فضلا عن التين والعنب والبطيخ والمشمش والبرقوق والتوت والتفاح والإجاص والرمان والأترج والليم» ، انظر : .Jackson, *Account*, p. 11

(2) ويتعلق الأمر بالجزر الصغيرة المعروفة إما تحت اسم (Iles d'Hyères) أو (Iles d'or) ، وتقع أمام مرسى تولون مباشرة .

فيه أشجارها ، فإن كانت تبلغ على عشر سنين ، فيقسمها على عشرة أجزاء ، كل عام يقطع جزءا ، أو على ثلاثين فثلاثين وهكذا . بحيث إذا قطع الأخير منها وجد ما كان قطعه أولا بلغ بعد خلفه . ومنها أنه لا يقطع شجرة حتى يوقف عليها من له النظر في ذالك ، فإن كانت تصلح للبيلك[1] للمراكب أو نحوها طبعها بطابعه ، ومتى شاء أخذها لاكن بعد دفع الثمن ، وإن لم تكن تصلح له أباح لربها قطعها بعد أن يؤدي عليها خراجا[2] معلوما عندهم على الأشجار . والأشجار في أرضهم كثيرة جدا ، لا ترى عن يمينك وشمالك إلا هي . ومع كثرتها لا تجد شيئا من الحطب مجانا حتى السقوط ، بل يحافظون على كبيره وصغيره ولا يضيعون منه شيئا ، ولا يخرجونه من أيديهم إلا بالثمن . ولا يقدر أحد أن يأخذه من تلك غيره بغير إذنه .

ومن جملة قوانينهم التي أسسوها وجعلوها شريعة[3] من شرائعهم ، أن أرض

---

(1) استعمل الصفار هنا لفظة «البيلك» التركية ، ويعني بها الدولة المعروفة في المغرب بتسمية «المخزن» المشهورة . وربما أوحى إليه باستعمالها التراجمة المرافقون لأعضاء البعثة السفارية أثناء وجودها في فرنسا ، والذين سبق لهم أن قضوا مدة معينة في الجزائر ؛ كما استعمل مصطلح «البيلك» للإشارة إلى دويلة الأمير عبد القادر المعلن عن قيامها في وهران ، انظر :

Azan, *L'émir Abd el Kader*, p.133.

(2) كانت تفرض ضريبة الخراج على الأراضي . وكانت في الأصل من الضرائب المفروضة على غير المسلمين ، لكنها أصبحت تعم المسلمين أيضا . وحسب المذهب المالكي ، فإن الخراج لم يكن ضريبة بل نوعا من «واجب للكراء» يؤديه الفرد مقابل استغلاله للأرض التي كانت ملكا للجماعة . وبدأ العمل بالخراج في المغرب منذ حوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، فأصبح يؤدى منذ ذلك الحين بنوع من الانتظام . لكنه غالبا ما كان يحمل اسم «النائبة» . انظر ما كتبه ميشوبلير في المقالتين التاليتين :

E. Michaux-Bellaire, "le droit de propriété au Maroc", *RMM* 7(1909): 365-378.

وكذا ، "l'impôt de la naïba et la loi musulmane au Maroc", *RMM* 11 (1910): 396-404.

(3) «الشريعة» هي مجمل التعاليم الإسلامية التي نزلت على الرسول عن طريق الوحي . واستعمل الصفار المصطلح نفسه ، شأنه في ذلك شأن الطهطاوي ، للإشارة إلى القوانين الوضعية الفرنسية ، انظر : *L'or*, p.133 ؛ تلخيص ، ص 94 . كما يستعمل الصفار أيضا مصطلح «قانون» ، ويعني به تقنينات وتنظيمات مختلفة تُطبق إلى جانب القوانين الوضعية . ويفرق فقهاء المسلمين بين ==

فرانسا كلها حُرم لا تهتك ولا يتعدى أحد على ملك آخر[1] . ومن فعل عوقب عقوبة معلومة عندهم لا شفاعة فيها ، ولا يقدر أحد أن يدفعها عنه . وقد رأينا في بعض الطريق زربا[2] صغيرا فاصلا بين الطريق والملك ، فأخبرنا بعض من كان معنا أنه علامة على الحد بين الملك والطريق ، فمن تخطاه برجل واحدة سجن خمس سنين ، ومن وقع خلفه بكله سجن خمسة عشرة سنة . ولذلك لا تجد عندهم إنسانا ولا دابة هائمة في ملك أحد ولو كانت أرض مرعى ، فإنما يتصرف فيها ربها لا يشاركه فيها غيره . مع أن ماشيتهم لا تسرح إلا نادرا ، واعتمادها إنما هو على العلف . وكل أحد يزرع في ملكه ما يقضب للعلف والأكل طول السنة بعمله لنفسه أو للبيع ، ولم نر عندهم مراعي ينبت فيها الكلأ وحده كما عندنا بالمغرب .

ومن استفادة أشجارهم المذكورة الخشب العظام التي تصلح للأعمال والأبنية ، والورقة التي يُصنع بها الأبواب والصناديق ، وغير ذالك مما يصنع من الخشب كالمراكب والفلائك وصواريها وغير ذالك . ويحتالون على الشجرة من صغرها حتى تطلع مستقيمة وتكون عمودا واحدا ، فتصلح للصواري ونحوها . واحتياجهم في البناء للخشب أكثر من غيره ، لأن الفصل بين البيوت إنما يكون بالخشب المطلية بأنواع الأطلية لا يعرف أنها خشب إلا بعد التأمل ، ولا يبنون بالحجارة إلا الجدرات الخارجية .

ولهم في غرس هذه الأشجار التي في البراري ترتيب وتصفيف عجيب في غاية

== مدلول المصطلحين ؛ فيعتبرون الشريعة مجمل القوانين السماوية الثابتة ، بينما يدخلون في إطار «القانون» مختلف التقنيات التنظيمية القابلة للتغيير والتي وضعها بنو الإنسان ، حتى تكون قابلة لمسايرة المستجدات بصفة عامة ، وليس هناك أي تناقض بين الاثنين وإن كانت مصادرها الأصلية مختلفة تماما ، انظر :

A.Hourani, "Aspects of Islamic Culture: Introduction", in Naff and Owen, *Studies*, pp.266-267.

(1) لاحظ الصفار غياب الأراضي الجماعية التي يسمح فيها لعامة الناس برعي ماشيتهم وجمع العلف لفائدتها ، كما كان معهودا وقتئذ في البوادي المغربية .

(2) «الزرب» ، وهي أغصان شائكة تستعمل سياجا للحقول والممتلكات الخاصة ، أو وسيلة لحصر الماشية في البوادي ومنعها من التنقل . انظر : *Dozy* 1: 584 (المعرب) .

من الإتقان ، فيجعلونها صفوفا متساوية وخطوطا متوازية ، لا ترى واحدة خارجة ولا بارزة عن أختها في الصف . فترى زقاقا طويلا جدا بين صفي الشجر المتوازية ، ليس فيه اعوجاج ، وصف الشجرة من هاهنا وهاهنا كأنه ذات متصلة في غاية الاستقامة . ويجعلونها جداول وخطوطا وعلى أشكال شتى ، وبسبب إتقانها في الغرس والإنزال ، لا يمنع غرسها من عمارة باقي الأرض بالحرث ونحوه . وفي الغالب لا يتركون الفدان أبيض كله ، بل يغرسون أطرافه بالأشجار ، وحيث تكون في الطرف لا تمنع من عمارة الوسط .

ولهم اعتناء تام واهتبال واهتمام بدوالي العنب ، حتى أن بساتين العنب عندهم ربما كانت أكثر من أرض الحرث وذالك لولوعهم بالخمر ، إذ هو من ضروريات عيشهم ، ولو أريقت خمرهم لفاضت منها البحار . وأما الحرث فعندهم منه حظ وافر يكفيهم إن كان صالحا . وفي حوز باريز محاريث جيدة ، وقمح باريز في غاية البياض والصفا .

ومن قوانينهم في الزراعة أن بيلكهم يعطي عطاء معلوما عندهم لمن ظهرت على يده مزية لم يات بها غيره من الفلاحين ، ترغيبا منهم للمزارعين في أن يجتهدوا في الحرث والازدراع ، وأن يأتي كل منهم بما يفوق به غيره في الزراعة . ومن قوانينهم أيضا ، أنه إذا جاءهم في برهم ما يكفيهم من الزرع فيمنعون من دخول غيره من خارج بلادهم . حتى إن جاء من جهة أخرى ليطحن في بلادهم ويخرج ، فيكون دخوله وخروجه بالوزن ليلا يبقى منه شيء في بلادهم ، وذالك ليلا تكسد زروع رعيتهم الذين يحرثونها ، فيزهدون في الحرث فيعود عليهم الضرر . وإن كانت الغلة ناقصة ، أباحوا دخوله من الآفاق ، وتسامحوا في عشوره[1] ليكثر جلبه من الآفاق . وأرضهم على الجملة ليست أرض خصب وكلإ كأرض المغرب ، إنما هي أرض صلبة قرعة خشنة ، لولا دوام النبش فيها والتزبيل[2] والخدمة وعدم وطء المواشي والأرجل

(1) «العشور» ، والمقصود به عشر الانتاج السنوي المفروض أداؤه من طرف جميع المسلمين تطبيقا للتشريعات السماوية . وفي المغرب ، حيث كانت تقاس المداخيل أساسا بقطعان الماشية أو بالمحاصيل الزراعية ، كان يساوي «العشور» عشر المحصول السنوي من الحبوب . انظر مادة «عشر» في : *SEI,* s.v. "Ushr "

(2) المقصود بالتزبيل هنا ، إغناء الأرض وتقوية تربتها بوسائل التخصيب المعتمدة أساسا على روث البهائم وحتى براز الإنسان أو ما شابه ذلك من المواد المخصبة للأرض (المعرب) .

لها ، لما أخرجت ما تخرجه من الثمار وغيرها بما ذكر . ولم نر عندهم شيئا من النباتات والعشب التي تكون عندنا في فصل الشتاء .

ورأينا في هذه الطريق أيضا كثيرا من الأودية والأنهار ، وكلها تسافر فيها المراكب والفلائك وبابورات النار . ومراكب الأنهار عندهم طوال ممسوحة القيعان ، إذ ليس في النهر من العمق مثل ما في البحر ، لكن ما ينقص من عمقه يزاد في طوله . وسواء في ذالك النهر الكبير والصغير ، لأنه وإن كان لا يمكن أن تسافر فيه المراكب لقصر عمقه ، فإنهم يحفرونه ويعمقونه ويعتنون بتصفية مجراه على قدر ما يمكن فيه سير المراكب . ولا يقتصرون في الأنهار على ما انشق بنفسه بل يحدثونه ويحفرونه . فإذا كان نهران متقابلان ولا اتصال لأحد بالآخر ، فإنهم يشقون بينهما نهرا آخر صغيرا ليتصلا ، حتى تصل المراكب من هذا لهذا . ولا تجد عندهم نهرا منهارا جرفه ولا ذاهبا في غير مجراه ولا غير ذالك من التفريط ، بل يعتنون بإصلاحها غاية ، وغالب حافاتها مبنية بأوثق بناء وأتقنه .

وإذا كان على حافتها طريق بنوا طرفها الموالي للنهر ، وربما جعلوا فيه أعمدة عظيمة من الحجارة ، وأجروا فوق هذه الأعمدة ممدودا عليها أعمدة طوالا من الخشب مسمرة في رؤوس أعمدة الأحجار ليلا تنهار الطريق ، وخوف أن تميل كروصة في حالة المشي فيحصرها الحاجز المذكور عن الوقوع في الجرف .

والأنهار في بلادهم كثيرة ، ومن أشهرها وأكبرها فيما مررنا عليه نهر يسمى الرون[1] . ومبدؤه من ناحية مدينة اليون ، فيدخلها ويلتقي معه فيها نهر آخر يسمى لاصون[2] . ثم يخرج منها مشرقا إلى أن يخلص للبحر الصغير غربي مرسيليا ، ويتصل به في طريقه أنهار أخر . فكلما زاد اتسع مجراه وكثر ماؤه ، فيُرى في بعض المواضع كأنه بحر من البحور ، تسافر فيه المراكب الكبار ذوات النار وغيرها ، ويطلق على الجميع الرون تغليبا ، وعلى شاطئه فيما بين اليون ومرسيليا بلدان كثيرة وقناطير ضخام مشيدة على أشكال مختلفة ، وبساتين وأشجار يحمل بكثرة الأمطار وينقص بنقصانها ، ولا يتأثر البنا المؤسس بطرفه ولا الأشجار من زيادته لتأسيسه أولا على الإتقان .

---

(1) «الرون» ، هو نهر (Rhône) الذي يسير انطلاقا من مشارف مدينة ليون في اتجاه الجنوب .

(2) (La Saône) ، هو من أهم روافد نهر الرون سابق الذكر .

ومنها نهر يسمى لَلوَار[1] ، وهو فيما بين اليون وباريز جاريا لناحية الغرب إلى أن يخلص للبحر الكبير ، أول ما رأيناه في حال ذهابنا لباريز بمدينة يقال لها الروان[2] ، ولم يغب عنا حتى جاوزنا مدينة أورليا[3] ، التي هي آخر مرحلة لباريز . وعلى شاطئه أيضا بلدان عديدة وعمارات مديدة ، تسافر فيه المراكب العظام ويتصل به غيره من الأنهار ، ويطلق على الجميع لَلوَار تغليبا . ويمر في وسط كثير من البلدان ، وعليه في محال العبور داخل بلدة أو غيرها ، القناطر العجيبة البناء على أشكال مختلفة سيأتي بيانها .

ومنها نهر يسمى لاسين[4] ، وهو داخل مدينة باريز على نعت ما تقدم ، ووصفه ومصبه في البحر الكبير فهو جار بها غربا ، هذه أكبر ما رأينا . والأنهار الصغار كثيرة ، وغالب أنهارهم متصل بعضها ببعض ، وإن لم تكن متصلة وصلوها كما تقدم .

وغالب ما يوسق في مراكب الأنهار الأمور الثقيلة ، كالحجارة والخشب والفحم وآلات البناء والخضر والفواكه ، وغير ذالك مما يثقل حمله . وجل هذه الطريق سهل ووطاء ، ولم نر عندهم من شواهق الجبال مثل ما عندنا ، إلا في ناحية مدينة اليون فإنها جبال وعقبات . لاكن يحتالون على العقبة بجعل الطريق دائرة معها ، حتى لا يحس بمشقتها ، وإن كان جبلا صغيرا شقوا الطريق في وسطه حتى تسلك الكروصة بسهولة . وما بعد اليون لناحية باريز ، فيه روابي وأكام . وكلما قربت لباريز ، وجدت البطاح والسهل ، حتى أنه في ناحية باريز لا ترى جبلا قط . وأصعب عندهم مما رأينا ، ما بين مدينة إكس[5] وطولون ، فإنها جبال وعرة وعقبات صعبة تتأثر الكروصة فيها بالبطو في المشي لصعوبة الطريق .

وكل هذه الطريق عامرة ، ولا سيما بين مرسيليا واليون ، فإن عمرانها متزاحمة وبلدانها متقاربة . فالعمارة فيما بينهما أكثر مما بين اليون وباريز ، فإنه يوجد فيها الفضاء الكثير ، وهذا بالنظر للبلدان والقرى . وأما الدويرات المجتمعة والمنفردة على

(1) (La Loire).

(2) (Roanne).

(3).(Orléans).

(4) (La Seine).

(5) (Aix en Provence).

جوانب الطريق ، فلا يخلو منها موضع . فلا تمر في محل من هذه الطريق إلا وأنت ترى البنيان ، إما بلدة أو قرية أو دار أو دور ، إن لم يكن قريبا فبعيد . وكل بستان من بساتينهم فيه دار مبنية عامرة بخادم البستان وأهله .

وكل ما في الطريق من البلدان فإن الطريق تمر في وسطها ، تشقها شقا بين حوانيتها وأسواقها . وفي هذه الطريق داخل عمارة أو خارجها ، الكثير من الصنائع التي يحتاج إليها المسافرون ، كصناع الأكداش والكراريص وسائر إقامتها ، والسمارين الذين يسمرون الدواب بصفائحهم وسائر آلاتهم ، فإذا اختل للمسافر شيء من ذالك وجد إصلاحه قريبا . وفيها كثير من ديار الخمارين الذين يبيعونها في الطريق للمسافرين ، وفيها كثير من بوسطات الخيل التي تكرى لجر الأكداش والكراريص ، كلما افتقر المسافر لشيء منها ألفاه قريبا .

وأما المدن والبلدان التي مررنا عليها في طريقنا هذه ، فأولها مدينة مرسيليا التي نزلناها بعد خروجنا من البحر ، وهي مدينة كبيرة من حواضر بلاد فرانسا . ولا سور لها من جهة البحر ، ومرساها محصنة بأبراج المدافع يمينا وشمالا . لها مدخل ضيق ، وعليها فنارات[1] عظام توقد بالليل للاهتداء . وعلى المرسى قهاوي عديدة في أحسن ما يكون من الزخرفة والتزيين . ومرساها جون داخل لجهة البلد ، بينها وبين جبل صغير مقابل لها ، وشاطئها مبني على نمط ما تقدم في مرسى بوربندر . وبهذه المرسى صناديق مرساة لازمة لموضعها وفيها ثقب كبير ، فمن أراد الدخول لداخل المرسى ، ربط فيها حبال سفينته وجعل يجبذ لتدخل سفينته لعدم الريح بداخل المرسى .

وليست مرسى للقراسيل[2] والمراكب الحربية ، إنما هي مرسى لمراكب التجارة ، ألفينا بها من مراكب السلع والتجارة ما لا يوجد معها مسلك ، كان بها على ما قيل ما يزيد على ألفي مركب . لأن هذه البلد بلد المتجر ، فيها التجار من سائر الأقاليم ، وفيها جميع ما يوجد ببلاد فرانسا من السلع والصنائع . وسلع غير الفرنسيس فيها

---

(1) مفردها فنار ، وأصلها من الإسبانية (fanal) ، وهي المصابيح المستعملة للإنارة *Dozy* 2: 292. (المعرب) .

(2) مفردها قرصال وأصلها من الإيطالية (corsale) ، أي لص البحر . وبما أن القرصنة لم تصبح بالكثافة التي كانت معهودة من قبل في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن اللفظة هنا تعني صنفا من أصناف المراكب الحربية . انظر : Brunot , *La mer*, pp.337-344.

قليلة ، إلا سلعة يرغبون فيها لعدمها أو قلتها عندهم . وإذا جاءتهم سلعة من خارج بلادهم وعندهم مثلها ، فإنهم يتغالون في عشورها[1] حتى لا تدخل ، حرصا منهم على نفاذ سلع بلادهم لتدوم صنائعهم ، وليلا يزهد الصناع في صنائعهم إن كسدت .

وبهذه المدينة ديار عالية البناء مشيدة وأسواق مزينة ، وحوانيت بأنواع السلع وأنفسها مزخرفة . والحوانيت التي على المرسى متصلة بالشاطئ تصل المراكب والفلائك حتى تتصل بحافة المرسى المبنية بالصخر العظيمة ، فلا يبقى بينها وبين الحوانيت إلا الممر . وشوارعها واسعة وللشوارع والطرق وسط وحاشيتان ، فالوسط للأكداش والكراريص والحاشيتين للرجالة . ومما يستقبح فيها ، أن مجاري أخباثها ونجاستها تمر على وجه الأرض في وسط الشوارع لا يخلوا منها طريق ، وذالك في البول لا غير ، وأما الغائط فإنه يباع بالثمن ، فلا يفضل حتى يسيح على وجه الأرض ، فله أهل موكلون به ، يطوفون عليه ببوطات كبار يملئونها منه وييبسونه لتزبيل الأرض والأشجار .

وشوارعها كلها نافذة بعضها لبعض ، فليس فيها زقاق محصور ، وبها ميادين واسعة فيها صفوف من أشجار كبار يتماشى الناس فيها للاستراحة ، وتلك الأشجار تظللهم أيام الحر . ومن أشهر حاراتها موضع يسمى عندهم بورالي[2] ، به أشجار وخصص ماء ، وبه غالب ديار أكابرهم وأهل الثروة منهم .

وهذه المدينة من جملة إيالات[3] فرانسا حاكمة على عمالتها . وذالك لأن

---

(1) انظر الهامش 43 أعلاه . ويمكن أن تعني أيضا الرسوم المفروضة على الصادرات التي يتم تحصيلها عند خروج السلع من المدينة . وفي 1845 سميت الرسوم المؤداة على جميع أنواع السلع الموجهة من فاس إلى الجزائر «عشور فندق النجارين» وهو المكان الذي يتم فيه تحصيل تلك الضرائب .انظر :

E. Michaux-Bellaire, "Les impôts marocains", *AM* 1 (1904): 65.

(2) ويتعلق الأمر بالقصر الذي يحمل اسم شاتو دو بوريلي (Château de Borély) ، وقد بناه أحد أثرياء مرسيليا في أواخر القرن الثامن عشر ، في منطقة تمتد في منتزه واسع الأرجاء .

(3) مفردها إيالة ، وهي من الكلمات العربية التي تحولت إلى مصطلح إداري لدى العثمانيين ، معناها الإقليم . وتم تبني المصطلح نفسه في المغرب على عهد السعديين ، ابن زيدان ، العز ، 1 ، ص 399 . وعند نهاية القرن الثامن عشر فُككت الأقاليم الفرنسية التي كانت موجودة قبيل الثورة وعوضت بست وثمانين مقاطعة يسميها الفرنسيون دبرتمان : (départements) .

عندهم في جميع بلاد فرانسا خمس أو ست وثمانون إيالة ، كل إيالة فيها مدينة كبيرة وما يضاف إليها من عمالتها من البلدان الصغار . ولكل إيالة حاكمان ، أحدهما حاكم العسكر ونظره مقصور عليه ، والثاني حاكم الرعية غير العسكر وهو بمنزلة قائد البلد عندنا ، ومرتبة الأول عندهم أعلا من الثاني[1] . ومقرهما يكون في بلد الإيالة التي هي حاكمة على غيرها ، ولهما خلائف في حكومتهما . فمن حكومة مرسيليا وعمالتها مدينة طولون فحكومتها من تحت حكومة مرسيليا ، ومن عمالتها مدينة إكس[2] الآتي ذكرها .

وبخارج هذه المدينة وأحوازها عمران متزاحمة وبناءات متلاصقة ، تمشي بعدها عدة أميال وفراسخ كأنك داخل بلدة ، وأهلها يريدون أن يجبلوا لها ماء من مسيرة بعيدة على نحو ثلاثة أيام من نهر قرب مدينة أفنيون[3] ، وصرفوا على عمله أموالا جزيلة وإلى الآن لم يصل ، ولكنهم جادون في العمل يحفرون له مهاوي عميقة في بطون الجبال ويبنون له القناطير العظام فيما بين الجبلين ، وحفرهم المذكور بحركات البابور التي تدور بالنار ، فيخرجون من بطن الأرض جبالا من التراب من ذالك الحفر[4] . ويريدون أن يحدثوا بها مرسى أخرى وهم جادون في عملها ، لأن مرساها القديمة تتقعد فيها أثفال المدينة وأوساخها ، إذ لا منفذ لها سوى هنالك ، فكادت أن تفسد بسبب ذالك ، حتى أن ماءها أسود نتن ، فأرادوا أن يجعلوا أخرى عن يسار هذه

---

(1) «حاكم الرعية» يعني به الصفار والي المقاطعة المعروف في فرنسا باسم البريفي (préfet) ، وهو أعلى هيئة مدنية رسمية تشرف على سير أعمال المقاطعة . أما «حاكم العسكر» ، فهو موظف عسكري من رتبة جنرال يتولى مسؤولية الإشراف على تسيير ثكنة عسكرية محلية خاضعة لأوامر وزارة الحربية ، انظر :

Grande encylopédie Larousse, ed., 1882., s.v "Département ".

(2) مدينة (Aix en Provence) سابقة الذكر .

(3) مدينة (Avignon) .

(4) شرع منذ سنة 1839 في مد قناة مائية من نهر دورانس (Durance) إلى مرسيليا عبر مسافة بلغت 83 كيلومترا . وكان أزيد من 21 كيلومترا من مجموع طول القناة يمر في بطن الأرض . أما الأشغال فقد انتهت سنة 1847 ، انظر : *L'Illustration*, 6 septembre. 1845

بالنسبة للداخل سالمة مما ذكر[1] .

ثم بعد انفصالنا عن مرسيليا وأحوازها ، مررنا على بلدة يقال لها إكس ، وهي بلدة صغيرة بالنسبة لمرسيليا وهي من عمالتها ، بها أسواق وحوانيت وأوكنضات ، وبها عساكر وقشلات[2] للعسكر . ولهذه البلدة عند الفرنسيس مزيد اختصاص بعلوم شرائعهم حتى أن من وجب عليه القتل من عمالة مرسيليا بهذه البلدة يكون قتله ، لأن بها يقع التحاكم في قضيته[3] .

ورأينا لهم بها صليبا عظيما في ميدان بطرفها وصورته خشبة قائمة معترضة في رأسها قطعة خشب صغيرة ، وعليها صورة رجل مصلوب مجرد من ثيابه ، ما عدى ثوبا سترت به عورته . فهالنا منظره وأفزعتنا رؤيته ، وظننا أنه صاحب جناية علقوه ، إذ لا يشك من رءاه أنه أدمي مصلوب . فسألت عن ذالك ، فأخبروني أنه معبودهم وصليبهم الذي يعبدونه ، وهم يزعمون أنه عيسى أي صورته مصلوبا . ولا شك أنهم يعتقدون إلاهيته كما أخبر عنهم القرءان العزيز ، ولا شك في كذب زعمهم وبطلان معتقدهم : ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[4] الخ الآية . ﴿ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله ، أنى يؤفكون﴾[5] الخ الآية . وهذا هو الصليب المنصوب في كنائسهم يعبدونه ويعظمونه ويصلون له ، ويكسره عيسى عليه السلام عند نزوله تكذيبا لهم وإبطالا لما يدعونه من تعظيمه ولإبطال دين النصرانية .

---

(1) أدى الغزو الفرنسي للجزائر إلى ارتفاع درجة النشاط التجاري بمرسى مرسيليا ، فأصبحت الحاجة ملحة إلى مرسى ذات إمكانات أكبر مما كان لها من قبل ، إذ كان عمق مياه المرسى القديمة لا يسمح بدخول المراكب الكبيرة ذات الحمولات الثقيلة جدا . وفي سنة 1844 ، أي قبيل حلول الصفار بفرنسا ، تمت المصادقة على قانون يرخص الشروع في بناء رصيف جديد للمرسى شمال الأرصفة القديمة . انظر :

Guide Michelin: Provence, ed., 1976, p.95.

(2) مفردها «قشلة» ، وهي كلمة تركية قشلا ، وتعني الثكنة العسكرية ، Dozy 2: 359

(3) كانت مدينة إيكس تحتضن مقر محكمة الاستيناف التابعة لمقاطعة مرسيليا . انظر :

Guide Michelin: Provence, ed., 1976, p.46.

(4) سورة النساء ، الآية 157 .

(5) سورة التوبة ، الآية 30 .

قال القسطلاني[1] في شرح الصحيح عند قوله في الحديث : فيكسر الصليب الخ ما نصه . والأصل فيه ما رُوي أن رهطا من اليهود سبوا عيسى وأمه عليهما السلام ، فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير ، فأجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ، فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يُلقى عليه شبهي فيُقتل ويُصلب ويدخل الجنة؟ فقام رجل منهم ، فألقى الله عليه شبهه ، فقُتل وصُلب . وقيل كان رجلا منافقا فخرج ليدل عليه ، فدخل بيت عيسى ورجع عيسى وأبقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى . ثم اختلفوا فقال بعضهم إنه إله لا يصح قتله ، وقال بعضهم إنه قد قُتل وصُلب ، وقال بعضهم إن كان عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم ، رُفع إلى السماء . وقال بعضهم ، الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . ثم تسلطوا على أصحاب عيسى عليه السلام بالقتل والطلب والحبس حتى بلغ أمرهم إلى صاحب الروم[2] ، فقيل له أن اليهود تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يُحيي الموتى ويُبري الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، وعدوا عليه فقتلوه وصلبوه . فأرسل إلى المصلوب فوُضع عن جذعه ، وجيء بالجذع الذي صُلب عليه فعظمه صاحب الروم ، وجعلوا منه صُلبانا ، فمن ثم عظم النصارى الصلبان ، انتهى .

فصليب بمعنى مصلوب ، وهو عندهم على أشكال والصورة واحدة كما تقدم . ولاكن تارة يكون كبيرا وتارة يكون صغيرا ، ويكون من الخشب والحجارة والحديد

---

(1) يعتبر القسطلاني من كبار العلماء المصريين ومن المراجع الأساسية في مادة الحديث ، توفي سنة 1517/932 . ومعلوم أن المسلمين يؤمنون بنبوة المسيح ، لكنهم لا يشاطرون الأفكار المسيحية القائلة بصلبه ، ويعتقدون أن شخصا شبيها بالمسيح قد حل محله وتعرض للقتل . ويفصلون بذلك بين المسيح والرمز التقديسي الذي يمثله الصليب كما هو معروف في اعتقاد المسيحيين . أما الكلام الذي ساقه الصفار في رحلته حول هذا الموضوع ، فقد أخذه عن كتاب القسطلاني إرشاد الساري في شرح البخاري . انظر مادتي «عيسى» و«القسطلاني» في :

SEI, s.v. "'Isa " and "al-kastalani".

(2) وهو بونتيوس بيلاتوس (Pontius Pilatus) أو بيلات بونت (Pilat Ponte) ، الحاكم الروماني على فلسطين ما بين 26 و36 بعد الميلاد .

انظر : M. Mourre, *Dictionnaire d'histoire universelle*, ed., 2: 1665. (المعرب) .

والنحاس والذهب وبالكتابة وغير ذالك . وتارة تكون عليه الصورة مصلوبة وتارة يكتبون بالجذع وحده كما تقدم في كلام القسطلاني . ويباع منه في حوانيتهم كثير، ويصورون صورة عيسى في زعمهم على أشكال ، تارة رجلا كبيرا وتارة صبيا صغيرا وحده أو في حجر مريم أو في يدها ، وفي الكنيسة يصلون لهما معا . وإذا سألت أحدا منهم عن تلك الصورة ماهي ، فيصرح بالألوهية أو البنوة وبالأمومة في جانب مريم حاشاهما من ذالك ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وما زادتنا رؤية ذالك إلا تبصرا بكفرهم واطلاعا على إبطال معتقدهم وسخافة عقولهم . فالحمد لله الذي هُدينا للملة الحنيفية ، نسئل الله سبحانه أن يحفظ علينا الإيمان إلى الممات ءامين ، بجاه النبي الأمين ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام إلى يوم الدين .

ثم انتهى بنا المبيت أول ليلة إلى مدينة يقال لها أفنيون ، وهي مدينة كبيرة لها سور دار عليها وأبواب ، وهي موسومة بالقِدَم ، وبها ما بمثلها من بلدانهم من الأسواق والعساكر ، وغير ذالك . ويقال إن فيها ثلاثة وثلاثين ألف نفس ، ويمر بطرفها نهر عظيم ، نهر الرون المتقدم ، وعليه هنالك القناطر المشيدة ، وفيه بإزائها الكثير من المراكب كبارا وصغارا . وهنالك أيضا شيء كثير جدا من الخشب والألواح والحطب والفحم ، وغير ذالك مما يوسق في ذالك النهر ، وهي من حواضر بلادهم . والأرض التي بحوزها بطاح وطية ، وهي أرض خصب وحرث لم نر عندهم أخضر منها . وبحذائها نهر آخر يسمى ديرانس[1] ، عليه قنطرة من الخشب كلها حسبنا فيها نحو خمسين قوسا .

ثم مررنا بعدها على بلدان واحدة تسمى وَرْنص[2] وأخرى صُرك[3] ، وبطرفها نهر صغير يسمى أُفيز[4] ، عليه قنطرة صغيرة . ثم أخرى يقال لها أورنج[5] ، وهي بلدة قديمة بها قوس كان بابا لها مؤرخا عليه بتاريخهم أن له ما يزيد على ألفي سنة

---

(1) نهر دورانس (Durance) .

(2) لم نتمكن من معرفة ما يقابلها في الفرنسية .

(3) ويقابلها بالفرنسية (Sorgues).

(4) ويقابلها بالفرنسية (Ouvèze).

(5) ويقابلها بالفرنسية (Orange).

بالتثنية[1] . ثم أخرى يقال لها مُرنَاس[2] ، ثم أخرى يقال لها لَبَلي[3] ، ثم أخرى يقال لها مُونطي لَمار[4] ، ثم أخرى يقال لها لوريول[5] ، وبعدها نهر صغير يقال له دُرُوم[6] ، عليه قنطرة يلتقي هنالك مع نهر الرون المذكور . ثم أخرى يقال لها لَبَيَاس[7] ، وكلها بلدان صغار متماثلة أو متقاربة .

ثم انتهى بنا المبيت في الليلة الثانية إلى بلدة يقال لها فَلَنص[8] ، وهي بلدة كبيرة وبها آثار الحضارة ، وبها قصبة للعسكر لها سور قديم فيها المدافع . ولهذه البلدة عندهم مزيد اختصاص بعلم الطبجية ، ياتون إليها من نواحي أخر لتعلم ذالك[9] . ونزل ليلة بتنا بها ثلج عظيم غطى أرضها وسطوحها وأعواد أشجارها ، حتى أصبحت كلها بيضاء . ولقد رأينا الكراريص التي باتت سائرة أو في الفضاء ينحذر من ظهرها قطع الثلج ، غلظها نحو الأصبع أو أكثر ، وفيها أول ما رأينا الثلج بهذه البلاد ، ورأينا بعدها مثل ذالك أو أكثر .

وبعد هذه البلدة نهر صغير يسمى ليزاير[10] ، عليه قنطرة جديدة كل من يمر عليها يعطي . وقد جعلوا في طرفها بيتا صغيرا به أناس لا يمر أحد إلا دفع لهم ما هو

---

(1) ويتعلق الأمر بقوس النصر المعروف باسم : L'Arc de Triomphe d'Orange ، بني سنة 49 قبل الميلاد ، على يد قيصر روما تخليدا لانتصاراته على الغاليين انظر : .Guide Michelin: Provence, ed., 1976, p. 11

(2) ويقابلها بالفرنسية (Mornas).

(3) ويقابلها بالفرنسية (Lapalud).

(4) ويقابلها بالفرنسية (Montélimar).

(5) ويقابلها بالفرنسية (Loriol)

(6) ويقابلها بالفرنسية (Drôme)

(7) ويقابلها بالفرنسية (La Paillasse)

(8) ويقابلها بالفرنسية (Valence)

(9) ويتعلق الأمر بمدرسة مختصة في تبقين تقنية استعمال المدافع ، وبها تلقى نابليون بونبارت تكوينه في المدفعية سنة 1785 . انظر :

Guide Michelin Vallée du Rhône, ed., 1985, p.418

(10) ويقابلها بالفرنسية (Isère)

معين عندهم حتى يستوفوا ما صرف عليها . ثم مررنا بعدها على بلدة يقال لها طان[1] ، بإمالة الطاء ، وهي على نهر الرون المذكور . ثم بعدها بليدة يقال لها سَقَلي[2] على شاطئ النهر المذكور . ثم أخرى يقال لها فياج دورروسيوا[3] ، ثم أخرى يقال لها أفيين[4] ، وهي قديمة وبها لهم كنيسة مذكورة عندهم يسمونها سَامُوريس[5] . وبهذه البلدة ديار صنعة الملف ، فهي مشهورة به . وكل مسير هذا اليوم أو جله على شاطئ نهر الرون المذكور .

ليون

ثم انتهى بنا المبيت في الليلة الثالثة إلى مدينة اليون[6] بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء التحتية وهي مدينة كبيرة من حواضر بلاد فرانسا ، وهي أكبر من مرسيليا وهي بين الجبال ولها أسوار حصينة . وهي دار صنعة الحرير ببلاد فرانسا ، يخدم فيها ثوب المشجر[7] ، و غيره من ثياب الحرير النفيسة ، يقال إن فيها من خدام الحرير الآلاف من الناس . ويدخلها نهران أحدهما يسمى الرون وهو المتقدم ذكره ، والآخر يسمى لاصون ، ويلتقيان بداخلها فيصير نهرا واحدا عظيما يشقها إلى انتهائها . ومعنى الرون في لسانهم الرجل ولاصون المرأة ، فكأنه التقى رجل بامرأة

(1) ويقابلها بالفرنسية (Tain).

(2) ويقابلها بالفرنسية (St.-Vallier).

(3) ويقابلها بالفرنسية (Village de Roussillon).

(4) ويقابلها بالفرنسية (Vienne) ، وهي فيينا القديمة ، التي احتلها الرومان خلال القرن الأول الميلادي ، فكانت من المعاقل الأولى للمسيحية في فرنسا ، انظر : *Mourre*, 2: 2265.

(5) «الملف» ، نوع من الثوب الرفيع الجودة ، تخاط منه أصناف جيدة من الملابس الخارجية . وأصل الكلمة من المدينة الإيطالية . (Amalfi) ابن زيدان ، العز ، 1 ، ص 418. ثم Harrell, p.81 ; *Dozy* 2: 621; *IB* 2: 44.

(6) ويقابلها في الفرنسية (Lyon).

(7) «الثوب المشجر» صنف من الأثواب الحريرية الرفيعة يتميز بزخارفه البهية ، وكان يصنع في الأصل بمدينة دمشق السورية . *Dozy* 1: 730.

وتزوج بها . وفي هذا النهر داخل هذه المدينة ما لا يحصى من المراكب والبابورات والفلائك . وعلى حاشيتية أسواق وحوانيت مزخرفة بالسلع والأشياء الرفيعة ، وحوانيت اللحم والخبز والفواكه والخضر وغير ذالك . وعليه بداخل البلد القناطر الضخام المشيدة على الأقواس والأعمدة العظام . وكل هذه القناطر عليها صفوف من الفنارات من الزجاج الصافي تضيء بالليل على الطريق والمول[1] . وكذالك سائر طرقها وحوانيتها يكون لها بالليل منظر عجيب .

وبها الكثير من العساكر والجيوش ، وديارهم وهي من جملة إيالات فرانسا حاكمة على غيرها ، بها جلنار العسكر وكبير البلد الذى يسمونهم بلسانهم البريفي[2] كما تقدم في مرسليليا . وبها كثير من ديار الصنائع التي يسمونها الفبريكات[3] ، حتى أن جل حيطانها سود من دخان ديار الصنائع ، وغالب من يخدم في هذه الصنائع بهذه المدينة وغيرها النساء ، فعلين العمدة في ذالك .

وأهلها جادون كل الجد في البناء بداخلها وزيادة العمارة بأطرافها ، حيث انتهى البناء المتصل . فبها قناطر جدد وطرق الحديد[4] ، توصل منها لغيرها ومن غيرها لها . وهذه المدينة يكثر القصد إليها بالأسفار والسلع ، إذ هي من أعمدة بلاد فرانسا لما اختصت به من الصانع والفبريكات التي لا توجد أو هي قليلة في غيرها من بلادهم . وبناؤها أتقن وأحكم من بناء مرسيليا ، وبخارجها عمران متزاحمة جدا حتى كادت أن تكون كلها مدينة واحدة . ولم نر هذه المدينة كغيرها من المدن التي في طريقنا هذه إلا بالمرور عليها ، ولم يكن لنا استقرار في شيء منها ، فلذالك نقصر في وصفها .

ثم انفصلنا عن المدينة وأحوازها في طريق بين الجبال وعلى رءوسها ، لاكن تمر عليها الكراريص بسهولة عهدك بنفسك في البطحاء والجبل أمامك حتى تجد نفسك على رأسه ، وذالك لبسطهم الطرق وتدييرها مع الجبال ، وإعلاء ما كان منها منحذرا والنقص مما كان منها عقبة ، حتى تصير كأنها كلها وطاء ، ولا تحس بالعقبة إلا في

---

(1) من الفرنسية (môle) ، أي رصيف المرسى (المعرب) .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Le préfet).

(3) ويقابلها في الفرنسية (fabriques).

(4) ويعني بها السكة الحديدية التي سيأتي الحيث عنها بالتفصيل .

مواضع قليلة . وفي هذه المسافة مياه متدفقة وخنادق تجري في خلال أشجار متعانقة وبساتين بأنواع الغرس متناسقة . فانتهينا إلى بلدة يقال لها طرر[1] بلدة صغيرة وبها السواقي من الماء الجاري ، ويخدم بها الثياب البيض . وفي عشية هذا اليوم نزل ثلج عظيم حتى صرنا عند إظلال الليل لا نميز الأرض من السماء من بياض الثلج ، وأما البرد فلا تسل عن الزمهرير . لاكن لم يصبنا والحمد لله منه بأس لكوننا داخل الكدش والطيقان مغلقة ويجتمع فيه نفسنا لصغره وانسداده ، فيحصل لنا بذالك دفاء حسن لا نحس معه بألم البرد حتى نخرج منها .

ثم انتهى بنا المبيت في هذه الليلة إلى بلدة يقال لها الروان[2] ، وهي بلدة متوسطة وحولها عمران كثيرة ، لاكن متفرقة على الآكام والروابي والظهور . وقبل دخولنا لها مررنا على نهر للوار الكبير المتقدم ذكره . وبين هذه البلدة ومدينة اليون طريق من طرق الحديد يسير فيها بابور البر حسبما يأتي توضيحه .

ثم بعد انفصالنا عنها مررنا على بلدة يقال لها لابليس[3] ، وهي قرية صغيرة ، ثم بعدها على قرى كثيرة . ثم انتهى بنا المبيت في هذه الليلة إلى بلدة يقال لها مولان[4] ، وهي بلدة متوسطة أو متحيزة للكبر . ثم بعدها قرية يقال لها فيني[5] ، ثم مدينة نفير[6] بالتصغير ، وهي كبيرة من حواضر بلادهم على شاطئ نهر يقال له لليفر[7] ، وهو نهر صغير لاكن تسافر فيه المراكب والفلايك . ثم بلدة يقال لها

---

(1) ويقابلها في الفرنسية (Tarara) ، وهي من المدن المشهورة بإنتاجها لثوب رفيع يصنع من القطن الممتاز ، وكانت تتم صناعته بمدينة الموصل العراقية ، ومن ثم جاءت تسميته بالموصلي أو (mousseline) بالفرنسية . انظر :

Guide Michelin: Vallée du Rhône. ed., 1985., p.149.

(2) ويقابلها في الفرنسية (Roanne) .

(3) ويقابلها في الفرنسية (Lapalisse) .

(4) ويقابلها في الفرنسية (Moulins) .

(5) والصحيح هو (Imphy) .

(6) ويقابلها في الفرنسية (Nevers) .

(7) ويقابلها في الفرنسية (Nièvre) .

بوي[1] ، قريبة من نهر للوار ، ثم انتهى بنا المبيت في هذه الليلة إلى بلدة يقال لها كون[2] . ثم بعدها أخرى تسمى بريار[3] ، وهي صغيرة يمر بها نهر صغير استمداده من نهر للوار . ثم بعدها مدينة جيان[4] ، بسكون أوله في لسانهم ، وهي بلدة كبيرة يمر بطرفها نهر للوار عليه هنالك قنطرة كبيرة محمولة على اثني عشر قوسا نتركها في الذهاب لباريز لجهة اليسار . ثم انتهى بنا المبيت في هذه الليلة ، وهي الليلة السابعة من خروجنا من مرسيليا إلى مدينة أورليا[5] ، وهي كبيرة يقال إن فيها خمسة وثلاثين ألف نفس ، وفيها كنيسة عجيبة الصنعة والبناء يزعمون أنه ليس عندهم بفرانسا مثلها وهي مبنية بالرخام[6] . وهذه المدينة على نهر للوار المذكور ، وعليه بداخلها قنطرة طولها نحو خمسماية خطوة ، وعرضها ما يمر فيه ثلاثة كراريص متسامتة . ولهم بها في ميدان من ميادينها قرب الكنيسة المذكورة صورة راهبة يزعمون أنها كانت عندهم في القديم[7] ، وكان أغار على بلادهم جنس آخر من النصارى فحزبت عليهم أحزابا منهم وأخرجتهم بالحرب ، ولذالك نحو ثلاثماية سنة ، ورأينا عندهم صورة هذه الراهبة في كثير من المواضع . وقد بقي لنا من هذه المدينة لمدينة باريز تسعون ميلا فركبنا من هذه البلدة إلى مدينة باريز في طريق الحديد .

طريق الحديد

وبيان صفة طريق الحديد وكيفية المشي فيها ، أنهم عمدوا إلى الطريق أولا

---

(1) ويقابلها في الفرنسية (Pouilly) .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Cosne) .

(3) ويقابلها في الفرنسية (Briare) .

(4) ويقابلها في الفرنسية (Gien) .

(5) ويقابلها في الفرنسية (Orléans) .

(6) ويتعلق الأمر بكنيسة (Ste. Croix) التي بنيت خلال القرن الثالث عشر على النمط القوطي ، انظر : *Michelin Guide: Châteaux of the Loire* (Englishe ed.), 1988, p.149.

(7) والمقصود بها شخصية جان دارك (jeanne d'Arc) المعروفة ببطولاتها وكراماتها الدينية ، وقد عاشت ما بين 1412 و 1431 .

فأسسوها وسووها ، ثم مدوا في عرضها قطعا صلبة من الخشب غليظة بين الواحدة والأخرى ذراع أو ذراعان . ثم مدوا فوق هذه القطع على أطرافها من الجهتين سبائك من الحديد ذاهبة مع طول الطريق واحدة عن اليمين والأخرى عن الشمال ، وشدوها في قطع الخشب المذكورة بحلق من الحديد ومسامير تمسكها من أسفل كيلا تتزحزح تلك السبائك عن محل وهكذا من ابتداء الطريق إلى انتهائها .ثم فرشوا فيها رملا أو ترابا ولم يبق بارزا منها إلا السبيكتان ، ثم صنعوا بابورا صغيرا)[1] ليس على شكل بابور البحر ، إنما فيه الحركات التي تُدور النواعير لا غير ، ويركبه ثلاثة من الناس يسيرونه . ثم صنعوا أكداشا مماثلة أحسن وأرفع من الأكداش التي تجرها الخيل وأكبر منها ، وجعلوا لها نواعير تجري بها في الطريق . ونواعير الأكداش على قدر ناعورتي البابور ، وقاسوا ما بين الناعورتين على عرض الطريق بحيث ينزل حرف الناعورة على السبيكة البارزة ، وجعلوا في ظاهر حاشية الناعورة تجويفا بحيث يستحكم إنزاله على السبيكة البارزة ليلا تزيغ عنها يمينا أو شمالا ، وهكذا كل نواعير الأكداش السايرة .

وربطوا هذه الأكداش بعضها ببعض بالغناجي[2] وسلاسل الحديد الغليظة ، حتى صارت صفا واحدا يقدمها البابور المذكور والناس راكبون في هذه الأكداش ، وفي كل كدش قطعتان أو أكثر منفصلتان . وفي كل قطعة منصبتان متقابلتان يجلس عليهما الناس ، وفي جانبيه عن يمين الطريق ويسارها طاقات حسان بإغلاق الزجاج الصافي ، إن شئت فتحتها وإن شئت أغلقتها مع بقاء الضوء التام والابصار العام . وإن كانت للراكبين أثقال في كراريصهم حملوا تلك الكراريص على سرير له نواعير مماثلة لنواعير الأكداش وربطوها فيها .

فإذا أرادوا الشروع في المسير حرك الرئيس حركة البابور ، فيجعل يسير مع ما هو مربوط به سيرا لم يعهد مثله في الاسراع يكاد أن يسار الطير في الهواء ، بحيث قطعنا هذه المسافة في ساعتين ونصف . وكنا ننظر إلى جوانب الطريق فلا نرى ما فيها من

(1) ويقصد به الصقار القاطرة التي تقابلها في الفرنسية (locomotive) وتجر العربات بقوة محركاتها (المعرب) .

(2) مفردها غنج ، وهي من الإسبانية كَانشو (gancho) ، ويقابلها بالفرنسية كروشي (crochet) ، وهو المحجن أو الكلاب الذي يكون على هيئة الخطاف ، وقد تكون أيضا عبارة عن عصي طويلة قصيرة ، وبها حديدة معقنة في رأسها أو مخطاف (المعرب) .

الأحجار أو غيرها إلا كأنها خيوط متصلة ذاهبة معنا ، ولا نحقق الحجر ولا غيره . وكنا نجهد كل الجهد أن نقرأ رشم الغباري[1] الذي في جانب الطريق لحساب الأميال ، مع كونها مرشومة بالسواد في أحجار بيضاء بحروف غليظة قدر الإصبع ، فلا نحققها ولا يستقر بصرنا عليها لسرعة السير . وزعموا أنهم إذا أوصلوا هذه الطريق بالحديد من مرسيليا لباريز تكون المسافة بينهما بالمرور فيها نحو يوم وليلة .

ولهم في هذه الطريق وفي غيرها من طرق الحديد بابورات متعددة تذهب وتجيء . ولاكن كل بابور له ساعة معينة معلومة لا يسافر إلا فيها ، خوف أن يلتقي اثنان في محل واحد فيتصادما ويمنع كل منهما مرور الآخر . والغالب أن يجعلوا في الطريق الواحدة ممرين لبابورين فيمكن أن يذهبا معا ، لاكن كل واحد في ممره . وإن كانا متسامتين ويكون أحدهما ذاهبا والآخر راجعا وكل واحد في محله ، ويلتقيان فلا يلتطمان ولا يتناطحان ، لأن لكل واحد ممره على حدته ، وربما جعلوا فيها ثلاثة .

وهذا الطريق مقصورة على هذا البابور لا يمر فيها راجل ولا راكب ، وفيها لأجل ذالك حرس وعسس خوفا من مصادمة البابور أو من يلقاه فيها . وإذا رءاه الماشي فيها على غفلة قد لا يمكنه الانحراف عنه حتى يصل إليه لشدة سرعته ، ولذالك جعلوا في هذا البابور صفارات يُسمع تصفيرها من بعيد ليُعلم أنه جَاء لئلا ياتيه على غفلة . وإذا كان بابور آخر جائيا لوجهه فيعلم به فيعمل بحسابه . وإذا أراد الرءيس أن يوقف هذا البابور في أثناء الطريق أوقفه ، ولابد له من الوقوف لأجل تبديل الماء الذي يحرك بخاره النواعير . ومع ذالك فقد يجعلون في هذه الطريق محالا بسبائك الحديد في جانب الطريق لينحرف يمينا أو شمالا إذا عرض له عارض ، لاكن في بعضها لا في كلها .

وشأن هذه الطريق أن تكون سهلة مستوية لا عقبة فيها ولا انحدار ، فإذا عرض لهم جبل رفعوا الميزان عليه من بعيد فلا تبقى عقبة . وإذا لم يمكنهم ذالك ولا محيد لهم عن المرور فيه ، فإنهم يشقون الطريق في بطنه تحت الأرض حتى تنفذ إلى خارجه ، ويقيلون عليها بالبناء بإحكام وإتقان ، ويمرون في بطن الجبل حتى يجاوزونه .

---

(1) يقصد بها الصفار الصوى (مفردها صوة) التي هي أحجار مثبتة بطريقة منتظمة على جوانب طول الطريق وتكتب عليها أعداد الأميال الفاصلة بين نقط انطلاق المسافرين ونقط وصولهم حتى تكون دليلا لهم في الطريق . وأما لفظة رشم الغباري فتعني الأرقام العربية (المعرب) .

وقد ركبنا في طريق حديد أخرى من باريز لبستان من بساتينهم[1] ، فمررنا في مواضع تحت الجبال حتى وقعنا في الظلمة الشديدة ، فاحتاجوا أن يجعلوا فيها قناديل تضيء بالنهار . وبقينا سائرين تحت واحد نصف ميل ، فلما خرجنا رأيت أنه كان فوقنا أشجار وبناء وأرضون ونحن سائرون تحتها .

وطرق الحديد عندهم على ضربين ، أحدهما ما يقيمه البيلك بمعنى بيت المال عندنا[2] ، والآخر ما يقيمه التجار وهو الغالب . وذالك عندهم ضرب من التجارة ، فيجتمع جماعة منهم ويتفقون على ذالك ، ثم يحزرون كم يصرف عليها من المال ، فإذا قيل مثلا مليون فيفرقون ذالك المليون على عشرة من الناس ، كل واحد يعطيماية ألف ويكتبون بذالك أوراقا عشرة ، والمكتوب فيها اصطلاح لهم ، بحيث يُعلم منه أن من بيده ورقة من تلك الورقات دفع في تعديل الطريق كذا فيأخذ من مستفادها على قدر ما دفع عشره مثلا . وإذا كتبوا الأوراق باعوها ، فكل من يأخذ ورقة يدفع ماية ألف حتى تنفذ الأوراق كلها ، ويجتمع المليون فيصرفونه عليها ويقيمون منه الخدمة وسائر الإقامات وما يُحتاج إليه في ذالك . فإذا تمت وأخذ الناس يمرون فيها ويدفعون الخراج ، فكل ما يستفاد منها يقسم بين الدافعين للمال ، كل واحد على قدر ما دفع ، وذالك بعد أن يأذن لهم في ذالك السلطان أو من له النظر في ذالك . ويحد لهم حدا في قدر المقبوض من المارين ومدة دوام القبض ، فإذا انقضت رجعت الطريق للبيلك هو يأخذ مستفادها أو يتركها للناس مجانا[3] .

ومن أراد من أهل هذه الورقات أن يبيع ورقته باعها ، فإن نتج المستفاد والربح

---

(1) ويتعلق الأمر بطريق السكة الحديدية الرابط بين باريز وفرساي ، والذي كان مسرحا لوقوع حادثة سككية اكتست طابعا كارثيا سنة 1842 . انظر : Schivelbusch, *Railway Journey*, p.131.

(2) بيت المال في المغرب ، هو المكان الذي كانت تخزن فيه ثروات السلاطين . وخلال الفترات السابقة لعهد الحماية كانت المدخرات المالية متمركزة في ثلاثة قصور سلطانية ، توجد في كل من فاس ومكناس ومراكش . انظر : العز ، ج 1 ، ص . 104 .

(3) حول موضوع تمويل مشاريع السكك الحديدية في فرنسا ، انظر :

F. Braudel et E. Labrousse.eds., *Histoire économique et sociale de la France*, vol.3: *L'avènement de l'ère industrielle (1789-1880)*, première partie (Paris, 1976), pp.257-262; Pinkney, *Decisive years*, pp.36-37, 45-46.

وكان كثيرا فتكون مرغوبا فيها وربما باعها بأكثر مما دفع والعكس بالعكس ، ويحل المشتري محل البائع فيما كان يأخذه من المستفاد . ويعملون مثل ذالك في بناء القناطر ، فالقناطر التي رأيناها عندهم جديدة كلها يؤدى عليها العوض في المرور . وهي من عمل التجار حتى تمضي المدة المحدودة لهم فيرفعون أيديهم ويبقى الناس يمرون عليها بلا شيء كما في القناطر القديمة . ويعملون مثل ذالك في استخراج المعادن وغير ذالك . ولايقصر ذالك على الكبار من التجار ، بل ربما كثروا الأوراق وقللوا ما فيها من العطاء بحيث يسهل على غالب الناس شراؤها ، وكل واحد يأخذ على قدر ما دفع ولو كعشرة من ألف .

ثم انتهى بنا المسير في طريق الحديد المذكورة إلى داخل بيت كبير عالي السقف جدا داخل سور مدينة باريز فيه ينتهي سير البابور المذكور ومنه يبتدئ السير فهو مرساه ، وكان مثله في ابتدائها من مدينة أورليا . فدخلنا مدينة باريز في وسط النهار من يوم الأحد الثامن والعشرين من ذي الحجة الحرام متم عام أحد وستين مايتين وألف ، موافقا الثامن والعشرين من الشهر دجنبير ، متم عام خمسة وأربعين وثمانمائة وألف من ميلاد عيسى عليه السلام بتاريخ الروم . فكانت مدة سفرنا من مرسيليا لباريز سبعة أيام ، ومن تطوان لباريز خمسة عشر يوما .

ولما رجعنا[1] ، نزلنا من أكداش بابور النار رجعنا لأكداش سفرنا ، وكانت لحقتنا من طريق أخرى فركبنا فيها حتى بلغنا المحل الذي أعد لنزولنا هنالك . وبقي لنا من المدن التي دخلناها مدينة طولون[2] ، ولم نذكرها مع ما تقدم لأنها لم تكن في طريقنا وإنما سرنا إليها قصدا بعد رجوعنا من باريز . لما وصلنا إلى مدينة إكس في حال رجوعنا تركنا طريق مرسيليا وسرنا لطولون ، وطريقها صعبة وعرة فيها جبال ونبات ، والعمارة بها قليلة وغالبها أجنات دوالي العنب وأشجار الزيتون ، وبالقرب منها قليل من أشجار اللشين .

وهذه المدينة هي مأوى عساكرهم البحرية ومرسى سفنهم الحربية ، وهي صغيرة لاكنها في غاية التحصين ، لها سوران وخلف كل سور حفير عظيم واسع . وعند بابها

(1) عمد الصفار هنا إلى الحديث عن الرجوع ، حتى يكون حديثه المفصل عن باريز قائم الذات ، لأن مقام البعثة السفارية المغربية بباريز هو أهم مراحل الرحلة .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Toulon)

على الخفير المذكور قنطرة يُجاز عليها تُرفع بالليل وتبسط بالنهار ، وهي دائرة بأبراج المدافع ، وليس فيها تجارة ولا كبير أسواق . إنما المقصود منها المرسى ، ومرساها كبيرة جدا في جون بين الجبال محجوبة عن الريح ، محتفة بأبراج المدافع مبنية المون والشاطئ من سائر جوانبها . وقرب المرسى براح كبير مشتمل على بيوت وخزائن فيه دار صنعة المراكب وءالاتها المسماة عندهم بالطرسنة[1] ، فيها بيوت عالية جدا كبيرة يدخل لها القرسال الكبير بتمامه حتى يكون في وسط ذالك البيت مرتفعا بدعائم من الخشب فيُصلح أو يُنشأ جديدا . وإخراجه من البحر عندهم بحركات حتى يخرج من الماء ويرتفع على فرش من الخشب فيرفعه حتى يدخله البيت المذكور . وبعد تمامه يخرج كذالك حتى يلقى في الماء .

ولما قدمناها أتانا كبير البحر الذي يسمونه الميرنط[2] ، وحض علينا في الذهاب للمرسى وأن نطلع لبعض مراكبهم التي بها فأسعفناه لذالك ، فذهبنا وانتخب لنا فلائك من أحسن ما عندهم هنالك ، فركبنا فيها وسرنا حتى بلغنا لبابور قرسال فصعدنا إليه فرأينا فيه من الطبجيات والمدافع وسائر آلاتها وإقامتها ، ومن العساكر وترتيبها ووضع الأشياء في محلها ، وإسراع من به لإجابة أمر كبيرهم وطاعتهم له ، ومن الإتقان والحزم والضبط ما ينبئ عن عظيم قوتهم وحدة عقولهم وحسن إعدادهم وتدبيرهم واستعدادهم للأمور قبل أن تنزل بهم .

ومن أغرب ما وجدنا عندهم فيه أن كانوا يحلون ماء البحر حتى يصير عذبا يُشرب ، وذالك بأن يطلعوه من البحر بحركات ويجعلوه في قدور على فرن وهو يغلى عليه . وانظر ما يفعلون به بعد ذالك حتى ينفصل من بزبوز[3] آخر حلوا باردا يغني

(1) أو الترسانة ، وأيضا الترسخانة . وأصل الكلمة من العربية دار الصناعة . ومعناها الضيق هو «ورشة بناء وتجهيز المراكب الحربية» . ودخلت تلك الكلمة فيما بعد في اللغات الأوربية ، فنجدها في الإيطالية أرسنال (arsenale) ، وفي الفرنسية أيضا أرسنال (arsenal) ، ثم عادت الكلمة نفسها إلى العربية لكن في شكل جديد . انظر :

Dozy 1: 420; *EI* 2, s.v "Dar al-Sina'a ".

(2) ومعناها بالفرنسية أميرال (amiral) ، وهي أيضا من الكلمات العربية التي عادت مجددا إلى أصلها العربي لكن في شكل آخر : *Muqaddimah* 2 : 37.

(3) جمعها بزابيز ، وهو الصنبور ، وبالفرنسية روبيني (robinet) ، أو كانيل (cannelle) . (*Dozy* 1:81) (المعرب)

عن الماء الحلو ، إلا أنه لا يقوم مقامه في العذوبة والحلاوة ، لاكن يُكتفى به عند عدم غيره . فسألنا عن ذالك رئيسه ، فأخبرنا بما مضمنه ، أنهم يقطرونه حتى ترتفع ملوحته لأعلا ويبقى الأسفل حلوا ، أو بالعكس لم أتحقق ذالك منه وقتئذ لعدم فصاحة الترجمان . وذكر لنا في طي ذالك تشبيها ، وهو أن ماء المطر يرتفع من البحر وتذهب ملوحته بحر الشمس فكذالك هذا ، وحرارة النار تقوم مقام حرارة الشمس ، هذا ما ذكر لنا ولم يبلغنا بحقيقة الكيفية ، وجرب ففي التجريب علم الحقائق .

وعندما طلعنا له تلقونا بموسيقاهم وطنابيرهم[1] ، وبعد أن حصلنا فيه رفعوا راية سلطاننا حتى جعلوها في رأس صاريهم الكبير العالي فوق بنديرتهم[2] ، وأطلقوا من مدافع الفرح ما ينيف على المائة وثلاثين عمارة . ثم نزلنا منه وسرنا لنابيوس[3] كبير أيضا فيه من المدافع مائة واثنان ، فطلعنا له فإذا هو من أعظم ما يكون وأتقنه ، وفيه ما يحير الناظر ، وبالجملة فهو مدينة حصينة على ظهر الماء . فتلقونا أيضا بالموسيقى وتصفيف من فيه من العساكر ، وكانوا كثيرين ، وبعد استقرارنا فيه رفع أيضا رايتنا فوق رايتهم ، وطُلب منا أن نتماشى فيه لننظر ما هنالك . ومن طبعهم أنهم يعجبهم أن يُروا ما عندهم ولا يتركون عندهم شيئا جليلا أو حقيرا إلا أطلعونا عليه . فمن جملة ما فعلوا لنا في هذا النابيوس مما هو في الظاهر فرحة ، وفي الباطن تخويف وقرحة ، مع أنا والحمد لله لا نخافهم وإنما نخاف الله .

أنهم أرونا كيفية حربهم بالمدافع في هذا المركب ، إذا عرض لهم فيه حرب ، بينما كل واحد من خدمته ومن يباشر ذالك جالس أو قائم في موضعه الذى هو فيه وهم على غفلة ، إذ صاح بهم كبيرهم فأقبلوا جميعا ، وكل واحد جاء قاصدا لشغله . فصاحب البارود مثلا جاء قاصدا لقرطاس البارود ، فأخذه وذهب به إلى مدفعه المعين الذي لا يذهب إلا إليه ولا يذهب لغيره . وكذالك صاحب المدق ومن يجبذ المدفع

(1) مفردها طنبور أو طنبار ، والمقصود بها هنا أصناف من الآلات الموسيقية (المعرب) .

(2) البنديرة ، وهي الراية ، وأصلها من الإسبانية بنديرة (bandera) ، 118 :1 *Dozy* (المعرب)

(3) ربما كان أصل هذه الكلمة من الإسبانية نافيو(navio) ، أي مركب . وكان الأمر يتعلق بالمركب الحربي الكبير المسمى جيمابيس (Jemmapes) ، الذي استعملته البحرية الفرنسية عند رميها لمدينة طنجة بالقنابل قبل ذلك التاريخ بسنتين ، انظر الدراسة والهامش رقم 58 في الصفحات السالفة من هذا الكتاب .

ويدفعه جاء قاصدا لذالك ، وبمجرد وصوله يشرع في الفعل ، وهكذا كل مدفع وخدمته . والحاصل كل واحد منهم له شغل معين لا يفعل غيره ، وكل طائفة لها مدفع معين لا تباشر إلا هو . فإذا صاح به كبيره فلا يحتاج أن يأتيه ويقف ويقول له ما أفعل ، أو يذهب اثنان لأمر واحد يقوم به واحد وحده ، أو تذهب جماعة لمدفع واحد ويبقى الآخر لا يذهب إليه أحد ، لأن ذالك كله عطلة وهو خلاف الحزم . فبمجرد ما صاح بهم كبيرهم المذكور ، جاءوا وجبذوا المدافع من طيقانها وعمروها وأخلوها في لحظة ، لأن ذالك كله فعل رجل واحد . ثم عادوا أيضا وعمروا تلك المدافع وأخلوها في لحظة . ولا تسمع مدفعا واحدا ، إنما تسمع كالرعد المتتابع ، ثم عادوا وعادوا ، وكل ذالك في أسرع زمان .

ومدار ذالك كله على الضبط والحزم والاعتناء التام وعدم الغفلة في الأمور . وإلا فليست لهم قوة في أبدانهم ليست لغيرهم ، بل ربما كانوا أضعف من غيرهم في ذالك ، وإنما الذي لهم الاعتناء والترتيب الحسن ووضعُ الأشياء في محلها ، ويبنون أمورهم كلها على أصح أساس ، ويستعدون للأمور قبل وقوعها ، ولا يعرف حقيقة ذالك إلا من شاهده .

ثم بعد أن شفوا الغليل من ذالك ، نزلنا منه وجعلت فلائكنا تدور بنا في المرسى بين المراكب للفرجة والنزهة . وكلما حاذينا مركبا اصطفت عساكره على ظهره بموسيقاهم للسلام علينا حتى استوعبنا ذالك ورجعنا ، فكان فيها من القراسيل نحو الخمسين . وليس للفرنسيس في هذا البحر الصغير مرسى للقراسيل إلا هذه . وله مراسي أخر في البحر الكبير من الوجه الآخر لأن بره يطل على البحرين معا . وكانت إقامتنا في هذه البلدة يوما كاملا بدون يوم الدخول والخروج ، فخرجنا منها وسرنا لمرسيليا فبلغناها في ست ساعات .

وبالله سبحانه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

الفصل الثالث
فصل في ذكر مدينة باريز

فصل في ذكر مدينة باريز وما يتعلق بها مما شاهدناه بها أو خلص إلينا علمه من أحوالها ، وفي ضمن ذالك الكلام على عوائد الفرنسيس وأحوالهم وأمورهم .

اعلم أن هذه المدينة هي قاعدة بلاد الفرنسيس وأعلم حواضرهم وكرسي مملكتهم ومسكن عظمائهم ومنشأ قوانينهم وشرائعهم ودار علومهم بها يتفاخرون وفي سكناها يتنافسون ، وبها وبأهلها في عوائدهم وءادابهم وحضارتهم يأتسون .

وهي مدينة عظيمة كبيرة من كبار المدن المذكورة في الأقاليم كالقسطنطينية العظمى للمسلمين وما يضاهيها ، يقال إن دورها ثمانية وأربعون ميلا ، وأخبرني بعض أهلها أن الماشي الراجل يقطع دورها في سبع وعشرين ساعة . وأخبرني شخص أخر أن دورها أحد وعشرون ميلا . وذكر الرفعة أفندي في رحلته أن محيطها سبعة فراسخ ، وكان طال مكثه بها نحو الخمس سنين[1] . وهي موضوعة في التاسعة

(1) سبعة فراسخ تعادل حوالي واحد وعشرين ميلا . والمقصود بـ «الرفعة أفندي» هو رفاعة رافع الطهطاوي (انظر الهامش 127 في الصفحات الخاصة بالدراسة) . وكل الإحالات إلى كتابة تخليص مأخوذة من الطبعة التي أعدها محمد عمارة ، تحت عنوان : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ، الجزء 2 (بيروت ، 1973) ، ص . 9-266 ، وأيضا من الترجمة الفرنسية المختصرة التي وضعها أنور لوقا : Anouar Louca, *L'or de Paris: Relation de voyage, 1826-1831* (Paris, 1988).

وأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي فهي لذالك كثيرة البرد[1] . والمواضع التي خلف الجدارات الموالية لجهة الجنوب لا ترى الشمس في فصل الشتاء أبدا . على أن الشمس في هذه المدينة غريبة كل الغرابة زمن الشتاء والغيم فيها مستمر ، ولا ترى الشمس إلا يوما في الشهر .

وهذه المدينة غاصة بأهلها ، وهي بالنسبة لغيرها من بلدانهم بمنزلة يوم السوق عندنا مع الأيام التي لا سوق فيها ، فتحسب غيرها خاليا من الناس بالنسبة لها وإن كان الغير مشحونا بالناس . وسمعنا على لسان غير واحد من أهلها أن فيها مليون من الناس . ولا يستغرب حسابهم لمن فيها[2] ، فإن كل من ولد أو مات أو قدم لها أو سافر منها يكتبونه ويزمونه ، وهذا شغل من هو متصد لذالك على الدوام ، وكذا دأب

---

(1) حسب ما جاء عند ابن خلدون ، تقع باريز في القسم الثاني من النطاق السادس حيث تصعب الحياة لشدة قساوته ، 259 :1 . *Muqaddimah* وأكد أندري ميكل أن جل الأخبار المعروفة عند المسلمين في العصور الوسطى عن أوربا كانت تستند بصفة أساسية على محتويات كتاب الرحالة اليهودي إبراهيم بن يعقوب الذي عاش في القرن العاشر ، وضاعت مؤلفاته ، انظر :

André Miquel, "L'Europe occidentale dans la relation arabe d'Ibrahim b. Ya'qub (Xe s.)", *Annales: Economies, Sociétés, Civilisations* 21, 5 (Sept-Oct 1966): 1051.

كما تكلم المسعود (المتوفى سنة 956/345) عن باريز (البويرة) فوصفها بأنها «مدينة كبيرة جدا ، [. . .] وأنها مقر لمملكة الفرنجة» ، انظر :

Les prairies d'or, traduction Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, 3 vols. (Paris, 1864), 3: 67.

كما أن الإدريسي (القرن الثاني عشر) قد أشار هو الآخر إلى باريز (إباريز) ووصفها بأنها «مدينة ذات أهمية ، محاطة بحقول الكروم والباستين ، وتقع في جزيرة على نهر السين» ، انظر المقال الذي حرره :

Charles Pellat, "La France dans la géographie d'al-Idrisi", *Studi maghrebini* 10 (1978): 62.

وعن الإفرنج «Francs» بصفة عامة ، انظر :

André Miquel, *Géographie humaine*, vol. 2, *Géographie arabe et représentation du monde: La terre et l'étranger*, pp. 354-359.

(2) حصر الطهطاوي عدد الباريزيين يومئذ في «حوالي مليون واحد من السكان» انظر تخليص ، ص .74 ؛ L'or, p. 117 .

غيرهم من سائر الروم . ولها سور حصين مستحدث لم يكن لها في القديم[1] ، وهو يُرى من خارج ولا يُرى من داخل لأنه من داخل مردوم بالتراب والحجارة حتى ساوى الردم رأسه أو علاه ، وخلفه لخارج حفير عظيم واسع عميق ، وعلى رأس السور لداخل مواضيع المدافع وسورها تباعد عن دُورها وأبنيتها المتصلة ، ليزاد في ذالك الفضاء الذي بين البناء والسور عمارات أخر فتكبر بذالك المدينة وتزيد . ولم يجعلوا لها أبوابا في السور كما هو في غيرها ، نعم إذا دخلت داخل السور ووصلت إلى ابتداء العمارة ألفيت أبوابا من الحديد مسورة عن يمينها وشمالها بضرابيز[2] من الحديد ، بحيث لا يدخل أحد إلا على ذالك الباب . وبها حراس وعسكريون واقفون يفتشون كل من دخل أو خرج لأجل المكوس التي توخذ ممن يدخل للمدينة أو يخرج منها بما يماكس عليه عندهم . وبإزاء ذالك الباب ديوان العشارين ، وهكذا في كل مداخلها[3] . ولم أقف على تحقيق فيما يعطى عليه عندهم وما لا ، إلا أن القمح لا يعطى عليه واللحم يعطى عليه ومذبحه بخارج المدينة . وأعظم ما تؤدى عليه المكوس عندهم الخمر ، حتى جعلوا له ديوانة مخصوصة في ناحية على حدتها فيها عدة من الخزائن والبيوت المعدة لإنزال براميله ، وهو من ضروريات العيش عندهم .

---

(1) في سنة 1840 ، أحيطت باريز بسور جديد على مسافة من مثيله القديم الذي كان الهدف من بنائه خلال القرن الثامن عشر هو التحكم في تحصيل الرسوم الواجب أداؤها على السلع الداخلة أو الخارجة من المدينة ، وأصبح يشكل زمن زيارة البعثة المغربية جزءا من المنطقة شديدة الاكتظاظ بالسكان . وحين انتهت أشغال البناء سنة 1843 ، بلغ محيط دائرته حوالي واحد وعشرين ميلا . وبنيت داخله حصون بارزة لنصب المدفعية ، كما تمت حمايته بخندق واسع الأرجاء من كل جهاته الخارجية . وبنيت حول المدينة حصون جديدة بلغ عددها ستة عشر حصنا على مسافة تعادل رمية المدفع . وكان الهدف من ذلك كله ، هو أن تكون لباريز واجهة المدينة المتمتعة بالتحصينات الجيدة والمتينة . انظر :

P. Lavedan, *Histoire de Paris*, série "Que sais-je?" n! 34 (Paris, 1960), p.78-79.

(2) مفردها ضربوز ، انظر : *Dozy* 1: 430

(3) ويتعلق الأمر بالأبواب القديمة التي كانت تؤدي الضرائب عند المرور عبرها دخولا أو خروجا ، وهي المعرفة باسم بارييز (barrières) ، إذ كان يقف عندها المكلفون بتحصيل رسوم الأبواب . انظر :

 Jacques-Louis Ménétra, *Journal of My Life* (New York, 1986), p. 134 et note 167.

وهذه المكوس التي تؤخـد مما يدخل على المدينة لا تدخل عندهم في خـزانة البيلك ، بل هي عندهم معدة لمصالح البلدة كتعديل طرقها وإيقاد الفنارات بها . وهي عندهم في كل بلد ، لاكن في هذه المدينة بالخصوص منها المئون والألاف ، يقال إن فيها ماية ألف فنار وكلها مرفوعة على أعمدة من الخشب مُحكمة الإنزال والتصفيف متساوية في العلو . إذا وقفت في طريق الصف ونظرت إليه ترى كأنه حبل عدود مد البصر ، ليس واحد منها بارزا عن الآخر ولا زائدا عليه في العلو . واذا وقفت في فضاء من أماكنها خصوصا على النهر الذي بها في اليل عند ايقادها ، تراها كما ترى النجوم في الليلة المظلمة الصاحية ففيها منظر عجيب . ويصرفون أيضا من هذه المكوس على اسبيطارات[1] المرضى ومدارس تعليم أولاد الفقراء ، وغير ذالك من مصالح البلد .

وبخارج هذه المدينة قريبا منها قلعات محتفة بها في غاية من التحصين ، يسكنها العسكر وفيها أبراج المدافع[2] ، وبها يسكن الطبجية[3] ، لهم بها بيوت عديدة فيها فرشهم وأسلحتهم وبها بيوت وخزنات لأنواع السلاح الذي يحمل من سيوف ومكاحل وتوافل وبيضات ودروع ، وغير ذالك من أنواع السلاح في أحسن صورة في نظافته ووضعيته وكيفية إنزاله ، يصورون منه في وضعه خصصا وثريات وسواري وأشكالا بديعة . وفي هذه القلعات اصطبلات للخيل التي تجر المدافع وءالاتها ، وفي كل إصطبل خدمة كثيرون لا يفترون عن العمل في صيانة الخيل . وربطها عندهم

---

(1) مفردها اسبيطار ، وهي مأخوذة من الإسبانية أوسبيتال (hospital). أما التسمية الكلاسيكية فهي البيمارستان ، وهي كلمة فارسية (مركبة من بيمار وتعني مرض ، واستان وتعني المكان) ، غالبا ما كانت تحذف الباء فيقال مارستان . غير أن لهذه التسمية معنى خاصا في المغرب ، إذ كانت تطلق على المكان الذي يحتفظ فيه بالمجانين وبالمصابين بالأمراض العقلية . انظر :

W. MarÇais, *Textes arabes de Tanger* (Paris, 1911), p.465.

بالإضافة إلى مادة «بيمارستان» في : *EI* 2, s.v. "Bimaristan".

(2) قام الصفار رفقة أعضاء البعثة السفارية بزيارة لحصن سان كلود (St.Cloud) الواقع في جنوب غرب باريز ، يوم 5 فبراير 1846 . انظر : AAE/ADM Voyage ، بوميي (Beaumier) إلى دوشاستو (de Chasteau) ، 8 فبراير 1846 .

(3) الطبجية ، هم رجال المدفعية ، وأصلها من التركية ، انظر : *Dozy* 2 :20.

من رأسها لا من رجليها ، فيجعلون في رأسها صراعا من الجلد له سلسلتان تذهب واحدة يمينا والأخرى شمالا ، في رأس كل سلسلة كرة من عود يدخلون طرف السلسلة في خرصة مسمرة في الحائط قبالة الفرس ، وتلك الكرة تحصرها . ويفرشون لها التبن تقف عليه ، فإذا بالت عليه وراثت مرتين أو ثلاثا أبدلوه بغيره نظيفا . وبمدخل الإصطبل لوح مكتوب فيه قانون سياسة الخيل ومقدار علفها وغير ذالك مما يتعلق بمباشرتها . وكل فرس مسمى باسم يخصه واسمه مكتوب في لوح صغير قبالة وجهه . ويفصلون بين كل فرس وءاخر بلوحة غليظة معلقة من فوق ، إذا ضربها الفرس برجله تباعدت ولو كانت ثابتة في الأرض لانكسرت بضربه .

وبهذه القلعة أيضا كراريط وسراير لجر المدافع وإقاماتها من بارود وكور وغير ذالك ، وبها كثير من المدافع كبارا وصغارا كل نوع على حدته . وكذالك كورها يحسن النظر إليها لحسن وضعها وترتيبها وتصفيفها وصقالتها ، كأنها اليوم خرجت من دار الصنعة . وبها خزنة للسلاح كما تقدم ذكره لا يغفل خَدَمَتُها عن تعاهدها وتزييتها ، وخزنة أخرى مثلها أو أكبر منها والكل مد البصر ، لإقامات الخيل التي تجر المدافع وغيرها للحرب من برادعها ولجمها وأحبالها وسلاسلها وغير ذالك . ولكل قلعة من هذه القلع سور عظيم مثل سور البلد والحفير خلفه والقنطرة أمام الباب ترفع وتوضع ، وكل قلعة مقدار بلد من البلدان .

وهذه المدينة يشقها نهر كبير يسمى لاسين ، وهو جار بها من الشرق إلى الغرب ، عليه فيها سبع عشرة قنطرة ، وتلك القناطر على أشكال . فمنها ما هو مبني على أقواس الحجارة كغالب القناطر ، ومنها ما هو على أقواس الحديد ، وبين الأقواس وسطح القنطرة دوائر عظيمة من الحديد كبارا وصغارا عليها سطح القنطرة . ومنها نوع آخر وهو أعجبها معلقة من فوق وليست منزلة على الأقواس كغيرها . وذالك أنهم عمدوا إلى طرفي النهر فبنوا فيهما بناء وثيقا على شكل سارية مفتوح وسطها بقوس ليمكن المرور فيها ، وربما زادوا بناء ثالثا في وسط النهر إن كان عريضا جدا ، وجعلوا أرض القنطرة الذي يمر عليه من الخشب الوثيق تحمل على سبائك من الحديد ، وتلك السبائك ممسكة بقضبان من حديد قائمة على جوانب القنطرة ، يدخل طرفها الأسفل في تلك الخشب حتى يتصل بالسبائك التي تحمل عليها الخشب وتُسَمَّر فيها . وهذه القضبان القائمة يمسكها من أعلاها قضبان أخر عظيمة ممتدة على حاشيتي القنطرة تسلك في البناء المذكور ، ومنه ابتداؤها وفيه انتهاؤها فهي التي

تمسك القنطرة . فإذا كنت ماشيا على ظهرها تحس بها تهتز ، لأنها ليست منزلة على الأساس من تحت بل هي معلقة من فوق بما ذكر .

ومنها شكل آخر من الخشب كلها ، وعلى حاشيتها من فوق ضربوز من الحديد يمنع المار من الوقوع في النهر ، وهو فيها وفي غيرها ، إلا أنه في غيرها الغالب أن يكون بناء . وكل هذه القناطر تمر عليها الكراريص والأكداش . وهذه القناطر الغريبة الشكل كلها يعطي المار عليها لأنها مستحدثة ، حتى يستوفوا ما دفع فيها ثم تصير مجانا كغيرها . وكانوا قبل استحداث هذه القناطر الجديدة يعبرون من أحد الجانبين للآخر في الفلائك إن استبعدوا البلوغ لقنطرة أخرى من القناطر القديمة ، والذي يعطى عليها شيء قليل نحو فلسين من فلوسهم للماشي الراجل وضعف ذالك أو ثلاثة أضعاف للكروصة . وهذه أشكال القناطر في هذه المدينة وفي غيرها مما رأينا ، ولم نر أحدا يخوض نهرا بدابته ولا برجليه أبدا .

وفي وسط هذا النهر جزيرة هي أصل باريز القديم ، ويسمونها بما معناه باريز القديمة[1] . ولهم بهذه الجزيرة كنيسة قديمة أكبر وأقدم ما عندهم من الكنائس بباريز[2] . وهذا النهر تسافر فيه المراكب والفلايك والبابورات كبارا و صغارا ، فهو مشحون بها في داخل المدينة . وفيه بيوت عظام من الخشب على شكل السفن الكبار ، إلا أنها مسقفة من فوق بسقف منها ، مفتوح وجهها الذي لجهة النهر ، مرساة في طرفه ثابتة ، معدة لغسل الثياب ، تعلوا عند زيادة النهر وتنزل عند نقصانه كما هو شأن المراكب .

وفيها أيضا كذلك بيوت أخر من الخشب هي حماماتهم هنالك معدة للاستحمام بداخلها بيوت صغار بإغلاقها ، وفي كل بيت حوض يملأ بالماء سخنا أو باردا أو بهما ليعتدل ، فمن أراد الاستحمام دخله ، وهذا حمامهم ، وليس عندهم حمام على شكل حماماتنا . وعندهم حمامات كثيرة في غير النهر المذكور ، بل بين

---

(1) المعروفة قديما بلوتيس (Lutèce) (باللاتينية : (Lutecia Parisiorum) (ويطلق عليها اليوم) (La Cité) .

(2) ويتعلق الأمر بكاتدرائية نوتر دام دو باري (Notre Dame de Paris) المشهورة والواقعة فيما يسمى لاسيتي (La Cité)

الديار وفي الأسواق .

والحوض المذكور الذي يكون في داخل البيت يكون من النحاس في الغالب ، وقد يكون من الرخام على قدر ما يمتد فيه الإنسان مع جمع رجليه شيئا ما ، ويصيب فيه ميزابان[1] أحدهما من الماء البارد والآخر من السخن ، لكل منهما بزبور يغلق ويفتح وبأسفله مفجر يخرج منه الماء متى احتيج إليه . وهو أيضا يغلق ويفتح ، فإذا أراد المغتسل أن يدخله ، فتحوا له الميزابين حتى يمتلئ الحوض ويكون الماء كما يريد ثم يُغلقان ، فيدخله المغتسل فيتجرد من ثيابه ويعلقها في أعلاق لها هنالك ويغلق الباب ويدخل في الحوض المذكور ويضطجع فيه ، فإن كان الماء معتدلا فذاك ، وإن كان حارا سخنا فتح بزبوز البارد ، أو باردا فتح بزبوز السخن . فإذا تغير ذالك الماء بالوسخ وأراد إبداله ، فتح المفجار الذي بأسفل الحوض فيخرج منه الماء ويغسله ، ثم يغلق المفجار ويرسل الميزابين حتى يستوفي غرضه ويخرج .

وذالك البيت مضيٌ بطاقة كبيرة لها غلف من الزجاج ، عليه من داخل ساتر رقيق يمنع التكشف ولا يحجب الضوء . ومن أراد أن ياتوه بالحمام المذكور لبيته ، أتوه بذالك الحوض وبالماء سخنا في الأواني وبالفوط التي يستحقها للتنشف وغيره فيغتسل في بيته . إلا أن هذا لا يمكنه تبديل الماء إذا تغير ، لأنه ليس في الحوض الذي يأتون بمفجار في أسفله . وليس في بيوتهم مهاريق للماء ، فلا تجد من أين ترسل شيئا من الماء ولا نقطة . وكان يشق علينا الوضوء لأجل ذالك ، فكنا نحتاج أن نأتي بإناءين ، أحدهما فيه الماء والآخر نتوضأ فيه مع مشقة واحتيال لصغر الإناء ، ولأن أرضهم مفروشة بالزرابي إذا قطر عليها الماء أفسدها ، وهم في غنية عن إهراق الماء فلم يستعدوا له .

وما يجتمع في البيت من الماء الوسخ أو البول أو غيره يخرجونه في الأواني ، وقضاء الحاجة يكون عندهم في الأواني أيضا . أما البول ففي حلاليب[2] معدة له ،

---

(1) مفردها ميزاب أو مئزب وهي الأنابيب أو الجعاب التي توصل الماء إلى الصنابير ، أحدهما للماء البارد وثانيهما للماء الحار ، وتسمى أيضا بالقواديس (المعرب) .

(2) مفردها حلاب وهو وعاء قد يكون من الطين أو المعدن ، وله استعمالات متعددة . والحلاب المقصود هنا هو الذي يسميه الفرنسيون :

(Pot de nuit) ، انظر : Dozy 1: 314 (المعرب) .

وأما غيره ففي إناء داخل صندوق عليه غطاء ، وفوق ذالك الإناء إناء آخر نظيف ، في أسفله ثقب فيه غطاء يفتح ويغلق وحده بلقشة[1] ، فإذا وقعت الحاجة في الإناء الأعلا هبطت من ذالك الثقب إلى الإناء الأسفل بسرعة ثم انغلق الثقب ، ويضعون له شيئا قليلا من الماء في ذالك الصندوق يخرج لذالك الإناء الأعلا بحركة بزبوز لينظفه . فإذا قضى أغلق غلقا آخر على الجميع ، فلا تخرج رائحة ولا فرز حتى يمتلىء فيخرجه الخدمة وينظفونه ويردونه لمحله .

رجوع ، وشاطىء هذا النهر المذكور مبني بأحجار منحوتة وصخر عظيمة ، وارتفع البناء حتى علا الطريق بنحو نصف قامة من مبدأ النهر إلى منتهاه بداخل المدينة . وعلى شاطئه شوارع واسعة ، وإلى جوانبها الحوانيت والديار طيقانها تطل على هذا الوادي . وطرق هذه المدينة كلها مفروشة بالحجارة المنجورة في الوسط وحواشيها مسطحة ، فالوسط للكراريص والأكداش والحواشي للمشاة . وطرقها واسعة جدا وكلها نافذة للهواء ، ليس فوقها روشن ولا ساباط[2] ، لأن ضوء البيوت إنما هو من الطيقان التي تطل على الزقاق والفضاء ، فإذا غطوها بساباط أو نحوه أظلمت البيوت .

وفي هذه المدينة من الأكداش والكراريص عدد كثير جدا ، يقال إن فيها من ذالك ثلاثة عشر ألفا ، منها ثمانية آلاف للكراء وباقيها ملك لأربابها[3] . وأن فيها من الخيل التي تجرها نحو ثمانية وأربعين ألفا . وهذه الأكداش كلها في غاية من النظافة والصقالة والوثاقة ، يظن بها أنها كلها جدد . وكذالك خيل هذه المدينة كلها في غاية من الشبع وصفاء اللون وكبر الجثة وحسن الصورة ، ولم نر مثل أكداشها ولا مثل خيلها في سائر بلادهم . وبالجملة فهذه المدينة بالنسبة لسائر بلاد الفرنسيس التي رأيناها مدنا وغيرها

---

(1) لقشة وتنطق بالمغرب في العربية الدارجة بالنون هكذا : نقشة . وهو النابض ويقابله في الفرنسية روسور (ressort) . انظر : *Dozy* 2 :552 (المعرب) .

(2) استعمل الصفار هنا مصطلح «الساباط» المعروف والشائع استعماله في المدن المغربية العتيقة ، وهو طريق يربط بين أزقة المدينة ، لكن فوقه مباشرة دور أو مساكن معلقة ، فيسمى الممر المغطى بالسقف ساباط ، ووردت عند دوزي بالصاد أيضا هكذا : صباط ، (voûte) ، بمعنى القوس . *Dozy* 1 :815 (المعرب) .

(3) يبدو أن هذا الرقم الذي أتى به الصفار ضئيل جدا ، إذ جاء في جريدة الإلوستراسيون L'Illustration بتاريخ 15 نونبر 1845 أن باريز كانت تحتوي على 2.520 عربة كان استعمالها مقصورا على حمل الركاب دون البضائع وغيرها من المحمولات .

كالحاضرة مع البادية ، فكأن غيرها من المدن بالنسبة لها كله بادية .

ولا يتماشى أهل الثروة من أهل هذه البلد وذَوُوا الهمة منهم بل ومطلق الناس غالبا إلا في الأكداش لأمرين : أحدهما حب الرياء والفخر الذي طبعوا عليه ، فلا تسمح نفس أحدهم بالمشي على رجليه في الطرقات ، إلا إن كان مقصوده الاستراحة والفرجة(1) . والأمر الثاني ، كبر المدينة جدا ، فكل من يريد الذهاب من محل منها إلى آخر ، يشق عليه المشي على رجليه لأنه سفر . ولذلك تجد عندهم كراريص طوالا تحمل كثيرا من الناس مكتوب عليها : «هذه تذهب إلى الحومة الفلانية» ، فيركبها كل من يريد الذهاب لتلك الحومة ولو كان من الخَدَمَةِ ونحوهم ، وينزل بعضها ويحمل آخرين في أثناء الطريق(2) . فهدير الأكداش والكراريص بها لا يفتر ليلا ولا نهارا ، حتى أن الزجاج التي بطاقاتها دائما يرتعد ويهتز من شدة فرقعتها . وبقينا بها أياما لا يأخذنا النوم من أجل هولها ، لأنها لا يفتر مشيها بالليل ، ونرى كأننا على شاطئ البحر أو أمام رحى تدور .

وتجد سائر أسواقها وفجاجها كلها مملوءة بالكراريص بقصد الكراء ، وبها أسواق كثير ، وإن شئت قلت كلها أسواق لأن أسواقهم كلها حوانيت(3) . ومن عادتهم في

---

(1) قارن مع ما أتى به الطهطاوي في هذا الصدد ، تلخيص ، ص . 76 ؛ 121–120 .L'or, pp

(2) أنشئت أول شركة للنقل الحضري في باريز بهذا النعت «Entreprise des omnibus» سنة 1828 . وتأسست فيما بعد شركات أخرى خصوصية لنقل الركاب بين مختلف الأحياء والمقاطعات الباريزية مقابل اجر معلوم . وعند وجود الصفار بالعاصمة الفرنسية ، كانت هنالك عدة حافلات تخترق مختلف أرجاء المدينة وتحمل أسماء معينة من قبيل : (Josephine, Gazelle, Hirondelle) وغيرها . انظر : *Guide Michelin: Paris*, ed., 1988, p.4.

(3) كان الصفار يضع نصب عينيه صورة القيسارية أو القيصرية في فاس . ومعلوم أن القيسارية كانت تفتح أبوابها للزبناء نهارا وتقفل أبوابها عند المساء فتصبح أزقتها خالية . وكان في إمكان المشترين اقتناء حاجياتهم التي عادة ما يجدونها معروضة للبيع في الحوانيت الملتصقة بعضها ببعض . ويمكن إيجاد بعض المواد الضرورية معروضة للبيع في حوانيت منبثة ضمن الأحياء السكنية ، غير أنه لا مجال للمقارنة بين حجم تجارة أصحاب تلك الحوانيت وأقرانهم في القيساريات . انظر :

R. Le Tourneau, *La vie quotidienne à Fès en 1900* (Paris, 1965), pp.121-124; al-Qadiri (trans. Cigar), *Nashr*, p.221 and note 6 ; *EI* 2, s.v. "Kaysariyya".

بنائهم أن يجعلوا الطبقة السفلى الموالية للأرض حوانيت والبيوت فوقها . إلا أن في غالب مواضعها تجد الحوانيت متصلا بعضها ببعض وفي بعضها منفصلة ، وقل أن تدخل زقاقا من أزقتها ولا تجد فيه عدة حوانيت . وحوانيتهم كلها على شكل واحد في زخرفتها وأبوابها وزجاجاتها ، فما يباع فيها الحرير والجوهر بمنزلة التي تبيع البقول والخضر ، وكلها متصلة بالأرض وليست مرتفعة عن الأرض كحوانيتنا . ومن زخرفتهم في الحوانيت ، أنهم يجعلون جوانبها كلها بالمَرَاءاتِ الصافية ينطبع فيها كل ما في الحانوت ، فلا تدري هل هي محصورة أو نافذة أو صغيرة أو كبيرة . ولا اختصاص لسوق منها بشيء معين ، فتجد حانوت اللحم والسمك مجاورة لحانوت البز[1] والجواهر ونفيس السلع ، وهما في النظافة سواء . فلا يوجد في حانوت اللحم دم ولا عظم ولا رائحة كريهة ، ويبقى اللحم فيها أياما عديدة فلا يتغير ولا ينتن .

ومن أشهر أسواقهم وأنفسها سلعا سوق يسمى بَالِيرُوَيال[2] وهو تربيعتان[3] فيهما ما يزيد على أربعماية حانوت ، وفي وسطه أشجار وفوارة ماء كبيرة . وفوق الحوانيت قصر سلطاني يسمى بهذا الاسم ، ويقولون إنه ملك لسلطانهم المتولى الآن . ويباع في هذه السوق الأمور النفيسة كالجواهر والأحجار والذهب المصوغ والفضة وحوايج الحرير وغير ذالك ، وفيه قهاوي وغير ذالك .

---

(1) حوانيت البز هي التي يباع فيها الثوب المصنوع من الكتان أو القطن ، وقد يسمى تجمعها بالبزازين (المعرب) .

(2) والإشارة بذلك إلى بالي رويال (Palais Royal) الذي بني في القرن السادس عشر . لكن مع حلول القرن الثامن عشر أصبحت توجد في أروقته دكاكين تجارية ومحلات للتسلية ولعب القمار . وذكر هالت أفندي ، أحد الرحالة الأتراك عند مطلع القرن التاسع عشر ، أن الغرف الموجودة في أعالي البناية كانت تستعمل أوكارا للدعارة ، وأن «زيارة ذلك المكان أثناء الليل أمر مخجل ، غير [. . .] أنه لا حرج في زيارته خلال النهار» . انظر : Lewis, *Muslim Discovery*, p.291.

غير أن كل محلات الدعارة والتسلية المشبوهة والمنافية للأخلاق كان قد صدر الأمر بإغلاقها بصفة نهائية زمن زيارة البعثة المغربية إلى باريز ، انظر :

Guide Michelin: Paris, ed., 1988. pp.113-115.

(3) مفردها تربيعة والمقصود بها هنا هو ساحتان فسيحتان تتخللهما حوانيت (المعرب) .

وسوق آخر يسمى بولفار[1] يباع فيه كل شيء ، وهو طويل جدا بقينا ماشين فيه بالكروصة نحو ساعة . وسوق آخر قريب منهما يسمى رُوي مُمَرط[2] به مجمع للتجار يسمى عندهم البُرصَة[3] وبه حانوت من أعظم حوانيت باريز هي وحدها سوق[4] يباع فيه سائر أنواع الملبوسات من الحرير والملف والكتان وغير ذالك مخيطا وغير مخيط ، وفيها ماية وأربعون خادما . ورب الحانوت واقف ببابها ، فيتلقى المشترين ويسلهم عن مطلوبهم حتى يوصلهم لموضع غرضهم ، وهنالك الخدمة يناولون كل واحد ما يحب .

وكل حاجة مكتوب عليها ثمنها الذي تباع به ، فلا يحتاج المشتري مع ذالك الخادم إلى مشاحنة ولا مكايسة . فإذا أراد أخذ شيء منها أتى معه الخادم إلى باب الحانوت ، وهنالك أربعة من الكتاب يعملون الحساب ويقبضون الأثمان ، فيتركه معهم بحاجته ينظروا له الثمن ويقبضونه منهم فينصرف . وقد دخلناها غير مرة فلم نجد أولئك الكتاب إلا بالازدحام عليهم في أعمال الحساب وقبض الأثمان من المشترين . يقال أنه يباع فيها كل يوم بتقريب اثنا عشر ألف ريال[5] . وبها تربيعات ، كل تربيعة لنوع من السلع ، ويوقد بها في اليل ماية وسبعون مصباحا .

---

(1) ويقصد الصفار بذلك (Les Grands Boulevards) ، المشيدة على أنقاض التحصينات الباريزية التي كان يعود تاريخها إلى القرون الوسطى . وخلال أربعينيات القرن التاسع عشر كانت على جوانب أرصفتها ، مراقص ومحلات للفرجة ومطاعم أنيقة .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Rue Montmartre) .

(3) ويقابلها في الفرنسية (La Bourse) .

(4) ويتعلق الأمر بـفيل دو فرانس (Ville de France) ، أول أكبر المتاجر الطلائعية على مستوى السبق في الانفراد بعرض أحدث السلع ومستجداتها في باريز ، والتي فتحت أبوابها سنة 1843 . وكان ذلك المتجر جديدا على الباريزيين أنفسهم ، نظرا لاختلافه الكبير عن بقية المتاجر . إذ تباع فيه سلع ومنتوجات متنوعة جدا ، وأثمان البيع فيه محددة ، وأرباحه المحققة سريعة بفعل ارتفاع حجم المبيعات . انظر :

Michael Miller, *The Bon Marché: Bourgeois Culture and the Department Store, 1869-1920*, (Princeton, 1981), pp.21-25.

(5) حوالي 60.000 فرنك فرنسي في اليوم ، إذ كان الفرنك يساوي حوالي عشرين سنتا .

وسلع هذه المدينة في غاية الغلاء ، لكثرة غنى أهلها وجودة سلعها . فإن الفرنك عندهم وهو خمس الريال بمنزلة الفلوس عندنا ، والريال عندهم بمنزلة الدرهم عندنا[1] وهما غالب سكتهم . ومدار الحساب عندهم على الفرنك ، كما أن الحساب عندنا على المثقال ، فإذا أرادوا غيره كالريال بينوه . ولهم من الذهب دنانير صغار[2] ، صرف

(1) لم يقصد الصفار بقوله ذلك الإشارة إلى القيمة الحقيقية للدرهم الذي كان يساوي حوالي عشر قيمة القطعة النقدية الفرنسية الواحدة من خمس فرنكات ، بل كان يريد القول إن قطعة الخمس فرنكات كانت تشكل وحدة القياس الأساسية للنقود الفرنسية ، تماما كما كان حال الدرهم في المغرب .

وكانت تبدو أسعار السلع الفرنسية مرتفعة جدا نتيجة لانخفاض الطلب على العملة المغربية في علاقتها مع العملات الأجنبية . إن قطعة الخمس فرنكات الفرنسية كانت تزن 25 كَراما ، وكان استعمالها بالمغرب أمرا معهودا تحت اسم الريال . وخلال القرن الثامن عشر كانت النقود المغربية الأساسية محلية وتسمى المثقال ، وهو عبارة عن عملة نقدية فضية وزنها 29 كَراما ؛ والدرهم الذي هو عملة نقدية فضية وزنها 2,9 كَرام ، أو ما يعادل عشر المثقال ؛ ثم الأوقية وهي عملة نقدية برونزية تعادل درهما واحدا . أما في القرن التاسع عشر ، فقد عُوض المثقال الفضي الثقيل الوزن في الأسواق المحلية بعملات نقدية أوربية ذات قيمة منخفضة كما هو حال قطعة الخمس فرنكات الفرنسية التي أصبحت تحمل اسم الريال .وقد سمح المخزن بحدوث ذلك أملا في الحفاظ على النسبة الاسمية المرغوب فيها بين النقود البرونزية والفضية ؛ وخلال أربعينيات القرن التاسع عشر حصل تغيير على مستوى قيمة الأوقية : سابقا كانت العشر أوقيات تساوي مثقالا واحدا ، وبعدئذ أصبحت ست عشرة أوقيات تساوي ريالا واحدا . وهنا لا بد من الاعتراف بالجميل للباحث (Thomas Park) الذي أفادني كثيرا في هذا الإطار . انظر مقالته :

"Inflation and Economic Policy in 19th Century Morocco: The Compromise solution". *Maghreb Review* 10, 2-3 (1985): 51-56 ; G. Ayache, "Aspects de la crise financière au Maroc après l'éxpédition espagnole de 1860", in *Etudes d'histoire marocaine* (Rabat, 1983), pp.97-138;

وأيضا عمر أفا ، مسألة النقود في المغرب في القرن التاسع عشر : سوس *1822- 1906* (الدار البيضاء ، 1988) ، ص. 203-214 .

(2) ويقصد بها الصفار العملة النقدية الفرنسية المسماة بالفرنسية (Louis d'or) التي كانت تساوي 20 فرنكا ، وهي معروفة عند المغاربة باللويز . أما الدينار (من اللاتينية denarius) فهو عملة نقدية ذهبية إسلامية تزن حوالي 4,25 كَرامات ، *IB* 2 : 444 note 111 ; *EI* 2, s.v. "Dinar"

كل واحـدة أربعـة ريال بريالهم وفلوسـهم التي هي من النحـاس عشـرون منهـا في الفرنك ، ويسمى الواحد صُلْد[1] .

وبها ديار لبيع نفيس السلع خصوصا الجواهر والأحجار ، فالغالب فيها بديار معدة لها . ومن حرصهم على نفاد سلعهم أن أصحاب السلع يكتبون كواغيط يذكر كل واحد سلعته ويمدحها ويرغب الناس فيها ، ويذكر محله وثمنها ويلصقون تلك الكواغيط في الحيطان في محال اجتماع الناس ومرورهم وفي القبب المعدة عندهم للبول وفي ابتداء المدينة ليراها الداخل ، وفي كل محل يقصده الناس كثيرا . وليس عندهم في أسواقهم جوطيات[2] يباع فيها بالسماسرة كما عندنا .

وأما أشكال دُورهم فإنها مخالفة لشكلنا ، فإن دورهم ليست بالساحة والفوقي والسفلي والبيوت والغرف كما عندنا ، فإنهم يتركون ساحة الدار خارجة عنها مرفقا لها لوقوف نحو الكراريص والدواب . وأول ما تدخل الباب تصعد في الدرج ، وأنت تجد البيوت طبقة فوق طبقة حتى تنتهي إلى أعلاه . وتلك البيوت هي المسماة بالصيلان[3] وكلها لها طاقات كبار جدا منها تضيء ، تشرف على الأسواق والشوارع أو على محل فضاء . وتجد هذه الطيقان صفا واحدا متماثلة فيها تزويق ونقش حسن ، وقد يكون أمامها شبابيك من الحديد في صنعة عجيبة . والغالب أن يكون بإزاء الدار عرصة ولو صغيرة فيها ماء وخضرة ولو شيئا ما . ولا تجد عندهم في أعراصهم هذه شيئا من أشجار الفواكه ، أو دوالي العنب أو نَور له رائحة طيبة أو نبات مما نألفه في أعراصنا كالنعناع والحبق والمرزنجوش وغيرها من النباتات الزكية ، فلم نر عندهم شيئا .

وبهذه المدينة في أسواقها قبب كهيئة السواري المُجَوَّفة معدة للبول ، وببابها

---

(1) الصول أو (Sol) بالفرنسية ، عملة نقدية قديمة من النحاس تساوي خمس سنتيمات . وينطقها عامة المغاربة صُلْد تماما كما أورده الصفار أعلاه .

(2) مفردها جوطية ، وهي سوق ينعقد يوميا في المدن المغربية ، وتباع فيه الحوائج القديمة أو المستعملة بواسطة الدلال أو السمسار . انظر :

R. Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat* (Casablanca, 1949), p.242 et 378.

(3) مفردها صالة ، من الإيطالية (sala) ، بالفرنسية (salle) ، وهي البيوت المجهزة بما يصلح من الأثاث والفرش الفاخرة لاستقبال الزوار أو الضيوف (المعرب) .

قضيب من الحديد قائما من الأرض له رأسان يمنع مريد البول من تلوث ثيابه بالبول الذي في داخلها . ويبولون أيضا في أصول الحيطان في الزقاق ، وليس ذالك عندهم عيبا ، ولكن لا يغفلون عن نظافة طرقهم بالكنس والرش بالماء .

وبهذه المدينة محال يتماشى الناس فيها هي متنزّهَاتهم . ونزهتهم إنما هي أن يأخذ الرجل بيد صاحبه أو صاحبته ، ويقصدون موضعا من المواضع المشهورة عندهم يتماشون فيها وهم يتحدثون وينظرون ، وليست نزهتهم بالأكل والشرب بل ولا بالجلوس . فمن منتزهاتهم موضع يسمى الشَّمزليزي[1] ، وهو موضع قرب النهر المذكور لجهة سراية السلطان وبه كان منزلنا ، فيه أشجار مصطفة متوازية بين صفي الشجر كشكل الزقاق المستقيم . فإذا أورقت تلك الشجر وتعانقت أغصانها وغرد الأطيار فوقها ، كان فيها منظر عجيب . وفيه كثير من القهاوي وديار الفرجات كالتياترو[2] أو نحوه . وبه فوّاراتُ ماءٍ كبيرة جدا فيها تماثيل من أشخاص آدميين وغيرهم ، كلها ترسل من أفواهها الماء بقوة واندفاع[3] يزعمون أنهم إلاهات الماء ، وبأيديهم سمك يبزق الماء أيضا . وكل ذالك بالحركات ، وماؤها يصعد عمودا واحدا إلى أعلاه ، ولا يرسلونه في زمن البرد لأنه يجمد .

وبقرب هذا المحل رياض السلطان المتصل بسراية سكانه ، وهو أيضا من المنتزهات عندهم[4] ، وإن كانت له أبواب وأسوار وعلى الأبواب حراس لاكن لا يمنعون أحدا من دخوله ، وإنما حجّرَ السلطان فيه موضعا صغيرا متصلا بجدار داره . وبهذا الرياض أشجار كثيرة عظام على شكل غرسهم ، والمقصود منها الظل . وفي خلالها جلسات

---

(1) ويقابلها في الفرنسية (Champs-Elysées) الشانزيليزي ، أحد الشوارع الباريزية الراقية والمشهورة .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Théâtre) .

(3) ويتعلق الأمر بنافورتين يمكن مشاهدتهما اليوم في ساحة لاكونكورد (Place de la Concorde) ، وكان بناؤهما بأمر من الملك لويس فيليب لمحو الدلالات الشعبية التي أصبحت لتلك الساحة بعدما نصبت فيها مقصلة الثورة . *Guide Michelin*: Paris, ed., 1988, p.47

(4) كانت حدائق التويلوري des Tuileries Jardin مجاورة للضفة اليمنى لنهر السين . وكان القصر الملكي المعروف بقصر التويلوري (Palais des Tuileries) يقع عند نقطة معينة من تلك الضفة ، بينما كانت ساحة لاكونكورد عند الجهة الأخرى للضفة نفسها . غير أن القصر قد دُمر خلال أحداث كومونة باريز في ماي 1871 .

مُخضرّة بالنباتات عليها كراسي لمن أراد أن يجلس إن تعب من المشي ، وغالب من يجلس النساء أو الشيوخ الكبار . وبه أحواض كبيرة جدا من الماء ، وبه أيضا قهاوي .

ومن منتزهاتهم أيضا ، جنان السلطان الذي فيه النباتات والوحوش بحرية وبرية حية وميتة[1] . واستعملو للميتة حيلا حتى صارت تُرى كأنها حية ، فترى الحوت لا تشك أنه الساعة أخرج من البحر . وذالك أنهم سلخوه من جلدته وأخرجوها صحيحة وملئوها بتبن أو نحوه حتى صارت كأنها سمكة بلحمها طريا ، ويزيدونها أنواع الأطلية التي تُصبر معها الجثة . ألفينا فيه من الحيوانات المحفوظة جثتها وهي ميتة ، أنواعا لا تحصى من الحيتان كبيرها وصغيرها من عظيم التمساح إلى صغير السلفاح ، منها ما هو من بحر الروم ، ومنها ما هو من بحر الهند ، ومنها ما هو من البحر الكبير ، ومنها ما هو من النيل ، إلى غير ذالك .

وهناك التمساح على أنواع ، منه ما هو من النيل ومنها ما هو من بحر الهند ، وهو أعظم وأهيل منظرا من تمساح النيل . ومنه سمك عظيم يخرج من فمه منقار طويل مسنن من جهتين كأنه منشار ، ومنه سمك عظيم جدا يزعمون أنه من نوع السمك الذي التقم يونس عليه السلام . وهناك هوائش[2] عظيمة لم نعرف لها اسما ، وكلها

---

(1) ويتعلق الأمر بحديقة التجارب الباريزية المسماة جردان دي بلانت (Jardin des Plantes) ، أسست في سنة 1626 لتمكين العلماء والباحثين في مختلف التخصصات من إنجاز اختباراتهم التطبيقية على نماذج حقيقية من مختلف أصناف النباتات والحيوانات . وقد فتحت أبوابها للعموم سنة 1640 ، وكانت لعلماء الطبيعة الفرنسيين مساهمة فعالة في إثراء محتوياتها بنماذج نباتية غريبة ومتنوعة جلبوها من مختلف أرجاء العالم . أما الجناح المخصص للحيوانات ، فلم تتكون نواته الأولى إلا بعد اندلاع الثورة الفرنسية ونقل كل الحيوانات الموجودة وقتئذ داخل الحدائق الملكية في قصر فرساي إليها . انظر :

Guide Michelin: Paris, ed., 1988, p.205.

أما عن انطباعات رفاعة الطهطاوي ، فانظر كتابه **تخليص** ، ص .164 ، بالإضافة إلى : *L'or*, pp.190-192.

(2) مفردها هيشة ، وهي من الكلمات المستعملة في العامية المغربية عند الحديث عن حيوانات غريبة عظيمة الجثة ومخيفة في آن واحد . وعند دوزي تعني الكلمة نفسها الغابة ، ومعناها لا علاقة له بسياق الكلام كما هو وارد عند الصفار الذي يقصد به الوحوش 782 :*Dozy* 2 (المعرب) .

ممتدة مع السقف مربوطة فيه بصفائح من الحديد . وأما الحيتان الصغار ، فلا يدرك لها هناك عدٌ ولا يُحصر لها حد . وفيه أيضا من أنواع الطير ما لا يمكن إحصاؤه كبيرا وصغيرا ، مألوفا وغيره وذوا المنظر الحسن والشكل الغريب مجلوبة من كل الأقاليم . ومنها طير له في جناحيه مناقير كما هي في رأسه . وكل نوع في بيت على حدته ، حتى الطير المعروف بالبشيرة هنالك منه الأعداد العديدة . وفيه صور حيات وأفاعي عظام هائلة المنظر ملتوية على عود تفزع بالنظر إليها ، غلظها كفخذ الإنسان أو أغلظ . وفيه أيضا من الحيوانات الميتة حيوانات البلاد الغريبة ، كحيوانات بلاد مريكة وبلاد الهند مما لا يعرف له اسم .

ومما هناك من الحيوانات الميتة المحشوة بالتبن الفيل وهناك أيضا حيا ، والكركدان[1] وهو حيوان عظيم أصغر من الفيل له قرن واحد عظيم في أنفه ، ورأسه منحن لا يقدر أن يرفعه من ثقل ذالك القرن ، ويقال بأنه يقاتل الفيل بذالك القرن فيغلبه . ويقال إن من خواصه أن الأنثى منه إذا قاربت الوضع ، أخرج الولد رأسه من فرجها وصار يرعى أطراف الشجر ، فإذا شبع أدخل رأسه في بطن أمه . ويقال أنه إذا كان بأرض ، لم يرع فيها شيئا من الحيوان حتى يكون بينه وبينهاماية فرسخ من جميع جهات الأرض هيبة له وهربا منه . وهناك أيضا ميتا بقر الوحش ، وهو يشبه خلقة الفرس ، إلا أن رجليه فيها شعر كثير . وهناك أيضا الدُّب ، وهو حيوان قدر العجل ومنه هناك نوعان أبيض وأسود ، وزعموا أن الأبيض منه يوجد فوق الماء الجامد ببحر الظلام[2] . وهناك أيضا الكثير من الأسُد والنمور والضبع والسنانير[3] والثعاليب والغزلان والأروي[4] وغير ذالك كلها ميتة ، وتُرى كأنها حية لم يتغير منها شيء .

وأما ما فيه من الحيوانات الحية ، فمنها الفيل وهو خلق عظيم الجثة ، له خرطوم طويل وفمه في أصل ذالك الخرطوم من أسفل ، فيتناول الشيء بذالك الخرطوم ويرمي به إلى داخل فمه . ومع كبر جثته فله فهم واستيناس بسائسه ، فقد كان

---

(1) وهو الكركدن بالعربية الفصحى أو وحيد القرن (Rhinocéros) (المعرب) .

(2) والمقصود به هو المحيط المتجمد الشمالي .

(3) مفردها سنور ، وهو القط الوحشي (المعرب) .

(4) الأروي ، من الحيوانات العاشبة ، ومن سماته المميزة وجود قرنين كبيرين في رأسه شبيهين بأغصان الشجر ، ويسمى بالعربية الفصحى الأيل ؛ بينما يطلق عليه عامة المغاربة اسم لاروي (المعرب) .

داخل ضربوز عظيم من الحديد وخلفه ضربوز آخر من عظيم الخشب وله باب ، فيكلمه سائسه ويقول له افتح الباب ، فيجعل يفتل خلابتها بخرطومه حتى يفتحها ، ويقول له اغلقها فيعود فيغلقها . وأخبرني من رءا هنالك فيلين في تياتروا للعب[1] يلعبان ويجيبان من دعاهما ويقبلان من أعطاهما شيئا ، ويردان له الآنية يمسكانها بذالك الخرطوم .

ومنها الزرافة[2] وهي حيوان عجيب الخلقة ، ويداها أطول من رجليها . فإذا وضع لها بالأرض ما تأكله تفاجّت بيديها لتصل إليه ، وهي ظريفة حسنة المنظر . ولها عنق

---

(1) ويقصد بذلك محل الفرجة المعروف بالسرك (Cirque) ، وبخصوص الفيل في المغرب ، فقد استجابت العاهلة البريطانية فكتوريا لطلب تقدم به السلطان مولاي الحسن فأهدته فيلا أنثى . وقد أثار وصولها إلى منطقة زمور ثم إلى فاس اهتمام السكان ونال إعجاب السلطان وعياله ، انظر : خالد بن الصغير ، مخطوط جديد حول هدية الفيل من الملكة فكتوريا إلى السلطان مولاي الحسن ، في مجلة دار النيابة ، العدد 12 ، 1986 ؛ وأيضا :

Khalid Ben Srhir, "Le rapport du Capitaine Ingelfield sur le Makhzen et la tribu des Zemmours (1891)", in *Hespéris-Tamuda*, fascicule 2, 1991, pp. 249-281. (المغرب) .

(2) كانت الزرافة المشار إليها أعلاه حديثة العهد بالحديقة الباريزية ، التي نزلت بها قبل زيارة الصفار بسنوات قليلة ، فكانت بذلك حدثا جديدا على الباريزيين أنفسهم . انظر :

Louca, *Voyageurs et écrivains*, pp.40, 254-255.

وهناك تشابه كبير بين مضمون المقطع الذي خصصه الصفار للحديث عن الزرافة وبين ما هو وارد في كتاب محمد بن محمد أبو يحيى المعروف بالقزويني (المتوفى في 682/1283) : **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** ، الذي ظل إلى حدود أيام محمد الصفار أساسيا اعتمده المسلمون في مواضيع العلوم الطبيعية . ويحتوي القسم الثاني من هذا الكتاب على وصف لمملكة الحيوانات ، جاء فيه عن الزرافة ما يلي : «رأسها كرأس الإبل وقرنها كقرن البقر وجلدها كالنمر وقوائمها كالبعير وأظلافها كالبقر طويلة العنق جدا طويلة اليدين قصيرة الرجلين وصورتها بالبعير أقرب وجلدها بالبقر أقرب وأشبه وذنبها كذنب الظباء .قالوا الزرافة متولدة من ناقة الحبش والبقرة الوحشية» انظر : كمال الدين الدميري ، **حياة الحيوان الكبرى** ، في جزئين (القاهرة ، 1306/1888–1889) ، ج 2 ؛ ويوجد نص القزويني في الهامش ، بالصفحة 177 ؛ انظر أيضا :

EI 2, s.v. "al-Kazwini, Zakariyya b. Muhammad b. Mahmud Abu Yahya".

طويل كالبعير وهي أعلا منه ، ورأسها مستطيل كرأس الفرس إلا أنه أدق منه . وفي جبهتها مثل قرنين مقطوعين ، إلا أنهما من لحم وشعر كأذنين مقطوعين . وذنبها يشبه من أعلاه ذنب البقر ، وفي أسفله شعرات ولونها حسن ، وليست لونا واحدا بل فيها الأبيض والأحمر فهي بلقاء ، وهي نظيفة لا يرى في مؤخرها ولا في ذنبها أثر روث ولا قذر . ومن طبعها الحنانة والألفة ، يناولها الإنسان بيده ما تأكل فتأخذه منه برفق ويدور خلفها فلا تضربه ولا تؤذيه . ويقال أنها متولدة من ثلاث حيوانات ، الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع ، فَيَنزُوا الضبع على الناقة فتأتي بذكر ، فينزوا ذالك الذكر على البقرة فيتولد منه الزرافة . والصحيح أنه خلق مستقل بذاته ذكر وأنثى كسائر الحيوانات .

ومنها الجواميس والبخت والليين ، وهو حيوان قدر الجدي وله قرنان كل قرن يخرج منه قرينات صغار ، فقرناه كفروع الشجرة ، ولذلك يقال : «الليين يزيد كل عام قرينا» . ومنها حمر من أرض الهند ولها لون أحمر حسن ، وهي شرارة تعدوا على من يقرب منها . وكان عندهم هناك حمار من حمرنا زعموا أنه خنثى[1] ، فسألناهم الاطلاع عليه فاعتلوا بحضور النساء . وهنالك كثير من الغزلان والأسود والنمور على أشكال وأنواع ، منها النوع المعروف ، ومنها نوع آخر جلده مخطط زعموا أنه نمر بلاد ميريكة . وهناك أيضا كثير من الذياب وهي أكبر من ذياب بلدنا ، وفيها شرارة وعداء على من قرب منها . وكثير من القرود على أشكال وأنواع ، ثم هناك أيضا عدد كثير من الحيوانات التي تشبه في القدر القنية والأرنب والنمس والفأر . وهناك أيضا قبة كبيرة مخصوصة بأنواع الطير ، وتلك القبة من سلك رقيق بحيث تمنعهم الخروج ولا تمنعهم الضوء والنظر .

وفي هذا البستان أيضا سراية بيرة مشتملة على بيوت عديدة فيها أنواع الأحجار والمعادن النفيسة وغيرها ، لا يدرك لها عدد ولا يمكن إحصاؤها لكثرتها . فأول ما دخلنا ، لقينا قبالة بابه صلدة[2] من تراب وعظام ملتصق بعضها ببعض ، زعموا أنها من بقية الطوفان . وفيه أيضا صلدة كبيرة من الذهب الخالص الصافي ، زعموا أنها

---

(1) أو خنثوي ، أو هيمافروديت (hermaphrodite) ، ومعناه أن يحمل صنف معين من النبات أو الحيوان أو الإنسان أعضاء تناسلية ذكرية وأنثوية في آن واحد .

(2) ومعناها هنا الكتلة المتماسكة من الصخر أو التراب (المعرب) .

ألفيت كذالك في معدنها . ثم ما لا يحصى من أنواع معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد . ومنه صخرة عظيمة من الحديد زعموا أنها نزلت كذالك من السماء ، مع أشكال كثيرة من أحجار الزمرد واليامنض[1] وغيره مما لا نعرف له اسما ، وإن كان كل نوع مكتوب عليه اسمه وبيانه . مع أنواع أيضا من الرخام الصافي والملون ، مع عظام حيتة زعموا أنها من بقية الطوفان[2] ، وأنهم قاسوها على أشكال الحيوانات الموجودة الآن ، فلم يجدوا ما يوافقها ويشاكلها . وهناك ريش السمندل[3] وجميع أصناف حبوب القمح الذي يوجد ببلادهم منه في سنبله ومنه حب في زجاجات ، إلى غير ذالك مما لا يحصى من أنواع المعادن .

وفي هذا البستان أيضا أنواع النباتات غريبة وغيرها . فما يمكن جعله في الأرض في تلك البلاد فهو في الأرض ، وكل خشبة مغروز عليها عود صغير في رأسه ورقة مكتوب فيها اسم تلك العشبة وخاصيتها . وما كان من النباتات الغريبة التي لا تحتمل برد بلادهم ، جعلوا لها بيوتا سقفها وجوانبها من الزجاج المنطق بفساقي الخشب ، بحيث يمكن فتحه وغلقه . وجعلوا في أرض البيت قواديس من الحديد يجري فيها ماء حار يسخن بنار خارجة عن البيت ، وفوق القواديس شبابيك من الحديد هي أرض البيت ، وجعلوا النباتات في الصناديق والأواني . ويجعلون حرارة ذالك البيت التي تنشأ مما ذكر على ما يوافق النبات الذي فيها ، فإذا كان النبات من أرض الصحراء كالنخلة مثلا ، جعلوا الحرارة مثل حرارة الصحراء بحيث تصلح للنخل . أو كان النبات من بلاد ميريكة ، جعلوا الحرارة كحرارة ميريكة ، وهكذا . فإذا كان زمن البرد والغيم أغلقوا ذالك البيت من جميع جهاته ، وربّوا النبات بالحرارة

---

(1) تحريف للتسمية الفرنسية دياماں (diamant) ، وهو الماس الرفيع الجودة .وعند الغساني ، يامنط : افتكاك ، ص 84 .

(2) كان الترجمان الفرنسي المرافق للبعثة المغربية خلال جولتها الاستطلاعية يستعمل كلمة الطوفان وسيلة لوصف بعض مظاهر الحياة في فترات ما قبل التاريخ حتى يفهمها الصفار الذي لم يكن بإمكانه وبحكم معتقداته الدينية الثابتة تصور أي تطور تاريخي للكون لا تربطه علاقة مباشرة بالقدرة الإلاهية .

(3) ويقابله بالفرنسية سلاماندر (salamandre) ، وهو حيوان صغير من فصيلة الضفدعيات أصفر اللون منقط بالسواد (المعرب) .

المذكورة . وإذا كان يوم شمس ودفاء ، فتحوا عليها شيئا من تلك الأغلاق ليدخل عليها الهواء ، وفي زمن الصيف والحرارة يخرجونها للفضاء .

فمما رأينا عندهم في تلك البيوت ، النخلة والموز وشجرة القهوة والأتاي ، وهما صغيرتان ليسا من الشجر الذي يعظم . وثمرة يسمونها أنانا[1] تجلب من بلاد ميريكة ، وهي قدر الليمة الكبيرة في رأسها ورقات ، وهي مدرجة كجوزة الصنوبر ، ولهم بها اعتناء تباع الواحدة منها بخمسة ريال وأكثر ، ويقطعونها قطعا قطعا ويأكلونها بالسكر وربما طبخوها ، ومذاقها حلو في حموضة فلذالك يذرّون عليها السكر .

وبراح هذا البستان خارج هذه البيوت مشتمل على أشجار عظام صفوفا مستوية وخصص ماء وجلسات مربعة ومستديرة ، وبيوت لخدمته وقومته وعسكريه ، فهو من أشهر أماكن باريز . وفائدة وضع ما ذكر من الحيوانات والنباتات والمعادن فيه ، أن كل من يتعاطى علما من العلوم المتعلقة بذالك ، إذا رءا في كتابه اسم شيء من ذالك ، فيمكنه أن يقف عليه ويعرف حقيقته[2] ، ومن أراد الاطلاع على شيء من ذالك والفرجة فيه فلا يمنعونه . لكن بعض الأماكن كالبيوت المغلقة لا تباح إلا في أوقات مخصوصة كيوم الأحد مثلا .

التياترو ا

ومن محال فرجاتهم المحال المسماة بالتياترو ا ، وتسمى الكومزية وتسمى الأوبرة ،

---

(1) مأخوذة عن الفرنسية أناناس (ananas) ، وهي مصنفة تحت التسمية النباتية التالية : (ananas comosus) .

(2) لم يكن تصنيف النباتات مجهولا في المغرب ، إذ ألف أحد علماء القرن السادس عشر من مدينة فاس وهو قاسم بن محمد الوزير الغساني ، كتابا صنف فيه 379 نوعا من النباتات الموجودة في المغرب . غير أن العمل على تصنيف النباتات التي لا يمكن الاستفادة منها عمليا قد شكل في حد ذاته شيئا جديدا عند الصفار . انظر :

H.P.J.Renaud, "Un essai de classification botanique dans l'œuvre d'un médecin marocain du XVIe siècle", *Mémorial Henri Basset: Nouvelles études nord-africaines et orientales*, 2 vols.(Paris, 1928), 2 : 197-206.

وهو محل يلعب فيه بمستغربات اللعب ومضحكاته ، وحكاية ما وقع من حرب أو نادرة أو نحو ذالك . فهو جد في صورة هزل ، لأنه قد يكون في ذالك اللعب اعتبار أو تأديب أو أعجوبة أو قضية مخصوصة ، ويكتسبون من ذالك علوما جمة[1] .

وبيان شكل هذا المحل وكيفية اللعب فيه ، أنه قبة عالية وفي جوانبها بيوت طبقة فوق طبقة تشرف على محل اللعب وفي أرضها انحذار ، وهي مسطرة بالشوالي والكراسي صفا أمام صف ليجلس عليها المتفرجون . وفائدة الانحذار لئلا يحجب من يكون أمام الشخص الذي يكون خلفه ، ليأخذ كل واحد حظه من النظر لمحل اللعب . وخارج القبة ميدان كبير هو محل اللعب ، ويسدل على ابتداء ذالك الميدان ستارة ترخى وترفع ، فيجلس المتفرجون في تلك البيوت التي في جوانب القبة وفي أرضها ، كل على حسب فلوسه وعطائه . ويجتمع اللعابون في الميدان المذكور ، ويجلس أصحاب الموسيقى في طرف القبة متصلين بالميدان . ولا يعمر إلا في الليل ، ويوقدون في وسط القبة ثريا كبيرة ، وفي جوانبها ثريات صغار .

---

(1) المسرح والكوميديا والأوبيرا (Théatre, comédie, opéra) ، وكلها من مظاهر الفرجة الاستعراضية الموجهة إلى الجمهور الأوربي بصفة خاصة ، لكونها لم تشكل أبدا جزءا من مكونات الثقافة الإسلامية السنية . ولذلك كان الذهاب إلى قاعات العروض المسرحية وما شابهها من التجارب الجديدة التي كان يقدم على خوضها غالبية الزوار المترددين على الديار الأوربية . وسبق لرفاعة الطهطاوي أن أكد على أهمية المسرح في تهذيب الأخلاق ونشر القيم النبيلة في أوساط عامة الناس (تلخيص ، ص .154 . L'or, p. 119) . ووصف خير الدين التونسي المسرح بأنه «من ألوان الشعر التي تصلح قراءتها على مسامع عامة الناس لتهذيب أخلاقهم» ، انظر :

Khayr ad-Din at-Tunisi, *The Political Treatise of a Nineteenth-century Muslim Statesman*, trans.L.C.Brown (Cambridge, Mass., 1967), p.140.

وقد أعجب أعضاء البعثة المغربية بالمسارح الباريزية ، فترددوا على قاعات العروض مرات عديدة . وشاهدوا في مدة لن تتجاوز أسبوعا واحدا ، ما بين 1 و7 فبراير 1846 ، عروضا لثلاث فرجات مختلفة ، عرضا للأوبيرا ومسرحية ، ثم حفلة غنائية أحيتها الآنسة راشيل (Mlle Rachelle) التي اشتهرت بعروضها في قاعات الحفلات الباريزية وقتئذ . انظر : AAE/ADM/Voyage ، بوسي إلى دوشاستو ، 8 فبراير 1846 .

Palais des Tuileries, le 18 Janvier 1846.

L'Aide-de-Camp de service près du Roi, et Mme la Mse de Dolomieu, Dame d'honneur de la Reine, ont l'honneur de prévenir Mr

Sid Mohammed Seffar

qu'il est invité au Spectacle qui aura lieu au Palais des Tuileries, Jeudi 22 Janvier 1846, à 7 heures 1/2.

Les Hommes seront en uniforme ou en habit habillé.

Ce Billet devra être remis à l'huissier de service.

لوحة 8 : بطاقة دعوة إلى الصفار لحضور فرجة في قصر التويلوري

AAE/ADM/ "Voyage de Sidi Aschasch, Pacha de Tétouan."

وفي ابتداء ذالك الميدان صفا واحدا من المصابيح ، وكلها بضوء اسبيريطوا[1] الذي يجري في القواديس . ومن عجيب أمره أنه لا ينطفئ ولو نفخت عليه بمنافخ الدنيا ، وييبس بفتيلة ولا شمعة إنما هو لسان من النار يخرج من جعبة ولها طرّاشة[2] ، إذا فتلتها انسد مجرى الجعبة فينطفئ السراج ، فإذا فتلتها بالعكس رجع كما كان ، وكل ضوء حوانيتهم وأسواقهم وسائر فناراتهم منه . ويتعاقد من يريده مع صاحبه الذي يرسله على قدر من الزمان معين كساعة أو ساعتين ، فإذا مضى ذالك الزمن انطفى السراج لأن مرسله يقطع له المادة وقتئذ ، وهو من حكمهم العجيبة .

رجع ، فإذا حضر أوان اللعب واجتمع الناس ، فتكون الستارة مرخية على ذالك الميدان ، فترتفع الستارة فتبدوا في ذالك الميدان صور عجيبة وأشكال غريبة ، فيصورون البلدان والأشجار والبراري والبحار والسماء والشمس والقمر والنجوم ، وكل ذالك رُقوم ونقوش في الكواغيط ، ولاكن لا يشك من رءاها أنها حقيقة . ويصورون ضوء اليل والنهار والفجر وضوء القمر تحت السحاب وغير ذالك . ولا بد أن يكون هناك جواري مزينات بأحسن الزينة وأجمل اللباس ، وعسكر وسلطان لابسي الدروع والبيضات وبيدهم الأسلحة من السيوف والرماح والمكاحل وغير ذالك . ويلعبون أربع أو خمس لعبات في الليلة ، وإذا انقضت اللعبة الأولى أرخوا الستارة المذكورة وغيروا التصوير الذي كان في المرة الأولى ، ويصورون تصويرا آخر يوافق اللعبة الثانية ، وهكذا في كل لعبة[3] .

ثم إن اللعبات عندهم محفوظة معلومة لا أنهم يخترعونها هنالك . واللعب الذي

---

(1) ظهرت مصابيح الإنارة المعتمدة على مادة الغاز في باريز لأول مرة في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت تسمى وقتئذ بيك دو كَاز (bec de gaz) . وتعني لفظة اسبيريطو في العامية المغربية نوعا من الكحول أو الوقود الذي يبدو ضوءه شبيها بضوء الغاز عند إيقاده .

(2) فعل طَرّشَ ، أي أغلق . وقد كتب دوزي أنها تعني اليوم في المغرب عكس ذلك ، أي فتح :*Dozy* 2: 35. ، والمقصود بالطراشة هنا ، المفتاح الذي يسمح بمرور الغاز إلى المصباح فيضيء ، أو يمنع مروره فينطفيء حسب الحاجة (المعرب) .

(3) اعتقد الصفار خطأ ، ونتيجة لجهله اللغة الفرنسية وبالتالي لموضوع المسرحية وحبكتها الروائية ، أن كل مشهد جديد من المشاهد المعروضة يشكل مسرحية قائمة الذات .

يريدون أن يلعبوا به يكتبونه في النهار في الكَوازيط ، ويذكرون أنهم يريدون أن يلعبوا في المحل الفلاني ، ويشهرون ذالك للناس ليقع الاعلام بذالك ومدار لعبهم على تناشد أشعارهم والتغني بلغاتهم خصوصا المتعاشقين ، فيجعلون واحدا عاشقا وأخرى معشوقته ويبرزان للميدان يتناشدان ويغنيان ، وتارة تكون المعشوقة راضية عن عاشقها مقبلة عليه وتارة تبغضه وتعرض عنه . وينشدان لكل حالة ما تقتضيه ، وهم الذين يفهمون كلام بعضهم بعضا . عندهم لذة تلك المحاورات والمناشدات أحسن من رؤية التصوير والأعاجيب ، لما تشتمل عليه محاورتهم من الرقائق والأدبيات والعلوم الغريبة والمسائل المشكلة ، والأجوبة المسكتة والنوادر المضحكة ونحو ذالك .

وإذا قصدوا في لعبهم حكاية حرب وقع مثلا ، فيصورون السلطان وجيشه وخيلهم وأسلحتهم على ما كانت عليه وقتئذ ، والبلد التي وقع الحرب عليها . وقد حضرناهم مرة يلعبون بحكاية حرب وقع بإشبيلية ، فصوروا إشبيلية وصومعتها وأبوابها ومشاهير أمكنتها ، بحيث قال من حضر من رءا إشبيلية هي هذه بعينها . وصوروا بل جعلوا حقيقة سلطانا وعساكره لابسين زي الوقت الذي كان فيه ذالك الحرب ، وزينوا الجواري بلباس ذالك الوقت أيضا ، وأخذوا في الحرب حتى دخلوها .

وإذا أرادوا أن يحكوا حال قسيسين مثلا إذا خلوا أخذوا في اللهو والشرب والطرب ، وإذا رأوا الناس أظهروا الخشوع والإعراض عن رؤية النساء ونحو ذالك ، فيصورون الكنيسة وسائر ما يكون فيها ، ويجعلون بعضا منهم قسيسين ويلبسون زيهم ويحضرون أواني الشراب إذا خلوا ، فإذا رأوا أحدا تركوا ذالك وأخفوه بسرعة وقاموا إلى الصلاة ، وإذا جاءتهم امرأة تتبرك بهم فلا يلتفتون إليها .

وإذا أرادوا أن يحكوا حال فرعون مع موسى عليه السلام ، فيصدرون البحر ويجعل يتماوج كأنه حقيقة ، وينفلق حتى ينجوا منه موسى وأصحابه وينطبق على فرعون وقومه . وقد رأيناهم مرة صوروا الجنة بقصور وأشجار وأنهار ومنظر حسن ، وصوروا ملائكة يطيرون في الهواء بأجنحة بيض . وذالك بأن عمدوا إلى جَوار صغار وجعلوا لهن أجنحة ، وربطوا كل واحدة بخيط رقيق لا يُبصَر إلا بعد التأمل ، يُمسكها من أعلاها وشخص يجريه من فوق بحيث لا يظهر ، وإنما تُرى كأنها تطير بجناحيها في الهواء . وصوروا أمواتا خرجوا من تحت الأرض ، وشخصا آخر ابتلعته الأرض حتى رِيء بعض ذالك في الجنة . ويصورون أيضا الطوفان وسفينة نوح .

وقد رأينا مرة موضعا عندهم يسمونه الدِّيُورَامَا(1) ، دخلناه نهارا فصعدنا في درج مظلمة حتى انتهينا إلى أعلاه ، وهو مظلم إلا أن فيه بعض الضوء من كُوَّة هنالك ، وهو على شكل التياترو . فأرخيت الستارة وجعلوا يجهزون المكان خلفها ، فلما رُفعت ظهرت كنيسة ذات قِبَب وسواري وخُصص كانت مضيئة بضوء النهار ، أعني بضوء مصور كأنه ضوء النهار ، ثم أخذ في النقصان كأنها عشية والشمس تئول للغروب ، حتى ذهب الضوء كله واستحكمت الظلمة ، فظهر نور خفي فجعل يكبر وينتشر حتى ظهرت ثريا كبيرة معلقة في وسطها تضيء ، وظهر معها في أرض الكنيسة ناس كثيرون يصلون ولم يكن لهم ظهور قبل ذالك مع أنه لم يتغير التصوير . وكان الناس صغارا في رأي العين فجعلوا يكبرون ويعظمون ، ثم أرخيت الستارة وغير التصوير . فلما ارتفعت ظهرت مدينة عظيمة ذات بناء محكم وبرج عال مستحكم ، ويخرج من خلالها نهر عليه قنطرة عظيمة وفيه سفينة صغيرة . وفي أعلا المدينة من جبل إلى جبل قنطرة أخرى كبيرة من قناطر الحديد ، وحول المدينة أشجار ونبات ، فجعل الثلج ينزل عليها ونحن نرى الثلج نازلا ، وهو أبيض مترادف قوي ونسمع وقعه على السقف فوقنا ، بحيث من لم يكن له علم أن ذالك لعب فلا يشك أنه الثلج حقيقة . فبقي ينزل حتى صار كل شيء أبيض ، وكادت أن تتغطى المدينة به ، ثم فتر وجعل يسيل من فوق السطوح ويجري في الطرق .

ثم أرخيت الستارة وغير التصوير ، ثم رُفعت فظهرت مدينة أخرى ذات بناء

---

(1) كانت الديوراما (Diorama) ، التي اخترعها الفرنسي لوي جاك ماندي داكير (Louis-Jacques-Mandé Daguerre) (1787-1851) ، من وسائل الفرجة التي استهوت الباريزيين في القرن التاسع عشر . وهي منظر بانورامي خلف الستار يحضر برسوم مصغرة لأشياء مختلفة ، ويمكن مشاهدته من خلال فتحة صغيرة وتكون درجة الإنارة قوية بالشكل الذي يجعل المشهد يبدو للناظرين إليه نابضا بالحيوية والواقعية .

Dolf Sternberger, *Panorama of the Nineteenth Century*, trans Joachim Neugroschel (New York, 1977), pp.188-189; *La Grande Encyclopédie Larousse*, ed., 1973; s.v. "Daguerre, Louis -Jacques- Mandé".

وكان الصفار قد شاهد فيها عرضا حول تغير الفصول ، بالإضافة إلى مشهد داخلي لكنيسة القديس مارك (St.Mark) في مدينة البندقية ، انظر جريدة الإلوستراسيون *L'illustration* ، 7 فبراير 1846 .

قديم ، فيها قلع وحصون ، والناس يظهرون ماشين في أزقتها ويظهر كأن السماء فوقها مغيمة ، فجعل الغيم يشتد والظلمة تنزل حتى أظلمت . وكانت الظلمة جائية من خلف المدينة ، فبمجرد وصولها لها صرصرت ريح عاتية ويسمع لها دوي وصفير ، وأخذ المطر ينزل كأفواه القِرَبِ ، وتكلم رعد عظيم له دوي من فوق ، ونحن نسمع وقع المطر على السقف كأنه حقيقة . ثم ظهر نور في الأفق خلف المدينة كأنه الفجر قد طلع ، حتى انجلى الضوء ، فجعل المطر ينزل ويظهر كأنه مار بين الجبال له خراطيم عظيمة ، وكأنه يجيء إلى المدينة بحر من خلفها مما انحدر من الجبال وسال من الأودية من مياه المطر حتى كأنه يريد أن يغرق المدينة . ثم أرخيت الستارة وانتهى ، وكان هذا كله في نحو ربع ساعة ، وكانوا يصورون بذالك الطوفان لاكن لم يكملوه .

وتارة يكون لعبهم المذكور برقص تلك الجواري ، فيمسكن بأيدي بعضهن بعضا ويأخذن في رقص عجيب وتليين أعضائهن وتثنية معاطفهن ، حتى يكاد أن يلتقي فمها بعقبها من خلف ، ويقفزن على رجل واحدة ويدخلن في بعضهن بعضا حتى كأنهن لسن آدميات . وتارة يمسك واحد من الرجال واحدة من تلك الجواري ويتراقصان .

وهذه التياترو ليست مجمعا للحرافيش والأوباش ، بل يحضرها أكابرهم وأهل المروءة منهم ، ويحضرها الرجل وزوجته وبناته ، والرجل وأصحابه . ويجعلها السلطان في داره ، وله في داره محل مُعَد لها ، فيدعوا اللعابين والمتفرجين ، ويجلس هو وأولاده ونساؤه ونساء أولاده وجميع وزرائه وخواصه ، وأهل اللعب يلعبون بالرقص والتعاشق وغير ذالك ، وهم ينظرون وينشطون بذالك . ويزعمون أن في ذالك تأديبا للنفوس وتهذيبا للأخلاق وراحة للقلب والبدن ، ليعود إلى شغله بنشاط وقريحة .

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشيء من المزح

وسئل الشعبي هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي[1] . وكان نُعيمان الصحابي من أولع

(1) مأخوذ عن كتاب ابن حجر العسقلاني (المتوفى في 1449/852) ، **الإصابة في تمييز الصحابة** (كلكوتة ، 1856–1893) ، 3 : 569–570 . وأيضا *EI* 2, s.v. "Ibn Hadjar al-'Askalani". وأقدم هنا شكري الجزيل للأستاذ المهداوي المدغاني الذي أرشدني إلى هذا المصدر . أما عن الشعبي ، فهو عمر بن شرحبيل الشعبي من مشاهير علماء القرن الثامن الميلادي .

الناس بالمزاح وكان بدريا ، قيل أنه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم أنه يكثر المزاح والضحك ، فقال : يدخل الجنة وهو يضحك . فمن مزح نُعيمان ما رُوي أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جرة عسل اشتراها من أعرابي بدينار ، فجاء بالأعرابي إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : خذ الثمن من هاهنا . فلما علم صلى الله عليه وسلم بذالك ، قال لنعيمان ما حملك على ما صنعت؟ فقال أردت بِرّكَ ولم يكن معي شيء ، فتبسم وأعطى الأعرابي ثمنه .

ومر يوما بمخرمة ابن نوفل الزهري وهو ضرير فقال له : قدني حتى أبول . فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه في آخر المسجد ، فصاح به الناس إنك في المسجد ، فقال : من قادني . فقالوا : نعيمان . قال : لله علي أن أضربه بعصاي هذه إن وجدته . فبلغ ذالك نعيمانا فجاء إليه وقال : يا أبا المسور هل لك في نعيمان؟ قال : نعم . قال : هو ذا يصلي ، فأخذ بيده وجاء إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو يصلي ، وقال : هذا نعيمان . فعلاه بعصاه ، فصاح الناس : أمير المؤمنين . فقال : من قادني . فقالوا : نعيمان . قال والله لا تعرضت له بسوء بعدها .

وقال عطاء بن السائب رضي الله عنه : كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا ، وربما لم يقم حتى أنه يضحكهم ويبسط آمالهم . فمن لطائفه ما حُكي أنه بعد ما فرغ من ميعاده ، قال سمعت الناس يتكلمون بالتصحيف وكنت لا أعرفه ، فوقع في قلبي أن أتعلمه ، فدخلت سوق الكاتبين واشتريت كتابا في التصحيف . فأول شيء رأيت في التصحيف سكباج تصحيفه نيك تاج[1] ، فحلفت لا أشتغل به بعدها ، فضحك الناس من قوله حتى غشي عليهم .

الكوازيط

ولأهل باريز كغيرهم من سائر الفرنسيس بل وسائر الروم ، تشوف لما يتجدد من

(1) سكباج هو صنف من الطعام على شكل حساء . أما نيك تاج فهي مركبة من كلمة «نيك» التي تعني في اللغة جامع أو ضاجع ، انظر : **القاموس المحيط** ، ج 3 ، ص 332. (بيروت ، دون تاريخ) . أما تاج فهو اسم لامرأة . ومن ثم فإن نيك تاج تعني مضاجعة تاج . وباستثناء العلامات الصوتية المميزة ، فإن شكل كتابة الكلمتين المذكورتين يكاد يبدو متطابقا (المعرب) .

الأخبار ويحدث من الوقائع في سائر الأقطار، فاتخذوا لذالك الكَوازيط[1]، وهي ورقات يُكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع في بلدهم أو غيرها من البلدان النائية أو القريبة.

وبيان كيفيتها أن صاحب دار الكَازيطة، يتخذ أقواما يرسلهم لالتقاط الأخبار من كل ما يسمعونه أو يرونه في ذالك اليوم من المهمات والحوادث والوقائع والنوادر، وغير ذالك مما يحسن الإخبار به. ومن جملة محال التقاطهم للأخبار، القمرتان الكبيرة والصغيرة اللتان يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم[2]. فإذا اجتمع أهل القمرة وأخذوا في الخوض في نوازلهم ووقائعهم، جلس أصحاب الكَوازيط في ناحية يكتبون كل ما تُكلم به فيها. فكل ما وقع الكلام عليه فيها وانبرم من الأحكام يصبح غدا في الكَوازيط، ويُشهر لسائر الناس، وليس يقدر أحد أن يمنعهم من ذالك، إلا إن كان كلامهم في أمر سري يجب كتمه عن سائر الناس فيمنعونهم.

ولأصحاب الكَوازيط مراسلات ومكاتبات مع سائر البلاد، ولهم في كل بلد من يعرفهم بأخبارها وما وقع فيها أو بلغها من جهة أخرى، فلذالك تجد أهل الكَوازيط يعرفون غرائب الأخبار قبل الناس. وهاؤلاء الملتقطون يظلون يومهم في التقاط الأخبار، فإذا أمسوا أتى كل واحد منهم بما جمعه في ذالك اليوم، فيطبعه صاحب الكَازيطة، ويجعل منه عدة ورقات بطبع الاسطنبا، وسيأتي بيانها. فإذا أصبح فرقها على من يأخذها منه، يبعث لكل واحد من مرتبيه ورقة. ومعنى هذا أن سائر أكابر

---

(1) ذكر الغساني الكَزيطة وقدم لها وصفا في رحلته التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر فقال: «ويسمونها الكاسيطة، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة، إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية»، **افتكاك**، ص .67. وقد اعتمد الصفار في وصفه للكَوازيط اعتمادا كبيرا على ما أورده رفاعة الطهطاوي في كتابه **تخليص**، ص .104، 171، بالإضافة إلى: .201- 200 ,*L'or*, p. 138. ولم تظهر الصحف بطريقة منتظمة في المغرب إلا مع حلول ثمانينيات القرن التاسع عشر في مدينة طنجة. وفي زمن محمد الصفار، كان الرقاص هو الوسيلة الوحيدة المستعملة لنقل الأخبار الرسمية على شكل رسائل يوجهها السلطان إلى عماله على الأقاليم .Aubin *Morocco*, pp.68, 324، انظر أيضا ابن زيدان، العز I، ص .407.

(2) ويعني بالقمرتين كلا من: (Chambre des pairs) و (Chambre des députés)، وسيأتي الحديث عنهما بالتفصيل في حينه.

الفرنسيس ، خصوصا في باريز ، يتفقون مع صاحب الكَازيطة على أن يرسل لهم كل يوم كَازيطة جديدة ، ويدفعون له عددا معلوما كل عام ، أعني ثمنها . وكذالك سائر القهاوي كل يوم ترسل لهم كَوازيط متعددة من عند أناس شتى . فإذا دخلها الداخل ، فأول ما يناوله الخادم الكَازيطة ليطلع على ما تجدد من الأخبار ، ثم يأتيه بالقهوة ويتحافظون عليها ويرفعونها . فمن أراد علم ما وقع في غابر السنين ، فيفتش على كَازيطة ذالك الوقت في القهاوي أو غيرها ، فيجد فيها ذالك .

ومن جملة ما هو مرقوم صدر الكَازيطة ، أن ثمنها كذا في العام . وكنا مدة إقامتنا بباريز ، كل يوم تأتي لصاحب الدار التي كنا فيها كَازيطة جديدة من أصح كَوازيطهم أخبارًا ، مكتوب في أولها أن ثمنها ستة عشر ريالا في العام . ويتعاقد صاحبها مع من شاء أن يبعثها له على ما شاء من الزمن قليله وكثيره ، إلا ما نقص عن شهر ، فلا يبيعها له مدة عشرين يوما مثلا . وكان يقال أن صاحب هذه الكَازيطة المذكورة يطبع كل يوم نحو خمسة عشر ألف كَازيطة[1] ، وكل واحدة في ورقة طولها وعرضها نحو ذراعين مكتوبة من جهتين . تجد فيها أخبار باريز وسائر بلاد الفرنسيس ، وأخبار بلاد النصارى كلها وبلاد المشرق والمغرب والبر والبحر . ويسافر منها الأعداد لسائر البلدان ، فكلما دخلت بلدا من بلدان فرنسا ، تجد فيها كَازيطة باريز كما أنك تجد بباريز كَوازيط الآفاق .

فبسبب ذالك لا يخفى عليهم خبر ، سواء كان داخليا أو خارجيا . وليس ما فيها كله صحيح ، بل ربما كان الكذب فيها أكثر من الصدق ، ولاكنها تتضمن أخبارا تتشوف النفس للعلم بها . ولها عندهم فوائد ، منها الاطلاع على ما تجدد من الحوادث والأخبار . ومنها أن من ظهر له رأي في أمر من الأمور ولم يكن من أهله ، فإنه يكتبه في الكَازيطة ويُشهر لسائر الناس حتى يطلع عليه ذوُوا رأيهم ، فإن كان سدادا اتبعوه وإن كان صاحبه حقيرا ، وهذا مما يستحسن كما قال الشاعر :

---

(1) يمكن اعتبار رقم 15,000 نسخة الذي أتى به الصفار هنا رقما صحيحا في حالة الكَازيطة التي كانت تصل إلى محل إقامة البعثة المغربية ؛ غير أن الصحيفتين اليوميتين الباريزيتين الأكثر شعبية خلال اربعينيات القرن التاسع عشر في فرنسا هما : لابريس *La Presse* ولوسييكل *Le Siècle* ، وكانتا تعرفان معا رواجا يتجاوز 50,000 نسخة .. Pinkeny, *Decisve years*, p.60.

لا تحـــقـــرن الرأي وهو مــــوافق
وجـــه الصـــواب إذا أتى من ناقص
فـــالدار وهو أجل شيء يقـــتـنـى
مـا حط قـيـمـتـه هوان الغـائص[1] .

ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم لويز الثامن عشر، والتزموا اتباعها، أنه لا يمنع إنسان في فرانسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه، بشرط أن لا يضر ما في القوانين، فإن أضر أزيل. وكان من جملة ما نقموا على ملكهم شَرْلْ العاشر الذي كان قبل هذا الملك الموجود الآن. وكان السبب في قيامهم عليه وخلعهم طاعته، أنه أظهر النهي عن أن يظهر أحد رأيه أو يكتبه ويطبعه في الكَازيطات، إلا إذا اطلع عليه أحد من أهل الدولة، فلا يظهر منها إلا ما أراد إظهاره[2] .

ويكتبون في الكَوازيط اعتراضات على أهل القمرتين فيما أبدوه من القوانين. وإن جار سلطانهم فضلا عن كبير من كبرائهم، أو خرج عن القانون في أمر ما، يكتبونه في الكَازيطة ويقولون إنه ظالم وليس على الحق، ولا يقدر أن يقابل من قال ذالك أو فعله بسوء. ومنها أن من فعل فعلا عظيما يُمدح به أو يُذم، فإنه يكتب في الكَوازيط ليكون معلوما للخاص والعام. فإن كان حسنا مدحوه به لينشط ويرغب في مثله، وإن كان قبيحا ذموه عليه ليرتدع عن مثله. ومنها أن من كان مظلوما من أحد بمظلمة، كتبها في هذه الورقات ليطلع عليها كل الناس، فتعرف قصة المظلوم والظالم من غير زيادة ولا نقص، حتى تصل لمحل الحكم ويُنظر فيها بما تقتضيه شرائعهم. ومنها أن من أراد إشهار سلعته مثلا، فيكتبها في الكَازيطة ويمدحها ويذكر محله وثمنها رغبة في النفاد، أو أراد أن يبيع دارا أو عقارا، أشهر ذالك في الكَوازيط ليعلمه الناس. وبالجملة، فالكَوازيط عندهم من أهم المهمات، حتى أن أحدهم قد يصبر على الأكل والشرب ولا يصبر على النظر في الكَازيطة.

---

(1) تخليص، ص .104 ؛ L'or, p. 138

(2) استقى الصفار معلوماته من رفاعة الطهطاوي الذي كان حاضراً في الديار الفرنسية عند بداية اندلاع ثورة 1830، فخصص لها حيزا كبيرا من كتابه، انظر:

تخليص، ص .201-224 ، *L'or*, pp. 237-263

ولأهل باريز حرص تام على التكسب رجالهم ونسائهم لا يتقاعدون ولا يكاسلون ، والنساء مثل الرجال في ذالك أو أكثر[1] . ولا تجد أحدا منهم خاليا عن شغل ، وإن كان عندهم من أنواع البطالات والفرجات العجب العجاب . لاكن ذالك لا يلهيهم عن أشغالهم ، فيعطون لكل وقت ما يستحقه . وتلك الفرجات تعينهم على أشغالهم لما فيه من استراحة النفس ليعودوا لها بنشاط . ولا يرضى أحد منهم أن يكون فقيرا ، فإن الموت عندهم أهون من الفقر ، وصاحبه حقير دليل كما قيل :

ذريني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليه
وإن كانا له نسب وخير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنا وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير[2]

وقد قيل : الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس ، وهو مع ذالك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء ، ومتى نزل بالرجل الفقر لم يجد بدا من ترك الحياء . وقد قيل : من حفظ دينه حفظ الأكرمين ، عرضه ودينه . وقال الشاعر :

لا تلمني إذا اقتنيت الأواقي
فالأواقي لماء وجهي أواقي

وقال لقمان[3] لابنه : «يابني أكلت الحنظل ودقت الصبر ، فلم أر شيئا أمر من

(1) انظر الفصل الحادي عشر الذي خصصه الطهطاوي من رحلته لهذا الجانب تحت عنوان «في كسب مدينة باريس ومهارتها» ، تخليص ، ص .149-153 ؛ *L'or*, pp. 173-175

(2) قارن بين هذه الأبيات وما نظمه شاعر تازة ابن شجاع ، وقد أوردها ابن خلدون في المقدمة ، انظر : *Muqaddimah* 3: 469.

(3) من الأسماء المعروفة قبل الإسلام ، وقد اشتهر لقمان بحكمه البليغة المنتشرة في الأوساط العربية والإسلامية ، *SEI*, s.v. "Lukman"

الفقر ، فإذا افتقرت فلا تحدث به الناس كي لا ينتقصونك ، ولاكن سل الله» . وكان بعض الناس يقول : «صاحب المال عند الناس أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأذكى من الورد . خطأه صواب وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول يرفع مجلسه ولا يمل حديثه . والمفلس عندهم أكذب من لمعان السراب وأثقل من الرصاص ، لا يسلم عليه إذا قدم ولا يسئل عنه إذا غاب ، مصافحته تنقض الوضوء وقراءته تقطع الصلاة» .

وقال بعضهم : «نظرت إلى ما يذل العزيز ويكسره ، فلم أر شيئا أذل له ولا أكسر من الفاقة» . وقال الشاعر :

وكل مقل حين يبدوا لحاجة
إلى كل من يلقا من الناس مذنبا
وكان بنوا عمي يقولون مرحبا
فلما رأوني معدما مات مرحبا

وقال آخر :

جروح الليالي ما لهن طبيب
وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء في حال فقره
تحمقه الأقوام وهو لبيب

وقال آخر :

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى
سنيا وإن الفقر بالمرء قد يزدر
وما رفع النفس الدنية كالغنى
ولا وضع النفس الشريفة كالفقر

وقال بعض الحكماء : «الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شؤم ، وكلب طائف خير من أسد نائم» . وقيل : «من العجز والتواني تنتج الفاقة» .

قال الشاعر :

فـإن التـواني أنكح العـجـز بنتـه
وساق إليـهـا حين زوجـهـا مـهـرا
فـراشـا وطيـا ثم قـال لهـا اتكي
فـإنكمـا لابد أن تلدا الفـقـرا

وأغلب تكسب هاؤلاء القوم التجارات والصنائع . ولهم من التجارات أمور خارجة عن البيع والشراء . منها ما يسمى بالبنكة : وهي أن يودع الرجل قدرا من المال عند من هو متصد لذالك ، ويدفع له المودع عنده ربحه في كل سنة قدرًا معلوما عندهم ، فإذا أراد رب المال أخذ رأس ماله أخذه . وهي على ضربين : بنكة الدولة وبنكة التجار . وفائدة بنكة التجار أكثر من فائدة بنكة السلطان ، لاكن بنكة السلطان أوثق وءامن ، لأن الدولة دائما موجودة لا تفلس ، بخلاف التجار فقد يفلسون[1] .

ومنها جمعية تسمى بما معناه الشركاء في الضمانة ، وهي المعروفة بالسُّكُوروا[2] . وذالك بأن تلتزم لمن يدفع لها قدرا معينا من المال كل سنة ، أنه إذا تلف له بيته أو حانوته أو ما فيهما بحادثة قهرية كالحرق والهدم ونحو ذالك ، أو غرق له مركب في

---

(1) حين يتحدث الصفار عن بنكة الدولة أو بنكة السلطان ، فهو يقصد بذلك «بنك فرنسا المركزي» ، أي (Banque de France) . وانطلاقا مما هو ساري المفعول في المغرب ، فإن الصفار لم يفرق بين الثروة الخاصة لملوك فرنسا وخزينة الدولة . وعلى الرغم من أن مؤسسة «بنك فرنسا» قد أوكلت إليها الحكومة الفرنسية مسؤولية السهر على الشؤون المالية ، فقد كانت ملكيتها خاصة ولم تكن تخضع إلا لمراقبة حكومية طفيفة . انظر : Pinkeny, *Decisive Years*, p.17 ؛ وعن مصطلح «دولة» «dawla» ، انظر :

H. A. R. Gib, "The Evolution of Government in Early Islam", in *Studies on the civilization of Islam*, ed. S. Shaw and W. Polk (Boston, 1962), p.46 note 1.

أما عن أفكار الطهطاوي التي تأثر بها الصفار في هذا الصدد ، فانظر :

تخليص ، ص. 149 ، *L'or*, pp.174-173

(2) المقصود منها شركات التأمين ، وقد استفاد الصفار في هذا الجانب من كتابات الطهطاوي . تخليص ، ص. 149–150 ؛ L'or, p. 174

البحر أو أصابته جائحة ، فإنها تغرم له كل ما ضاع له ، وتعيد له داره أو حانوته كما كانت . ومنها جمعية تسمى الكنبية[1] : وهي أن الجماعة من التجار أو غيرهم ، يجتمعون ويخرج كل واحد ما استطاع من المال ، ويشتركون في استخراج المعادن وتصويب الطرق وبناء القناطر وعمل القوارب والفلائك في الأنهار والأودية . على أن يقيموا كل ذالك بما يحتاج إليه ، وما حصل فيه من المستفاد يقتسمونه على حسب رءوس أموالهم ، ويدفعون لبيت المال شيئا معلوما ليمكنهم من ذالك . لأن كل هذه الأمور كلها لبيت المال ، بعد أن يحدّ لهم في ذالك حدا معلوما . ومن قوانينهم ، أن الإنسان لا يشرع في التجارة إذا أرادها ، إلا إذا دفع لبيت المال قدرا معلوما ، ويعطونه نيشانا[2] علامة على الإذن له في ذالك .

وعلم التجارة عندهم من جملة العلوم التي تُدَرّس وتُدَوّن ولها مكاتب ومدارس ، وللنساء مهارة في التجارة كالرجال أو أكثر ، فغالب من يعمر الحوانيت النساء . ومن حرصهم على التكسب ، أنك لا تجد عندهم فقيرا قادرا على الشغل يسئل الناس ويمنعونه من ذالك ، ويرون أن إعطاء القادر على الشغل فيه إعانة على الكسل وعدم التكسب .

وأهل باريز موصوفون بذكاء العقل وحدّةِ الذهن ودقة النظر[3] ، ولا يقنعون في

---

(1) يريد أن يقول كبانية ، ويقابلها في الفرنسية (compagnie) . وكل المعلومات التي ساقها الصفار للحديث عن شركة الخاصة ، مستمدة من رفاعة الطهطاوي . أما عن الدور الذي قامت به شركات الخاصة في تصنيع فرنسا ، فيمكن الرجوع إلى كتاب : Pinkney, *Decisive Years*, pp.36-39.

(2) النيشان ، هي الرسائل التي كان يحررها الكتاب العاملون في بلاط الإمبراطورية العثمانية ، فيضع السلطان خاتمه عليها بعد موافقته على مضمونها . انظر التامكروتي ، *En-nafhat*, p.62 (المعرب) : واستعمل المغاربة هذه الكلمة في القرن التاسع عشر للحديث عن الأوسمة التشريفية المعروفة في الفرنسية بالميداليات هكذا : (médailles) والكلمة أصلها من الفارسية وتعني العلامة ، وقد دخلت التركية وتطلق على العلامة التي تنصب بقصد التدريب على الرماية . كما تطلق الكلمة على الشارة والشعار . وما يقصده الصفار هنا بالنيشان هو الرخصة المعروفة في الفرنسية بليسانس هكذا : (licence) . انظر أحمد سليمان ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل (القاهرة ، 1979) ، ص 190 .

(3) اعتمد الصفار في هذه النقطة على الفصل الثاني الذي وضع له الطهطاوي العنوان التالي : «في الكلام على أهل باريس وصفاتهم» ، تخليص ، ص 75-91 ؛ . L'or, pp.118-131

معرفة الأشياء بالتقليد ، بل يبحثون عن أصل الشيء ويستدلون عليه ويقبلون فيه ويردّون . ومن اعتنائهم بذالك ، أنهم كلهم يعرفون القراءة والكتابة ، ويدونون في الكتب كل شيء . حتى الصنائع فلابد أن يكون الصانع يعرف الكتابة والقراءة ليتقن صنعته ، ويجب أن يبتدع في صنعته شيئا لم يسبق به . ولأنه إن فعل زادت مرتبته وعلت حظوته عند دولتهم ، ويعطونه على ذالك ويمدحونه ويذكرونه بما استنبط ، ترغيبا منهم في الترقي في الأمور . فيكون كل شيء دائما في الزيادة ، فذالك يحملهم على تدقيق النظر وإمعان التأمل ، واستكشاف دقائق الخفيات في سائر تصرفاتهم . ولهم مدارس ومكاتب ، حتى في علوم الطبخ والغرس والبناء والزراعة ومعالجة النباتات وإنتاج الحيوانات وغير ذالك . فكل ما يسمعونه أو يرونه أو يستنبطونه أو يبلغ إليهم علمه ، يدونونه في الدواوين ويحفظونه على مر الأيام .

ومن طبعهم الخفة والطيش ، فتجدهم إذا اجتمعوا في موضع لا يقر لهم قرار ، ولا تراهم إلا بعضهم يموج في بعض . ولا يجلسون إلا في حالة الأكل ، وبعد الفراغ منه يقومون . والجلوس عندهم عيب ولا يجلس إلا النساء ، ولو أدى إلى وقوفه طول الليل إن كان اجتماعهم لفرجة أو رقص . وإذا أراد أحدهم الجلوس والاستراحة ، فيذهب لبيت آخر خاليا من الناس ، إلا إن قصد مثل قصده . وما رأينا رجالهم يجلسون في ليالي الفرجة إلا في التياتروا حين اللعب ، فإذا قضيت اللعبة قاموا . وتجدهم في أزقتهم وطرقهم ومحال تماشيهم إذا لم يكن لم شغل ، كل واحد يأخذ بيد صاحبه أو صاحبته ويجعلون يتماشون ذاهبين راجعين جادين في المشي كأنهم يريدون حاجة ، وما مقصودهم إلا الحديث والاستراحة . وربما فعل ذالك الواحد وحده ، ويقولون إن في ذالك عونا لهم على التفكر واستخراج خبايا العقل واستنباط الأمور والتدبيرات ، وقد جرب ذالك فصحّ .

ومن طبعهم أنهم يحبون من كان خفيف الحركة طلق الوجه مبدي البشاشة ، كثير الكلام بالمباسطة أو السؤال عما يبغى السؤال عنه ، أو البحث في العلوم أو نحو ذالك من الأخبار بالمغربات ، والتحدث عن أحوال البلدان وعوائد أهلها . ويميلون كل الميل إلى من هذه صفته وتحصل لهم به ألفة ، وإن لم تسبق بينهم وبينه معرفة ، وإن كان كلامهم معه بواسطة ترجمان مثلا ، ويستثقلون من يكون بضد ذالك ، وتنفر منه طباعهم ويبعدون منه .

ومن طبعهم الحدة والشرارة والأنفة ، فتراهم يتداعون للبراز على أدنى كلمة

يلقيها أحدهم للآخر من سب أو قذف مثلا . ولا يسع المدعو له إلا أن يجيب ، وإلا بقي يعاير بالجبن والذلة طول عمره . ويتشارطون في البراز كيف يكون ، وبأي سلاح يقاتلون وكيفية المحاربة ومحلها ، وغير ذالك من الأمور المتعلقة بذالك ، ولا يتعرض لهم في ذالك حاكم ولا غيره . ولهم حظ وافر في الأدب الدنيوي والظرافة والرقة والحضارة ، ويراعون الأدب في مخاطبتهم وكلامهم ، فلا تكاد تسمع منهم السَاقِطَ في الكلام ، ولا يتعرضون للغريب من دينهم أو من المسلمين بسوء . ولا ينادي عليه صبيانهم ولا يوذونهم كما يُسمع على غيرهم من بعض أجناس النصارى ، وذالك من جملة ما يتعلمونه ويقرءونه ويدونونه في الكتب ، لتكون لهم بذالك المزية على غيرهم . وقد اختصوا من بين أجناس سائر النصارى بالأدب والحضارة والمروءة الدنيوية ، حتى أن كبراء الأجناس يرسلون أولادهم لباريز لتعلم آداب الفرنسيس وتربيتهم ، واختصت باريز بذالك لأنها دار ملكهم وأحضر بلادهم .

ومن أوصافهم أنهم أصحاب جد في بيعهم وشرائهم وسائر معاملاتهم وتصرفاتهم ، فلا تجد فيهم غشا كما هو في اليهود ، ولا ترى فيهم خروجا عن الطريق ، وليسوا فجارا إلا في دينهم . ولهم اعتناء تام بالنظافة الظاهرة في بيوتهم وأزقتهم وحوانيتهم وأبدانهم وملابسهم ، فلا ترى على أحد منهم ثوبا وسخا ولا ملطخا بقذر ، ولا يكون في الغالب إلا جديدا . وفي حاراتهم وأسواقهم أقوام جالسون على كراسيهم ، وبيدهم أمشاط من الشعر يمشطون بها الملف والنعال . فمن رءا في ثوبه تغييرا أو في نعله غبار ونحوه ، وقف عند واحد منهم فيمشط له ثوبه ويمسح نعله حتى يرجع له لمعان كأنه جديد ، ويعطيه أجرته على ذالك .

ولا يغفلون يوما واحدا على نفض فرشهم التي ينامون عليها ، وبعد يومين أو ثلاثة يبدلون بطانتها وظهارتها بأخرى نظيفة . وكذالك الفوط التي تجعل على حجر الآكلين ، لا تكون دائما إلا نظيفة . وإذا أصابها شيء من الإدام أو الطعام أو مُسِح بها اليد ، لا يأتيك بها مرة أخرى حتى تغسل وتنظف . ولا ترى في طرقهم من الكناسة والزبل أصلا ، وكل يوم تكنس وترش بالماء إن لم يكن المطر . إلا أن أعيب ما يعاب فيها أنهم يبولون في أصول الحيطان ، والماء المضاف بالبول يجري على وجه الأرض ، لاكن يشفع في ذالك سعة الطريق حتى يبقى ذالك في ناحية لا يضر بالماشين . ولا ترى أبواب حوانيتهم ودورهم وشبابيك طيقانهم وفناراتهم التي توقد في الأسواق والحوانيت إلا ممسوحة نظيفة تشرق وتلمع كأنها اليوم وُضِعت .

ولنسائها نصيب من الجمال والبياض وخصب البدن . وسواد العين والحاجبين معدوم عندهم ، والنادر لا حكم له . فلذالك يزين نساءهم لبس السواد ويواتيهن أكثر من غيره من الألوان ، ويحسن أن ينشد هنا في ذالك :

رأيتك في السواد فقلت بدر
بدا في ظلمة اليل البهيم
وألقيت السواد فقلت شمس
محت بشعاعها ضوء النجوم

ومما يحكى أنه قدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر العراق ، فباع الجميع إلا السود ، فرفع قضيته تلك إلى الدارمي[1] . وكان الدارمي قد نسك وتعبد فعمل بيتين ، فأمر من يغني بهما في المدينة ، وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود
ماذا أردت بزاهد متعبد
قد كان شمر للصلوة إزاره
حتى قعدت له بباب المسجد

فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي قد رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم تبق بالمدينة مليحة إلا اشترت لها خمارا أسود . فلما أنفذ التاجر ما كان معه من الخمر السود ، رجع الدارمي إلى تعبده ، وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها .

وليس عندهم الغزل والتشبيب والتعشق إلا في النساء ، ولا يميلون إلى الغلمان والأحداث ، وذالك عندهم عيب كبير ، وفيه العقوبة ولو كان برضاهما . بخلاف عشق النساء والخلوة بهن ، فإن ذالك إذا كان عن رضى منها لا يتعرض لهما متعرض ، ولا يلزم فيه شيء عندهم . لاكن فاعلوه عندهم ساقط المروءة ناقص العرض ، وخصوصا الفاعلة ، فإنه لا يُبالى بها ، ويستنكف أهل المروءة من الكلام معها والسلام عليها ولو لغير ذالك القصد ، وإن كان ذالك مباحا إذا كان برضى الجميع .

---

(1) ومعناها هنا للرجل الزاهد أو الناسك المتعبد (المعرب) .

وأما العفيفات منهن ، فإن من دخل بيت زوجها وهي هنالك ، فإنه لا يعد من الظرفاء والأدباء إلا إذا أبدأها بالتحية وخاطبها خطاب مباشة وملاطفة في عفة . وبذالك ينشط زوجها ويزداد عنده فاعل ذالك رفعة ومحبة ، وبعدها يحيي الزوج وغيره من الرجال ، فمن أراد قضاء حاجته مع الرجل فليقصد المرأة . هذا ما استقرت عليه عادتهم ، وبالله التوفيق .

الفصل الرابع
فصل في عوائدهم في المآكل

فصل في عوائدهم في المآكل وبيان أنواع مئاكلهم[1] .

اعلم أن من عادة هاؤلاء القوم أنهم لا يعرفون اقتعاد بسيطة الأرض ، ولا يجلسون إلا على الشوالي[2] ، ولم نر مدة إقامتنا ببلادهم أحدا منهم جالسا على الأرض مباشرة .

ومن عادتهم أنهم لا يباشرون الطعام باليد ، ولا يجتمعون على ماعون واحد[3] . فإذا حضر وقت الأكل أتى الخدمة بطبلة من الخشب ، إن كان القوم قليلين فصغيرة ، وإلا فكبيرة ، وينصبون لها أرجلا من الخشب تنزل عليها . وتلك الأرجل تنجبذ من بعضها بعضا وتتداخل ، فإن جبذوها من بعضها بعضا فتكبر الطبلة ويزاد في وسطها

---

(1) يلاحظ أن المعلومات التي أوردها الصفار حول فنون الطبخ وعادات الأكل عند الفرنسيين ، أشد طولا وتفصيلا مما في القسم الذي خصصه الطهطاوي للموضوع نفسه . انظر : **تخليص** ، ص .113-115 ؛ وأيضا ، *L'or*, pp. . 148-50

(2) مفردها شلية من الإسبانية سيليا (silla) ، انظر : *Dozy* 1: 783 .

(3) وصف جاكسن طريقة الأكل عند المغاربة على الشكل التالي : «يقوم المغاربة [. . .] بغسل أياديهم قبل تناولهم الطعام الذي [. . .] يأكلونه بأصابعهم : حيث يجلس ستة أفراد حول قصعة كبيرة [. . .] فيضع كل منهم يده فيها ليحمل لقمة من الطعام ويرسلها نحو فمه بخفة بديعة دون أن تلمس الأصابع الشفتين [. . .] ولا تجد في ديارهم كراسي أو طاولات ، بل يجلسون مربعين أرجلهم على الزرابي أو الحصائر ، ثم يتناولون الطعام من القصعة أو الآنية الموضوعة على الأرض . انظر : Jackson, *Account*, p.139

ألواح حتى تكون على قدر الأرجل ، وإلا فتكون صغيرة بتداخل الأرجل والاكتفاء بالطبلة الأصلية من غير زيادة . فهي تقبل التصغير والتكبير بحسب الآكلين ، فتكون بحيث يجلس عليها أربعة مثلا ، ثم تصير بحيث يجلس عليها عشرة وأكثر . ثم يفرشون عليها ثوبا أبيض في غاية النظافة يسترها كلها ، ثم ينزلون لكل واحد ماعونا صغيرا فارغا فيه فوطة بيضاء مطوية ليجعلها على حجره ، ومعه قطعة من الخبز وملعقة من الفضة وسكين صغيرة وشوكة صغيرة بثلاثة أسنان ، وذالك من الفضة في الغالب .

ثم يصففون على الطبلة أواني الفواكه والحلاوات ، وربما زادوا مع ذالك صفا آخر من محابق النوار ، ويجعلون لكل واحد زجاجة من الماء معها كأسها ليصب فيه من الزجاجة ويشرب . فأما الزجاجة فقد يشركون اثنين في واحدة ، وأما الكأس فلا يكون إلا كل واحد بكأسه ، ولا يشرب أحد فيما شرب فيه آخر في ذالك المحل . ويرون أن ذالك أبلغ في النظافة ، وإن كان الجالس من قومهم زادوه زجاجة خمر معها كأسها . ثم يصففون أيضا لكل اثنين أو ثلاثة إناء من زجاجتين صغيرتين ملتصقتين ، في إحداهما ملح وفي الآخر الفلفل الذي نسميه الابزار مسحوقا ، وفيه ملعقة لطيفة جدا يؤخذ بها منه لأنهم لا يطبخون أطعمتهم بالملح ، وعند الأكل كل واحد يملح على قدر شهوته .

ثم يأتون بطاس من نحاس مموه مثقوب الجوانب إما مستدير وإما مستطيل ، عليه مغصة مبسوطة ، وفي قعر الطاس قطعة من شمع فيوقدونها ويجعلون ذالك الغطاء فوقها وينزلون عليها مواعين الطعام ليبقى سخنا ، فيجعلون واحدا في هذا الجانب وءاخر في الجانب الآخر . ثم يصففون الشوالي مع جوانب الطبلة . على عدد الجالسين ، ويبقى الخدمة يهيئون في هذه الطبلة نحو ساعتين ، وينزلون خارج الطبلة عددا كثيرا من الطباسيل[1] وما يتبعها من المعاليق والسكاكين والمشاوي .

فإذا وصل الوقت ، فيأتي الآكلون ويجلسون على شواليهم ، والخدمة واقفون على رءوسهم ، فينزلون لكل واحد طويسة من الزجاج فيها ماء يغسل به يده ، وفويطة أخرى يمسح بها يده . ثم يجعل الفويطة الأولى على حجره ، ويجعل الملعقة وما معها

---

(1) مفردها طبسيل ، وهو الإناء المخصص للأكل : بالفرنسية بلاطو هكذا (plateau) . انظر : *Dozy* 2: 20 (المعرب) .

عن يمينه . فيأتون أولا بالمرقة المعروفة عندنا بالشربة ، وهم يتفننون فيها ، تارة ، يركبونها من النباتات مع مرق اللحم ، وتارة من الدقيق مع نحو فداوش ، فيشربها بتلك الملعقة . فإذا فرغ رفع الخادم الطبسيل الذي كانت فيه والملعقة التى أكلت بها ، ويأتيه بطبسيل آخر نظيف . ثم يأتي الخادم بماعون كبير فيه لحم أو سمك أو دجاج أو غير ذالك ، بعد أن يقطعه قطعا صغيرة ليسهل تناول البعض منه . وفيه ملعقة يغرف بها منه أو غيرها من الآلات التي يؤخذ بها ذالك الطعام ، فيعرضه على الجالسين ، فإن اشتهاه أخذ منه أو أمر الخادم أن يغرف له منه ، وإلا صرفه عنه قائلا له مرسي[1] ، ومعناها كثر خيرك ، وهذا من آدابهم حتى مع خدامهم .

فإن كان المأخوذ مثل اللحم ، فإنه يمسك الشوكة بيده اليسرى والسكين بيده اليمنى ، فيغرز الشوكة في اللحم ويقطع بالسكينة ويرفع إلى فمه ، ولا يباشر بالمس باليد ، فإن ذالك عندهم من القذر . وإن كان فاترا من الملح ، فيجد آنيته حذاءه فيجعل فيه من الملح على قدر ما يريد ، وكذالك الفلفل إن احتاج إليه . وهو في خلال ذالك يقطع من الخبز بيده ، فإن أراد أن يودمها ركزها في الشوكة وءادمها ، وإلا رفعها إلى فيه بيده . وإن كان الطعام يحتاج للزيت والخل ، فلهم أيضا زجاجتان في أحدهما خل وفي الأخرى زيت مشتركتان في لوحة ينزلان فيها وتمسك بمخطاف صغير ، فإذا وضع الطعام الذي يحتاج لذالك ، أتبعه الخادم بالزيت والخل ، فإذا فرغ من أكل ما نصب له ، رفع الخادم الطبسيل وما تُنُووِلَ به الطعام وأتاه بغيره نظيفا ، وهكذا في كل أكلة . ولذالك يعدون ما ذكر من الطباسيل وما معها ، لأنهم يبدلونها في كل طعام حتى لا يأكل ثانيا فيما أكل فيه أوّلا ، وهذا من مبالغتهم في النظافة .

ولهم في الأطعمة ترتيب معلوم ، فيقدمون أولا أنواع المطبوخات من لحم وغيره ، ثم يتبعونها بأنواع المشويات من دجاج وغيره ، ثم يختمون بالفواكه والحلاوات . ويبتدءون في كل نوع ، بما سهل هضمه وخف على المعدة حمله ، فيقدمون السمك والدجاج على اللحوم ونحو ذالك ، ويفصلون بين كل نوع والذي يليه بفاصل . وعلامة انقضاء المطبوخ وابتداء المشوي أن يأتوا بينهما بأكواس فيها بيض معقود بسكر ودقيق وحليب يجعلونه في الثلج حتى يصير مثله في البرودة . وعلامة نزول الفواكه أن يبدلوا شكل الطباسيل وما معها ، فينزلون طباسيل رقيقة الشكل ظريفة ،

(1) بالفرنسية (merci) .

ومعها سكينة وشوكة مُمَوّهان بالذهب . فإذا فرغوا من أكل الجميع ، أتاهم الخدمة بماء مطبوخ فيه ما تزال به نكهة الطعام كالسعتر ونحوه ، فيغسلون أيديهم ويُمَضمِضون ، ثم يمسح يده ويقومون .

وإن كانوا في دار أحد منهم ، فلا يقومون حتى تقوم ربة المنزل أولا ، ولا يجلسون في الابتداء حتى تجلس . فإذا قاموا فيذهبون لمحل آخر ، لأن محل الأكل غير محل الجلوس ، محافظة على نظافة محل الجلوس . فيتبعهم الخدمة بالقهوة فيشربونها ، ويأخذون في الحديث شيئا ما إن لم يكن لهم ما يحبسهم ويذهب كل واحد لشأنه .

ومقدار مكثهم على الطبلة نحو ساعتين ، لأن من عادتهم إطالة الحديث حال الأكل ، ليبالغوا في الأكل . وقد قالت العرب : «من تمام الضيافة ، الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المواكلة» . وكنا نكره مجيء وقت الأكل لطول الجلوس ، ولا نفهم كلامهم ، مع أن كثيرا من أطعمتهم لا توافقنا ، فكنا نعيا ونمل لطول المكث والجلوس . هذا ما يتعلق بكيفية الأكل .

وأما أطعمتهم فعمدتها اللحم والسمك والدجاج ، والدجاج الكبير المعروف عندنا بدجاج الهند[1] ، ولحوم الصيد والإوز . ثم الأرز والفداويش وكويرات يصنعونها من الدقيق قلبها هاش ويقلونها كالسفنج الصغير . والجلبانة الخضراء ولا تنقطع عندهم لأنهم يعالجون زرعها في البيوت بالنار كما تقدم ، وكذالك الفول الأخضر يوجد عندهم دائما . وكذالك السلق واللوبيا ويطبخونها بالحليب والكرافس نَيْئا ومطبوخا ، واللفت ويطبخونها وحدها ولا يجعلونها مع اللحم كما نفعله نحن . ولفتهم كثير الحلاوة ، حتى أن بعض الناس لا يقدر على أكلها لشدة حلاوتها . ولهم أنواع من العقيد[2] ، منه ما هو من البيض والسكر والدقيق والحليب ، ومنها ما هو من القهوة ومنها غير ذالك . ومن خضراواتهم الخرشرف أضلاعه وكوبه ، ويطبخون كلا على حدته . وكذالك نوع من الكرنب ويطبخونه وحده بلا ملح ، وحين يوضع للأكل يملح ويجعل عليه الخل والزيت .

ومن خضراواتهم أيضا البطاطة الرومية وقل أن يخطيها طعام ، يستعملونها

---

(1) الديك الرومي .

(2) نوع من الحلويات الذي يحضر بالدقيق والبيض والحليب والسكر (المعرب) .

وحدها ومع غيرها . ومنها الترفاس[1] وهو عندهم أسود ، والغالب أنهم يضيفون له في طبخه شيئا من الرّب ويحشون به بطن دجاجة الهند ، ولها عندهم كذالك ثمن غزير ، أخبرني بعضهم أنها تباع كذالك باثني عشر ريالا ، وانظر كم تبلغ هذا الثمن . ومنها الفقاع الذي ينبت عندنا وحده ولهم به اعتناء كبير ، يجعلونه وحده أو مع غيره . ولهم طبيخ من التفاح بالسكر . ومن خضراواتهم النيئة : الكرافس والنبات المعروف عندنا بكَرْوِينش والخس وفجل صغير جدا وحبات الزيتون أخضر ، ولا تخطيهما مائدة[2] .

وكل هذا من أنواع الشلايط[3] ، لاكن لا يُرَكّبونه . ويحضرون أيضا بصيلات صغارا منقعات في الخل مع فلفلة خضراء ، وأما البصل الكبير فلا اعتناء لهم به وهو قليل عندهم .

ولحومهم البقر والغنم ، والكل قد بلغ غاية الغاية من السمن خصوصا العجول . ولهم على تسمينها باعث مخصوص ، وهو أن لهم موسما بكل عام يسمونه الكَرْنَوَال[4] ، وهو عيد ثلاثة أيام يلعبون فيه ويشوهون أنفسهم بأن يَتَزَّوا بزي فيه

---

(1) ينمو الترفاس في المغرب بطريقة طبيعية في المناطق الغابوية في الشمال ، وكذا في جبال الأطلس المتوسط ومنطقة سوس . وأشار جاكسون إلى ارتفاع الطلب عليه كلما حلت أوقات نضجه ، وأنه قد «يباع بثمن أعلى من ثمن العنب ، أو غيره من بقية الفواكه والخضر» انظر :

Account, p.76; *Dozy* I: 145.

(2) الفقاع ، والكرافس ، وكروينش وغيرها ، أسماء من العامية المغربية للخضروات وما إليها من النباتات الصالحة للاقتيات انظر :

H. P. J .Renaud et G. S. Colin, *Tuhfat al-Ahbab: Glossaire de la matière médicale marocaine* (Paris, 1934), passim.

(3) لفظة ربما أصلها إسباني : أنسلادا (ensalada) ، أو من الفرنسية : سلاد (salade) ، والتي دخلت إلى العامية المغربية ، وبالمفرد شلاظة ، وهي السلطة بالعربية الفصيحة (المعرب) .

(4) يقصد الكرنفال (carnaval) ، وأصلها من اللاتينية كارن (carn) أي لحم و لفار (Lavare) أي فعل رفع . ويتعلق الأمر هنا بمهرجان احتفالي يسود فيه اللهو وينعقد قبل حلول فترة الصوم الكبير (carême) ، ويرتدي خلاله الباريزيون من مختلف الطبقات الاجتماعية ملابسهم الخاصة بالكرنفال ويمرون عبر الشوارع صاخبين منتشين بما شربوه من الخمور . غير أن الصفار لم يشاهد ==

تشويه ، ولهم وجوه مصنوعة بقصد ذالك يعونها بعينين كبيرين أو فم أعوج أو نحو ذالك . ومن جملة ما يصنعون في هذا العيد ، أنهم يدورون في البلد بأسمن فحل من فحولها في موكب عظيم مدة ثلاثة أيام ، ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه نصيبا من المال في مقابلة تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم ، ويقول كل واحد إن عجله هو الذي يكون أسمن ، وبه يفعل ذالك فيتنافسون في تسمينها لأجل ذالك ، ولا يوجد عندهم الهزيل أصلا ، والغالب عندهم في ذالك الشي .

وأما السمك فإنهم يتفننون في طبخه تفننا عجيبا ، منه ما يطبخونه في الماء وعند أكله يُصبّ عليه الخل والزيت ويذر عليه الملح . ومنه ما ينزع شوكه ويعجن في بعضه بعضا ويجعل أقراص ويشوى أو يطبخ . ويأكلون أيضا حيتانا تكون صغيرة وكبيرة ، من خاصيتها أنها تكون في الماء خضراء فإذا ألقيت في الماء الحار صارت حمراء[1] . ويعتنون بها كثيرا في مئاكلهم ولا تخطيهم في الغالب ، والسمك من حيث هو لا يكون طعام بدونه أصلا . ولا يتفننون في الأطعمة بالتلون في طبخها ، وإن كان عندهم من ذالك شيء فيفعلونه كل وقت . وبالجملة فطعامهم كله لا لذة له ، وإن ملّحه وفلّفله . لاكن ما لا يستغنى عنه ليس منه بد ، وللضرورة ما يسد .

وفواكههم وحلاويهم حسنة لذيذة المذاق . فمن فواكههم التي كانوا يحضرونها لنا التفاح والإنجاص[2] ، ويوجد عندهم في زمن الشتاء على الدوام . وهما في غاية من الصفاء سالمان من الآفات . واللشين وهو في بلادهم قليل ، ولاكن يجلب إليهم من محل آخر . والعنب في غالب الاوقات ولم يكن ينقطع عندهم أيضا وقتئذ ، إلا أنه ليس كثيرا مثل التفاح والإنجاص ، إنما يحضرون منه عنقودا أو عنقودين ، ويأكلون

== الكرنفال ، ويحتمل أن يكون قد اكتفى بقراءة ما كتب عنه الطهطاوي ، أو أنه سمع كلاما في موضوعه من بعض الفرنسيين المرافقين . قارن مع ما جاء في الموضوع في تخليص ، ص .123 ، وأيضا ، .L'or, p.159

(1) ويتعلق الأمر ببعض أصناف السمك المعروفة بالقشريات : ومنها سرطان البحر المعروف بالهومار (homard) والكركند المعروف باللانكَوست (langouste) والذي يسمى أيضا جراد البحر ، وأيضا الإربيان المعروف بالكروفيت (crevette) . وتحتوي جميعها على مادة ملونة في قشراتها ، وحينما توضع فوق النار عند طبخها تتحول من اللون الأزرق إلى الأحمر .

(2) وهي التسمية الدارجة التي يطلقها المغاربة على فاكهة الإجاص (المعرب) .

التفاح والإجاص أخضران، ويطبخونهما ويفندونهما بالسكر. ومن الفواكه المُدّخرة عندهم: المشماش يرقدونه في السكر، ومنها البرقوق والخوخ والتين الخضراء مفندة أيضا بالسكر، ويحضرون أيضا اليابسة. ومنها الليمون الصغير والأرنج بالتفنيد أيضا. ومن فواكههم أيضا اللوز، ويزول قشره بالفرك باليد من غير دق، والبندق والقسطال وهو عندهم كثير، والجوز والزبيب. والتمر عندهم قليلا جدا لأنه إنما يأتيهم مجلوبا من محله، فهو غريب عندهم.

ومن حلاواتهم ما يعرف عندنا بِبَشْكِتُوا[1]، ويتفننون فيه كثيرا، وربما يضيفون له اللوز والسمسم، وربما جعلوا في وسطه بياض البيض بالسكر، وربما دهنوه بماء اللشين إلى غير ذالك من التفننات وهو عندهم حسن. ومنها اللوز المفند وهو حسن، ومنها الشّكْلاطْ[2] وهو معروف يطبخونه على الكيفية المعروفة، وقد يجعلون منه أقراصا يابسة وغير ذالك. ويصنعون حلواء من اللوز مع عسل السكر، ويجعلونها على شكل قبة أو برج أو صورة قرن كبير. ويعتنون باللوز المر في حلاواتهم كثيرا. وكل عسولهم من السكر، وأما عسل النحل فهو عندهم قليل جدا لا يوجد إلا لنحو التداوي، لأنه يجلب لهم من غير بلادهم، وبلادهم لا يكون فيها لكثرة البرد. وحلاواتهم كثيرة ويحتفلون لها ويجعلون لها كواغيد مزوقة ملونة بصنائع بديعة، وذالك مما يشهيها للنظر فيكون باعثا على شرائها، وذالك مما يتعيّشُ به مقلّاتهم.

وأشربتهم في الوقت الذي كنا فيه عندهم الخمر ممزوجا بالماء، ولا يشربونه صرفا كما أنهم لا يشربون الماء صرفا في الغالب لاستغنائهم عنه بالخمر، ويسيغون في خلال الأكل بالخمر. وكانوا يحضرون منه أنواعا، ولاكن غالبها نوعان: أحدها

---

(1) يبدو من كلام محمد الصفار أن البشكيتو كان معروفا عند مغاربة القرن التاسع عشر. وسبق للغساني أن قدم تعريفا له في كتابه افتكاك، ص. 87، على الشكل التالي: «وهو خبز معجون بالسكر وصفرة البيض». وربما كانت لفظة بشكيتو تحريفا للتسمية الإسبانية: (bizcocho)، كما جاء ذلك عند البستاني. أما الصفار، فقد استعمل تلك التسمية للحديث عن مختلف أنواع الحلويات بوجه عام. (المعرب)، وفي اتفاقية 1856 التجارية التي أبرمها المغرب مع بريطانيا العظمى وردت الإشارة إلى مادة البسكوي في النص العربي للاتفاقية لكن تحت تسمية أخرى غريبة وهي البجماط، ولا يعرف أصلها.

(2) ورد ذكره أيضا عند الغساني، افتكاك، ص. 87.

الخمر المعروف، والآخر خمر يسمونه الشُنْيَاليَة[1]، إذا صُبَّت في الكأس علتها كشْكَشَة كبيرة ثم تنزل وتصفوا، وهي عندهم أرفع من مطلق الخمر. ولا يكثرون من الشرب حتى يثملوا أو يتمايلوا، فإن ذالك عندهم معيب وفاعله لا يعد من أهل المروءة[2].

وهاؤلاء القوم لا يكترثون بادخار القوت، ولا يوجد في بيوتهم إلا حين الأكل حتى بيوت أكابرهم وأهل الثروة منهم. ولا يعجنون الخبز في ديارهم كما عندنا، وكل ذالك في الأسواق. فإذا كان أول النهار، دفع رب الدار لخادمه الدراهم، فيذهب ويشتري كل ما يحتاجون إليه في ذالك اليوم من خبز ولحم ودجاج وسمك وخضر وغير ذالك.

والدجاج يُباع عندهم ميتا منتوف الريش ولا يذبحونه، وكذالك سائر صيدهم من أرانب وطير وغيره. كله ميتة لا يذبحون شيئا منه، ويرون أن في خنقه بقاء قوته[3]. فيأتي الخادم بالنفقة للدار، فيطبخ منها ما يُطبخ ويَشوي ما يُشوى، ويعالج كل نوع بما يستحقه. وهذه عادتهم كل يوم، فلا يتكلف أحد منهم بشراء زروع ولا طحنه ولا ادخاره[4]. وعلى أرباب الأسواق إقامتها بما يكفي المدينة، حتى لا يفقد منها شيء طول السنة.

ومما يستحسن عندهم، أنك لا تجد شيئا عندهم بالازدحام عليه، فهذه المدينة على كبرها وامتلائها، لا تفقد فيها شيئا من الأطعمة، ولا تراه بالزحام أصلا، حتى تظن أنه لا يشتري أحد شيئا من ذالك، لكثرة ما ترى منه في الحوانيت والأسواق.

---

(1) أراد الصفار أن يقول خمرة الشامبانيا المشهورة: (champagne).

(2) وردت الملاحظة نفسها عند الغساني، افتكاك، ص 37.

(3) وفي ذلك مخالفة تامة للشريعة الإسلامية التي لا تحل على المسلمين أكل لحوم الحيوانات غير المذبوحة. وتدخل الحيوانات التي تخنق عوضا عن ذبحها في عداد «الميتة»، انظر: *SEI*, s.v., "maita"

(4) من عادة المغاربة تخزين بعض أصناف المواد الغذائية، إذ يستغلون الفرق الحاصل في أثمانها حسب الفصول. فيشترون كميات كبيرة من القمح في موسم الحصاد، ويطحن جزء منه فيصبح دقيقا، ثم يحول إلى كسكس أو إلى سميد، ويوضع الكل في أكياس تخزن في مواضع معينة من البيت، وتكون صالحة للاستهلاك طوال فصول السنة.

لاكن لا يفسد لهم شيء من ذالك ، وتبقى اللحم عندهم أياما لا تتغير ولا تفسد .

وينجر الكلام على ما خلص إلينا علمه مما يذبح من اللحم بهذه المدينة ؛ رأيت في كَازيطة من كَوازيطهم أنه ذبح في شهر يناير ، وكان فيه عيد لهم هو رأس عامهم : فمن الثيران سبعة آلاف ومايتان وثمانية وأربعون ، ومن إناث البقر ألف واحد وثمانماية وتسعة وثلاثون . ومن العجول سبعة آلاف ومايتان وثمانية وعشرون ، ومن الغنم أحد وأربعون ألفا وثمانماية وتسعة عشر . وليس في هذا الشهر زيادة كثيرة على الذي قبله ، إنما زاد عليه لأجل العيد . فمن البقر أربعماية واحدا وستين ، ومن العجول مايتين وتسعة وثمانين ، ومن الغنم ماية وثمانية وثمانين ، انتهى .

كما ينجر الكلام إلى ما خلص إلينا من بعض أسعارهم ، بعد أن تعلم أن سكتهم الريال وهو معلوم ، الذي رواجه عندنا في هذا الحين بست عشرة أوقية ، والفرنك وهو خمُسه ، والصُلدي وهو الذي عشرون منه في الفرنك ، وهو فلوسهم[1] .

فسعر الخبز الجيد أربعة صُلدي للرطل ، ولا يباع بالعدد كما عندنا بل بالوزن ، والذي دونه بِصُلديَيْنِ . ورطل اللحم بخمسة عشر صُلديا ، ولا فرق بين البقر والغنم إلا العجول فإنها بثمانية عشر ، والدجاجة الصغيرة بريال ، ودجاجة الهند بثمانية فرنك ، والإوز واحدة بنصف ريال . والزُبد يختلف بالجودة والطراوة وضدها ، فهو من عشرين صلديا إلى أربعين ، والبيض اثنان منه بِصُلدي ، والأرنب بريال للواحدة ، ورطل السكر بفرنك واحد ، والقهوة بفرنكين ، والشكلاط بنصف ريال ، ورطل الأتاي من اثني عشر فرنكا إلى خمسة عشر . وليس عندهم الأتاي الجيد بل ولا المتوسط ، إنما أتايهم حشيش يابس لا مذاق فيه للأتاي المعروف ، ولولا الحليب ما كان يشرب ولا اعتناء لهم به[2] . وثمن الثور حيا من ماية وعشرين فرنكا فأكثر . والثور الذي لا

---

(1) انظر ما أوضحناه بخصوص هذه النقطة في الهامش 28 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

(2) كان دخول الشاي إلى المغرب في القرن الثامن عشر ، وانحصر استهلاكه في بداية الأمر على الأوساط المخزنية . وكان غالبا ما يحشر مع مختلف الهدايا المبعوثة من ملوك الدول الأوربية بواسطة سفرائهم إلى سلاطين المغرب . أما في زمن محمد الصفار ، فقد اتسع نطاق استهلاك مادة الشاي ، حتى بلغ جل أطراف الصحراء وواحاتها . انظر :

J.-L. Miège, "Origine et dévloppement de la consommation du thé au Maroc", *Bulletin économique et social du Maroc*, 20, 71 (1956) : 377-398;

أسمن منه الذي هو مثل ما تقدم ذكره ، أعني الذي يطوفون به في عيد الكرنوال ، يباع حتى بثلاثة آلاف فرنك . وقالوا إن مثل هذا يزن نحو أربعة وعشرين قنطارا .

وزيت الزيتون الحلو الجيد بفرنكين للرطل ، وغيره بخمسة عشر صُلديا . ورطل الشمع بخمسة وثلاثين صلديا ، وشمعهم من شحوم البقر وقد يكون من شحم الحوت ، وهو في غاية البياض ، ولاكن الأول هو الغالب . وأما شمع النحل فهو عديم الوجود عندهم ، ويوقدون الشمع أكثر من الزيت . ولاكن شمعهم قليل الضوء ، فالشمعة الواحدة من شمعنا تضيء كما تضيء ثلاثة أو أربعة من شمعهم . والحطب عندهم يباع بالوزن لا بالأحمال ولا بالقت ، وثمن القنطار منه نحو ثلاثة فرنك .

هذا ما بلغنا من ذالك ، وبالله التوفيق .

== وأيضا ، معلمة المغرب ، ج 1 ، مادة ، «أتاي» ، ص .105-108 . وهذا بالإضافة إلى الدراسة الأخيرة التي أنجزها الباحثان عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي في الموضوع ، وعنوانها : من الشاي إلى الأتاي ، العادة والتاريخ ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة بحوث ودراسات رقم 25 ، 1999 .

الفصل الخامس

فصل في ذكر مكثنا في هذه المدينة

فصل في ذكر مكثنا في هذه المدينة ومدة إقامتنا بها وما رأيناه فيها ، وملاقات سلطانهم ، وغير ذالك مما يتعلق به .

قد أسلفنا أن دخولنا لها كان يوم الأحد الثامن والعشرين من ذي الحجة ، وكان خروجنا منها يوم الاثنين تاسع عشر صفر[1] ، فكانت مدة إقامتنا بها خمسين يوما . ومع قلة مدة إقامتنا بها ، فما كنا نخرج من المحل الذي كنا نازلين به إلا في بعض الأوقات حين يدعوننا له ، ويعزمون علينا في الذهاب لموضع من مواضعهم أو لضيافة أو فرجة أو نحو ذالك . فكان خروجنا قليلا ، وكان في ذالك حفظ لحرمتنا وبقاء أبهتنا وطلاوتنا . فكنا والحمد لله في أعينهم عظاما ، ينظرون إلينا دائما بعين الاحترام والتعظيم ، ولو كنا مبتذلين نكثر في الدخول والخروج لكنا بخلاف ذالك . كما قال أزدشير[2] لابنه ، لا تمكن الناس من نفسك ، فإن أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له معاينة .

---

(1) وصل أعضاء البعثة المغربية إلى باريز يوم الأحد 28 دجنبر 1845 ، وغادروها يوم الاثنين 16 فبراير 1846 .

(2) يزدجرد الأول (Ardachir Ier) ، هو مؤسس الدولة الساسانية الجديدة في بلاد فارس قبل مجيء الإسلام ، وكانت وفاته في سنة 242 ميلادية . ترك أقوالا بليغة في أدبيات التربية الأميرية ، تداولتها الألسن وانتقلت مضامينها إلى الأدب العربي ، ومن ثم أصبح «يذكر اسمه ، كلما تعلق الأمر بالحديث عن كلمة حكيمة أو عن سلوك واع في الميدان السياسي والعسكري» ، انظر : ==

وقال الشاعر :

كمـا يُخلِق الثـوب الجـديد ابتـذالُه
كــذا تخلق المرء العـيـــونُ اللوامحُ

وأيضا فلا نهتدي للذهاب لموضع وحدنا لعدم معرفتنا البلد واللسان ، فلم نكن نخرج إلا بقائد وسائق ، فلنا عذر في عدم استقصاء أخبار هذه المدينة وأخبار أهلها .

ولما دخلنا هذه المدينة ، أنزلونا بدار كـانوا أعـدوها لنا بالمحل المعـروف عندهم بالشـمـزليـزي المتـقـدم ذكـره ، ومـعنى هذه الكلمـة عنـدهم رياض الجنة . وهو من منتـزهاتهم ومـحـال فـرجـاتهم وتماشـيـهم ، وبه أشـجـار حـسنة الشكل والتـرتيب والتصفيف ، وأحد جانبيه متصل بالنهر ، وابتداؤه من رياض السلطان وانتهاؤه إلى قـوس عـال لهم هناك كـان بناه بُونَابَرط[1] . فطوله مـا يزيد على أربعـة سـتـة آلاف خطوة[2] ، ومع طول مسافته فإنك إذا وقفت في ابتدائه ترى انتهاءه قبالة عينك في غاية من الاستقامة والاستواء . فاختاروا لنا هذه الدار في هذا المحل ، لأنه من أشرف محالهم . وإذا كان يوم مشمش خصوصا إذا كان يوم الأحد فإنه يوم بطالتهم ، فلا يبقى أحد في المدينة إلا جاء لهذا الموضع يتماشى فيه ويستريح مع من يليق به من رفقائه ، إما في الأكداش وإما على رجله . وكثير منهم يأتي إليه في الكدش ، فإذا وصله نزل وترك الكدش ينتظره ، وذهب يتماشى على رجليه حتى يقضي غرضه ويركب ، ويُرَى فيه وقتئذ من بنات الروم ما يلهي ويدهي .

ولما دخلنا لهذه الدار ألفيناهم قد هيئوها لنا بأحسن ما عندهم ، قد قصروها علينا لا يدخلها إلا نحن وخدمنا ، وليست بوصاضة[3] كسائر ديار النزول لمطلق الناس .

== C. E .Bosworth, "The Persian Impact on Arabic Literature", in A. F. L. beeston et al., eds., *Arabic Literature to the End of the Umayyad Period* (Cambridge, 1983), p.488 ; *EI* 2, s.v. "Ardashir".

(1) انطلقت أشغال بناء قوس النصر المعروف تحت اسم أرك دو ترويمف : (Arc de Triomphe) في باريز ، على عهد نابليون سنة 1806 ، وانتهت في 1836 .

(2) وتعادل الخطوة مترا واحدا تقريبا .

(3) انظر الهامش رقم 2 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

وجعلوا بها من الفرش الرفيعة والمواكَن[1] النفيسة والثريات المضيئة والخدم المطيعة ، ما ينبئ عن عظيم منزلتنا عندهم . وأجروا علينا سائر ما نحتاج إليه من مأكول وغيره ، حتى الأكداش هيئوها لنا بالخصوص لنركب فيها إذا خرجنا ، متى احتجناها كانت حاضرة . وكانوا ينفقون علينا كل يوم في الأكل وغيره ، نحو مائتي ريال[2] . وجعلوا لنا من الخدمة نحو عشرين ، كل له شغل خاص . وانتخبوا لرئيسنا بيتا هو أرفعها وأنفسها أثاثا ، وجعلوا لنا بيتا للاجتماع . ولكل اثنين أو ثلاثة بيت للنوم والاستراحة ، كل واحد بفراشه وما يحتاج إليه . وفي كل بيت من هذه البيوت ، سائر ما يحتاج إليه من آلات الكتابة وأواني الماء وكراسي الجلوس .

فمكثنا يوم الدخول ، ومن الغد بعث لنا سلطانهم لنأتيه في عاشرة النهار ، فتهيأنا لملاقاته . فلما كان من الغد بعث لنا قائد مشوره[3] ومعه جلنار[4] آخر . وبعث إلينا بأربعة اكداش ، فقدم أكبرها يجره عشرة من الخيل ليركب فيه رئيسنا ، موشىً بالحرير والديباج من ظاهره وباطنه . ثم آخر يليه يجره ثمانية من الخيل لبعض الخواص ، ثم الثالث ثم الرابع على اختلاف مراتب أصحابنا . لاكن الجميع في أحسن ما يكون ، وكلها مشعرة بالتعظيم ورفع المنزلة ، فركب كل واحد منا كدشه وسرنا .

---

(1) انظر الهامش رقم 5 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

(2) أو ما يعادل ألف فرنك ، وهو مبلغ كبير . وذكر بوميي (Beaumier) في رسالة له ، أن تكاليف وجبات الغذاء كانت تصل لوحدها إلى حوالي ستمائة فرنك في اليوم الواحد . AAE/ADM/Voyage ، من بوميي إلى أصدقائه ، دون تاريخ .

(3) انظر الدراسة ، الهامش قم 101 . نقلت الأخبار المتعلقة بتفاصيل الاستقبال الملكي لأعضاء البعثة عبر رسالة وجهها أشعاش إلى أخيه في تطوان ، فأبلغها هذا الأخير إلى البلاط السلطاني ، انظر : (الملحق رقم 2) ، رسالة عبد القادر أشعاش إلى أخيه عبد الله 1 محرم 1262/30 دجنبر 1845 ، وهي محفوظة بمديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17579 . وكتبت تلك الرسالة بخط محمد الصفار ، كما أنها تحكي تفاصيل الاستقبال في قصر الملك الفرنسي أسلوب مشابه لمثيله الوارد في الرحلة ، مما قد يوحي بأن الصفار وأشعاش قد اشتغلا معا في تحرير أجزاء معينة على الأقل من الرحلة .

(4) ضابط عسكري من رتبة عالية ، وترد هكذا «جلنار» أيضا في المراسلات المخزنية خلال القرن التاسع عشر (المعرب) .

وسمعوا بنا فامتلأت الطرق والشوارع لرؤيتنا ، حتى بلغنا إلى دار السلطان . فخصنا بالدخول على قوس لا يدخل منه إلا هو وأهله إكراما لنا . فخرجنا منه إلى رحبة واسعة ، فألفينا فيها من العسكر صفوفا بعضها خلف بعض على عادتهم في الاصطفاف ، يجعلون صفا خلف صف ، ويقف الواحد من الصف الثاني بين الاثنين من الصف الأول ، متسلحين بمكاحلهم متزيين بأحسن زيهم ، وعلى كل جملة منهم كبير بيده سيف مسلول بارز أمام جماعته . وبمجرد وصولنا تكلمت الموسيقى فنزلنا ، فدخلنا الدار فأتونا بيسير من الطعام .

ثم استدعونا للصعود في الدرج فصعدنا ، فإذا هو قصر من القصور المشيدة ذو بناء عجيب وتزويق غريب وقباب مشيدة وفرش ممهدة . والتماثيل البديعة والأواني الرفيعة والمرائي الصافية والزخارف البادية ، قصر من قصور الملوك دون شرط ولا ثنيا ، وإن كل ذالك لما متاع الحيوة الدنيا . ؟ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ، زهرة الحيوة الدنيا ، لنفتنهم فيه؟[1] . ثم أخذنا في الدخول من صالة[2] إلى صالة حتى انتهينا إلى الصالة التي بها السلطان ، وهي أعظم زخرفة وأكمل بهجة مما قبلها . فألفيناه قاعدا على كرسي مملكته ، وحوله عظماء دولته ، والكرسي له ثلاثة أدرج يدور به ضربوز ، كل ذالك مُمَوَّه بالذهب وعليه ستور من الحرير لاكن غير مسدولة ، تتدلى منه مجاديل وهدب من الذهب[3] . وكسوة السلطان مثل كسوة غيره من العظماء الواقفين حوله ، لم يتميز عنهم بشيء ، وعليه سيفه وبرنيطته[4] على رأسه . وأما من حوله فهم كاشفوا رءوسهم ، إذ لا يقفون أمام عظمائهم إلا كذالك .

ومن عادتهم في اللقاء ، أن ينتخب الوافد كلاما ويُزَوِّرَه[5] ، ويكتبه في ورقة

---

(1) سورة طه ، الآية 131 ، وتضيف الآية : ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ .

(2) انظر الهامش رقم 32 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

(3) سبق لابن خلدون أن أشار إلى أن من علامات الملك ، وجود كرسي للعرش يشترط أن يكون بارزا ، حتى يصبح رمزا ناطقا عن سمو شخص السلطان و تفوقه على الآخرين .*Muqaddimah* 2: 53

(4) البرنيطة ، من الإيطالية بيريطة (berretta) ، أو من الإسبانية بيريتة (birreta) . وتعني في العامية المغربية ، كل أصناف القبعات التي يضعها الأوربيون فوق رؤوسهم ، على اختلاف أنواعها : *Dozy* 1: 80

(5) وكأن الصفار يريد القول إن مضمون الرسالة التي قرأها أشعاش على مسامع الملك الفرنسي وحاشيته مجرد كلام ملفق لإخفاء مظاهر كاذبة . ويوجد نصها العربي في : AAE/MDM 4/135-136

يسرده عند ملاقات السلطان ، ويجيبه السلطان أيضا بمثل ذالك . فهيأ رئيسنا كلاما وكتبه في ورقة ، ولما واجهه أخرج ورقته وسردها بالعربية ، مضمنها بعد الحمد والثناء مدح أمير المسلمين[1] نصره الله وذكره بالخير ، إذ بعثه إلى هذا السلطان ، وذكره أيضا بما يليق به مما فيه مداراته ، وذكر جنسه ورعيته بما فيه لهم مدح من الأمور الدنيوية والآداب والحضرية ، وذكر ما وصل إليه من إحسانه والفرح به منذ حل في بلاده ودخل في ولايته . وكل ذالك من المدارات الواجبة في مثل ذالك المقام ، ودَارِهِم ما دمت في دارِهم الخ ، ولله در من قال :

ومن لم يُصانع في أمور كثيرة
يضرسْ بأنياب ويُوطَا بمنسَم

وقال آخر :

سالم إذا أنت لم تستطع محاربة
واغلب إذا أنت لم تقدر على الغلب
والق العدو بوجه باسم
حتى إذا انقلبت دنياه فانقلب

وقال آخر :

فلله در امرئ عارف
يجاري الزمان على فطنته
يجازي الصديق بإحسانه
وُيبقي العدو إلى مدته
ويلبس للدهر ثوب الرضى
ويشطح للقرد في دولته

وقال آخر :

وإذا عجزت عن العدو فداره
وامزح له إن المزاح وفاق

---

(1) وهو من الألقاب التي كان يحملها سلاطين المغرب . قارن بين ما كتبه الغساني عند لقائه بالملك الإسباني كارلوس الثاني (Carlos II) . انظر افتكاك ، ص . 42-44 .

فـــالـنار لـلمـــــاء الذي هو ضــــــدها
تعطي النضـــاج وطبــعُــهـــا الإحـــراق

فلا لوم في ذالك ولا عتاب . وفي الحديث : «إنا لنكشر في وجوه قوم قلوبنا تلعنهم» .

وبعد فراغه من سَرْدِها فسرها الترجمان ، ثم أخرج السلطان من جيبه ورقة أيضا جوابا لذالك ، مضمنها أنه يحمد الله على ما تجدد من المهادنة والمحبة والمودة بينه وبين سلطان المغرب ، وأنه لا يصدر منه مع دولة مراكش والمغرب إلا ما يجري على مقتضى ذالك . وسردها بعجميته ، ثم فسرها الترجمان بالعربية . ثم ناوله كتاب أميرنا نصر الله ، فقبضه قبض تعظيم ، ثم انصرفنا من عنده فلقينا بناته وزوجته وقريباته متأدبين معنا ، ولاطفنا بأطيب كلام ، ثم رجعنا .

وبعد وصولنا لمحلنا ، قدمت علينا من عنده بطاقات يطلب منا أن نشرفه بالقدوم إليه ليلاً لنتعشى عنده . فلما كان اليل ذهبنا إليه ، فدخلنا تلك الصالات فألفيناها قد أوقد فيها الشموع في ثريات عظيمة من البلّور يخطف شعاعها البصر . وفي جوانب الصالات وصدرها مراءي كبير عظيمة أكثر من قامة الإنسان ، تنطبع فيها تلك الثريات بشموعها وسائر ما في البيت ، فيخيل للناظر أنها صالات أخر فيها مثل ذالك ، وذالك لشدة صفاء المرءات . فألفيناه قد أحضر جميع وزرائه وعظماء دولته ونسائه وبناته وسائر أولاده ونساء أولاده ، فكان الجميع نحوا من سبعين نفسا .

فأدخلنا لصالة الأكل ، فألفينا فيها طبلة كبيرة تسع العدد المذكور ، وهي مستطيلة بحيث لا يستثبت من يكون في طرفها من هو في الطرف الآخر . قد صفف عليها أواني الفواكه والحلاوات ، وفي وسطها صفان متقابلان من حسك الشموع ، كل حسكة بأفواه عديدة ستة أو سبعة . وبين الصفين صف آخر من أواني النوار والأزهار . وكل حسكة منزلة في طبلة مذهبة ، وفوق الطبلة على طول الصالة ثريات من البلار تضيء بالشموع ، وفي جوانبها ثريات صغار بالشموع أيضا ، فكان جملة ما يوقد في تلك الصالة من الشموع ثلاثمائة وثلاثين . وكل ما يدور على تلك الطبلة من الأواني فهو من الذهب والفضة . وكل الجالسين عليها لابسون الذهب على ثيابهم وسيوفهم ، فكان في ذالك منظر رائق وجمال فائق من شعاع الشموع ولمعان الأواني ولباس الجالسين وصفاء المراءي والثريات . وما على النساء من فاخر الدرر

ونفيس الأحجار وبرق خدود الجواري يكاد يسلب فؤاد الحواري . وأحضر مع ذالك فاخر الأطعمة ولذيذ الفواكه وطيب الحلاوي ما يباح ويستحسن .

حتى إذا فرغنا قمنا وقام معنا هو وجميع من حضر ، وخرجنا لصالة أخرى ، وبقينا وقوفا لا يجلس منا أحد كما هي عادتهم إلا النساء . وجعل سلطانهم يتحدث مع كل واحد منا ، ويباسطه بما تيسر من الكلام ، ويسأله عن أحواله ويؤنسه بطيب الكلام . وكذالك تفعل زوجته وهي عجوز في الغبرين ، ولاكن عليها من الأحجار والجواهر واليامنض ما لا يوجد مثله إلا هنالك ، وكذالك تفعل بناتها وسائر من معها . وليس تحدث النساء مع الرجال عندهم عيبا ولا مُخِلا بالمروءة ، بل ذالك هو المطلوب عندهم لاكن مع عفة وصيانة وعدم حماية حول الحمى ، بل بنحو ظريفة أو أديبة أو تستحيي أو نحو ذالك ، أو بالسؤال عن أولادها وعن أسمائهم ونحو ذالك . فبقينا معهم نحو ساعة بعد العشاء ثم انصرفنا .

ومن الغد وبعده ، لم يبق باشدور[1] في باريز من باشدورات الأجناس الذين هنالك إلا جاء لعند باشدورنا يسلم عليه ويحييه ، وتابع السلطان ووزراؤه في ضيافتنا وإكرامنا .

وفي يوم الخميس بعد ملاقاته بيومين ، دخل عامهم وهو عام 1846 من ميلاد عيسى عليه السلام ، وهو أول يوم من يناير عندهم ، ووافق يوم العشرين من شهر دجنبير بحسابنا ، فهم يتقدموننا بأحد عشر يوما في كل شهر عجمي . وسبب ذالك حسب ما أخبر به بعضهم ، أن الشمس أسرع في الحركة من أيام العام بدقائق ، فبقوا غافلين عن تلك الدقائق مدة من الزمان ، إلى ما قبل هذا الحين بنحو ستمائة سنة ، رصد حبر من أحبارهم فألفى هذا العدد من الأيام قد توفر من تلك الدقائق . فلما كان اليوم الأول من يناير بالحساب القديم ، ألفوه قد تقدم بأحد عشر يوما توفرت من

---

(1) من الإسبانية أمباخادور (Embajador). صنفها بروفنسال (Lévi-Provençal, *Les histoiriens*, p.82, note 62) ضمن «الكلمات الجديدة» الموجودة عند الزياني أواخر القرن الثامن عشر في كتابه الترجمانة الكبرى ، غير أن الكلمة كانت تستعمل في القرن السابع عشر ، ونجدها عند الغساني هكذا : الأنباشادور ، افتكاك ، ص .40 .

تلك الدقائق ، فمضوا على هذا الحساب إلى الآن[1] .

وكان من عادتهم أنه في هذا اليوم الذي هو أول يوم من العام ، لا يبقى كبير في مدينة باريز من أهلها أو من غير أهلها إلا جاء لعند السلطان لأنه عيد من أعيادهم ، فلم يكن لنا بد من الذهاب إليه . فسرنا إليه في وقت العصر ، فألفينا فيها من الكبراء والباشدورات ما لا يحصى ، كلهم مزينون بأحسن زينتهم يفخر بعضهم على بعض . وممن رافقنا هنالك من المسلمين سبعة من أهل مصر ، منهم اثنان حفيدا محمد بن علي باشا مصر ، واثنان ولدا ربيبه إبراهيم باشا ، وءاخر من خواص محمد بن علي اسمه سامي باشا ، واثنان من خدامهما . ومعهم هنالك غيرهم جملتهم نحو ستين ، أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هاؤلاء القوم[2] .

وكان على هاؤلاء المصريين من اللباس ما ليس على النصارى ، عليهم غلائل لا يُرى

---

(1) إن التقويم الشمسي الذي يتبعه المغاربة لأسباب فلاحية ، هو في أصله التقويم نفسه المعروف قديما عند الرومان بتقويم جوليان . (Calendrier de Julien) غير أنه لم يكن دقيقا بما فيه الكفاية ، فصحح سنة 1582 على يد البابا كَريكَوري الثالث عشر . (Grégoire XIII) وكان التقويم الكَريكَوري الجديد المتقدم بأحد عشر يوما عن مثيله القديم ، غير معروف في المغرب . وإذا كان أساس الشروح التي قدمها الصفار في الباب صحيحا ، ويحتمل أن يكون مصدره هو أحد المترجمين للبعثة ، فإن تفاصيله غير دقيقة ، انظر :

S. B. Burnaby, *Elements of the Jewish and Muhammadan Calendars* (London, 1901). pp.512-515.

(2) محمد علي باشا ، حاكم مصر ما بين 1805 و1848 . كان أميا إلى حين بلوغه سن السابعة والأربعين ، فتولد لديه اعتقاد راسخ وولع كبير بالتعليم ، وأرسل بعثات لدراسة مختلف العلوم الحديثة في فرنسا . وكان رفاعة الطهطاوي ضمن عناصر البعثة الأولى الموجهة سنة 1826 . وفي سنة 1844 ، وصلت إلى باريز مجموعة إضافية تكونت من ثلاثين طالبا ، كان من بينهم أربعة أمراء : اثنان منهم ابنان لمحمد علي ، هما حليم وحسين . واثنان من أحفاده ، وهما ابنان لولده البكر إبراهيم (الذي أشار إليه الصفار خطأ على أنه كان ربيبا لمحمد علي) ، وهما أحمد واسماعيل الذي أصبح خديويا لمصر فيما بعد . وكانا معا مصحوبين بالأرميني ستيفان باي المشرف على تربيتهما . أما سامي باشا الذي أشار إليه الصفار أيضا ، فلم نتمكن من معرفة هويته ، انظر : Louca, *Voyageurs et écrivains*, pp.75-83.

ثوبها من أجل ما نسج فوق الثوب من طرازات الذهب مسلكة بالأحجار والجواهر ، وأقفالها كلها جوهر وعليهم حزم مثقلة بالذهب يجرون أسيابا لا توصف حليتها ، فكانوا أحسن زيا وأجمل منظرا من النصارى بكثير . هناك أيضا باشدور من عند السلطان العثماني[1] .

فلما اجتمعنا في صالة من صيلانهم خرج علينا سلطانهم ، فوقف أولا مع الباشدور المبعوث من عند كبير رومة التي هي أصل دياناتهم وبها بَابَاهم الكبير[2] الذي ينقادون له في أمور دينهم ، ويزعمون أنه خليفة عيسى عليه السلام . فتكلم أولا باشدور رومة المذكور بكلام في ورقة كما هي عادتهم حسبما تقدم ، معناه بالعربية : هذا عام مبارك جئنا نفرح بسلامتك وسلامة أناسك ، وحمدنا الله الذي جعلك في هذا المحل وقوّاك على حمل ثقل ما أوليته من المرتبة العالية . فمن يوم وليت في كرسي فرانسا وأنت ساع في الخير . ردعت خيل الشر ورددتها بلجامها ، إذ كان بعضها يريد أن يغير على بعض ، وأنت برشادك وعقلك رددتهم إخوة ومشيتهم على الطريق المستقيم . ولم يتول سلطان إلا بإذن الله ، ونحن ننظر في خدمتك أنها بهداية الله وقدرته التي تحفظنا . فنطلب الله أن يديمك في هذا المقام ، وأن يبقيك دائما دُمَان لهذا الشقف[3] تسيره بحسن سياستك . والله يبارك لك فيمن ازداد عند أولادك في هذا العام من الحفائد ، بقدر ما تتفرع جدراتك يتفرع الخير ، والله يحفظنا ويحفظك .

فأجابه السلطان بقوله : الله يجعل فيكم البركة ويجازيكم خيرا على هذا الدعاء الذي تدعون لي به وتحبون لي الخير ، وهذا هو الظن بكم وبالأجناس الذين أنتم مراسيل من عندهم . وشكركم الذي تشكروني إنما هو لله ، لأنه هو الذي جعلني في هذا المحل وألهمني لهذه الخدمة ، وهداني لهذه السيرة وأقدرني على ما أفعله فيها . ونحن معشر السلاطين علينا كلفة يسألنا الله عنها ، ونحن رعيان ولا بد نحفظ الغنم التي نرعاها . فما دمت في طريق الخير ، فادعوا لي بدوام المملكة ، وسعيي كله إنما هو في الحرص على الأخوة بين عباد الله . وما عندي جنس أفضل من آخر ، بل نريد أن تكون المحبة الخالصة بيننا وبينهم جميعا على السواء ، والله يسلمكم على مباركتكم

---

(1) أورد الصفار هذا الخبر في هامش الصفحة 93 من مخطوط الرحلة .

(2) ويعني بها البابا ، (Le Pape) .

(3) دُمان ، ومعناه مقود ، *Dozy* I: 462 . ويقصد الصفار بعبارة دمان الشقف ، قائد السفينة أو المركب .

لي فيمن ازداد عندنا ، الله بجعل سلالتي لا تتبع إلا طريق الهدى ، والله يوفقنا وإياكم للخير ، انتهى .

ثم أخذ يسلم على كل واحد وحده ، حتى أتى على جميع من كان حاضرا هنالك ، ثم انصرفنا .

وفي يوم الثلاثاء سابع المحرم ، استدعانا الوزير المُوكَّل بالبَرّاني واسمه كيزوا للضيافة ليلا[1] ، فسرنا إليه ، فأدخلنا دارًا فسار بنا إلى قبة حسنة المنظر بديعة الشكل مبهجة مرونقة ، قد علق في وسطها ثريا كبيرة من البلار . وقد احتف بها روض من النوار والأزهار منقول في الصناديق والأواني ، مركب بأحسن تركيب . لا ترى أوانيه إنما يرى النوْر وحده ، وتظن أن ذاك منبته . وفي أركان القبة من كل جوانبها سواري منقوشة مذهبة ، على كل سارية ثريا صغيرة ، كل ذالك يوقد بالشموع . وقد نصب فيها كثير من الشوالي والكراسي ، وبداخلها قبة أخرى مشتملة على آلات الموسيقى ، وهي كمنجات طوال قدر قامة الإنسان[2] وربابات وغير ذالك من موسيقاهم[3] . ومن عادتهم أن غناءهم إنما يقولونه من الكواغيد[4] ، فينصبون

(1) ويوافق يوم 6 يناير 1846 . كَيزو (1787-1874) (F. P. G. Guizot) ، وزير الخارجية الفرنسي وقتئذ . وجاء في جريدة جورنال دي ديبا *Journal des débats* بتاريخ 8 يناير 1846 حول تلك الأمسية ما يلي : «أقام وزير الخارجية الفرنسي حفل عشاء كبير على شرف بن أشعاش [. . .] وبعد تناول وجبة العشاء [. . .] قدم حوالي ثلاثمائة من طلبة المعهد الموسيقي وفنانين آخرين من الجمعية الموسيقية ، قطعا لمعزوفات كل من كَلوك (Gluck) وبتهوفن (Beethoven) ، وفيبير (Weber) ، وروسيني (Rossini) ، وهانديل (Handel) ، بدرجة نادرة من الإتقان . وبدا السفير مسرورا جدا بروعة حفل الاستقبال» .

(2) مفردها كمنجة . أصلها فارسي عربت ومعناها آلة قوسية . الصبيحي ، معجم ، ص . 138 ، 230 ، وهي المعروفة بآلة الكمان (violon) . غير أن الصفار يقصد الإشارة هنا إلى أكبر أصناف آلات الكمان التي تتجاوز في حجمها آلة الفيولونسيل ، إذ يكون العازف عليها واقفا وتسمى بـ (basse violon) ، (المعرب) .

(3) H. G. Farmer, *A History of Arabian Music to the XIII th Century* (London, 1929), p. 210.

(4) أي ورقة السولفيج (solfège) التي تكتب فيها النغمات والنوتات الموسيقية (المعرب) .

كراسي أمامهم ويجعلون عليها أوراقا فيها ذالك الغناء ، كل واحد أمامه كتابه .

فبعد أن فرغنا من عشائنا ، وحضر معنا فيه بعض من عرضه صاحب الدار ، خرجنا من بيت الأكل ودخلنا القبة المذكورة . فجعل الناس يدخلون أفواجا رجالا ونساء ، ومناد واقف بالباب ، كلما دخل شخص نادى عليه فلان جاء ، فيأتي الواحد منهم بامرأته أو بنته ، أو تأتي المرأة وحدها حتى امتلأت القبة . ولا يجلس إلا النساء ، وكلهن مزينات بأحسن زينتهن لابسات أفخر ثيابهن على اختلاف ألوانها أبيض وأحمر وأزرق . وحد الستر في لباسهن الثديان فهما مستوران ، وما فوقهما من الصدر والظهر والرقبة والعضد مكشوف بادي . ويسترن بعض العضد إلى نصف الساعد بأكمام ضيقة على قدر العضد ، وقد لا يبلغ المرفق . ويحتزمن على الخصر تحت ذالك الثوب بحزام ضيق لرقة خصورهن ، قيل إنهن يربينه كذالك من سن الصغر بقالب معد له . فخصرها قد يمكن أن تحلق عليه بأصابعك لرقته ونحافته ، ويجعلن الثوب الذي على الخصر ضيقا على قدره ، حتى يكون ذالك الخصر باديا ظاهرا في رقته ولطافته . ويرخين الثوب فيما أسفل من ذالك حتى يعظم به المردف ، ولعله بشيء يجعلنه تحته ، فتصير كما قال الشاعر :

أسيلات أبدان رقاق خصورها
وثيرات ما التفت عليه المئازر

وتسدل ذالك الثوب حتى يستر بنانها ، فلا يظهر من أسفلها شيء بالكلية ، فإذا أقبلت عليك تشتهي أن تمسكها من ذالك الخصْر :

قد رق لي خصره المضني فناسبني
فقلت خير الأمور الأنسب الوسط
وقد خفا الردف عني من تثاقله
فقلت هذا على ضعفي هو الشطط

وأما شعرها فإنها تعمد إليه أولا فتسرحه تسريحا جيدا ، ثم تقسمه من مقدم رأسها قسمين حتى تترك ساقية بيضاء بينهما ، ثم تظفره في بعضه بعضا ، ثم تلوي تلك الظفيرة على مؤخر رأسها بصنعة بديعة ، فتكون دائرة مستقيمة تشبه في الشكل فم الرمانة إلا أنها أوسع منه . ثم تركز في وسط الدائرة مشطة من الصدف أو ما

يشبهه مرصعة بأحجار اليامنض ، وربما تلوي مع تلك الذؤابة حبلا من الجوهر وقد تجعل حبلا من الجواهر والأحجار دائرا مع جملة الرأس . وبعضهن يجعلن على رءوسهن خمارا رقيقا من الحرير قد علقت بأطرافه أحجار وجواهر ، وهذا إنما تفعله العجايز . وأما الشواب فيتركن رأسهن مكشوفا في أحسن منظر ، أو بإحكام تسريح الشعر وعطفه على جانبي الناصية ، تبقى الجبهة كأنها القمر ، وتجعل على جانبي رأسها وردتين مصنوعتين معهما شيء من النوّر وتلصق ذالك مع الشعر .

ويجعلن في عنقهن قلادة من فاخر الدرر النفيس الصافي المحكم الاستدارة ، ثمن الحبة الواحدة منه نحو ستين ريالا . وتجعل على صدرها صفيحة مرصعة بالأحجار النفيسة ، وتجعل في يديها سوارا من ذهب مرصع بالأحجار مع خيوط من الجوهر . وغالب أحجارهم اليامنض الفاخر النفيس الصافي الذي يخطف شعاعه الأبصار . ولا يستعملون من الجوهر رديّه ، وإنما يستعملون اللؤلؤ الصافي المدور . وهذه اللبسة إنما هي عندهن في مثل هذا الموضع حيث يجتمعن للفرجة ، وأما في الأزقة والطرقات ، فإنها تستر جميع بدنها حتى كفيها تجعل لهما غلافين ، وإنما تترك مكشوفا وجهها فقط .

ثم بعد أن اجتمعوا في القبة المذكورة ، حضر أصحاب الآلات والموسيقى ، فتصدر صف من البنات لابسات ثيابا بيضا جالسات على شواليهن بيد كل واحدة كتابها ، وجلس خلفهم الرجال بيد كل واحد آلته ، فأخذوا بالطرب والغنا بلغاتهم . ويتقدمهم شيخ كبير بيده قضيب يشير لهم به إلى إخفاء الصوت وإجهاره . ويضربون في آلاتهم قليلا ثم يسكتون ، ويجعلون ينظرون في تلك الأوراق التي أمامهم ، ثم يعودون لها وهكذا . والحاصل آلاتهم وغناؤهم لا يطربنا ولا يهزنا ، فبقينا معهم هُنيّة ثم انصرفنا عنهم وتركناهم :

في مجلس ضحكت أرجاؤه طربا
لأنه ببديع الزهر مفروش
يقولون هذه أم عمر قريبة
دنت بك أرض نحوها وسماء
ألا إنما قرب الحبيب وبعده
إذا هو لم يوصل إليه سواء

ومن الغد حضُّوا علينا في الحضور بتياتروهم ، ولم نكن رأينا قبل ذالك ولا

عرفناه وتقدم وصفه ووصف لعبه بما فيه كفاية . وأجلسونا في محل الخصوص ، فبقينا نحو ساعتين ثم انصرفنا .

وفي يوم الجمعة عاشر محرم ، أضافنا وزير وزرائهم ، وهو شيخ كبير السن واسمه صُلْت[1] ، ولم يكن عنده غناء ولا طرب إلا موسيقى أصحاب البواقات والأطبال من عادتهم أن يستعملوها حالة الأكل لتزداد شهوتهم في الطعام ، وكانت خارج محل الأكل . ثم تتابعت علينا الضيافات من وزرائهم ، ولم نكن نذهب إلا لعند من يكون من ناحية السلطان وأهل الدولة .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ، استدعانا السلطان لليلة الرقص يعملها كل عام في داره في ذالك الوقت . فذهبنا إليه ، فإذا تلك القصور كلها قد امتلأت ببنات الروم البارعات في الحسن والجمال ، متجردات الأجياد والنحور ، رقاق الخصور ، ثقال الأرداف ، عراض الصدر ، يُخجلن بحسنهن الشموس والبدور . عليهن من الحِلي والحُلل ما لا يصفه واصف ولا يضبطه عارف ، قد شمرن عن أذرع كأنهن البرق الخاطف ، يبهرن العقول بلماهن المعسول ، ورشاقة القدود وحمرة الخدود ، وتثني الغصون وتليين المعاطف . ومعهن أضعافهن من الرجال لاكن النساء معتزلات على حدة ، بعضهن جالسات وبعضهن وقوف . ولم يحضر هناك إلا بنت مَن وزوجة مَن ومن ، كنساء السلطان وأقاربه ، وسائر وزرائه وعظماء دولته وخواص مملكته ، وليس فيهن فاجرات ولا عاهرت .

وبعد اجتماع الناس تكلمت الموسيقى وأخذوا في الرقص رجالا ونساء ، فيأخذ الرجل بيد المرأة ويجعلان يرقصان رقصا عجيبا ويمسكها من أيديها وهو يرقص معها .

---

(1) الجمعة 9 يناير 1846 موافق 11 محرم وليس 10 كما ذكر الصفار .انظر :

J. Mayr and B. Spuler, *Wüstenfeld-Mahler'sche Vergleichungs-Tabellen* (Wiesbaden, 1961), p.27.

أما سولت ، فهو نيكولا جان دو ديو سولت (Nicolas Jean de Dieu Soult) الذي شغل منصب وزير للحربية ، وكان رئيسا لمجلس الحكومة ، كما ارتقى إلى مرتبة مارشال فرنسا : (Maréchal de France) ، وهو بطل للثورة والحروب النابليونية . كان يبلغ من العمر خلال سنة 1846 سبعا وسبعين سنة . انظر :

Dictionnaire d'histoire de France Perrin, ed., 1981, s.v. "Soult ".

ومن أبلغ أنواع الرقص عندهم ، أن يمسكها الرجل من خصرها ، فيجعل ذراعه على خصرها ويضمها لعنده بلطافة بحيث لا يعصرها ، ويجعل يرقص معها . ورقصهم إنما هو بالدوران والإشارة بالقدمين ، ويرقص النساء وحدهن والرجال وحدهم . وتارة يمسك رجلان امرأة ويرقصان معها ، وليس ذالك عندهم عيبا ولا مُخلا بالمروءة ، فترقص المرأة بحضور زوجها مع غيره . وإذا ترادف عليها الرجال بحيث يطلقها هذا ويمسكها هذا رغبة منهم في الرقص معها ، فتنشط لذالك وتفرح له وتعظم في نفسها لكون رقصها مُعجبا . وقد رأيت السلطان بنفسه واقفا وأولاده ونساء أولاده وبناته يرقصون مع بعضهم بعضا ومع غيرهم ، وهو يفرح لذالك ويضحك[1] .

والحاصل هذا عندهم من الفرح الكبير والزهو العجيب ، الذي لا يأتي إلا مرة أو مرتين في السنة . ويبقون يرقصون ساعة ، فتسكت الموسيقى ويفترون للاستراحة ثم يعودون ، وهكذا إلى آخر اليل . ومن أحب من الحاضرين أن يستريح ، خرج إلى بيت آخر مُعد عندهم للاستراحة فيجلس فيه ، وأما في محل الفرجة فلا يجلس إلا النساء . ومن أراد الشراب أو التفكه بالفواكه أو الحلاوي ، خرج إلى بيت آخر فيه سائر ذالك ومعه خدمة يناولون من أراده طول اليل . حتى إذا فرغوا من الرقص واستقصوا فيه مجهودهم أمسكوا عنه ، فنصبت موائد الأطعمة والطبلات ، بل كانت تهيأ من أول اليل في موضع على حدته . وليس هذا الطعام إلا للنساء ، فاعتزل النساء كلهن على حدتهن في بيوت ، ثم حشدن لموضع الطعام وجلسن على تلك الطبلات فأكلن وشربن . ومن اعتنوا به من الرجال ، أجلسوه في بيوت عالية تشرف على ذالك المحل لينزه لواحظه .

قيل إن جملة من حضر هذه الليلة من الرجال والنساء أربعه آلاف ، النساء منهن خمس عشرة مائة . وكانت صيلان هذه الدار على كثرتها واتساعها مشحونة بالناس في غاية التزاحم والتضام ، بحيث لا يمكنك أن تشق بالمرور في وسطهم . وذكروا أن جملة ما يصرفه السلطان على هذه الليلة عشرون ألف ريال . وأما ما كان يوقد فيها من الشموع والزاجات فالآلافات التي لا تحصى .

---

(1) قارن بين هذا الوصف وما كتبه الغساني عند حديثه عن عادات الرقص وطرقه المعروفة عند الإسبانيين . انظر : افتكاك ، ص 30 .

دار كتبهم(1)

ومن الغد ذهبنا لدار الكتب السلطانية ، أعني خزانتها . وهي دار كبيرة لها أربع طبقات ، في كل طبقة خمسة أو ستة بيوت كبار عالية جدا . وكل جوانب البيوت من الأرض إلى السقف مملوءة كتبا في خزائن من الخشب ، وزيد في وسط البيت صناديق عالية صفا واحدا على طول البيت . وكل هذه الكتب بالتسافير الحمراء الجديدة الجيدة ، مرتبة أحسن ترتيب ، وكل واحد مكتوب عليه اسمه في ظاهر جلدته مما يُوالي المُواجه له(2) . وكل هذه البيوت في غاية الغاية من النظافة ، لا يوجد فيها زبل ولا غبار ، ولا عنكبوت ولا سوس في الكتب ولا بق ، ولا غير ذالك .

ولها قومة وخدمة يقومون عليها ويحفظونها ، وبيد كبيرهم مفتاح تلك البيوت . ولا يمنعون من أراد الدخول لها ، لاكن يدخل ويجلس في بيت معلوم في وسطه طبلة احتف بها كراسي للجلوس ، ويطلب من قيمها ما شاء من الكتب يأتيه به ينظر فيه هنالك ، وينسخ منه إن أراد ويطالع ما أراد حتى يقضي غرضه ويذهب ، ولا يرخص لأحد في إخراج كتاب واحد منها . وقومتها دائما فيها لا تقلق ولا تحجر ، ويعرفون أسماء جميع ما فيها من الكتب . فمهمى قلت لواحد منهم إيتني بالكتاب الفلاني ،

---

(1) يقصد الخزانة الملكية التي أصبحت تشكل اليوم جزءا من الخزانة الوطنية في بنايتها القديمة . أما في المغرب ، فغالبا ما كانت كبريات الخزانات ملحقة بالجوامع الكبيرة كما هو حال القرويين في فاس ، بينما توجد المجموعات الخاصة من الكتب في حوزة أسر كبار الأعيان والأثرياء ، انظر :

G. Salmon. "Catalogue des manuscrits d'une bibliothèque privée de Tanger " AM 5 (1905): 134-146; R. Basset. "Les manuscrits arabes de deux bibliothèques de Fès". *Bulletin de correspondance africaine*, 1, 7 (nov-dec 1883) : 366-393 ; P. Maillard. "bibliothèque de la grande mosquée de Tanger", *RMM* 35 (1917-1918): 107-192.

(2) كانت توضع الكتب وتنضد في خزانات البلدان الإسلامية بطريقة مكدسة ، وتكتب عناوينها فوق الحواشي السفلى لأوراق الكتاب المواجهة للمشاهد بدلا من أن تكون فوق ظهر الكتاب ، انظر :

F. Rosenthal. *Techniques and Approach*. p.11, note 3.

ذهب قاصدا إليه وأتاك به في الحين . وفيهم من يعرف العربية[1] ، فإذا دخلها عربي وجد من يفهم كلامه .

وهذه الكتب التي فيها على كل نوع : منها العربي مغربيه ومشرقيه مكتوبا بالقلم ومطبوعا بالاسطنبا ، ومنها العجمي بسائر أجناسه يوناني ولاطيني وهندي وتركي وقبطي وحبشي وفارسي ، وغير ذالك . طلبنا منهم الكتب العربية ، فأحضروا لنا مصحفا عظيما في مجلد كبير يحمله اثنان من الناس بينهما لكبره ، وهو خط مشرقي لم يُر مثله حُسنا وبهجة ورونقا وكمالا . ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب مما يستحسن أن يكون في خزانة ملوك الإسلام أظفرهم الله به وأنقذه من أيدي الكفرة[2] ، وهو في غاية من الحفظ والصون ، ولايلحقه من الأذى إلا مَسُّ المشركين له . فسألناهم من أين أتوا به ، فذكروا أنهم أتوا به من مصر عند تغلبهم عليها[3] .

---

(1) كانت تدرس اللغة العربية في باريز بمدرسة اللغات الحية منذ أواخر القرن الثامن عشر . وكان أبرز المستعربين الفرنسيين خلال تلك الفترة هو سيلفستر دوساسي (1758-1838) (Silvestre de Sacy) الذي أصبح في سنة 1824 مديرا للمدرسة الجديدة لتدريس اللغات الشرقية Ecole des Langues Orientales . وفيها تكون على يديه العديد من المتخصصين الذين اشتغل البعض منهم في الخزانة الملكية ، وبها أيضا عين دوساسي محافظا لقسم المخطوطات سنة 1833 ؛ بينما أصبح البعض الآخر تراجمة رسميين ، مثل أليكس دوكَرانج (Alix Desgranges) ، الذي كان يعرف العربية والتركية ، وأسندت إليه مهمة مرافقة البعثة المغربية في باريز . وكان دوساسي يعمل أيضا مفتشا للحروف المشرقية بالمطبعة الملكية انظر :

Henri Déhérain, *Orientalistes et antiquaires: Silvestre de sacy, ses contemporains et ses disciples* (Paris. 1983), pp.iii. vi. xvii, 1-12.

(2) قارن مع ما جاء عند أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي ، المعروف بأفوكَاي في كتابه : **ناصر الدين على القوم الكافرين** ، تحقيق ودراسة محمد رزوق (الدار البيضاء ، 1987) «فتغيرت حين رأيت كتاب الله تعالى بيد كافر نجس» ، ص .50 .

(3) اصطحب نابليون بونابارت معه في حملته على مصر سنة 1798 ، مجموعة من العلماء المستشرقين الذين تمكنوا من «اكتشاف» العديد من المخطوطات والتحف الإسلامية الثمينة ، التي انتهى بها المطاف فيما بعد إلى الديار الفرنسية . وكان من بينها هذا المصحف الكبير الحجم الذي ما يزال محفوظا ضمن مجموعات الخزانة الوطنية ؛ وكان موجودا في الأصل بجامع الأزهر في ==

وأحضروا لنا مصحفا آخر دونه ومصاحف أخر ، منها مصحف مكتوب في ورقة طويلة في آية الكرسي . وذالك أنهم كتبوا في هذه الورقة آية الكرسي بحروف كبيرة[1] ، وجعلوا حروفها بكتابة دقيقة جدا كتب فيها القرءان العظيم من أوله إلى آخره[2] . ثم أتوا لنا بموطأ الإمام مالك بخط أندلسي في رق[3] . ثم شرح العيني على الجامع الصحيح[4] ، ثم كتاب يسمى كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون[5] ، وغيرها من الكتب العربية لو تتبعنا النظر فيها لاستغرقنا فيها النهار . ثم أدخلونا سائر البيوت ، وأطلعونا على جميع ما فيها من الكتب في الجملة ، وكيف كان مثال الكتابة أولا وكيف صارت ثانية ، وكثير من أوراق كتابة الأولين .

وفيها زيادة على الكتب كثير من مئاثر القدماء كخواتمهم التي كانوا يتختمون بها والتي كانوا يختمون بها ، ودروع الحديد التي كانت للملوك يلبسونها في الحرب ، والدرقات والسيوف ودبابيس الحديد والشواقر ، وكل شيء من ذالك كان لصاحب له

= القاهرة ، حيث «أنقذ من الحرائق التي اندلعت أثناء ثورة 30 فنديميير (vendémiaire 21) (أكتوبر 1798) ونقل إلى فرنسا» . انظر :

Bibiothèque Nationale; Catalogue des manuscripts arabes, 2ème partie, "Manuscrits musulmans" Tome 1. 2 "Les Manuscrits du Coran", ed. F. Deroche (Paris, 1985), pp.60-61.

(1) توجد آية الكرسي كما هو معلوم في سورة البقرة ، الآية 225 .

(2) يوجد هذا المصحف الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر ، ضمن مجموعات الخزانة الوطنية في باريز . انظر :

Splendeur et majesté: Coran de la Bibiothèque Nationale (Paris, 1987), p, 57 entrée 26.

(3) من تأليف الإمام مالك بن أنس ، المتوفى في 795/197 ، وهو من فقهاء المدينة المنورة ومؤسس المذهب المالكي ، أحد المذاهب الأربعة المعروفة انظر : *SEI*, s.v "Malik b.Anas" .

(4) من تأليف أبي محمد محمود بن أحمد العيني ، وهو شرح لكتاب **صحيح البخاري** . وعنوانه الكامل : عمدة القارئ في شرح البخاري .GAL, 2: 52-53; *S* 2: 50-51

(5) من كتب التراجم ذات الأهمية الكبيرة . ويحتوي على أزيد من 14,500 مادة وترجمة . ألفه كاتب جلبي المعروف أيضا باسم حاجي خليفة ، وهو من أبرز علماء العثمانيين خلال القرن السابع عشر (توفي في 1657 ، 1067) . انظر : *EI* 2, s.v. "Katib çeleb" .

معين . وهم إذا ظفروا بحاجة ملك أو كبير أو شيء غريب ، حافظوا عليه وتركوه في خزائنهم عبرة إلى آخر الدهر ، ولم يضيعوه ولا يفرطون فيه . وكثير من سكك القدماء منها ما هو من مثل الحجر أو الحديد ، ومنها غير ذالك ، وكل سكك ملوك الأندلس وملوك المغرب . وكل سكة موضوعة في دارة صغيرة مكتوب عليها اسم سلطانها ومحلها ، فهي منزلة في مثل بيوت الجدول غطيت من فوق بزجاجة لتحفظها . وهناك كثير من أشكال مفاتح الأولين وأثاثهم ، من جملتها قدح من الذهب مرتفع على ساق صغير مرصع بالجواهر والأحجار ، زعموا أنه كان لهارون الرشيد[1] أرسله لهم مكافأة على مصحف كان عندهم ، وبعث له به سلطانهم . وكثير من مثاثر اليونانيين ، وما كانوا يجدونه من قلائد الذهب في قبور الجاهلية[2] التي كانوا يدفنونها معهم ، إلى غير ذالك من الأمور .

ومن بعد الغد أمر لنا السلطان بسرد العساكر ، واستدعانا للفرجة فيها مبالغة في إكرامنا والاعتناء بنا ظاهرا ، لأنه لا يفعل ذالك إلا لمن هو عنده في حظوة ، وزيادة في تبكيتنا والتنكيت علينا باطنا[3] . فذهبنا حتى وصلنا إلى دار كبيرة ، فأركبوا رءيسنا وبعض فرسانه على الخيل ، وأطلعوا باقينا لعالي تلك الدار ، فأشرفنا على ميدان كبير واسع ممتد ، والعسكر واقفون به يمينا وشمالا ، الخيل لجهة والرجالة في جهة . ولا ترى إلا بريق السيوف ولمعان التوافل ، وإشراف البيضات التي على رءوس البعض منهم ،

---

(1) هو خامس الخلفاء العباسيين (توفي في 809/193) ، اتسعت شهرته بفضل كتاب ألف ليلة وليلة . وترددت أقوال عن تبادل السفراء والهدايا بين هارون الرشيد وملك فرنسا شارلمان (Charlmagne) غير أن المصادر العربية لا تتضمن أي معلومات يمكن اعتمادها لتأكيد صحة تلك الأقوال . انظر :
Hitti, *History of the Arabs*, p. 298; *EI* 2, s.v."Harun al-Rachid".

(2) تطلق لفظة الجاهلية للحديث عن مختلف مظاهر الحياة التي كان يوجد عليها العرب قبل الدعوة الإسلامية . وقد استعملها الصفار هنا بمعنى العهود التاريخية القديمة . انظر : *SEI*, s.v. "Djahiliya" .

(3) أجري ذلك الاستعراض يوم السبت 17 يناير 1846 ، في موضع يسمى شان دو مارس (Champs-de-Mars) . وقد جمعت الفرق العسكرية من باريز وضواحيها لإعطاء صورة إلى السفير المغربي «عن مختلف أنواع الأزياء العسكرية الفرنسية العجيبة» ، فتحركت تلك الفرق «بدقة متناهية أدت إلى استغرابه الكلي وأثارت كل إعجابه» . انظر جريدة الإلوستراسيون *L'illustration*: ، بتاريخ 31 يناير 1846 ، وانظر أيضا اللوحة رقم 9 في هذا الكتاب .

وشعاع الدروع التي هم لابسونها على ظهورهم وصدورهم .

وكان في صدر الميدان ولد السلطان الأكبر مع باقي إخوته ، فأوقفوا رئيسنا معهم وجعلنا ننظر . ثم تحركت العساكر ، فانزاحت الخيل عن محلها ، وجعلت تذهب إلى طرف الميدان . وتزحزحت أيضا الرجالة ، فبينما هم وقوف ملتصقين ببعضهم بعضا إذا انفصلوا فصاروا أبراجا وجداول مربعة . ثم انفصلوا انفصالا آخر وصاروا جداول وصفوفا ، فأقبلوا لصدر الميدان ليتَسَرَّدُوا هنالك ، فانقسموا على ستة أو سبعة أقسام ، كل قسمة انقسمت أيضا على اثني عشرة قطعة . وكل قطعة على حدتها بكبير يقدمها بيده سيف مسلول ، مشتملة على ثلاثة صفوف ، كل صف فيه أكثر من ثلاثين رجلا ، دون صف أصحاب الموسيقا . فأول من يتقدم من القسمة ويسمونها الطرونبة[1] صف فيه ثلاثة عشر أصحاب الشواقير ، قد علقوا عليهم مكاحلهم وجعلوا شواقرهم على رقابهم ، وعليهم الجلود وعلى رأسهم برنيطة[2] طويلة سوداء كأنها جلد معز منتفخ . وفائدة تقدمهم إذا عرض في الطريق شجرة أو عود أو غابة ، أزالوا ذالك بشواقرهم وفتحوا الطريق .

ثم يتلوهم أصحاب الموسيقى في صفين يتقدمهم واحد بيده دبوس من حديد ، وخلفه صفان ، كلهم أصحاب الأطبال في كل صف ثمانية عشر . وخلفهما واحد بطبل كبير ، ومعه شخصان بهندقتين[3] كبيرتين من النحاس يضربان بهما . ثم بعدهم صفوف أصحاب الغيطات ومعهم شخص أو شخصان يحمل عمودا من صفر في رأسه قبة صغيرة فيها جلاجل فيضرب بكفه على العمود فتتحرك تلك الجلاجل ، وذالك من تمام الموسيقى .

ويتلوهم صفوف العسكر كل قطعة على حدتها ، مشيتهم خطوة واحدة يرفعون

---

(1) وهذا تحريف من الصفار للمفردة الفرنسية تروب (troupe) ، أي فرقة (المعرب) .

(2) انظر الهامش رقم 13 أعلاه ، ومعناها قبعة .

(3) المعنى واضح من خلال السياق ، ويتعلق الأمر بصفحتين نحاسيتين دائريتين متوسطتين ومسطحتين تضرب إحداهما بالأخرى في الفرق الموسيقية الكبيرة ، واسمها بالفرنسية سيمبال (cymbale) ، وفي العربية : الصنج وجمعها صنوج (المعرب) . أما لفظة هندقة التي استعملها الصفار هنا ، فلم نعثر عليها في أي من القواميس وتعني في المغربية الدارجة إحداث ضجيج وهرج ومرج في مناسبة ما قد تعبر عن الفرح أو القرح .

أرجلهم معا ويضعونه كذالك . ولا يخرج أحد منهم من الصف لا يمينا ولا شمالا ، ولا يفارق موضعه . وإذا وصل الصف إلى ركن الميدان وأراد أن ينعطف إلى صدره ليجعل صدر الميدان عن يمينه ، فيقف الطرف الذي هو من داخل الميدان حتى ينعطف الطرف الذي هو من جهة الركن حتى يستوي الصف ، ثم يتقدمون جميعا .

وفي حال الانعطاف المذكور ، يواجههم كبيرهم الذي يتقدمهم ويمشي القهقرا[1] ، وهو يشير لهم بالدبوس[2] التى في يده ، يمدها على كفيه يشير لهم بها لتقدم من يريد تقديمه وتأخر من يريد تأخيره . يريهم كيفية الانحراف حتى يستقيموا كلهم ، فيتقدمون جميعا إلى صدر الميدان . وأصحاب الموسيقى الذين يتقدمون أولا ، إذا وصلوا صدر الميدان تصفقوا ووقفوا يضربون في ألاتهم حتى تمضي طرنبتهم كلها ، فينصرفون مع آخرها . وهكذا في كل قطعة وطرونبة حتى مروا عن آخرهم . وكلما حاذى كبيرهم الواقفين صدر الميدان ، رد ذبابة سيفه للأرض إشارة للسلام عليهم ، فيردون عليه بنزع البرنيطة من على رءوسهم . ولا يمر آخر طرونبة حتى يكون أول التي تليها في إثرها من غير تراخ ولا فصل ، وكذالك الفصل بين الصفوف يكون متساويا لا تفاوت فيه . وكل طرونبة لها راية ، ورايتهم صغيرة يحملها واحد في طرف صف من الصفوف الأخيرة ، ولا يجعلونها في المقدم . وكان لهم فيها رايات ممزقة بما لاقته من الحروب ، أبقوها كذالك ولم يجددوها افتخارا بما لاقته ، وزيادة رفعة لأهلها ولمن يحملها حيث صبر عليها .

وكان يمر مع بعض القطع في آخرهم امرأة لابسة لباس العسكر تمشي بمشيتهم ، معلق عليها صندوة صغير من الشراب له بزبوز من عطش سقته . ومعهم أيضا طبيب خلفه خادمه ومتعلمه ومن يحمل له آلة طبه . وكل عسكري حامل قرابا[3] خلف

---

(1) هكذا : في النص الأصلي للرحلة ، والصحيح هو القهقرى (المعرب) .

(2) جمعها دبابيس ، وهي عصا قد تكون من خشب أو من حديد طولها قدمان تقريبا وفي رأسها شيء متميز كالكرة أو ماشابهها ، بالفرنسية (massue) *Dozy* 1: 423 . غير أن الصفار يعني بها هنا العصا التي يستعملها رئيس الفرقة الموسيقية لتسيير أعضائها (المعرب) .

(3) القراب في اللغة هو الغمد وجمعه أقربة . وفي المغرب نوع من القفف ذات شكل دائري تسمى القراب بتسكين القاف . ويقصد بها الصفار هنا ما يشبه الكيس أو الحقيبة الصغيرة التي يحملها الجنود فوق أكتافهم . *Dozy* 2: 133 (المعرب) .



لوحة 9 : مراسيم الاستعراض العسكري في شان دور مارس (Champs-de-Mars)

عن جريدة الإلوستراسيون L'Illustration ، 31 يناير 1846

ظهره فيه ما يمكنه حمله من مأكول وغيره . وعلى فم ذالك القراب ثوب مقنط لعله فراشه ، وبيده مكحلته وعليه سيفه . ويعلق عليه أيضا ما يجعل فيه البارود والقراطيس وإقامات الحرب . وهذا كله مبالغة في الحزم ، فإذا أمره كبيره بالسفر ، يجد نفسه مستجمعا لكل ما يحتاج إليه .

ثم بعد أن مرت جموع الرجّالة ، تلتهم أصحاب المدافع ثم الفرسان . وكان عندهم هنالك أربعة وعشرون مدفعا من مدافع الاثني عشر ، كلها تشرق لصقالتها وصفائها ، في أربعة صفوف . كل صف فيه ستة مدافع ، وكل صف من المدافع يتلوه صف آخر يحمل إقامتها في ربيعتين[1] لكل مدفع . وكل مدفع على كريطته يجرها ستة من الخيل ، اثنان أمام اثنين . ولكل مدفع عشرة من الطبجية يباشرون عمارته وإخراجه وجره ، ثلاثة منهم راكبون على ثلاثة من الخيل ، وباقيهم راكب على المدفع وعلى كراريط إقامته ، ويعلق على كل كريطة فردة كريطة أخرى يحملونها احتياطا ، ليلا ينكسر لهم شيء من ذالك ، فيجدون خلفه قريبا حاضرا ، حتى مرت صفوف المدافع كلها بإقاماتها .

ثم أقبلت الخيل تتلوهم ، انقسموا أيضا أقساما وقطعا كما تقدم العسكر الرجلي . وأول من يتقدمهم أصحاب الموسيقى راكبين على خيولهم ، لاكن إنما هم أصحاب الغيطات وليس فيهم أطبال . وهاؤلاء الخيالة أنوع : منهم طائفة بأيديهم سيوف مسلولة ومكاحلهم قصار معلقة عن يمينهم . ومنهم طائفة بالرماح فقط ، في رأس كل رمح رقعة صغيرة مثلثة اللون بيضاء وحمراء وزرقاء ، يُرى لها خفقان واضطراب من بعيد ، زيادة في الإدهاش والإرهاب ، يفزعون بها كما يفزعون ببريق السيوف المسلولة والتوافل والبيضات التي على رءوسهم . ومنهم طائفة بالبيضات على رءوسهم[2] .

(1) مفردها رُبيعة بتسكين الراء ، ومعناها هنا صندوق يستعمل لحفظ البارود ، واستعمال هذه اللفظة شائع في العامية المغربية -التي غالبا ما تعني صندوقا من حجم صغير يحتفظ فيه بالأشياء الثمينة . لكن من الممكن أن تكون الربيعة كبيرة الحجم ، كما هو حال الصندوق الذي يوضع في أضرحة الأولياء لتجمع فيه الهبات النقدية المقدمة من طرف الزوار . انظر : *Harrell*, p. 123

(2) أشار ابن خلدون في المقدمة إلى مدى وقع التأثير النفسي للرايات والموسيقى أثناء المعارك ، فقال إن الهدف من «نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون» هو إرعاب العدو . وأضاف قائلا : «إن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك ، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه [. . .] لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية» . المقدمة ، النسخة العربية سابقة الذكر ، ص258 .

ومنهم طائفة أخرى لابسين الدروع على صدورهم وظهورهم . كما أن العسكر الرجلي أيضا كذالك ، كل طائفة لها عمل خاص من مباشرة الحرب ، قائما أو راقدا على جنبه ، وإطفاء النيران إن وقعت في العسكر ، وهكذا حتى مروا عن آخرهم .

ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا ، لما رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم ، ووضعهم كل شيء في محله ، مع ضعف الإسلام وانحلال قوته واختلال أمر أهله . فما أحزمهم وما أشد استعدادهم ، وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم . وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم ، لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين ، إنما ذالك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب ، واتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم .

إن صدرت من واحد منهم زلة أجروا عليه شريعتها ، سواء كان رفيعا أو وضيعا . وإن ظهرت لأحد منهم مزية أرقوه درجتها ، لا يطمع أحد منهم في غير ما هو له ، ولا يخاف على ما في يده أن يُنزع منه . فعلى ذالك يبذلون مهجهم في المعارك ، ويلقون بأنفسهم في المهالك . ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب ، مع كفرهم وانمحاء نور الإيمان من قلوبهم ، وما راءٍ كمن سمع الخ . اللهم أعد للإسلام عزته ، وجدد للدين نصرته بجاه النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن الغد وبعده ، ذهبوا بنا لقصرين من قصورهم السلطانية ، أحدهما يسمى بَاليرُويَال[1] ، والآخر يسمى لُوفْر[2] ، وكل منهما قصر عظيم ضخم مشيد . فالأول مشتمل على أثاث البيت كله عندهم التي يكون عند الملوك ، لاكنه غير مستعمل بل مستور محفوظ مصون يتعاهده الخدمة كل وقت وهو فارغ لا يسكنه . وفيه أثاث سلطانهم المتولي الآن وتصاوير أقاربه وأحواله ، وكيف كان في أول نشأته وبعد ذالك إلى أن تولى المملكة .

وأما قصر لُوفْر ، وهو قريب من القصر الآخر ، فهو فارغ لا يسكنه أحد ولا أثاث . وفيه من التصاوير والتماثيل ما لا يحصى : منها أجسام من الحجارة ونحوها ، ومنها نقوش ورقوم . فكان هناك كثير من صورتي مريم وعيسى بزعمهم ، وتصاوير صور الماضين من سلاطينهم وتصاوير صور اليونانيين ، ومنهم سقراطس وفلاطون الحكيمان ، وصور أصحاب الطوفان ورجالهم حين وصل إليهم الماء وهم يتعلقون

---

(1) ويقابلها في الفرنسية (Palais Royal) .

(2) ويقابلها في الفرنسية (Le Louvre) .

بالشجر ، وبعضهم يتعلق ببعض .

وبناء هذا القصر من أرفع ما يكون وأبدعه . ومن جملة ما فيه ، أثاث وحوائج من آثار القدماء . ومن جملة ما فيه ، ذوات أموات مصبرة بعد طلائها بأنواع الأطلية التي تصبر معها الذات . وهي مكفنة بثياب فيها رقم وتخطيط ، وجعلوا لها في ظاهر الكفن وجها له عينان كبيران وحاجبان سوداوان كأنه شخص حي ، زعموا أن هذه الأجسام توجد بمصر . وكان أوائل أهل مصر ، إذا مات لهم ميت فعلوا به ذالك وتركوه في داره ، ولا زالوا يوجدون بمصر تحت الأرض . وأخبرني بعض من حضر منهم ، أنه قبل ذالك بعام حضر للفتح على ذات منهم اشتراها واحد منهم من مصر وقدم بها ، فحلّ عنها ذالك الكفن بعد معالجة شديدة لأنه كان مطليا بالقار ، فألفوها ذات امرأة وهي عندهم في هذا المحل . منها ما هو ممدود على صناديق في وسط البيوت ، ومنها ما هو في خزانة واقفا .

ورأيت الكلام عليها في تأليف صغير من تتاليفهم في التاريخ ، وأن أهل مصر كانوا يفعلون بها ما ذكر ليلا يغيب عنهم الميت . وكان الواحد منهم إذا استسلف مالا من أحد أو ابتاع منه بدين ، رهنه صورة من تلك الصور كصورة أبيه أو بنته ونحو ذالك إلى أن يؤدي الدين فيردها ، ولا يسمح فيها ويتركها ولو فداها بنفسه[1] .

ومن جملة ما في هذا البيت ، بيوت عديدة في طبقة من طبقاتها فيها تصاوير مراسي بلادهم ، وقدر كل واحدة وعمارتها وما تتميز به عن غيرها . وفيها أمثلة أنوع المراكب حقيقة لا تصويرا ، بل هي مراكب صغار كمثال البابور والنابيوس الكبير عندهم والذي دونه والفراكَط وبابور البر ، وكيفية إنشاء المركب من أول مرة ، وأين يوضع وهكذا . وكل مركب بإقاماته وصواريه وأحباله وسلاسله ، وغير ذالك من إقامته وإن كان صغيرا . وفيها كثير من آلات الحرب القديمة ، كالأقواس والدرقات والدروع والرماح وغير ذالك . وفيها أمثلة المدافع كبارا وصغارا ، نظير ما ذكر في المراكب ، ففيها من ذالك ما يستحسن النظر إليه . والحاصل هو قصر مشيد ضخم ظريف مزخرف ، لولا كثرة ما فيه من التصاوير فإنها تقبح حسنه .

---

(1) خلال عصر البطالسة ، وفي مدافن الأموات حيث كانت تحفظ المومياوات الملكية ، كان بإمكان الكهنة أن يولوا اهتمامهم للمومياوات التي كان «يمكنهم التصرف فيها بالبيع والشراء بموجب عقد أو ما إليه» . انظر : *Encyclopaedia Britannica*, 11ème ed. "Mummy"

وفي غد ذاك اليوم ذهبنا لدار من ديار تعلمهم يسمونها دار الفزِكْ[1] ، وهو اسم علم عندهم ، ويترجمون عنه بعلم الطبائع وبعلم الكيمياء . ومداره على علم معرفة طبائع ذوات الأشياء ، كجذب المغناطيس الحديد وتموج الهواء بالصوت الذي يسير فيـه ، وغيـر ذالك مما لم نعرف له اسمـا . وفي هذه الدار آلات غـريبـة وأشكال عجيبة[2] .

(1) إن كلمة فزك من تعريب الصفار ، أخذها عن لفظة (physique) الفرنسية . وقال إنها تعني «علم دراسة الأشياء الطبيعية» ، غير أن واقع الأمر استعمل المصطلح بمفهوم أوسع ، يشمل في معناه «العلوم التجريبية» حيث عاين الصفار إجراء تجارب في الكهرباء السكونية والضغط والموجات الصوتية والتكبير الظاهري بواسطة العدسات المكبرة . وقدم الطهطاوي للصفار مساعدة طفيفة في الموضوع ، على الرغم من إشارته إلى أن الكمياء كانت من العلوم الموجودة في فرنسا ، فقال إنها تهدف إلى «معرفة تحليل الأجزاء وتركيبها (. . .) وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة كما يظنه بعض الناس فإن هذا لا تعرفه الإفرنج ولا تعتقده أصلا» . تخليص ، ص 22. ؛ *L'or*, p.57..
واستعمل خير الدين التونسي أيضا مصطلح الفزك بالمعنى نفسه ، أي التجارب العلمية ، انظر :
Khayr ad-Din at Tunisi (trans. Brown), *The Surest Path*, p. 109 note 112.
وكانت « دار الفزك» تسمى وقت وجود الصفار في باريز : كونسرفتوار دي زار إي ميتيي (Conservatoire des Arts et Métiers) ، أو معهد الفنون والصنائع ، وتعرف اليوم باسم آخر هو : موزي ناسيونال دي تكنيك (Mussée National des Techniques) أو المتحف الوطني للتقنيات حيث لا تزال جل الآلات التي شاهدها الصفار . انظر :
AAE/ADM/Voyages "Visites dans Paris".

(2) إلى حدود أيام محمد الصفار ، لم تكن العلوم في المغرب قد عرفت أي تطور يستحق الذكر منذ زمن ابن خلدون . لكن غياب التجديد لم يكن يعني عدم وجود اهتمامات بالقضايا العلمية ، لأن الطلبة استمروا مع ذلك في دراسة النصوص القديمة الموروثة عن قرون خلت ، لاحتوائها بصفة أساسية على قضايا علمية في مواضيع تتعلق بممارسة الشعائر الدينية ، كما كان حال علم الفلك لضبط أوقات الصلاة ، والهندسة لتحديد اتجاه القبلة في المساجد . انظر :
H. P. J. Renaud, "L'enseignement des sciences exactes et l'édition d'ouvrages scientifiques au Maroc avant l'occupatin européenne", *Hesp.* 14, 1 (1932): 78-89.

فأول ما لقينا فيها دائرة مربعة من قنانيط صفر واقفة على سوقها ويتصل بها غير ذالك من الحركات من أعلاها[1] . وفي وجه منها زجاجة كبيرة على شكل دائرة الناعورة تحرك تلك الزجاجة بيد كيد الناعورة ، فتدور كما تدور الناعورة . فإذا دورت هذه الزجاجة وقرب شخص يده من تلك القنانيط ، خرج له منها مثل البرق في لونه وسرعته . إلا أنه نُقط نُقط مترادفة ، فتؤثر في يده كأنما ضرب بشيء يؤلمه ضربة سريعة ، لاكن لا يبقى لها بعد ذالك أثر وجع ولا غيره كما يبقى من أثر الضرب الحقيقي .

وأعجب من هذا ، أنه وقف شخص في حال تدوير الزجاجة ، فأمسك بيده كرة من صفر متصلة بالقنوطة المواجهة للزجاجة ، فجعل شعر رأسه ينتفش ويقف شعرة بعد شعرة ، وأمسك تلك الكورة بيده اليمنى ، ومد يده اليسرى متباعدة منه ، فقرّب شخص منها يده ، فخرج له من تلك اليد الممدودة ذالك البرق الذي كان يخرج أولا من القنانيط . مع أن الماسك لا يتأثر بشيء من ذالك ولا يخرج له ، ولا يقال إن للواقف الماسك حيلة في عدم تأثره بذالك ، فإنه وقف واحد منا وأمسك تلك الكرة بيده فلم يتأثر بشيء . وقرب منه شخص آخر ، فخرج له من يده نقط النار المذكورة . وتلك القنانيط مسدودة من كل جهة ، ويزعمون أن ذالك مثال لبرق السماء ، وأنه ينشأ عن انضغاط الهواء بعضه ببعض ، كما تنشأ النار عن الانضغاط الواقع بين

== وكان الصفار نفسه شديد الاهتمام بعلوم التوقيت كما يخبرنا بذلك محمد داود ، تطوان 7 : 93 . وسبق للفقيد الأستاذ محمد المنوني أن أطلع سوزان ميلر على نسخة لمخطوط تحت عنوان : نصرة بعض المتأخرين لمحراب مسجد القرويين ، مكتوب بخط محمد الصفار ، وهو في موضوع اتجاه القبلة بجامع القرويين في فاس ، وزارة الثقافة ، جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات لسنة 1973 ، رقم 220 .

(1) استعمل الصفار لفظة «حركة» بمعنى قوة محركة ، إشارة بذلك إلى مختلف الأشكال الجديدة والغريبة لأنواع الطاقة الكهربائية والبخارية والميكانيكية المستخدمة وقتئذ لتشغيل عدة آليات في فرنسا . أما لفظة «قنوطة» ، فأصلها من الإسبانية (canete) ، وتعني في اللهجة الدارجة التطوانية البكرة من الخشب أو القصب التي يكبب فيها الخيط أو الحرير بشكل يجعل استعمالها هينا عند الحاجة . الخطابي ، مشاهدات ، ج 2 ، ص 43 ، الهامش17 . وهنا يقدم الصفار وصفا مفصلا لتجربة في الكهرباء السكونية .

الحجر والحديد .

ثم انصرفنا عن هذا ووقفنا في موضع آخر ، فرأينا فيه لوحة مجوفة وفي داخلها حركة . ويمتد من جانبيها خيطان فيهما لَيٌّ وتجعيد كأنهما من سلك الحديد ، لفّ عليهما خيوط أخر من الحرير أو نحوه ، وفي طرف هذين الخيطين قنوطتين صغيرتين من نحاس ، فإذا حركت الحركة التي في باطن اللوحة حدث في الخيطين ارتعاد واضطراب ، فإذا أمسك شخص القنوطتين اللتين في طرف الخيطين مع تلك الحركة ، ارتعدت عروق يده من داخل ارتعادا لا يقدر أن يصبر معه ، فيرسلهما من يده في حينه . وزعموا أن تلك الحركة تمتد ما امتد الخيطان ولو إلى أقصى البلاد ، فمن أمسكهما وحركت الحركة ارتعدت عروق يده ولو كان بينه وبينها مسافة بعيدة . وفائدة ذالك الإعلام بالخبر كما سيأتي قريبا .

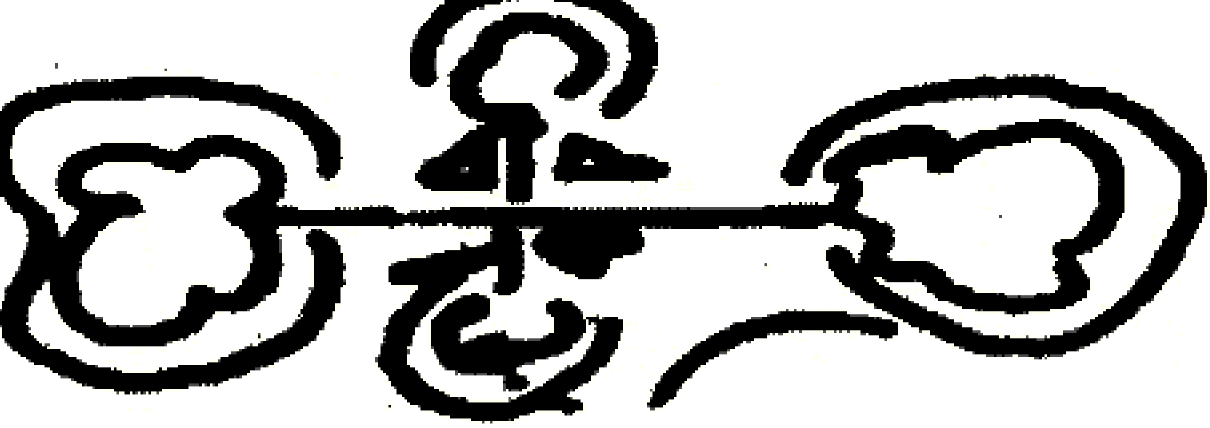
ثم عمد شخص منهم إلى لوحة في وسطها جعبة صغيرة نافذة ، ولها طراشة[1] تُغلق بها وتُفتح ، فجاء بزجاجة على شكل قادوس صغير إلا أنها غير نافذة ، فقلبها على اللوحة وصارت تلك الجعيبة في وسطها ، وأحكم إنزال الزجاجة على اللوحة بحيث لم يبق من بين حواشيها وبين اللوحة متنفس ، ثم فتح تلك الجعيبة وأطلع فيها النفَس بثالة حتى ريء بُخاره خارجا من فم الجعبة يدور داخل الزجاجة وينزل إلى تحت . ثم أغلق الجعبة واستحكم ذالك النفس داخل الزجاجة ، فلزقت الزجاجة مكانها حتى لا يقدر أحد أن يرفعها ، ولو استعان بغيره من ثقل الهواء الذي هو داخلها ، حتى يتنفس ذالك الهواء وحينئذ ترتفع . وذالك عندهم مثال لكون الهواء إذ لم يجد منفذا ، فإنه يثقل على ما نزل عليه ثقلا لا يقدر معه على النهوض والتحرك .

ثم انصرفنا من هذا الموضع فوقفنا في موضع آخر ، فأتى شخص بلوحة من نحاس صغيرة ، وشدها بلولب يدخل في وسطها وتنزل عليه مرتفعة عن الأرض حتى لا يبقى لها الطنين ، ثم درَّ عليها رملا أسود رقيقا وعمد إلى قوس كقوس الكمنجة وأصلحه وجعل يجر على حرف تلك اللوحة فيسمع لذالك صوت حاد . وجعل ذالك الرمل يضطرب وتحدث له أشكال ودوائر كأنما صنعت باليد ، ولا يصنعها

---

(1) سبق شرح معناها في الهامش رقم 54 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

إلا عارف بالدّابد[1] والآلة وهذا مثالها بإشارة :



رسم 1 : تجربة خاصة بالموجات الصوتية

هكذا في الجملة ، وإلا فهي أتقن من هذا وأحسن . ويزعمون أن ذالك الطنين هو الذي أحدث تلك الأشكال والدوائر . وذالك عندهم مثال لكون الهواء يتموج بالصوت ، ويحدث فيه بالصوت هالات تنتشر مثل ما حدث في الرمل من ذالك الصوت ، فهو مثال لإدراكه بالحس . ومثله أيضا إذا ألقيت حجرا في الماء ، فإنه يحدث في الماء أدوارا وهالات ، وتنتشر حتى تبعد عن النظر . ومقصودهم بذالك أن يتوصلوا به إلى معرفة المدة التي يبلغ فيها الصوت من موضع إلى موضع .

ولهم في هذا المحل آلات كثيرة على ضروب مختلفة وأشكال متباينة ، ولا يعرف نتيجة ذالك إلا هم . ومن جملة ما رأيناه في هذه الدار ، آلة تكبر الذوات الصغيرة ، أي تصيرها كبيرة في رأي العين . وذالك بأن أغلقوا بيتا وجميع ما فيه من الطيقان حتى صار مظلما ظلمة حالكة ، وأتوا بنحو فنار ، إلا أنه ليس من الزجاج بل من الخشب أو النحاس ، وفيه ثقب صغير عليه زجاجة صغيرة جدا قدر الأنملة ، وأوقدوا في داخله قطعة شمع وأغلقوه ، وجعلوا ذالك الثقب قبالة الحائط ، فيضعون شيئا وإن كان دقيقا جدا على تلك الزجاجة ويلصقونه فيها بما يمكن أن يلصق به ، فينطبع في الحائط في ضوء تلك الزجاجة أعظم ما يكون وأكبره . فكان يظهر في شوكة النحلة سبعة أشبار وتظهر كأنها شطبة . ووضعوا عليها القملة فظهرت كالنسر ، ووضعوا عين

(1) أصله الضابط ، وهو أداة حديدية أو خشبية يستعملها بعض الحرفيين أو الصناع ، فحرفت إلى دابد للتخفيف . الصبيحي ، **معجم** ، ص 116. (المعرب) .

الذبابة فظهرت كالغربال الكبير وكلها ثقب كثقب الغربال . ووضعوا عليه لسان ضفدع صغيرة فانطبع في الحائط أعظم ما يكون ، وظهرت عروقه كلها كبيرها وصغيرها ، ويظهر الدم يجري في تلك العروق ذاهبا وراجعا في أسرع ما يكون ، كأنما هدمت قرية نمل دقيق فتراه يجوح في بعضه بعضا . ثم وضعوا قبالها خمير دقيق طال شيئا ما حتى تغيرت رائحتها ، فظهر فيها دود أمثال كبار الحنوش تكعكع وتلتوي على بعضها بعضا ، وفي خارج ذالك لا يظهر فيها شيء . ويضعون هناك قطعة لحم من لحوم الحيوانات ، ويرون ما حدث فيها من التغيرات .

ثم فرغوا من هذا وأتوا بزجاجة نافذة من جهتين ، في أسفلها عمود من حديد ، وينزل عليه من فوق عمود آخر ويلتقيان برأسيهما ، وفي طرف كل عمود منهما شريطة من نحاس ، وتتصل الشريطة بعمل وأوان وحركات . فإذا التقى العمودان برأسيهما ، حدث من بينهما نور عظيم أضاء له ذالك البيت مع شدة إظلامه ضوءا عظيما . وقالوا لو أرادوا أن يجعلوا هذا فوق محل عال من باريز ترى منه باريز كلها لأضاءت بذالك كلها ضوءا يغني عن الفنارات . ثم وضعوا بين رأسي العمودين قطعة فضة فذابت بسرعة ، ووضعوا فيه معدنا آخر زعموا أن النار لا تعمل فيه شيئا فذاب بسرعة . وإذا والت إحدى الشريطتين الأخرى ، خرجت من بينهما نار مثل البرق . وإذا أمسكها أحد بيده وبلّه بالريق ، ارتعدت عروقه من داخل حتى لا يصبر ويرسله بسرعة . وإذا أفسخوا تلك الشريطة من العمل الذي هي متصلة به ، لم يبق فيها شيء من ذالك . وهذا العمل أواني صغار من الحديد متصلة ببعضها بعضا بقطعة نحاس صغيرة ، جملة منها في ناحية وجملة في ناحية قبالتها ، وإحدى الجملتين منفصلة عن الأخرى ، ويربط من كل عمل شريطة من الشريطتين المذكورتين ، فيخرج منهما ما ذكر . وانظر ما في تلك الأواني من الحكمة .

ومن أعجب ما رأيناه في هذا المحل وأغربه ، حركة يصل بها الخبر من محل إلى محل في لحظة ، وإن كان بعيدا مع استيفائه واستيعابه لأنها بالكتابة[1] . وبيان ذالك

(1) كان التلغراف الكهربائي لا زال يخطو خطواته الأولى أنذاك . وفي سنة 1844 صوت البرلمان على ميزانية لإنشاء أول خط تلغرافي بين باريز وروان (Rouen) ، غير أن استعماله لم يصبح رهن إشارة عموم الفرنسيين إلا مع حلول سنة 1851 .

La Grande Encyclopédie Larousse, ed 1886., s.v. "Télégraphe"; Pinkney, *Decisive Years*, p.58-59.

أنهم جعلوا دائرة من صفر مصمتة كوجه المكانة ، وبسطوها ورشموا في دائرتها الحروف كلها وحركاتها من فتحة وضمة وكسرة لأنها عندهم حروف أيضا . وهذه الدائرة مسمرة في كرسي مُنزلَة عليه مبسوطة ، وفي جانب كرسيها الذي هي منزلة عليه ثقب بعدد الحروف ، تحت كل حرف ثقب . ثم عملوا قبالتها دائرة أخرى فيها الحروف كلها أيضا ، إلا أنها قائمة لا مبسوطة ، وفي وسطها موري[1] يصل رأسه للحروف . ووصلوا بين الدائرتين بخيطين ، أحدها من جانب والآخر من الجانب الآخر ، وكأن الخيطين من سلك فيهما تجعيد .

فإذا أراد المتكلم أن يتكلم مع صاحبه بكلمة ، عمد إلى أول حرف منها في الدائرة المبسوطة ، فغرز إبرة في الثقب الذي تحت ذالك الحرف ، ويدورها حتى يحصرها خازوق[2] هنالك . وفي حال حركة هذا الحرف ، يتحرك الموري الذي في الدائرة الأخرى ، فيجعل يدور حتى يصل لذالك الحرف فيقف عنده ، ثم يشير لحركته فيشير لها الموري أيضا ، وهكذا فكلما أشار الأول لحرف ودور الدائرة الأخرى لذالك الحرف حتى يقف عنده . وهكذا حتى يستوعب ما شاء من الكلام مع صاحبه ، مع فهم كامل وتبليغ تام في أبلغ سرعة . زعموا أنه لو اتصلت هذه الحركة بين هاتين الدائرتين ، لوصل الكلام من الأولى للثانية إذا كان بينهما ماية ألف وخمسة عشر ألف ساعة في ثانية من الثواني التي هي سدس عشر الدقيقة . وهذا أمر يكاد يحيله العقل ، لاكن من شاهد ذالك لا ينكره . اختبرناه بكم من كلمة ، فإذا أشير إلى الحرف في الدائرة الأولى ، لم ندرك أن ننقل بصرنا منها إلى الدائرة الثانية ، حتى يكون الموري قد وقف عند الحرف المشار إليه . وزعموا أنهم وصلوا هذه الحركة من باريز إلى أورليا[3] وبينهما تسعون ميلا . وأنها عندهم أيضا مُوصلة من

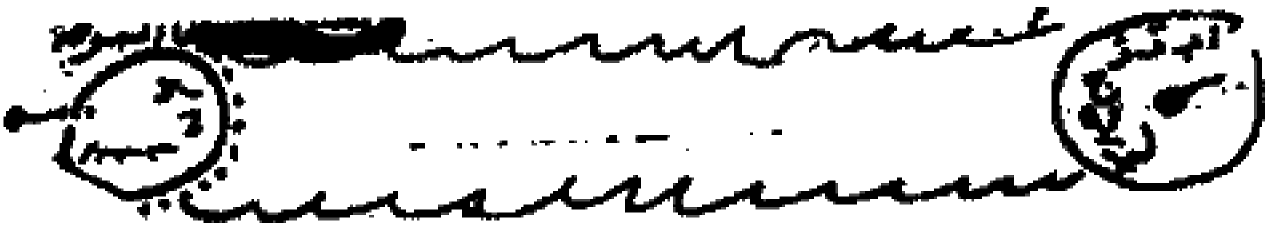
---

(1) لا يعرف أصل هذه الكلمة ، غير أن معناها واضح من خلال السياق ، والمقصود بها هنا هو المؤشر الشبيه بعقرب الساعة (المعرب) .

(2) جاء تعريفه عند البستاني كالتالي : «عبارة عن وتد طويل حاد الرأس كان يستعمل من جملة العقوبات لمن يستحق القتل [. . .] وذلك بأن يدخل في إست المحكوم عليه فيخرق أحشاءه ويصعد في جوفه» ، أورده الصبيحي ، معجم ، ص 115 . أما معناها هنا فواضح من خلال السياق ، فهو بمثابة قضيب حديدي يلعب هنا دور الحاجز (المعرب) .

(3) أي أورليان ، وبالفرنسية هكذا (Orléans) .

القمرة التي يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم إلى دار السلطان بعمل مغيب تحت الأرض . ووُكل بها من يحفظها من الجهتين ، فيكلمون السلطان من القمرة ، وهو في داره ويرد عليهم الجواب وبينهما مسافة طويلة . وهذه صورة ذالك في الجملة بتقريب :



رسم 2 : التلغراف

فالدائرة التي في جانبها الشاخص القائم هي المبسوطة ، والنقط الدائرة بها هي الثقب التي تحت كل حرف ، فيدخل فيها مثل الإبرة ويدور حتى يقف عند ذالك الشاخص . والدائرة الأخرى هي القائمة ، والذي في وسطها هو الموري . وما امتد من إحداها للأخرى هما الخيطان فيهما تجعيد ويرتعدان عند الأخذ في الحركة ، وهذا من العجب ، انتهى .

دار الإصطنبا، أعني طبع الكتب

وفي يوم الخميس ثالث عشر الشهر ، ذهبنا لدار طبع الكتب المسماة بالإصطنبا[1] ، وهي أيضا من أعاجيب الصنائع . ولتعلم أولا ، أن الحروف التي

---

(1) الكلمة ، مأخوذة عن الإسبانية إستانبا (estampa) ، وهي المطبعة ، و المقصود بها هنا المطبعة الملكية . ولما كان الصفار كاتبا وله اهتمامات أدبية ، فليس من المستغرب أن يولي عنايته الكبيرة لآلة الطباعة . و كانت أول مطبعة في المغرب قد أدخلت إلى فاس ابتداء من 1865 من الصنف الحجري ، وهناك طبعت فيها كتب غالبيتها في مواضيع دينية . وظهرت أول مطبعة تيبوغرافية في طنجة سنة 1880 ، غير أن استعمالها لم يشمل الكتب العربية إلا في أوائل القرن العشرين . وعن تاريخ الطباعة في المغرب انظر : محمد المنوني ، **مظاهر** 1 : 201-251 ، بالإضافة إلى الدراسات التالية :

G. Ayache, "L'apparition de l'imprimerie au Maroc", *H-T* 5 (1964): 143-161; Fawzi

يطبعون بها مسامير من قزدير أسفلها غليظ وأعلاها مشحوذ وفيه الحرف ، منها ما هو حرف واحد ومنها ما هو حرفان متصلان . إذا كانا يكتبان كذالك ، فيعمد إلى الحروف الذي يريد أن يكتبها ويجمعها في لوحة على مقدار الورقة المطبوعة ، وينزلها مرتبة بسطورها على كيفية الرسم ، ويشدها في اللوحة ببعضها بعضا بثالة حتى لا يختل ترتيبها ، فتكون محكمة في اللوحة ، ثم يطليها بالمداد وينزل عليها الورقة ويعصرها بَرْبَار[1] فتخرج الورقة مكتوبة كلها . هذه الإشارة إلى كيفيتها في الجملة ، ولنذكر ما رأينا في هذه الدار تفصيلا .

فأول ما دخلنا بيت فيه أفران ومعلمون يفرغون الحروف . والإفراغ يكون في قالب من نحاس على قدر ذالك المسمار ، والحرف محفور فى أسفل القالب هكذا مثلا س لحرف السين . فإذا دخل القزدير المذاب في القالب ، فإنه يخرج بذالك الحرف في رأسه ، لاكنه في أسفل القالب مستقيم ويخرج في المسمار معكوسا ، فإذا طبع به جاء الطبع مستقيما كما هو الشأن في كل طابع . وهذا عمل هاؤلاء يفرغون الحروف على اختلاف أشكالها عربية وعجمية ، وينزلونها صبة واحدة .

ثم بعدهم بيت آخر فيه عَمَلَة وخدام أكثر من الأولين ، عملهم تصويب تلك الحروف بإصلاحها وتمليسها وتسويتها وإزالة الشناقيب التي تخرج في جوانها ، وهكذا تصير في أحسن تقويم مستقيمة متساوية . بحيث إذا أنزلت في لوحة الطبع ورُتبت يكون سطحها شيئا واحدا ، ليس فيها أعلا ولا نازل ليستقيم بها الطبع ولا يخطئ حرف موضعه . ثم بعدهم عملة آخرون يفرقون الحروف من بعضها بعضا ، وينزلون

Abdulrazak. *The Kingdom of the Book: The History of Printing as an Agency of Change* == *in Morocco between 1865-1912* (Unpublished Ph.D.dissertation, Boston University, 1990).

وانظر تعريبنا لهذه الأطروحة : فوزي عبد الرزاق : مملكة الكتاب : تاريخ الطباعة في المغرب ، 1865-1912 . تعريب خالد بن الصغير ، صدرت ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة ، رقم 3 ، 1996 (المعرب) ؛ وانظر أيضا فوزي عبد الرزاق ، المطبوعات الحجرية في المغرب (الرباط ، 1989) ، وفيه لائحة كاملة بجميع المطبوعات الحجرية الصادرة في فاس .

(1) المقصود بها هنا أداة للضغط المحكم ، *Dozy* 1 : 618 ، (المعرب) .

كل شكل على حدته في لوحة ذات بيوت كثيرة ، كل بيت يُملأ بحرف خاص .

ثم بعدهم بيت آخر فيه النساخون[1] . وعملهم أن يوتون بالكتاب الذي يريدون طبع مثله بورقة منه مثلا وينزلها النساخ أمامه ، ويأخذ في يده اللوحة ويرتب فيما الحروف مثل ما هي في الورقة . فينزل أولا السطر كله في حديدة حتى يكمل ، ثم يضعه في اللوحة ، ثم يعدل سطرا آخر وينزله ، وهكذا حتى يعمر لوحته على قدر ما فيها من الأسطر . وحروفها مثل الحروف التي في الورقة ومرتبة ترتيبها ، فيفعل هذا صانعه المذكور وإن كان لا يعرف الكتابة والقراءة ، يكفيه أن يعرف مقابلة الحروف بمثلها . فاختبرنا واحدا منهم ، وكتبنا له بيدنا سطرا ، فأنزله كما هو بحروفه وترتيبها . ثم قلنا له افسخه ففسخه ، وكانت أربعة وثلاثين حرفا ، فرد كل حرف في بيته الذي ينزل فيه بسرعة ، أخذها بيده جملة ثم جعل يفرقها في بيوتها كأنما يدِرّ درورا على شيء ، فلم يخط في حرف واحد منها بإنزاله في غير محله مع غاية السرعة ، فتعجبنا منه غاية العجب . فإذا رتبت الحروف في اللوحة ، دخلت ليد عملة آخرين .

فدخلنا بعد هذا بيتا فيه صهاريج من ماء ، ورُزم الكاغيد منزلة على حواشي الصهاريج . وذالك أنهم يغمسون الكاغيد أولا في الماء ، فيدخلون أربع أو خمس ورقات جملة في الماء . ثم يخرجونها ويضعونها على حاشية الصهريج حتى يسيل عنها الماء ويذهب عنها بعض البلل .

ثم بعدها بيت آخر فيه آلات ودوالب ، وهي على نار لا تُرى ينشف فيه الكاغيد من البلل المذكور . على كل دولب ثلاث خدامات ، واحدة تُدخل أوراق الكاغد في الدولب ، وأخرى تأخذ الأوراق الخارجة من الدولب فتدخل الورقة مبلولة ، فتدور في الدولب فتخرج يابسة بحرارة نار هناك باطنية . ثم تدخل هذه الأوراق ولوحة الحروف لبيت الطبع ، وهو على نوعين : أحدها باليد والآخر بالدولب . فأما الأول فيحتاج إلى ثلاثة أناس ، فيأخذ أحدهم لوحة الحروف وينزلها في محلها التي تنزل فيه على شيء مرتفع أمامه . وإذا نزلت المرة الأولى فلا تعود ترتفع من محلها حتى يفرغ من الطبع بها . وءاخر بيده جلدة مطوية على عود يطليها أولا بالمداد ، ثم يمرها على الحروف التي في اللوحة ليسودها بالمداد . ومدادهم ليس سائلا كمدادنا ، بل يعطي الصبغ من غير سيلان . ثم يأخذ الأول الورقة التي يريد طبعها بيضاء ، ويجعلها على لوحة أخرى ،

---

(1) كما يبدو من السياق ، فإن الصفار يعني بذلك مصففي الحروف .

ويفصل بينها وبين اللوحة بما يمنع وصول الوسخ لها . ثم ينزلها على لوحة الحروف ، ويطبق عليها من فوق بثالة رزينة من الحديد بحركة يديرها ، ثم يفتح عنها فتخرج الورقة مطبوعة . فيأخذها شخص آخر هو ثالث العملة ، ويطبعون على تلك اللوحة ما شاءوا من الأوراق ، ماية و ألفا أو عشرة آلاف كلها متماثلة . وكذالك يفعلون في ورقة أخرى وأخرى ، حتى يأتوا على آخر أوراق الكتاب . فيوم يتم الكتاب ، يخرج معه ألف كتاب مثلا . وإذا توفرت الشروط فلا تبقى كلفة في الطبع ، ففي الساعة الواحدة يطبع المئين من الورقات .

والنوع الآخر من نوعي الطبع يكون بالدولب ، تارة يدوره شخص وتارة يدور وحده بحركة البابور أو بالماء الجاري كالرحى . فيجلس واحد ويأخذ الورقة ، فيطعمها الدولب فيبتلعها الدولب ، وتدور فيه حتى تمر على لوحة الحروف ، فتنفصل عنه مكتوبة ، فيأخذها شخص آخر ، وفيه تلك الجلدة تأخذ المداد من محل هنالك ، وتنزل على الحروف فتَسْوَد . كل ذالك بالحركات لا باليد ، ففي دورة تنزل الورقة على الحروف فتنطبع ، وفي دورة أخرى تنزل عليها جلدة المداد فتُسوِدُها والحركة متصلة . وهذه اللوحة التي فيها الحروف ، إذا فرغ من الطبع بها فُسخت منها تلك الحروف ووضع فيها حروف أخر ترتيب ورقة أخرى . وقد يتركونها بحروفها ويرتبون غيرها في لوحة أخرى ، فيتركون الكتاب كله مرتبا في ألواحه ، فإذا أرادوا طبعه مرة فلا يتكلفون لترتيب حروفه مرة أخرى . رأينا عندهم بيوتا فيما ألواح كتب معينة مرتبا فيها حروفها .

وبعد فراغ الكتاب من الطبع ، إن أرادوا تسفيره فهناك صنعته أيضا . فيدخل لبيوت أخر ، أحدهما تقصص فيما حواشيه بحركة البابور تحرك السكين حتى تمرها على حواشي الأوراق فتقصصها . وبيت آخر تُزَيِّرُ فيه بثالة ، بأن تجمع رزم من الكاغيد وتجعل بين لوحين ، أحدهما من فوق والآخر من أسفل بين أعمدة من الحديد وتحرك بالماء حتى تنحصر لأعلا فذالك زيّارها . وبيت آخر فيه عمل التسفير ، فتدخل لهذه الدار الأوراق بيضاء ويخرج منها الكتاب مُسفّرا .

وأعجب ما رأينا عندهم من آلة الكتابة ، نوع خاص يطبع لك الكتاب بأي خط شئت ، عربيا أو عجميا ، مغربيا أو مشرقيا ، أو كيف ما شئت . وذالك أنهم يأتون بالورقة مكتوبة بمداد خاص يصنعونه مستحمر اللون كمداد الجوز ، فيضعونها على حجرة عندهم ، ويشدون عليها ثم يحلون عنها فتنطبع الكتابة في الحجرة كما هي في

الورقة . ثم يطبعون على تلك الحجرة ما شاءوا من الأوراق بعد أن يدهنوا الحجرة بذالك المداد فتخرج الأوراق مكتوبة بمثل الكتابة الأولى من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تغيير . كتبت بيدي سطرا بذالك المداد في ورقة ، ووضعوها على الحجرة فانطبعت فيها الكتابة . ثم طبعوا على الحجرة ورقة أخرى ، فخرجت بمثل ذالك السطر بعينه . فمن أراد طبع ، بل تعديد كتاب بما شاء من الخطوط ، فينسخه أولا بذالك المداد ثم يطبع منه ما شاء ، فيخرج الخط الأول بعينه[1] .

وجملة ما في هذه الدار من الخدمة ثمانمائة ، وخدمتها دائمة مستمرة لا تفتر ، حتى يتعجب الإنسان أين تدخل هذه الكتب ، ولاكن كل شيء عندهم مدون في الكتب . ولا ترى عندهم مكانا خاليا من الكتب ، لهم بها استيناس واستفادة . ولا يتكلون على حفظهم في شيء من الأشياء خوف النسيان والضياع كما قيل :

العلم صيد والكتابة قيده
قيد صيودك بالحبال الموثقة
ومن الجهالة أن تصيد حمامة
فتتركها بين الأوانس مطلقة

ومما قيل في الكتب :

سميري إذا جالسته كان مسليا
فؤادك مما فيه من ألم الوجد
يفيدك علما أو يزيدك حكمة
وغير حسود أو مصر على حقد
ويحفظ ما استودعته غير خائن
ولا غافل عهدا على قدم العهد

(1) يتعلق الأمر هنا بالطباعة الحجرية . وكان العلماء التقليديون معجبين بها جدا ، لأنها تغني عن المرور من مرحلة تصفيف الحروف ، وتقلل بالتالي من فرص الوقوع في الأخطاء . كما تمكن في الوقت نفسه من الحفاظ على مختلف نماذج الخطوط اليدوية عبر الزمن . فوزي عبد الرزاق ، **المطبوعات** ، ص 8 ، بالإضافة إلى الهامش 61 أعلاه .

وقال الآخر :

إذا ما خلا الناس في دورهم
بخمر سلام وخود كعاب
وجادت لهم حسنات الزمان
بعز الندامى وجود السحاب
خلوت وصحبي كتب العلوم
وبنت عروسي بنت الكتاب

وقال آخر :

إذا ما خلوت من المؤنسين
فإن أنيسي لي دفتري
فلم أخل من شاعر محسن
ومن عالم صالح منذر
ومن حكم بين أثنائها
فوائد للناظر المفكر
وإن ضاق صدري بأسراره
فأودعته السر لم يظهر
وإن صرح الشعر باسم الحبيب
فلم أحتشمه ولم أحصر
وإن عدت من ضجرة بالهجا
وسب الخليفة لم أحذر
فلست أرى مؤنسا ما
حييت نديما عليه إلى المحشر

وقال آخر :

أنست إلى التفرد طول عمري
فما لي في البرية من أنيس
جعلت محادثي وأنيس نفسي
وأنسي دفتري بدل الجليس

قد اسفيت عن فرسي برجلي
إذا سافرت أو بغل كبوس
وبطني سفرتي والجيب خرجي
وهمياني فمي أبدا وكيسري
وبيتي حين يدركني مساءي
وأهلي كل ذي عقل نفيس

انتهى ما يتعلق بدار الإسطنبا .

ثم بعد ذالك بنحو يومين ، ذهبنا لموضع يسمونه ٱلْبَنْطِيُوا[1] وهو بناء عال جدا . وهو قبة عالية ارتفاعها من الأرض بنحو ربعماية ذراع ، ودارت بها أبنية . وهذا المحل تظهر منه باريز كلها ، وإذا كنت في أعلاه ترى الناس في الأرض كأنهم صبيان صغار . وهذا الموضع مدفن عظمائهم ، وقبورُهم في مخادع تحت الأرض في صناديق من الحجر موضوعة على وجه الأرض وبها جثتهم مغلق عليها . وإلى جانب ذالك الصندوق ، زلافة مغلق عليها فيها قلب ذالك الميت ينزعونه منه ويطلونه بما يحفظه ، ويجعلونه في تلك الزلافة ويغلقون ، إشارة إلى أنه كان ذا قلب . وهناك تصاوير آدميين عظام الأجسام بيد واحد منهم تاج ، زعموا أنها صورة الزمان ، وأن من مات من الملوك نزع منه تاجه وألبسه آخر ، فهم يفنون ويموتون وهو لا يموت ، وبيد آخر سيف زعموا أنه الدين .

ومن خرافاتهم هنالك ، أن عمد قيم ذالك الموضع إلى ثقب في ركن وله منفذ تحت الأرض ، فجعل فمه عليه وأخذ يسئل الأموات ويجيبه صدا من تحت الأرض ، فيقول ما معناه ، كيف أنتم ويقول بخير ، فيجيبه الصدا بخير كأن الأموات يجيبونه ، وهو يجيب نفسه بنفسه . ويضرب في جلدة هنالك ، فيسمع تحت الأرض دوي عظيم كالصواعق ، كأن الأموات لهم هنالك مدافع يدفعون بها عن أنفسهم .

---

(1) البانتيون ويقابله بالفرنسية (Le Panthéon) ، بُني في القرن الثامن عشر ليكون كنيسة . وعند قيام الثورة الفرنسية كرس من جديد لخدمة الآلهة القديمة ، ويعتبر من المدافن الرئيسية لكبار الشخصيات وعظمائهم في فرنسا .

وبعد ذالك بأيام ، حثوا علينا في الذهاب لقصرين من قصورهم السلطانية خارج باريز ، أحدها ببلدة يقال لها سَنْكْلُو[1] ، والآخر ببلدة أخرى يقال لها فِرْسَانْ[2] وهما قريبان من باريز . فذهبنا إليهما ، فإذا هما من القصور المشيدة ، احتف بكل واحد منهما بستان عظيم ، فيه أشجار أنيقة ومياه متدفقة ، وخصص وصهاريج وتماثيل كلها تبزق الماء الزلال . ومما رأيناه في واحد منها طبلة من الرخام ، زعموا أنها كانت خشبة وألقيت في الماء وبقيت فيه حتى صارت رخامة ، وذالك عندهم خشب مخصوص . واعتناؤهم في البساتين غالبا إنما هو مد الطرقات وتعديلها ، وتنقية الأشجار حتى تكون مستوية مع بعضها بعضا من فوق ومن تحت . وفيها جلسات وتربيعات وأشكال النباتات ، وبيوت للنباتات التي لا يخرجونها زمن البرد . والماء بها كثير ، ولا يدرك لها طرف لكبرها .

وغالب ما رأيناه في قصور في فِرسانْ تصويرات الحروب من أول الزمان إلى الآن ، لاكن لا يصورون إلا الحروب التي كانت لهم فيها الغلبة ، ولا يصورون أنفسهم . ومما يحكى ، أن شخصا مر بالسوق فرءا الناس ، مجتمعين على صورة رجل وأسد تعاركا فغلب الرجل الأسد ، فذهب فلقي أسدا فأخبره بما رءا فقال له : «لو كان الأسد يعرف التصوير لرأيت ما يفعل ، وحيث لا يعرفه ، فليصور كل واحد ما شاء» .

وفيه تصاوير كبرائهم وعظمائهم وسلاطينهم وشجعانهم ورهبانهم ، منها ما هو من الحجارة ومنها ما هو نقش ورقوم . فرأينا عندهم هناك صورة دخولهم مدينة الجزائر ودخولهم مدينة القسمطينة . وصورة تغلبهم على تلك النواحي كلها . وصورة السلطان العثماني عبد المجيد ، وصورة محمد بن علي باشا مصر . وغالب درج هذا القصر من المرمر الملون ، وفيه مواضع وبيوت كانت لسلطانهم لويز السادس عشر[3] . ولما مات بقيت تلك الأماكن على هيئتها بجميع أثاثها ، يحفظ ويصان حتى فراشه ومواضع جلوسه وتاجه وكنيسته ، الكل باق على حاله إلى آخر ما هنالك من الزخارف .

---

(1) سان كلود ، ويقابلها بالفرنسية (Saint Could) .

(2) يقصد فرساي وبالفرنسية هكذا : (Versailles) .

(3) وهو ملك فرنسا الذي أعدم هو وزوجته ماري أنتوانيت (Marie Antoinette) بمقصلة الثورة الفرنسية والتي لم يقل عنها الصفار شيئا على الإطلاق في متن رحلته ، انظر :

Dictionnaire d'histoire de France Perrin, ed 1981., s.v."Louis XVI".

وفي رابع عشر صفر، ذهبنا للقمرتين الكبيرة والصغيرة(1). والقمرة دار يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم والكلام في أمورهم. وبناء موضع الاجتماع قبة على شكل بناء التياترو في أرضها انحدار، وكلها مصففة بالكراسي. وفائدة الانحدار، ليروا كلهم من يكون أمامهم. وعند انتهاء الكراسي مرقاة على شكل المنبر، إلا أن درجها من جانبها.

فمن يريد التكلم يصعد تلك المرقاة حتى يكون مشرفا على الجالسين، ويتكلم بما يريد أن يتكلم به. وكل واحد من الجالسين أمامه الدواة والقلم والكاغد. فالمتكلم يتكلم، وهذا يكتب حتى يذهب ويخلو ويتأمل في ذالك الكلام، فيوافق عليه أو يرده بحجته. وإن ظهر لأحد من الجالسين أن يعارض ذالك المتكلم بمعارضة قريبة، قام عن كرسيه وتكلم معه. وإن كانت المعارضة طويلة، فحتى تصل له نوبة التكلم ويصعد ذالك المنبر ويقول ما بدا له.

وخلف ذالك المتكلم ثلاثة من الناس، وظيفتهم إذا طال الكلام في مسئلة، أن يمضوا الحكم فيها ويقطعوا الكلام. وذالك بقانون معلوم به يقع ترجيح أحد الجانبين، منها الحكم لأكثر العدد. فإذا قال عشرة كذا، وقال عشرون بخلافهم، فالحكم بما قاله العشرون، ولو زاد أحد الفريقين على الآخر بشخص واحد.

---

(1) معناها هنا مجلس، (Chambre). ويعني بالقمرة الكبيرة شامبر دو باير (Chambre des Pairs)، أي مجلس النبلاء. والقمرة الصغيرة، شامبر دي ديبوتي (Chambre des Députés). وكانت تعقد الأولى في قصر اللكسمبورغ (Palais du Luxembourg)، والثانية في قصر البربون (Palais bourbon). ويؤكد الصفار أنه زار كلا المجلسين. إلا أن الغالبية العظمى من كلامه في هذا الجانب المتعلق بالسلوك السياسي للحكومة الفرنسية مأخوذ عن الطهطاوي. انظر: تخليص، ص 93-106؛ *L'or.*, pp.132-139. بل نجد الصفار يتبنى استعمال مصطلحات الطهطاوي مثل ملك، بدلا من سلطان الذي اعتاد استعماله في رحلته. إن الدستور الذي صدر في عهد الملك لويس الثامن عشر (Louis XVIII) سنة 1814 وراجعه لوي فليب (Louis Philippe) عام 1830 قد حافظ على محدودية الاقتراع ومنح امتيازات عريضة للنبلاء وطبقة الملاكين انظر:

La Grande encyclopédie Larousse, ed 1972., s.v. "France".

وهذا هو شكل القمرة الصغيرة أيضا . والفرق بينهما أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك ورءساء الدولة وتعضد أمرها . ومن وظيفتها ، تجديد قانون مفقود أو إبقاء قانون موجود على حاله . والصغيرة تحامي عن الرعية وتنصرها وتطلب حقوقها ، فكأنها خصم للأخرى . ولا يحضر القمرة الكبيرة إلا من بلغ عمره خمسة وعشرين سنة ، ولا يستحق الكلام فيها إلا إذا بلغ الثلاثين ، إلا إذا كان من أقارب الملك ، فإنه يدخلها من صغره ، ولا يستحق الكلام فيها إلا إذا بلغ خمسا وعشرين سنة . والذين يحضرون في القمرة الكبيرة ، غالبهم رؤساء الدولة من الوزراء والقضاة والحكام ، وكبراء معلومون لذالك .

والذين يحضرون في الصغيرة هم وكلاء الرعية يبعثونهم من سائر البلاد ، وعددهم أربعمائة ونيف . ويشترط فيهم وفيمن ينتخبهم للإرسال ، شروط معلومة عندهم : منها أنه لا يدخل هذا الديوان ويستحق الكلام فيه إلا من بلغ أربعين سنة ، وأن تكون له أملاك يؤدي عنها لبيت مالهم في خراجها ألف فرنك . ومن شرط من ينتخبهم أن يبلغ عمره ثلاثون سنة ، وأن تكون له أملاك يؤدي عليها ثلاثماية فرنك فأكثر في العام . وهذا الديوان[1] لا يفتح إلا من رأس السنة لرأس السنة ، ولا يفتح إلا إذا أمر السلطان بفتحه . ومتى أراد إبطاله أبطله ، بشرط أن يجدد آخر بأناس آخرين ، وأن لا يزيد في تجديد الآخر على ثلاثة أشهر . ولا يمضي قانون من قوانينهم ولا حكم من أحكامهم ، إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة والقمرة الكبيرة ، والسلطان ووزراؤه . وأما أحكام النوازل والجزءيات ، فهي عندهم مدونة في الكتب . ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام ، لاكن لا يمضي حكم إلا إذا أنفذه أمره . وهو أعظم أهل الدولة : فهو الذي يأمر وينهى في عساكر البر والبحر ، وهو الذي يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين أهل ملته وغيرها ، وهو الذي يولي المناصب الأصلية ويجدد بعض قوانين وسياسات ويأمر بما يلزم ويمضيه . لاكن بعد اتفاق من ذكر عليه ، وهو الذي يتولى الإمضاء . انتهى ما يتعلق بالقمرة .

---

(1) الديوان من الأسماء المستعملة عند العثمانيين ، بمعنى «مجلس للدولة يضم كبار موظفي الدولة ويرأسه السلطان أو الصدر الأعظم» ، انظر : Naff and Owen, *Studies*, glossary, p.409.

وبعد ذالك بيومين ، ذهبنا لمدرسة من مدارس تعليمهم ، فيها إحدى عشر ماية وخمسة وعشرون متعلما[1] . منهم ستماية بدُورهم يذهبون ويجيئون للتعليم ، ومنهم خمسماية وخمسة وعشرون مقيمون بها ، وفيها أربعون معلما وأربعون ناظرا ، وهي دار كبيرة جدا . والمقيمون بها لهم فيها أكثرهم ومثواهم وفرش نومهم وموضع مرضهم وبيت الطبيب وءالات الطب والعقاقير وموضع الاستحمام ، ومواضع لوضع ملابسهم ومواضع يغسلون بها وجوههم في الصباح ، والكل في غاية النظافة والإتقان .

ويُتعلم فيها الحساب والهندسة ، والفلسفة واللسان وعلم الفِزيكْ والكيمياء والطبيعيات ، وكيفية التصوير والتشريح . ويتعلم فيها أيضا القفز والتعلق بنحو السور ، والمشي على الأشياء الرقيقة والمشي في الهواء بعد أن يأخذ بيده مخطافا يتعلق به ، ويغرزه في شيء أعلا وينقله وهو ماش معه . والقفز على الأشياء المرتفعة كحبل ممدود وغير ذالك مما يعد عند بعض الناس لعبا ، وهو عندهم علم من العلوم يقرأ ويدرس ويتعلم بالكيفية حسا . ومن قانون المتعلمين بها ، أنهم يأكلون في الساعة الثانية عشر من النهار . وفي حين أكلهم يقف واحد في مرقاة هنالك ، ويسرد عليهم كتابا من علم التاريخ ونحوه ، ليلا تذهب تلك اللحظة ضائعة . وبعد فراغهم من الأكل يُوذن لهم في اللعب ، فينهضون يلعبون ويثِبون ويتسابقون ، ويبقون كذالك نصف ساعة ثم يرجعون إلى شغلهم .

ثم ذهبنا لموضع آخر من مواضع التعليم ، إلا أنه تعليم صغير . وذالك أن هذا المحل يجتمع فيه أولاد الفقراء الذين يذهب آباؤهم وأمهاتهم لأشغال يعملونها ، ويبقون الأولاد وحدهم فيجتمعون في تلك الدار . وفيها متعلمة تعلمهم شيئا من الأدب والحروف وابتداء القراءة ، ليلا يبقوا في الأزقة هائمين ولا يكون اجتماعهم هنالك من غير فائدة . وتعلمهم كيفية القيام والقعود والإقبال والإدبار وملاقات الناس والتسليم عليهم ، وكيف يأخذون ألواحهم وكيف يمحونها ، وكيف يمشون مشية واحدة

---

(1) من المحتمل جدا أن يكون المقصود هنا مدرسة البوليتكنيك : (Polytechnique Ecole) التي أسست عند اندلاع الثورة الفرنسية وبها يتم تهييء الطلبة لمتابعة دراستهم العلمية والتقنية العليا ، انظر : *Grande encyclopédie Larousse*, ed. 1973, s.v. "Polytechnique, école".

في صف واحد على هيئة مشية العسكر . وتعزل الذكور على حدة والإناث على حدة ، وكلهم صغار من نحو أربع سنين ، فإذا بلغوا ست سنين لم يبق للإناث اجتماع بالذكور .

ثم ذهبنا لموضع آخر يتعلم فيه الصبيان . فأول ما يتعلمون حرفا واحدا ، ثم حرفين ثم ثلاثة الخ الحروف . ثم حرفين مركبين وثلاثة أحرف ، ثم كلمة ثم كلمتين ثم جملة كلام الخ ، ثم رجعنا .

وبعد ذالك بيومين خرجنا من مدينة باريز ورجعنا من حيث جئنا ، والحمد الله رب العالمين .

الفصل السادس
خاتمة في بيان مداخلهم

خاتمة في بيان مداخلهم ووجوه جباياتهم ومخرجها ، وفي ضمن ذالك بيان بعض قوانينهم .

اعلم أن من قوانينهم أن يجتمعوا كل سنة في القمرتين ، ويحدثون قوانين لم تكن أو يقرون ما كان منها موجودا . ومن جملة ذالك ، أنهم يقدرون جبايات العام وما يصرف فيه من بيت مالهم بموافقة السلطان وأهل الرأي منهم ، فقدروا ذالك في عامهم هذا على عادتهم . وذالك الذي يقدرونه من الداخل والخارج ، يكتب في كتاب ويبرز للناس ، وتطبع منه عدة كتب تباع وتشترى ، فحصل في يدنا كتاب هذا العام ، وفسره لنا بعض تراجمهم[1] .

ومن قوانينهم أن جعلوا ذالك الداخل يدخل بيد وزير الخزنة[2] أعني أمين بيت مالهم ، ويخرج على يد الوزراء جميعا ، كل واحد وما يخرج على يده . وبيان ذالك أنهم رأوا أن السلطان وحده لا يستقل بأمور الرعية كلها ، فأراحوه من تكلف المشقة في ذالك ، واتخذوا عدة أناس ، سموهم وزراء ، وكلفوا كل واحد بأمر خاص وجعلوا

---

(1) وعنوان هذا الكتاب هو :

Recueil des lois de finance et autres lois de la session de 1844 (Paris, Imprimerie Royale, 1846). AN/ADXIX/F-28/1844-1846.

(2) أي وزير المالية أو الخزينة ، ويقابله بالفرنسية : (Ministre du Trésor) .

نظره قاصرا عليه[1] وهم تسعة وزراء :

الأول وزير الخزنة ، أعني بيت مالهم ويدخل بيده جميع جبايات فرانسا ، ومنها يخرج أيضا ، ويدفع لكل وزير ما يصرف في على يده ، ويقال إن له من الكتاب خمس عشرةماية .

والثاني وزير الأمور الخارجية ، ووظيفته النظر في كل ما هو خارج فرانسا وعمالتها ، من نصب القنصوات في البلاد وبعث الباشادورات للبلاد ، وتولي الكلام مع المملكات الخارجة عنهم ، ويبعث للأقاليم من يتجسس الأخبار وينظر في أمور من عندهم ببلادهم من النواحي الخارجية ، وعلى يده يكون مصروف جميع ما يتعلق بالأمور الخارجية .

والثالث وزير الأمور الداخلية ، أعني ما هو داخل سلطنة فرانسا . وله النظر في تولية الحكام[2] في سائر البلاد ، وتفقد مصالح البلدان وضبط أمور الرعية ، وغير ذالك مما يتعلق بالأمور الداخلية . وهو بمنزلة القائد عندنا ، إلا أنهم يجعلون واحدا كبيرا ويجعل على يديه النياب في البلاد .

والرابع وزير محكمة الدين والشرع[3] ، وله النظر في أمور الكنائس وتولية القضاة والشهود ، وغير ذالك مما يتعلق بدينهم وشرعهم .

والخامس وزير المدارس ، وهو ناظر تعليم العلوم[4] . وله النظر في أمور التعليم

---

(1) إلى حدود أربعينيات القرن التاسع عشر ، كان الجهاز المخزني في مستوياته العليا بسيطا إلى حد بعيد . حيث كان يتكون فقط من السلطان ومن الصدر الأعظم الذي كان في الوقت نفسه مستشارا ومنفذا لأوامر السلطان . وكان يسهر على تحرير المراسلات المخزنية عدد صغير من الكتاب . ولم يعرف المغرب وجود وزراء مستقلين بالمهام الموكلة إليهم إلا بعد حلول عهدي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859–1873) وخلفه السلطان مولاي الحسن (1873–1894) . انظر المنوني ، مظاهر ، ص 30–92 ، بالإضافة إلى كل من :

Laroui, *Origines*, p .88; Lahbabi, *Le gouvernement marocain*, pp.131-139.

(2) ويقصد الصفار بذلك رؤساء المقاطعات والولايات المحلية (préfets) . انظر الفصل الثاني الهامش رقم 56 في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

(3) أي وزير العدل والشؤون الدينية ، ويقابله بالفرنسية : (Ministre de la Justice et des Cultes) .

(4) وزير المعارف ، أو وزير التربية الوطنية ، ويقابله بالفرنسية (Ministre de l'Instruction Publique) .

ونظام المدارس والمكاتب ، ويبعث للأقاليم من يأتيهم بعلم جديد ولو في أمور الغرس والنبات ، ونحو ذالك إذ هي من جملة علومهم .

والعالم عندهم هو من له قدرة على استكشاف الأمور الدقيقة واستنباط فوائد جديدة ، وإقامة الحجج السالمة من الطعن على ما أبداه ، ورد ما عارضه به من عداه . وليس اسم العالم عندهم مقصورا على من يعرف أصول دين النصرانية وفروعها وهم القسيسون ، بل ذالك ربما كان عندهم غير ملحوظ بالنسبة لغيره من العلوم العقلية الدقيقة[1] .

والسادس وزير التجارة والزراعة ، ووظيفته النظر في كل ما يتعلق بهما . والسابع وزير البناء والطرق والقناطر[2] ، وما يتعلق بذالك .

والثامن وزير الحرب وله النظر في كل ما يتعلق بالبحر من العساكر ونظامها وءالاتها وإقاماتها ، وله النظر في المدافع والبارود والسلاح ، وكل ما يتعلق بأمور الحرب كلها .

والتاسع وزير البحر[3] وله النظر في المراكب وتعليم علوم البحر والصنائع التي تخصه وسائر الأمور البحرية .

وسائر ما يصرفونه من المال ، يكون على يد هاؤلاء الوزراء بموافقة السلطان[4] ، كل واحد وما إلى نظره . فإن وافق المصرف وجه الصواب بُرئ منه دافعه ، وإلا أغرمه الوزير الذي دفعه . وأما السلطان فلا يطالَب بشيء ، وإن كان موافقا على الدفع ، إذ من جمله شرائعهم وقوانينهم ، أن الملك محترم لا يُتعرض له ، وأن الوزراء هم

---

(1) قارن مع ما أتى به الطهطاوي في هذا الباب ، تخليص ، ص .161 ؛ L'or, pp.187-188. وكان ابن خلدون يرى أن الإنسان العارف أو العالم هو الشخص الذي حصل على معرفة معينة انطلاقا من الممارسة ؛ وحسب ما جاء عند فلاسفة القرن الرابع عشر ، فإن «التعليم العلمي» هو عبارة عن «حرفة» أو «عادة» يتعلمها الإنسان من خلال تكراره إياها إلى حين بلوغ درجة الإتقان ، انظر : *Muqaddimah* 2: 426, 3 : 299-300.

(2) وزير الأشغال العمومية ، ويقابله بالفرنسية (Ministre des Travaux Publiques) .

(3) وزير البحرية والمستعمرات ، ويقابلها في الفرنسية : (Ministere de la Marine et des Colonies) . وربما أقصى الترجمان لفظة «المستعمرات» ، لأن فيها إشارة ضمنية إلى الوجود الفرنسي في الجزائر .

(4) يبدو أن عبارة «بموافقة السلطان» قد أضيفت في مرحلة لاحقة في الهامش .

الكفلاء[1] .

فمِمّا يُصرف على يد وزير الخزنة ، فلأهل البنكوا وهم الذين يدفعون المال لخزنتهم ويأخذون ربحه كل عام مايتا مليون واحد وثمانون مليونا ونصف . والحساب كله على الفرنك الذي هو خمس الريال[2] .

ومن قوانينهم إذا احتاجوا لعمل طريق أو إجراء نهر أو نحو ذالك ، ولم يكن عندهم ما يفي بذالك ، فيتسلفون من التجار ما ينفقونه في ذالك ويعطونهم فائدته ما دام عندهم حتى يردوه . فكان الذي لزمهم في هذا العام في ذالك : عشرة ملاين ومائة ألف وخمسة وتسعين ألفا وثلاثماية .

ومن قوانينهم أيضا إذا أرادوا أن يُولوا أحدا على قبض مال للدولة ، كأمناء أعشار المراسي وغيرهم ، فإنهم يأخذون منه قدرا من المال ينزلونه في خزنتهم كأنه رهن ، ليلاً يضيع شيئا من مال الدولة ، ويعطونه فائدته ما دام عندهم . فلزمهم في ذالك هذا العام : سبعة ملاين . فإذا صُرِف عن مرتبته ، ردوا له رأس ماله .

ومنها أنه إذا ضعف أحد من خدام الدولة عن الخدمة لعذر كالعسكر وغيره ، يرتبون له ما يكفيه ولا يضيعونه ، لزم في ذالك : سبعة وخمسون مليونا ومائة ألف وتسعون ألفا .

ومن مصروف وزير الخزنة ما يعطونه كل عام لسلطانهم ، وقدره : ثلاثة عشر مليونا وثلاثماية ألف . ويدفع للقمرة الكبيرة ، لخَدَمَتِها وضوئها وحطبها وإصلاحها وسائر ما يتعلق بها : سبعماية وعشرون ألفا . وفي مثل ذالك على القمرة الصغيرة : سبعماية ألف وأربعة وسبعون ألفا وأربعماية واحد وخمسون . ويدفع ما يعطى لكل

---

(1) في حالة المغرب قبل عهد الحماية ، كان السلطان يأمر بمصادرة ممتلكات الموظفين المخزنيين الذين قد يتلاعبون بممتلكات الدولة . وكانت تلك هي حالة القائد أشعاش : انظر الصفحات السابقة من هذا الكتاب . والكفيل في التشريع الإسلامي هو الضامن لأحد الأطراف المتعاقدة . انظر مادة «الكفالة» في : *SEI*, "Kafala" .

(2) نقل الصفار جزءا من ميزانية فرنسا لسنة 1846 كما وردت في الكتاب المشار إليه سابقا مع استثناء واحد مهم جدا هو أن الترجمان قد حذف منه المصاريف المتعلقة بحرب الجزائر . وقد فضلت سوزان ميلار عدم إدراج هذا القسم الخاص بمصاريف الدولة الفرنسية كما هو وارد في ميزانيتها ، فأعدناه إلى النص العربي للرحلة كما كتبه محمد الصفار (المعرب) .

وزير في العام وقدره : ثمانون ألفا .

وما يصرف على يد وزير الأمور الخارجية ، فللقناصوا[1] المرسلين من عندهم للبلاد وللباشدورات القادمين عليهم من غيرهم : خمسة ملاين ومائة ألف واثنان وتسعون ألفا وثمانماية . وللرقاسة المبعوثين لخارج فرانسا ، وما يهدونه للملوك إن عرض ما يوجبه ، وما يصرفه باشدورهم الذي يذهب لجهة أخرى ، ولمصروف يسمونه المصروف الخفي ، كأن يبعث أحدا خفية لإقليم من الأقاليم يتجسس الأخبار ولا يشعر به أحد : مليونان وسبعماية ألف وخمسة وسبعون ألفا وأربعماية وتسعة وستون . وللذين عجزوا عن الخدمة ممن إلى نظره ، كالقنصوات ونحوهم : ثمانون ألفا ، وله مصاريف غير ذالك . فجميع ما يصرف على يد وزير البرّاني وهو هذا : ثمانية ملاين وسبعماية ألف وخمسة وخمسون ألفا وثلاثماية واحد وتسعون .

وما يصرف على يد وزير الداخلية أمور كثيرة ، فلوظيفته وكتابه وخدمه وما يتعلق بذالك : مليون وثلاثماية ألف وإثنان وأربعون ألفا وتسعماية وأربعة وخمسون . ولعساكر البلد غير عساكر الحرب ، وهم الذين يتخذونهم الحكام في البلدان لضبط أمور الرعية . وللعلامات المسماة بالشنايل[2] التي ابتدعوها لوصول الخبر بسرعة : مليونان ومايتا ألف وسبعة وثلاثون ألفا . وللكومذيات التي اتخذوها للفرجة واللعب إذ كان مدخولها لا يكفيها ، ولهم غرض في عمارتها ، لأن ذالك من ضروريات البلد . وللصنائع النفيسة ولعمارة موضع اجتماع التجار المسمى بالبرصة : ثلاثة ملاين ومايتا ألف واحد وستون ألفا وتسعماية . ويصرف على يده مرتبات الاسبيطارات التي اتخذوها للمرضى الغرباء بمنزلة المارستان عندنا . وما يعطونه للفقراء الغرباء : ثلاثة ملاين وخمسماية ألف واثنان وستون ألفا .

ولوظيفة الحكام الذين يستعملهم في الإيالات ، ثمانية ملاين ومائة ألف وأربعة وعشرون ألفا وسبعماية . وللمساجين في جميع بلاد فرانسا : ومؤن السجون سبعة ملاين وأربعماية ألف وعشرة آلاف . ومن حكمهم في بعض السجون وبعض المساجين ، أن المسجون إذا كانت له صنعة فإنه يجبر على خدمتها وهو مسجون . وما

---

(1) يريد أن يقول : للقناصل ، وهذا جمع للتسمية المغربية الدارجة بصيغة المفرد ، قونصو (المعرب) .

(2) يبدو أن هذه اللفظة تحريف للكلمة الفرنسية (signaux) بصيغة الجمع ، ومعناها مؤشرات أو علامات (المعرب) .

يستفيده منها يوضع له عند أمين ، فإذا تمت مدة سجنه وخرج فلا يجد نفسه فقيرا فيعود إلى السرقة أو نحوها . ويصرف على يده في بناء ديار الحاكم : ثمانماية ألف وأربعة وثلاثون ألفا ومايتان . وفي الطرق التي بداخل البلدان : عشرون مليونا وسبعماية ألف وسبعة وسبعون ألفا ، إلى غير ذالك مما يصرف على يده . فجميع ما يصرف على يد وزير الأمور الداخلية : ماية مليون وتسعة ملايين وستماية ألف وستون ألفا وماية وثمانية .

وما يصرف على يد وزير الدين والشرع : ستون مليونا وتسعماية ألف وثلاثة وتسعون ألفا وستماية وأحد عشر ، فيما بين ما يخصه لنفسه وللقضاة والشهود الذين يحتاج لجلبهم من مكان بعيد للشهادة في واقعة من الوقائع . وللكنائس والقسيسين وخدمة الكنيسة وإصلاحها ، ولمن كبر في الكنيسة وعجز ، ولتعليم علوم الدين والشرع وغير ذالك مما يتعلق بأمور دينهم وشرعهم .

ومما يُصرف على يد وزير العلوم والمدارس ، فيما بين ما يجب له ولكتابه وأهل مشورته على مصلحة التعليم ونظام المدارس ، وللذين يذهبون كل سنة من باريز لأقاليم فرانسا وبلدانها لاختبار المدارس وأمور التعليم ، ولوظائف المدارس والمدرسين والنُظّار على الأولاد المتعلمين ، ولقومة دار الكتب السلطانية ، ولخدمة بستان الوحوش والنباتات والمعادن ، لأنه من جملة مدارس التعليم لما فيه من المعلمين والمتعلمين الذين يتعاطون علوم النباتات وكيفية تطبيعها ، وطبيعة المعادن وخاصيتها وكيفية الغرس ومعالجته ، وللذين يذهبون للأقاليم ليأتوا بما يتعلق بهذا الفن ، الجميع : سبعة عشر مليونا وسبعماية ألف واحد وثلاثون ألفا وثمانية فرنك .

ومما يصرف على يد وزير التجارة والزراعة ، فلوظيفته وما يتبعها سبعماية ألف وسبعة وأربعون ألفا وستماية وثمانون . ومن وظيفة هذا الوزير أنه يبحث على أصل الخيل الجياد ويجلبها من الآفاق ، وتربى على يده لينسل منها . فمن كانت له فرس أنثى فيأتي بها ويُنزى عليها بهذا المحل ، ويعطي عطاء معلوما ، لاكن لا يفي ذالك بمصروفها . فلزمهم في ذالك : مليونان ومايتا ألف أربعون ألفا . وفي تعليم طب الخيول وسائر البهائم والبيطرة ، ولمن ظهر على يده في الفلاحة والزراعة شيء لم يسبق به يعطونه ترغيبا في التنافس في الصنائع ، لتبقى دائما في الترقي : مليون وخمسمائة ألف واحد وثمانون ألفا وخمسماية .

وللذين يعملون الصنائع وما تحتاج إليه من الآلات : مليون وماية ألف وخمسة

وستون ألفا . ولمن ظهرت على يده مزية في الصنائع ، غير الفلاحة والزراعة : مايتا ألف وثمانية وأربعون ألفا . ولأناس يذهبون إلى البحر الكبير لاصطياد سمك مخصوص هنالك يبيعون لأنفسهم ولاكن يعينهم البيلك ، فيلزم في ذالك : أربعة ملاين .

ولهم مواضع يخرج فيها ماء سخن يقصده الناس للتداوي ، وبه بيوت وأطباء وعمارة يلزم في ذالك مايتا ألف وخمسون ألفا . ولأطباء الجدري في طبهم له ، من ذالك أن طبيبا لهم منذ سبع سنين ، اخترع لهم أن يأخذ حبة تخرج في بطن البقر فيقطعها منها ، ثم يعمد إلى ذراع الصبي فيشق جلده ويدخل تلك الحبة تحت الجلد ، فتبرز فيه حبة في ظار الجلد ، فيتألم بها قليلا ثم يبرأ ولا يمرض بعد ذالك . فيلزمهم لها وللأطباء : ثلاثماية ألف وتسعة وأربعون ألفا وخمسماية .

ولمن انهدم بيته بعارض الحرق ، أو انهدم بنفسه وعجز عن إعادته يعينونه ، فيلزمهم في ذالك : مليونان وسبعماية ألف وستون ألفا وأربعماية وأربعون ، لتدوم العمارة . إلى غير ذالك من المصاريف . فجميع ما يُصرف على يد هذا الوزير : أربعة عشر مليونا وسبعة وثمانون ألفا وماية وعشرون .

ومما يُصرف على يد وزير البناء وما عطف عليه ، فلوظيفته وكتابه وخدمته وما يتبع ذالك : خمسماية ألف وثمانية وأربعون ألفا وخمسمائة . وللمهندسين في الطرق والقناطر والبناءات : ثلاثة ملاين ومايتا ألف وتسعة وسبعون ألفا . وللبناءين والصناع وسائر عملة البناء : مليون وخمسماية ألف وثمانية وثلاثون ألفا . وللمهندسين في المعادن وسائر عملتهم : ستماية ألف وثمانية وتسعون ألفا وأربعمائة . ولأهل المشورة في البناء الذي تطلبه الرعية من الدولة : ثمانية وستون ألفا وتسعماية . ولمن عجز عن الخدمة من المعلمين والمهندسين : ثلاثماية ألف . ويصرف على يده أيضا في القناطر والطرق العامة : أحد وثلاثون مليونا وماية ألف . ولإصلاح الأنهار ومجاريها وبناء حواشيها وإصلاح طريق الماء ليلاً يذهب من غير طريقه فيفسد : أربعة عشر مليونا وسبعماية ألف وستون ألفا . ولإصلاح بناءات المراسي وترقيع ما احتاج له منها : خمسماية ألف وثمانية وخمسون . ولنظار طرق الحديد : مايتا ألف وثمانية آلاف ومايتان وخمسون . ولما تعين به الدولة التجار في إقامة طرق الحديد : أربعماية ألف وخمسون ألفا . إلى غير ذالك من المصاريف التي تصرف على يده ولم أتحقق جمعها .

ومما يصرف على يد وزير الحرب ويسمونه وزير الكَرّة ، فلوظيفته وكتابه وخدمه

وما يتبع ذالك : ثمانماية ألف وسبعة وأربعون ألفا وخمسون . وللفسيانس والجنارات في جميع بلاد فرنسا : سبعة عشر مليونا وأربعماية ألف وستة وعشرون ألفا وسبعماية وسبعة وعشرون . وللعساكر الذين يكونون في البلاد ولا يسافرون للحرب : عشرون مليونا وعشرون ألفا وماية وخمسة وأربعون . ولعساكر مدينة باريز بالخصوص : مليون وتسعماية وسبعة وتسعون . ولتجديد العسكر ، لأنهم يجددون في كل عام ثمانين ألفا من العسكر . ومن دخل في العسكر يجب أن يبقى في الخدمة ثمان سنين ثم هو بالخيار ، فليزمهم في العسكر الجدد : أربعماية ألف وأربعة وسبعون ألفا . ولوظائف سائر العساكر ولباسهم وجميع مئونهم : ستة عشر مليونا وتسعماية واثنان وثلاثون ألفا ومايتان وثمانية وعشرون . ولقضاة العسكر : ستماية ألف وثمانية آلاف وتسعماية وأربعة وثلاثون . ولنقل أمتعة العسكر ولباسهم وأسلحتهم حيث يحتاجون إليها : مليون وتسعماية ألف واحد وأربعون .

ولتجديد الخيول : مليونان وعشرون ألفا وثلاثماية وعشرة . ولسرجهم وسائر آلاتهم وعلفهم : تسعة وعشرون مليونا وستماية ألف . وللمدافع : سبعة ملاين وماية ألف وثلاثة وتسعون ألفا وماية وسبعة وسبعون . وللبارود : أحد عشر مليونا وتسعماية ألف وستة وثلاثون ألفا ، إلى غير ذالك من المصاريف . فجميع ما يصرف على يد وزير الحرب : ثلاثماية مليون وخمسة وعشرون مليونا وخمسماية ألف وستة وتسعون ألفا وتسعماية وتسعة وعشرون .

ومما يصرف على يد وزير البحر ، فلوظيفته وما يتبعها : مليون وسبعة وعشرون ألفا . ولرؤساء السفن والمراكب وبحريتها ، وسائر مُونها ولوازمها : سبعة وثمانون مليونا وستماية ألف وإثنان وعشرون ألفا وسبعماية وخمسة وثمانون . ولتعليم علوم البحر وما يخصه من الصنائع : تسعماية ألف وستة وستون ألفا وثلاثماية . ولما يلزم جزائرهم المتفرقة في البحور : عشرون مليونا وأربعة وأربعون ألفا وخمسماية وستون ، إلى غير ذالك من المصاريف . فجميع ما يصرف على يد هذا الوزير : ماية مليون وأربعة عشر مليونا وثلاثماية ألف وستون ألفا .

وجميع ما يصرف على يد هاؤلاء الوزراء ، وهو مدخول بل خارج فرانسا في هذا العام : مليار واحد . وهو ألف مليون وأربعماية مليون وأربعة وثلاثون مليونا وأربعماية ألف وتسعة وثلاثون ألفا وأربعماية وستة ، منه ما كان سنويا ومنه ما اختص بهذا العام لأمر أوجبه .

وأما مدخولها فمن جهات شتى : أحدها الأرض ، فيستفاد من خراجها : مايتا مليون وخمسة وسبعون مليونا وتسعماية ألف وسبعة وتسعون ألفا وأربعماية وأربعة وثمانون . ومن غلل أراضي البيلك : ماية مليون وتسعة وعشرون مليونا وستماية وعشرة . ومن خراج الشجر ، لأنهم يعطون عليها : ثلاثون مليونا وثلاثماية ألف واثنان وأربعون مليونا وخمسماية ألف . ومن أكرية دور البيلك في سائر إقليم فرانسا : خمسة ملاين وستماية ألف وستون ألفا .[1]

ومن أوجه جباياتهم الأبواب والطاقات ، فكل من فتح بابا أو طاقا يعطي عليه خراجا معلوما ، يتحصل من ذالك في العام : أحد وتسعون مليونا وأربعماية ألف وثمانية وثمانون ألفا وتسعماية وثلاثون . ومن أوجه جباياتهم وظائف تعطى على الرءوس ، يتحصل منها : سبعة وخمسون مليونا وسبعماية ألف وسبعة وثلاثون ألفا وثلاثماية وعشرة . ومن قوانينهم ، أن من أراد أن يفتح حانوتا للبيع والشراء ، فلا بد أن يعطي شيئا معلوما للبيلك ، يتحصل من هذا الوجه : سبعماية ألف وثمانية وثمانون ألفا وتسعماية وثلاثون . ومن قوانينهم أن من حل عليه خراج وتأخر دفعه له عن وقت حلوله ، فيرجونه خمسة عشر يوما ، فإن لم يدفعه فيكتبون له بطاقة يطلبون منه ذالك ويعطي على هذه البطاقة شيئا قليلا زيادة على ما عليه من الخراج كفلسين من فلوسهم . يجتمع من هذا الوجه : سبعماية ألف وثمانية وثمانون ألفا وتسعماية وثلاثون[2] .

---

(1) يبدو أن الصفار والترجمان الفرنسي قد ارتكبا العديد من الأخطاء عند نقلهما الأرقام المتعلقة بميزانية فرنسا . إذ بلغت المداخل الحقيقية الآتية من الأراضي التي في ملكية الدولة : 1,029,610 فرنكات . والمداخيل الصحيحة الآتية من الضرائب المفروضة على الأشجار : 30,342,500 فرنك ؛ وبلغت الأرقام الصحيحة للمداخيل الآتية من مكتريات ممتلكات الدولة 5,606,000 فرنك ، ومن الضرائب على الأبواب والنوافذ : 33,751,638 فرنكا .

(2) اعتقد الصفار خطأ أن مبلغ : 788,930 فرنكا قد تم تحصليه من مصدرين اثنين مختلفين . أحدهما هو الضرائب المحصلة من كل الذين يقومون بفتح متاجر جديدة لممارسة أنشطة تجارية . والمصدر الثاني ، هو للذعائر التي كان القانون الفرنسي يفرضها على كل المتأخرين عن تسديد الواجبات الضريبية ==

ومن قوانينهم أن من اشترى عقارا ، فإنه يكتب عقده في كاغد مخصوص فيه طابع البيلك . فإن كتب في هذا الكاغد كان صحيحا ، وإن كتب في غيره كان كالعدم . ويدفع ثمن ذلك الكاغد يتحصل من هذا الوجه : مايتا مليونا وخمسة وثلاثون مليونا وثلاثماية ألف وثمانية وعشرون ألفا[1] .

ومن قوانينهم أن وزراءهم وسائر حكامهم يعطونهم ديارا يسكنون فيها ، وهي للبيلك بجميع أثاثها . فيوم يتولى يدخلها برأسه ، فإذا عُزل خرج كما دخل . وعند رأس كل سنة يتفقدون ما فيها من الأثاث ، فيبيعون منه ما بَلِي ورثّ ، ويخلفونه بالجديد لتبقى دائما بأثاثها محفوظا جديدا ، فيدخل مما يباع من ذالك : ماية مليون وثمانماية ألف وخمسة وثلاثون ألفا[2] . ويدخل من عند أشياخ الإيالات على الحرث : مليون وستماية ألف . ويدخل من عشور السلع الداخلة لفرانسا غير السكر : ماية مليون ومليونان وتسعماية ألف وخمسة وعشرون ألفا . ومن السكر بخصوصه : خمسون مليونا ومايتا ألف واثنان وخمسون ألفا . ويدخل من عشور الخارج مليون ومايتا ألف وأربعة وأربعون ألفا .

ومن وجوه مداخلهم ، أن كل من له مركب في البحر يعطي عليه شيئا معلوما للبيلك ، يتحصل من ذالك : مليونان وتسعماية ألف وستة عشر ألفا . ويدخل من غرامات أهل كطربنضوا[3] : مليونان وثمانماية ألف وستة وثمانون ألفا .

وعندهم ثلاثة أشياء اختص البيلك ببيعها ، وهي : طابة والملح والبارود . فيدخل من طابة : ماية مليون وسبعة ملاين وماية ألف وستة وخمسون ألفا . ويدخل من

= في الوقت المحدد لها . بينما نجد أن النص الأصلي للميزانية الفرنسية لا يتضمن سوى الإشارة إلى مبلغ واحد مصدره الوحيد هو ضريبة الإنذار الأول المعروفة بالفرنسية هكذا . (Taxe du premier avertissement) .

(1) أما المبلغ الصحيح ، فهو : 253,328,000 فرنك ، كما هو وارد في النص الأصلي للميزانية .

(2) والصحيح هو : 1,885,600 فرنك .

(3) الكونتر باند (contrebande) ، والمقصود بها التهريب . غير أن هذه التفاصيل كان مصدرها هو الترجمان وليست واردة في النسخة الأصلية للميزانية التي اكتفت بالعبارة الآتية : حقوق ومواد جمركية مختلفة . (droit et produit divers de douanes)

الملح : أحد وسبعون مليونا وأربعماية ألف وثمانية وثمانون ألفا . ومن البارود : خمسة ملاين ومايتا ألف وستة وتسعون ألفا . ويدخل عليهم من مكس الخمر الذي يأتي من خارج فرانسا : ثمانية وتسعون مليونا ومايتا ألف وثلاثة وثلاثون ألفا . ويدخل عليهم من فبريكات السكر التي بفرانسا : عشرة ملاين وسبعماية ألف وأحد وسبعون ألفا . ولهم مداخيل أخرى غير هذه ، جلها المدفوع فيها شيء قليل ، ومن كثرة الدافعين يجتمع العدد الكثير .

وحاصل داخلها وخارجها على ما فسره لي الترجمان من تلك الأوراق ، أن الداخل : مليار وثلاثماية مليون وثلاثة ملاين وستماية ألف وأربعة وثمانون ألفا وماية وأربعة ثلاثون . وأن الخارج : مليار وثلاثماية مليون وسبعة وسبعون ألفا وثمانماية وتسعة وثمانون . فيفضل لهم : ثلاثة ملاين وستماية ألف وستة آلاف ومايتان وخمسة وأربعون ، انتهى .

وليس لهم بيت مال يجمعون فيه المال كما عندنا ، بل يقدرون الداخل والخارج ويسوّون بينهما أو يفضل الشيء اليسير . وإن قصر الداخل عن القيام بالخارج ، استنبطوا وجوها أخر للداخل ، حتى يكون فيه كفاية قيام بالخارج . وإن فضل من الخارج كثيرا ، أسقطوا البعض من وجوه مداخلهم . وسمعنا عنهم في هذا العام ، أنهم أسقطوا عن قبائل إيالتهم خراجا كانوا يؤدونه ، لأن مدخولهم الآن صار يفي بالخارج ويفضل منه .

ولا يستطيع رؤساء الدولة أن يخفوا شيئا من ذالك ، أو يزيدوا فيه وينقصوا منه من قبل أنفسهم . لأن أهل القمرة الصغيرة ، وهم وكلاء الرعية ، أول ما يبتدءون به في القمرة أنهم يحاسبون الدولة على الداخل والخارج في العام الفارط . ومن وجوه استنباطاتهم ، أن كل من يقبض وظيفة من عسكريين أو غيرهم ، يأخذون له من وظيفته شيئا يسيرا لا يتأثر به كواحد من ماية . ويجتمع من ذالك مال ، ويعدونه لمن حصل له عذر ومنعه من القيام بما هو مكلف به ، ويعطون لكل جنس مما أخذ من جنسه ، فإن لم تكن فيه كفاية له ، كملوا له كفايته من الخزنة .

ولا يستغرب وجود هذا المال عندهم ، فإن مالهم كثير لحرصهم على التكسب وجمع المال ، ولا اهتمام لهم إلا به . وكل وجه من وجوه مداخلهم كثير الفائدة ، من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذالك . لأنهم يضبطون أمورهم في ذالك غاية الضبط ، حتى أن عندهم من اخترع صنعة لا يزاحمه غيره في عملها . ومن ظهرت على يده

مزية في صناعة أو تجارة أو زراعة أو غيرها، أعطوه عليها العطاء الجزيل[1].

ومن جملة استنباطاتهم في تكثير الأموال، أنهم استحدثوا كواغيد تطبع بطابع مخصوص من عند السلطان، مع كتابة الحاصل فيها نقش وكتابة، وجعلوها بمنزلة سكة الدراهم والدنانير. فمنها ورقة بألف، وأخرى بخمسماية وأقل وأكثر. ففي ساعة واحدة يستخرجون ملاين عديدة، وتروج عندهم هذه الكواغيد كما تروج السكة، وقد يرغب فيها أكثر من السكة، خصوصا المسافرين لخفة حملها ورواجها في كل مكان من سلطنتهم. فيدفع ذالك الكاغد لأول صيرفي يلقاه ويصرفه له بالريال أو غيره ويدفعه في ثمن ما يشتري، وهكذا.

وغالب تجاراتهم ومكاسبهم مشحون بالربى[2]. ومن ذالك البنكة التي هي من أعظم مكاسبهم. ومن ذالك أيضا وجه آخر يستعمله التجار فيما بينهم، فيشتري الرجل من آخر سلعة بثمن معلوم، ولا يدفع المشتري ثمنا ولا البائع سلعة ويضربون

---

(1) قارن مع جاء عند الطهطاوي في هذا الباب، انظر: تخليص، ص. 169؛ *L'or*, p.179

(2) في الوقت الذي كانت فيه المناقشات جارية بين العلماء حول مشروعية الفائدة، كان التجار المغاربة، على أرض الواقع، يقدمون سلفات مالية ويحصلون مقابلها على رأس المال بالإضافة إلى نسبة معينة من الفائدة. غير أن الفائدة كانت تؤدى دائما بطريقة غير مباشرة، «على شكل مبيعات وهمية للسلع بثمن يقل بكثير عن قيمتها الحقيقية في السوق.. أو بإعادة الأداء بمبالغ نقدية تختلف عن المبلغ الأصلي الذي تم اقتراضه»، انظر:

N. Cigar, "Socio-economic Structures", p .56; Maxime Rodinson, *Islam and Capitalism* (New York, 1973), p.18..

وانظر أيضا مادة «ربا» في: .*SEI*, s.v."Riba " (المعرب): وحين حاول المغرب الحصول لأول مرة على قرض خارجي من بريطانيا في أعقاب حرب تطوان لتسديد الغرامة الحربية لفائدة إسبانيا، وذلك في سنة 1861، اعتقد المفوضون المغاربة أنهم سيحصلون على السلف دون فائدة. لكن حين أفهمهم أصحاب مؤسسة القرض بأن تسديد الفائدة أمر حتمي، فقد تم الاتفاق بين الجانبين على عدم الإشارة بصريح العبارة إلى تلك الفائدة في نص العقد، لأنها حرام. على أن تضاف نسبة الفائدة اللازمة إلى رأس مال السلف دون التصريح بها، انظر خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر**، 1856 – 1886، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1997، الطبعة الثانية، ص. 193–203.

لذالك أجلا . فإذا مضى الأجل ، يُنظر ، فإن زادت تلك السلعة دفع البائع للمشتري تلك الزيادة ، وإن نقصت دفعها المشتري للبائع . وإن لم تزد ولم تنقص فلا له ولا عليه . وحيلهم وتدبيراتهم في ذالك لا تحصى ، واستنباطاتهم لا تستقصى . ﴿يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1] .

وهذا ما تيسر للعبد الضعيف جمعه مع تشويش البال وتزاحم الأشغال . ولولا مساعدة من تجب إجابته وتتحتم طاعته ، لما كدت ولا قررت أن أفعل شيئا من ذالك ، لعلمي واعترافي بعجزي عن سلوك تلك المسالك . لاكن بركة الامتثال عادت على كنافة الفكر بالانتثال . وإني أعتذر من التقصير ، وأعترف بعدم التحرير ، وأستغفر الله مما جنته يداي ، وأبصرت هناك عيناي من المناكر الشنيعة ، وسمعته أذناي من الإشراك والكفريات الفظيعة ، ومن مخالطة أهل الضلال . وأسأله سبحانه الانتظام في سلك أهل الكمال ، وإن لم يكن لي ما لهم من صالح الأعمال ، وأن يميتنا على حسن الخاتمة بجاه عين الرحمة والواسطة في كل نعمة ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته وحزبه وأنصاره ، وأهل ملته وشريعته ومن في سلكهم انتظم ، آمين ، وءاخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ منه ، حادي عشر رمضان عام اثنين وستين ومايتين وألف[2] ، رزقنا الله خيره ووقانا ضيره .

(1) سورة الروم ، الآية 6 .

(2) موافق 2 شتنبر 1846 .

ملاحق

الملحق رقم 1

رسالة من أشعاش إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام بتاريخ 20 ذي الحجة 1261/ 20 دجنبر 1845 ، أصلها محفوظ بمديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17578 .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

مولانا السلطان الهمام ، عصمة الدين وعز الإسلام ، إمام الهدى وحسام الله المسلول على العدل المتوج بإكليل العدل والإحسان ، المقتعد بسيطة العز والأمان ، أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمن . أعلا الله كلمته ، وجعل الملائكة أنصاره والملوك خدمته . وسلام الله ورحماته وبركاته على حضرة سيدنا العلية المحفوظة بالله السنية . وبعد لثم حاشية البساط الكريم وأداء الواجب لرفيع مقامه من الإجلال والتعظيم .

فليعلم سيدنا أنا وصلنا مرسى مرسيليا عند طلوع الفجر من يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، فنزل أولا رفيقنا الروشوا ، ثم عاد إلينا ومعه اثنان من كبرائهم . فقال ي شأن أحدهما : هذا بعثه الوزير إليكم من باريز ليلقاكم وليكون في صحبتكم حتى تصلوا إليه ، وهذا الآخر ترجمانه . وأنه كتب إلى كل من تنزلون به أو تمرون عليه أن يكونوا عند أمركم ونهيكم . وأن جلنار البلد يسلم عليكم ويطلب منكم أن تنتظروه حتى يأتيكم لينزلكم . فلما ارتفع النهار ، جاءنا الجلنار ومعه رؤساء جنده و أصحابه ، فسلم علينا وبالغ في إثناء الجميل على جناب سيدنا المنصور بالله . فأنزلنا من المركب مكرمين معظمين وانتخب لنا أحسن ما عنده من الفلائك . وعند نزولنا اهتزت المرسى بالمدافع واجتمع أهل البلد ينظرون حتى امتلأت الطرق والشوارع ، فكان يوم دخولنا يوما مشهودا .

ثم سار بنا في الأكداش وهو معنا كواحد من خدامنا ، وصفوف عسكره خيلا ورجالا بين أيدينا حتى أنزلنا بدار أعدها لنا قد فرشت بالفرش الرفيعة ، وزخرفت بالأشياء البديعة . وقال لنا هؤلاء يعني أصحابه كلهم خدم لكم مروهم بما شئتم فإنهم سامعون لكم ومطيعون ، وكل هذا قليل في جانب السلطان مولانا عبد الرحمن . وبالغوا في برنا وإكرامنا ، فأقمنا بها بقية يوم الجمعة ويوم السبت ، ومن الغد إن شاء الله نتوجه لباريز .

و أما رفيقنا الروشوا فإنه تقدم أمامنا سافر صبح يوم التاريخ ، قائلا إنه لا بد له من التقدم أمامنا لما لا بد منه مما يجب لملاقاتنا ، قائلا إنه يسبق لباريز ليرد الجبل وطاء .

وليعلم سيدنا أنا والحمد لله من يوم خروجنا من تطوان لم نلق إلا خيرا ونعمة ، لم نر في البحر هولا ولا شدة ، وفعل معنا أهل المركب من الإحسان ما يجازيهم الله عنه من جنس عملهم . كل هذا والحمد لله بخدمتكم الشريفة ، ونطلب من سيدنا أن يجللنا برضاه . وعلى الخدمة الشريفة والسلام .

في 20 حجة عام 1261 . الخديم عبد القادر أشعاش وفقه الله .

الملحق رقم 2

رسالة عبد القادر أشعاش إلى أخيه الحاج عبد الله ، بتاريخ 1 محرم 1962/ 30 دجنبر 1845 أصلها محفوظ بمديرية الوثائق الملكية تحت رقم 1757 .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

أخانا الماجد الكامل الخليفة الأسعد والأصلح والأرشد ، سيدي الحاج عبد الله أدام الله عزه وعلاه . سلام طيب كريم مصحوب بالخير الكثير العميم يعتمد مقامكم السني ويحيط جنابكم العلي ورحمة الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته ، عن خير مولانا أيده الله ونصره .

وبعد فهذا كتابنا يقبل يد والدتنا ويطلب رضاها ، ويتعرف منه سلامنا على جميع أخواتنا وأولادنا وأهلينا وسائر أحبتنا . نعلمكم فيه أنا والحمد لله في نعمة شاملة ، وأنا دخلنا باريز يوم الأحد 28 حجة بعد 7 أيام من يوم خروجنا من مرسيلية .

ورأينا في الطريق من المدن والقرى وما فيها من الأعاجيب ، وما لقينا من أهلها من الملاطفة والأدب وحسن الملاقات من عظمائها وكبرائها ما لا يحمل هذا الكتاب وصفه ، حتى وصلنا لباريز . فإذا هي مدن من أعظم مدن الدنيا و أحسنها زينة وبهجة . جديرة بأن تسمى حاضرة المشرق والمغرب ، ويكل عن وصفها كل لسان معرب . فأنزلونا فيها منزلا رفيعا ، وجعلوا فيه من فرش الحرير والديباج ، وستور الكمخة والثريات والشموع والمواكن والمراءاة شيئا حسنا بديعا .

فأول من لقينا الوزير ، فأظهر لنا سرورا وبشرا ، وبالغ في المبرة والإلطاف ، وذكر جميلا وأثنى خيرا . ثم جاءنا قائد المشوار من عند السلطان يقول لنا على لسان سيده ، أنه يطلب ملاقاتكم غدا . فلما كان من الغد ، جاءنا مع الكبراء من الجلنرات بأكداش السلطان نفسه مذهبة مزينة مبطنة بالحرير من ظاهرها وباطنها في أحسن ما يكون ، فسرنا إليه سير إكرام وإعزاز . فلما وصلنا أمام داره ، وجدنا رحبة واسعة أكبر من فدان بلدنا ، قد اصطفت فيها عساكره صفوفا وموسيقاته تضرب بنغماتها فرحا بنا وشغوفا .

فنزلنا فدخلنا داره وصعدنا في الدرج ، فانتهينا إلى أعلاها . فإذا هو من القصور المشيدة ، يسحر العيون حسنه ويبهر العقول زينة . فسرنا من صالة إلى صالة حتى

وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه . فألفيناه قاعدا على كرسيه وحوله عظماء دولته وخواص مملكته ، لابسين غليظ الذهب في أحسن زي وأجمل زينة .

فخاطبناه خطاب الملاقات بما يناسب ، فأجابنا بأضعاف ذالك من الملاطفة وحسن الثناء على جانب سيدنا نصره الله . وأنه يحمد الله ويشكره على ما حصل من تجديد المحبة وتأكيد المودة بينه وبين سيدنا نصره الله . وبالغ معنا في الأدب والمبرة ، فمكناه من كتاب سيدنا ، فقبضه قبض تعظيم ودفعه لوزيره .

ثم رجعنا من عنده لمحلنا ، فقدمت علينا من عنده مكاتب لنا ولبعض خواصه ممن معنا يعرضنا للعشاء معه . فرجعنا إليه وقت العشاء ، فألفيناه قد أحضر جميع وزرائه وكبراء دولته وأولاده ونسائه وبناته . وجلس معنا هو بنفسه على طبلة لا يميز من كان طرفها من هو في الطرف الآخر . جلس عليها نحوا من 70 نفسا . عليها من الشموع التي في الحسك 160 ، والتي في الثريات من البلار نحو 170 شمعة . فجملة ما كان يوقد من الشموع وحدها ثلاثماية ونيف وثلاثون شمعة . ولم يلر على هذه الطبلة إلا أواني الذهب والفضة ، وأحضروا فاخر الأطعمة ولذيذ الحلاوي وطيب الفاكهة شيئا عجيبا . فلما فرغنا من الأكل قمنا وقام معنا هو ومن ذكر معه . فأخذ يتحدث معنا ويباسطنا بطيب الكلام ، ويقف مع كل واحد منا وحده ويسأل عنه وعن أحواله ، ومن هو وما يعمل ويؤنسه بما لذ من الكلام ، ثم يذهب لعند آخر حتى أعطى لكل واحد منا حظه من ذلك . ثم تأتي زوجته وبناته وجميع نسائه ، فيفعلن مثل فعله . فبالغوا معنا في الإلطاف والمبرة والبشاشة فوق النهاية ، وهذا مع كبير سطوته وعظيم مملكته .

والحاصل إن قلت انهم أخذوا تسعة أعشار الأدب والملاطفة والرقة ، لم تشك في ذالك . فرجعنا من عنده مكرمين معظمين . وكان ذالك يوم الثالث من قدومنا . وها نحن في انتظار قضاء الوطر ، نطلب الله تيسيره عن قريب .

وهذا ما وجب إعلامكم به . ويعود عليكم السلام من كاتبه ، محبكم ومحب الخير لكم محمد الصفار . كما يسلم عليكم صهرنا عوض والدنا سيدي محمد اللبادي ، ومحبنا سيدي الحاج العربي العطار ، والخليفة السيد أحمد العياط ، وجميع أصحابنا والكل بخير وعافية . كما نطلب منكم أن تسلموا على كافة أحبتنا وقرابتنا خصوصا المحب الأبر سيدي محمد الزواق والأرضي سيدي عبد الوهاب لوقش وأصهارنا سيدي عبد الغفور اللبادي وإخوته وأولاد عمنا ، وكافة أصحابنا وأهل ودنا

وود أبينا رحمه الله . والسلام بفاتح المحرم الحرام ، عام 1262 .

أخوك عبد القادر أشعاش وفقه الله .

ويصلك كتابان أحدهما لسيدنا نصره الله ، والآخر للفقيه سيدي محمد ابن إدريس . فبالفضل منك بمجرد وصولهما ابعثهما ولا يصحبك في ذالك تراخ .

الملحق رقم3

نسخة من رسالة الملك لويس فيليب إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام بتاريخ 13 فبراير 1846/16 صفر 1262 محفوظة بمديرية الوثائق الملكية تحت رقم 17575 .

هذا الكتاب الكريم والخطاب الجسيم مكتوب ومرقوم عن إذن المعظم الأرفع والهمام الأنفع لويس فيليب سلطان الفرانصيص مقصودا فيه حضرة المحب الأعظم والصديق الأعز الأكرم السيد عبد الرحمان سلطان مراكش وسوس وفاس كرم الله ملكه وبلغه كل مراده ومناه .

أيها السيد الأمجد الأنجد الوحيد الأسعد . الذي نعلم به جنابكم هو أنه قد حصل عندنا غاية السرور من إرسالكم إلى حضرتنا العالية بالله خديم جنابكم الأعز الأجل السيد الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش باسم الباشدور لأجل إحكام حبل المواصلة والمودة القديمة ، وتأييد قواعد العهود المنعقدة بين الدولتين ، فقبلناه أحسن قبول وأكرمناه غاية الإكرام ، لنظهر بذالك خلوص حبنا لجنابكم وكمال رضانا بنفس خديمكم الباشدور ، لأنه فاضل نجيب كثير المعارف أديب . فقد أحببناه لأجل شمائله الحسنة ، ولما بان لنا من كثرة نصحه وصدق محبته لجنابكم ، وبذل ذاته في خدمتكم . فان أنعمتم عليه بشواهد رضاكم إكراما لخاطرنا ، كان ذلك مما يسرنا .

وقد أمرنا وزراءنا أن يبالغوا في إكرامه وتبجيله لكي تطيب له بلادنا مدة إقامته بها ، وأن يعرضوا عليه كلما فيها من عجائب الفنون والصنايع . واعلموا أيضا أن جميع ما تكلم به عن لسانكم قد استمع بكل اعتناء وتدقيق لابد يخبّركم بذلك ، فتستدلوا بما قيل له وفُعِل في حقه على تمام مصافاتنا وعظم مودتنا لحضرتكم العالية . فإن غاية مرادنا دوام المهادنة والمناصحة بين دولتنا ودولة مراكش . وإنما تأييد قواعد العهود موقوف على كمال الوفاء بالشروط . وحيث أن الوفاء هو من شيمنا وشيم جنابكم ، فالمأمول أن لا يجري في ما بعد أمر يحصل منه كدر أو خلاف . وقد رأينا لذلك علامة خير في قدوم باشدوركم علينا ، وحسن سلوكه معنا ، وأدام الله بين الدولتين المهادنة والمصادقة ، ولكم الإنعام وبلغكم كل مقصود ومرام .

حرر بالطويلري ، دار السلطنة ، في 13 فبراير عام 1846 .

محل وضع توقيع السلطان لويس فيليب

محل وضع اسم موسيو كَيزو وزير المقام العالي

ومدبر الأمور الخارجية تصديقا لتوقيع السلطان .

الملحق رقم 4

رسالة من عبد القادر أشعاش إلى وزير الخارجية الفرنسي كَيزو بتاريخ ٧ محرم 1262 /6 يناير 1846 . أصلها محفوظ بوزارة الخرجية الفرنسية :

Ministère des Affaires Etrangères, Paris, Série Maroc.

"Mémoires et Documents " vol. 4, p. 145.

الحمد لله الذي له ملك السماوات والأرض واليه يرجع الأمر كله .

اعلموا وفقنا الله وإياكم أنا لما تحققنا مناصحتكم وتيقنا صدق مصافاتكم جينا إليكم لتجديد عقد المحبة ونظم عقد ما انتثر من عقد المواصلة والمهادنة والمودة بين دولة سيدنا السعيدة وبين دولة سلطان فرنصة ، وللسعي فيما تظهر فيه ثمرة ذالك . فإن الصلح والمهادنة معناهما صفاء الأمور وإجراء الأحوال على مقتضاها ، وسد كل باب يصل منه كدر أو خلاف ، وقطع كل ما يناقض المرافقة والائتلاف ، وملاك ذلك صفاء القلوب وموافقة الفعل للقول .

وعندنا أمور ربما تكون سببا للإخلال بشيء من ذالك ، فلا بد من النظر فيها وإجرائها على قانون المصافات ليزداد ركن المحبة اشتدادا وباب الكدر انسدادا كما هو مقصود .

فمن ذلك النظر في الحدود وتدارك ما وقع فيها من الغلط والتراجع ، بأن يوقف على حقوق الرعية وإنصافها ، بأن كل من كان يتصرف في أرض أو بلاد تبقى بيده ، ولا يرفع يده عنها إلا بموجب . لأن في شرعنا العزيز من تصرف في أصل عشر سنين ولم ينازعه فيه أحد فهو ملكه .

ومن ذالك أولاد سيدي الشيخ الغرابة وقبايل الجنبة من حميان قد ذكروا في نسخة الحدود أنهم من ايالة الغرب . وقصورهم التي يسكنونها ويخزنون بها أمتعتهم نُسِبت لإيالة الشرق . وهي الأبيض وبوصمغون والشلالات . ولا شاهد عليه ولا حجة و إنما هو اتباع رأي من يريد الشنئان والكدر . فكيف تكون القبائل من إيالة الغرب وقصورها من إيالة الشرق؟ هذا هو الخلاف بعينه ونحن نسعى في سد بابه .

ومن ذالك أرض تيوت وبلادها معلومة لإيالة الغرب ، ولا زال أبناء عم سيدنا مستوطنين بها إلى الآن . وكذلك أرض فجيج لا زال عمال سيدنا يتصرفون عليها

إلى الآن . وقد بلغنا أنكم تريدون غزوها وتملكها ، فهذا وشبهه مما يكدر ويوجب الشنئان .

ومن ذلك قضية وادي نون ، فقد ترددت له مراكبكم ، وبلغنا أنكم تريدون البناء به والتجارة فيه . وتلك الأرضين كلها من عمالة سيدنا وأسلافه ، وقبائلها تحت حكمه . وهذا من الأسباب التي شككت العامة في انعقاد الصلح بيننا وبينكم . وقالوا لو كان هذا الصلح صحيحا ما طمع الفرنصيص في إيالتنا حتى تأتي مراكبه لواد نون . مع أن القانون والمهادنة تقتضي ترك هذا وشبهه وتسليمه لأهله . وإن كان لا علم لكم به ، فها نحن أعلمناكم لتحسموا مادة ذالك . وان كان غرضكم في التجارة عندنا فاتوا على القانون المتعارف بيننا وبينكم ، وتكونون في إعزاز وتوقير كما هي عادتنا معكم من قديم الزمان .

ومن ذالك أمر الحاج عبد القادر ، فان ضرره اليوم علينا وإفساده في إيالتنا أكثر وأعظم منه عليكم . إذ لا يخفى أنه أفسد قبائل الإيالة وصدها عن الخدمة ، وغرها بما يظهر من السعي في الجهاد وخدعهم بترهاته واستمالهم بسحره . وسيدنا ليس بغافل عنه ولا متهاون بأمره . ولا يخفى عليكم أيضا أن سيدنا كلف عمال تلك الناحية بالسعي في فسخ عقده والحرص على إخراجه وطرده . ولو قابله عمال سيدنا بالقتال فذالك مراده ، لأن تلك القبائل تلتف عليه وتشد فيه ، ويصعب أمرها لصعوبة جبالها . وغير خاف عليكم فساد قبائل الريف ومن والاهم وعدم استقامتهم من قديم . فاستعمال السياسة في إخراجه أولى بتخذيل العامة عنه وتزهيدهم فيه حتى يبقى وحده ، ولا يقبله أحد ويخرج بلا مشقة ولا تعب . فمن تمام المصافات إسقاط شرط إخراجه ، لأن غرضنا دوام المصالحة وخلوص المحبة معكم حتى لا يكون هناك ما يكدرها .

و أما ما وقع منكم بطنجة والصويرة من الهجوم ولرمي عليها بلا سبب ولا تقدم إعلام بنقض صلح ولا عقد كَرة ، حتى ضاع للرعية وبيت المال ما له خطر وبال ، فقد كان خارجا عن القانون . فإن الشروط المنعقدة بين الدولتين تخالف هذا . لأن من جملتها وهو الشرط التاسع عشر أنه إذا حصل خلل في الشروط التي انعقد عليها الصلح ، فلا يفسد الصلح بسبب ذالك . وإنما يبحث عن المسلة ويرجع فيها إلى الحق من أي إيالة كان ، ولا يتعرض لرعايا الدولتين الذين لا مدخل لهم في شيء من الأشياء . مع أن قونصو الانكليز ادرمند هني ، كان قدم لحضرة سيدنا في شأن

مطالبكم . وقال إنه متكفل عنكم بإذن ربنته أن لا يحدث بالمرستين المذكورتين منكم رمي ولا غيره . فلذالك لم يأخذ سيدنا لذالك أهبة الاستعداد ، لأنه لم يكن يخطر على باله إن ذلك يقع منكم قط . حتى أنه كان يكتب لعمال المراسي ويوصيهم ، ويقول لهم إياكم إذا جاءتكم مراكب الفرنصيص أن تبءؤوهم بسوء ، فإنه لا كرة بيننا وبينهم . فبقي الناس في غرتهم حتى وقع ما وقع ، والأمر كله لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

بسابع المحرم الحرام 1262 موافقا سادس يناير عام 1846 .

ويليه خاتم عبد القادر اشعاش .

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق والمخطوطات

1- الوثائق المغربية والمخطوطات :

رحلة الصفار، محمد بن عبد الله ابن عبد الكريم الأندلسي ثم التطواني، المتوفى سنة 1881/1298 . نسخة خطية فريدة في الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 113 .

تقييد في ترجمة الوزير الصفار لمؤلف مجهول، ترجم فيه لحياة محمد الصفار التطواني . نسخة خطية فريدة في الخزانة الحسنية، تحت رقم 12419 .

مجموعة وثائق تخص سفارة أشعاش، محفوظة في مديرية الوثائق الملكية بالرباط تحت الأرقام التالية : 10795، 17542، 17560 إلى 17583 .

الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي، الناطق بخرافات الجعسوس، سيء الظن أكنسوس، تأليف العربي المشرفي . محفوظ في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم كـ 2276 .

عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، في عشرة أجزاء، تأليف الرهوني أحمد بن محمد بن الحسن التطاوني، المتوفى سنة 1935/1373 . تتوفر المكتبة العامة بتطوان على تسعة أجزاء مرقمة من 676 إلى 684 . وتوجد ترجمة محمد الصفار في الجزء السادس، ص . 523-533 .

وثائق عائلية عند حفدة محمد الصفار في تطوان : مخطوطات، وثائق، أشعار، شجرة العائلة، بالإضافة إلى كتب محمد الصفار ووصيته .

2- الوثائق الفرنسية :

1. Paris:

A. Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AAE)

Maroc: Correspondance politique (CPM)

Volumes 14-16: juin 1845-juin 1846.

Maroc: Mémoires et documents (MDM)

Volume 4: "Ambassade de Bin Achache" pp. 122-166.

Volume 9: "Correspondance entre le Ministre et les agens (sic) de la

France au Maroc", pp.332-430.

Maroc: Correspondance consulaire et commerciale (CCC)

Volume 32: 1843-1848.

Dossiers personnels: Roches, Beaumier, de Chasteau, Desgranges

B. Archives Nationales (AN)

Archives du Ministère de la Marine (MM)

BB2/288 Ports 1845.

BB2/291 Ports 1846.

BB3/629 Toulon 1845.

BB3/635 Toulon 1846.

BB4/642 Correspondance du Météore.

Recueil des lois de finance et autres lois de la session de 1844. Paris, Imprimerie Royale, 1846 .ADXIX/F-28/1844-46.

C. Ministère de la Marine (MM)

Direction du personnel militaire et mouvements de la flotte, notes confidentielles, Dossier 390, Commandant Goeffroy

2. Nantes:

- Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AAE) (Archives du Consulat Général à Tanger).

Maroc: Affaire diverses (1842-52) (ADM), "Voyage de Sidi Aschasch, Pacha de Tétouan, 1845 " (Tanger AGT Carton A 10/11 bis, " Ambassades marocaines en France ").

3. Toulon:

-Archives du Port de Toulon (APT)

Météore: Rôle d'équipage, 1945-46, 1C2745.

Météore: Journaux de bord, 1846, 2C201.

ثانيا : الكتب والمقالات المنشورة

1- باللغة العربية :

أفا ، عمر ، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر : سوس (1822-1906)** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير ، الدار البيضاء ، 1988 .

أكنسوس ، محمد بن أحمد ، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي** ، (جزآن) ، فاس ، 1336/1918 .

ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **المقدمة** ، بيروت ، 1978 .

ابن زيدان ، عبد الرحمن ، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** ، (خمسة أجزاء) ، الرباط ، 1347-1352/1929-1933 .

ابن زيدان ، عبد الرحمن ، **العز والصولة في معالم نظم الدولة** (جزآن) ، الرباط ، 1929-1933 .

ابن سودة ، عبد السلام ، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** (جزآن) ، الدار البيضاء ، 1960-1965 .

ابن الصغير ، خالد ، «مخطوط جديد حول هدية الفيل من الملكة فكتوريا إلى السلطان مولاي الحسن» ، في مجلة دار النيابة ، العدد 12 ، 1986 .

ابن الصغير ، خالد ، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 34 ، الطبعة الثانية ، 1997 .

البحر في تاريخ المغرب ، (أعمال ندوة) منشورات كلية الآداب بالمحمدية ، سلسلة الندوات رقم 7 ، تنسيق رقية بلمقدم ، 1999 .

التمكَروتي ، علي بن محمد ، **النفحة المسكية في السفارة التركية** ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2002 .

الحجري الأندلسي ، أحمد بن قاسم ، **ناصر الدين على القوم الكافرين** ، تحقيق محمد رزوق ، الدار البيضاء ، 1987 .

الخطابي ، محمد العربي ، «مشاهدات دبلوماسي مغربي في فرنسا في عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام» ، **دعوة الحق** ، 263 (مارس 1987) : 19-29 ؛ 264

(أبريل- ماي 1987 ، 36-48) .
الدميري ، كمال الدين ، **حياة الحيوان الكبرى** (جزآن) ، القاهرة ، 1306/1888-1889 .
السبتي عبد الأحد ، وعبد الرحمان لخصاصي ، **من الشاي إلى الأتاي ، العادة والتاريخ** ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة بحوث ودراسات رقم 25 ، 1999 .
سليمان أحمد ، تأصيل **ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل** ، القاهرة ، 1979 .
الصبيحي ، أحمد ، **معجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي** ، تقديم محمد حجي ، سلا ، 190 .
الطهطاوي ، رفاعة رفيع ، **كتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريز** ، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رفيع الطهطاوي . نشرها محمد عمارة . الجزء 2 : السياسة . . .
عبد الرزاق ، فوزي ، **المطبوعات الحجرية في المغرب** ، الرباط ، 1989 .
عبد الرزاق فوزي ، **مملكة الكتاب ، تاريخ الطباعة في المغرب** ، 1865-1912 ، تعريب خالد ابن الصغير ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة ، رقم 3 ، 1996 .
عنان ، محمد عبد الله ، **فهارس الخزانة الملكية** ، الجزء 1 ، فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات ، الرباط ، 1980 .
العمراوي ، الإدريسي بن الوزير ابن ادريس ، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز** ، ترجمها إلى الفرنسية ونشرها زكي مبارك مع النص العربي . الرباط ، 1989 .
غريط ، محمد ، **فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان** ، فاس ، 1347/1928 .
الغزال ، أحمد بن المهدي ، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد** ، نشرها إسماعيل العربي ، بيروت ، 1980 .
الغساني ، أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب ، **رحلة الوزير في افتكاك الأسير** ، نقلها البستاني إلى الإسبانية ونشرها مع النص العربي تحت عنوان : El viage del visir para la liberacion de los cautivos ، طنجة ، 1940 .
الفاسي ، محمد ، «الرحالة المغاربة وآثارهم» ، **دعوة الحق** ، 2 ، 4 (يناير 1959) :

. 25-22

الفاسي ، محمد ، «الرحلة السفارية المغربية» ، **البينة** 1 ، 6 (أكتوبر 1962) : 11-24 .

القاموس المحيط ، ج 3 ، بيروت (د .ت) .

القزويني ، زكرياء بن محمد ، **آثار البلاد وأخبار العباد** ، بيروت ، (د .ت) .

الكتاني ، محمد بن جعفر ، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ، (ثلاثة أجزاء) ، فاس ، 1898/1316 .

الكردودي ، أبو العباس أحمد بن محمد ، **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الصبنيولية بفاس** ، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور ، الرباط ، 1963 .

محمد ، داود ، **تاريخ تطوان** (ثمانية أجزاء) ، تطوان ، 1959-1979 .

المراكشي ، العباس بن إبراهيم ، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** ، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور ، (عشرة أجزاء) ، الرباط ، 1974-1983 .

معلمة المغرب ، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، الجزء 1 ، سلا ، 1989 .

المكناسي ، محمد بن عثمان ، **الإكسير في فكاك الأسير** ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ، 1965 .

المنوني ، محمد ، **المصادر العربية لتاريخ المغرب** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، الجزء 1 ، الدار البيضاء ، 1983 ، الجزء 2 ، المحمدية 1989 .

المنوني ، محمد ، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ، الجزء 1 ، الرباط ، 1973 ؛ الطبعة الثانية ، (جزآن) ، الدار البيضاء ، 1956 .

الوثائق ، مجموعة وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ، 7 أجزاء ، الرباط ، 1976-1989 .

2- باللغة الأجنبية

Abu Hamid el Granadino y su relacion de viaje por tierras eurasiaticas. Traduit et édité par César Dubler.Madrid ,1953.

Abu-Lughod, Ibrahim, *The Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*. Princeton, 1963.

Aubin, Eugène (pseud. Léon Descos), *Morocco of To-day*. London, 1906.

Ayache, Germain, "l'apparition de l'imprimerie au Maroc", *Hespéris-Tamuda*, 5 (1964):143-61.

Ayache, Germain, "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860". In *Etudes d'histoire marocaine*, pp. 97-138, 2ème édition, Rabat, 1983.

Azan, Paul, *L'émir Abd el Kader (1808-1883)*, Paris ,1925.

Beeston, A. F. L., et al., eds. *Arabic Literature to the End of the Umayyad Period*. Cambridge, 1983.

Benazouz, Hakim, *Glossario de mil quientas voces espagnolas usadas entre los marroquis en el arabe vulgar*, Madrid, 1953.

Ben Srhir Khalid, "Le rapport du Capitaine Ingelfield sur le Makhzen et la tribu des Zemmours (1891)", in *Hespéris-Tamuda*, fascicule unique, 1994, pp. 75-98.

Berque, Jacques, "L'émir Abdel kader demande à Fès une consultation sur le jihad". *Maghreb, Histoire et Sociétés*, pp. 65-81. Alger, 1974.

Bookin-Weiner, J., "The'Sallee Rovers': Morocco and its Corsairs in the Seventeenth Century". *The Middle East and North Africa: Essays in Honor of J. C. Hurewitz*, ed. by Reeva S. Simon, pp. 307-31. New York, 1990.

Bosworth, C. E., *The Islamic Dynasties*. Edinourgh, 1967.

Braudel, F., and E. Labrousse, eds. Histoire économique et sociale de la France.Vol. 3: *L'avènement de l'ère industrielle (1789-1880)*, part I .Paris, 1976.

Brignon, J., et al., *Histoire du Maroc*. Paris, 1967.

Brockelmann, Carl, *Geschite der arabischen Litteratur* (GAL). 2 vols. Leiden, 1934-49. *Supplementbänd* (S). 3 vols. Leiden, 1937- 42.

Brooke, Sir Arthur de Capell, *Sketches in Spain and Morocco.* 2 vols. London, 1831.

Brooks. L. A. E., *A Memoir of Sir John Drummond Hay*, London, 1896.

Brown, Leon Carl, *The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855*, Princeton, 1974.

Brunot Louis, *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé.* Paris, 1921.

Brunot, Louis, *Textes Arabes de Rabat.* 2 vols. Rabat 1952.

Burnaby, S. B., *Elements of the Jewish and Muhammadan Calendars*. London, 1901.

Caillé, Jacques, "Ambassades et missions marocaines en France", *Hespéris-Tamuda* I (1960): 39-83.

Caillé, Jacques, "Un ambassadeur marocain à Paris (1845-1846)", *Le monde français*, 16, 49(octobre 1949): 74-86.

Caillé, Jacques, Charles Jagerschmidt: Chargé d'affaires de France au Maroc (1820-1894). Paris, 1951.

Caillé, Jacques, "Un document marocain: L'ambassadeur el-Haj Abd el-Qader à la cour de Louis -Philippe", *Le magazine de l'Afrique du Nord* (Janvier 1951): 20-21.

Caillé, Jacques, "La France et le Maroc en 1849", *Hespéris* 33(1946): 123-55.

Caillé, Jacques, *Une mission de Léon Roches à Rabat en 1845*. Casablanca, 1947.

Caillé, Jacques, *La petite histoire du aroc*, 2ème série (1727-1850). Rabat, 1952.

Chenier, Louis, *The Present State of the Empire of Morocco.* 2 vols. London,

1788.

Cigar, N., "Socio-economic Structures and the Development of an Urban Bourgeoisie in Pre-colonial Morocco". *Maghreb Review* 6, 3-4 (May-August 1981): 55-67.

Colin, G.S., "La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe", *Hespéris* 14, I (1932): 22-49.

Collins, Irene, *The Government and the Newspaper Press in France 1814-1881*. London, 1959.

Cossé -Brissac, Philippe de, *Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie* (1830-1847). Paris, 1931.

Dakhlia, Jocelyne, "Dans la mouvance du Prince: La symbolique du pouvoir itinérant au Maghreb", *Annales: Economies, Sociétés*, Civilisations 43, 3 (mai-juin 1988): 735-60.

Davidson, John, *Notes Taken during Travels in Africa*. London, 1839.

Dehérain, Henri, *Orientalistes et antiquaires: Silvestre de Sacy, ses contemporains et ses disciples*. Paris, 1938.

Deverdun, Gaston, Marrakech: Des origines à 1912. 2 vols. Rabat, 1959-66.

Dictionnaire d'histoire de France Perrin, Paris, 1981.

Dozy, R.P.A., *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*. Beyrouth, s.d (édition d'Amsterdam, 1845).

Dozy, R.P.A., *Supplément aux dictionnaires Arabes*, 2 vols. Beyrouth, 1981.

Dunn, Ross E., *The Adventures of Ibn Battuta: A Muslim Traveler of the 14th Century*. Berkeley and Los Angeles, 1989.

Durrieu, Xavier, "Le Maroc en 1844: La situation, les mœurs, les ressources de l'empire". *Revue des deux mondes* 8 (1844): 5-64.

Durrieu, Xavier, *The Present State of Morocco: A Chapter of Mussulman Civilisation*. London, 1854.

Eickelman, Dale F., "The Art of Memory: Islamic Education and Its Social

Reproduction." *Comparative Studies in Society and History* 20, 4 (1978): 485-516.

Eickelman, Dale F., and James Piscatori, eds. *Muslim Travellers: Pilgrimage, Migration, and the Religious Imagination*. Berkeley and Los Angeles, 1990.

El-Mansour, Mohamed, "Moroccan Perceptions of European Civilization in the Nineteenth Century". In *Morocco and Europe*, edited by George Joffé, pp. 37-45. Center of Near and Middle Eastern Studies, School of Oriental and African Studies, University of London, Occasional Paper 7. London, 1989.

Emerit, Marcel, *L'Algérie à l'époque d'Abdel Kader*. Paris, 1951.

Emerit, Marcel, "le conflit franco-marocain de 1844 d'après les notes de Warnier". *Revue africaine* 94, 424-25 (1950): 399-425.

Emerit, Marcel, "La légende de Léon Roches". *Revue africaine*, 91, 410-11 (1947): 81-105.

Encyclopaedia Britannica. 1911ed., 1990 ed.

The Encyclopaedia of Islam. New edition, 1960.

Flournoy, F.R., *British Policy toward Morocco in the Age of Palmerston*. Baltimore, 1935.

Flügel, G., *Concordantiae Corani Arabicae*. Leipzig, 1842.

Fussent, Paul, *Abroad: British Literary Traveling between the Wars*. New York, 1980.

Gallissot, René, "La guerre d'Abd el Kader ou la ruine de la nationalité algérienne (1839-1847)". *Hespéris-Tamuda* 5 (1964): 119-41.

Gibb, H.A.R, "An Interpretation of Islamic History". In Studies on the *Civilization of Islam*, edited by Stanford J. Shaw and William R. Polk, pp. 3-33. Boston, 1962.

Gibb, H.A.R, and J.H. Kramers, *Shorter Encyclopaedia of Islam* (SEI). Leid-

en, 1961.

Gilsenan, Michael, *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Arab World*. New York, 1982.

Glick, Thomas F., *Islamic and Christian Spain in the early Middle Ages: Comparatives Perspectives on Social and Cultural Formations*. Princeton, 1979.

Goitein, S.D., *A Mediterranean Society*. 5vols. Berkeley and Los Angeles, 1967-88.

Graburn, Nelson H.H., "Tourism: The Sacred Journey". In *Hosts and Guests: The Anthropology of Tourism*, edited by Valene Smith, pp.21-36.2nd edition. Philadelphia, 1989.

La Grande Encyclopédie Larousse, ed. 1882, ed. 1971-76.

Grandchamp, P., et Béchir Mokaddem, "Une mission tunisienne à Paris (février -mai 1853)". *Revue africaine* 90, 406-9 (1946): 58-98.

Guizot, F.P.G, *France under Louis-Philippe (1841-1847)*. London, 1865.

Guizot, F.P.G., *Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps*. 8 vols. Paris, 1858-67.

Hadj Sadok, Mahammed, "Le Genre 'Rihla'". *Bulletin des études arabes* 8, 40 (1948): 195-206.

Harrell, Richard, et al., *A Dictionary of Moroccan Arabic: Arabic-English*. Institute of Languages and Linguistics, The Richard Slade Harrell Series n°9, Washington, D.C., 1966.

Hay, J.H.D., *Journal of an Expedition to the Court of Marocco in the Year 1846*. Cambridge, 1848.

Hay, J.H.D., *Western Barbary: Its Wild Tribes and Savage Animals. London, 1861*.

Heyworth-Dunne, J., "Rifa'ah Badawi Rafi'at-Tahtawi: The Egyptian Revivalist". *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 9

(1937-39): 961-67; 10 (1940-42): 399-415.

Hitti, Philip, *The History of the Arabs*. New York, 1967.

Hourani, Albert, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798-1939. London, 1967.

Howard, Donald R., *Writers and Pilgrims: Medieval Pilgrimage Narratives and Their Posterity*. Berkeley, 1980.

Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*. Translated and edited by Franz Rosenthal. 2nd ed. 3 vols. Princeton, 1967.

Ibn Sa'd, Muhamad, *Kitab at-tabakat al-kubra*. Edited by Eduard Sachau. 9 vols. Leiden, 1905-28.

Jackson, James Grey, *An Account of the Empire of Marocco and the District of Suse*. Philadelphia, 1810.

Johnson, Douglas, *Guizot: Aspects of French History, 1787-1874*. London, 1963.

Joly, A., "Un calendrier agricole marocain." *Archives marocaines* 3 (1905): 301-19.

Joly, A., "Tétouan". Part 2, "Historique." *Archives marocaines* 5 (1905): 161-264, 311-430.

Julien, C.-A., *Histoire de l'Algérie contemporaine*. Paris, 1964.

Julien, C.-A., *History of North Africa: Tunisia, Algeria*, Morocco Translated By John Petrie. Edited by C.C. Stewart. London, 1970.

Lahbabi, Mohamed, *Le gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle*. Rabat, 1958.

Lakhdar, Mohammed, *La vie littéraire au Maroc sous la dynastie 'Alawide (1075-1311=1664-1894)*. Rabat, 1971.

La Martinière, H.M.P. de, et N. Lacroix, *Documents pour servir à l'étude du nord-ouest africain*. 4vols. Alger, 1894-97.

Lane, Edward W., *Arabic -English Lexicon*. 1st ed. 8 vols. London, 1863.

Laroui, Abdallah, *L'histoire du Maghreb: Un essai de synthèse*. Paris, 1970. English edition: *History of The Maghrib: An Interpretive Essay*. Translated by Ralph Mannheim. Princeton, 1977.

Laroui, Abdallah, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*. Paris, 1977.

Latham, J.D., "The Reconstruction and Expansion of Tetuan: The Period of Andalusian Immigration." In *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A. R. Gibb*, edited by George Makdisi, pp. 387-408. Leiden, 1965.

Latham, J.D., "Towns and Cities of Barbary: The Andalusian Influence." *Islamic Quarterly*, 16(1972): 189-204.

Lavedan, P., *Histoire de Paris*. "Que sais-je?" n°34 . Paris, 1960.

Le Tourneau, Roger, *Fès avant le Protectorat*. Casablanca, 1949.

Le Tourneau, Roger, *La vie quotidienne à Fès en 1900*. Paris, 1965.

Lévi-Provençal, E., *Les historiens des Chorfas*. Paris, 1922.

Lévi-Strauss, Claude, *Tristes Tropiques*. Translated by J. Russel. New York, 1970.

Lewis, Bernard, *The Muslim Discovery of Europe*. New York, 1982.

Louca, Anouar, ed, *L'or de Paris: Relation de voyage*, 1826-1831. Paris, 1988.

Louca, Anouar, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle*. Paris, 1970.

Marçais, William, *Textes Arabes de Tanger*. Paris, 1911.

Mas'udi (Maçoudi), *Les prairies d'or*. Traduit par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. 3vols. Paris, 1864.

Mayr, J. and B. Spuler, *Wüstenfeld-Mahler'she Vergleichungs-Tabellen*. Wiesbaden, 1961.

Mehmed Efendi, *Le Paradis des infidèles: Un Ambassadeur ottoman en*

France sous la Régence. Traduit par Julien-Claude Galland. Edité par Gilles Veinstein. Paris, 1981.

Mekouar, Hassan, *Washington Irving and the Arabesque Tradition.* Ph. D. dissertation. Brown University, 1977.

Ménétra, Jacques-Louis, *Journal of my Life.* Translated by Arthur Goldhammer. Edited by Daniel Roche. New York, 1986.

Michaux-Bellaire, E., "Au palais du Sultan marocain". *Revue du monde musulman,* 5 (1908): 647-62.

Michaux-Bellaire, E., "Le Droit de propriété au Maroc". *Revue du monde musulman,* 7 (1909): 365-78.

Michaux-Bellaire, E., "El-Qçar Eç-çehir". *Revue du monde musulman* 16 (1911): 329-76.

Michaux -Bellaire, E., "L'impôt de la Naïba et la loi musulmane au Maroc". *Revue du monde musulman,* 11(1910): 396-404.

Michaux-Bellaire, E., "Les impôts marocains". *Archives* marocaines 1 (1904): 56-96.

Michaux-Bellaire, E., "L'organisation des finances au Maroc", *Archives marocaines* 11 (1907): 171-251.

Michaux-Bellaire, E., "Un rouage du gouvernement marocain: La beniqat ech chikaïat de Moulay Abd el Hafid". *Revue du monde musulman* 5 (1908): 242-74.

Miège, J.L., *Le Maroc et l'Europe (1830-1894).* 4 vols. Rabat, 1989.

Miller, Michael B., *The Bon Marché: Bourgeois Culture and the Department Store, 1869-1920.* Princeton, 1981.

Miquel, André, "L'Europe occidentale dans la relation arabe d'Ibrahim b. Ya'qub (Xe s)". *Annales: Economies, Sociétés, Civilisations* 21, 5 (septembre-octobre 1966): 1048-64.

Miquel, André, *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu*

du 11è siècle. 4 vols. Paris, 1967-88.

Mitchell, Timothy, *Colonizing Egypt.* Cambridge, 1988.

Mourre, Michel, *Dictionnaire d'histoire universelle.* 2 vols, Paris, 1975.

Naff, Thomas, and Roger Owen, eds., *Studies in Eighteenth Century Islamic History*, Carbondale, 1977.

an-Nasiri, Ahmad b. Khalid, "Chronique de la dynastie Alaouite au Maroc." Traduit par E. Fumey. *Archives marocaines* 9 (1906): 1-399; 10(1907): 1-424.

National Geographic Atlas of the World, 1981 edition.

Park, Thomas, "Inflation and Economic Policy in 19th Century Morocco: The Compromise Solution". *Maghreb Review*, 10,2-3(1985): 51-56.

Pellat, Charles, "La France dans la géographie d'al-Idrisi." *Studi maghrebini* 10 (1978): 33-72.

Penz; Charles, *Les émerveillements parisiens d'un ambassadeur de Moulay Ismail, janvier-février 1682.* Casablanca, 1949.

Pérès, Henri, *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930.* Paris, 1937.

Peyssonnel, Jean André, *Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger.* Edité par Lucette Valensi. Paris, 1987.

Pinkney, David, *Decisive Years in France, 1840-47.* Princeton, 1986.

Playfair, R.L., and Robert Brown, *A Bibliography of Morocco, from the Earliest Times to the End of 1891.* Royal Geographical Society, Supplementary Papers, Vol. 3, Part 3. London, 1893.

Muhammad al-Qadiri's 'Nashr al Mathani': The Chronicles. Edited and translated by Norman Cigar. London, 1981.

Rackow, Ernst, *Beiträge zur Kenntnis der materiellen Kultur Nordwest-Marokkos: Wohnraum, Hausrat, kostüm* .Weisbaden, 1958.

Renaud, H.P.J., "L'enseignement des sciences exactes et l'édition d'ouvrages

scientifiques au Maroc avant l'occupation européenne." *Hespéris* 14, I (1932): 78-89.

Renaud, H.P.J., "Un essai de classification botanique dans l'œuvre d'un médecin marocain du XVI e siècle". *Mémorial Henri Basset: Nouvelles études nord-africaines et orientales* (2 vols), 2 :197-206. Paris, 1928.

Rey, A., "Le Maroc et la question d'Alger. " *Revue des deux mondes* 24 (1840): 617-62.

Roches, Léon, *Trente-deux ans à travers l'Islam*. 2 vols. Paris, 1884-87.

Rosenthal, E.I.J., *Political Thought in Medieval Islam*. Cambridge, 1968.

Rosenthal, Franz, *The Technique and Approach of Muslim scholarship Analecta Orientalia* 24. Rome, 1947.

Rouard de Card, E., *Les Traités entre la France et le Maroc*. Paris, 1898.

Said, Edward, *Orientalism*. New York, 1979.

Sauvaire, Henri, *Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain, 1690-1691*. Paris, 1884.

Schivelbusch, Wolfgana, *The Railway Journey: The Industrialization of Time and Space in the 19th Century*. Berkeley, 1986.

Schroeter, Daniel, *Merchants of Essaouira: Urban Society and Imperialism in Southwestern Morocco, 1844-1886*. Cambridge, 1988.

Scott, Col., *A Journal of a Residence in the Esmailla of Abd-el-Kader and of Travels in Morocco and Algiers*. London, 1842.

Sternberger, Dolf, *Panorama of the Nineteenth Century*. Translated by Joachim Neugroschel. New York, 1977.

at-Tamgruti (Tamgrouti), Abu al-Hassan 'Ali, *En-nafhat el-miskiya fi-s-sifarat et-tourkiya: Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, 1589-1591*. Traduite par Henry de Castries. Paris, 1929.

The Travels of Ibn Battuta. Edited by H.A.R. Gibb. 3 vols. The Hakluyt Society. Cambridge, 1958.

at-Tunisi, Khayr ad-Din, The Surest Path: *The Political Treatise of a Nineteenth-century Muslim Statesman*. Translated and edited by Leon Carl Brown. Harvard Middle Eastern Monograph 16. Cambridge, Mass., 1967.

Turner, Victor, and Edith Turner, *Image and Pilgrimage in Christian Culture: Anthropological Perspectives*. New York, 1978.

Valensi, Lucette, *Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)*. Paris, 1969.

Warnier, A-H., *Campagne du Maroc, 1844*. Paris, 1899.

Wehr, Hans, *A Dictionary of Modern Written Arabic*. Edited by J. Milton Cowan. Ithaca, 1961.

الفهارس

فهرس أسماء الأعلام والمجموعات البشرية

فهرس أسماء الأماكن

فهرس الصور والرسوم

المحتويات

جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2006

«المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق»
نتائج جوائز ابن بطوطة لعام 2006

أعلن «المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق» الذي يرعاه من أبو ظبي ولندن الشاعر محمد أحمد السويدي ويشرف عليه الشاعر نوري الجرّاح عن نتائج جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي لسنة 2006 وهي خمس جوائز في ثلاثة مجالات : ثلاث جوائز لتحقيق مخطوطات الرحلة الكلاسيكية ، وجائزة للرحلة المعاصرة ، وجائزة للدراسات في أدب الرحلة . وأضيف هذا العام مجالان جديدان هما : جائزة الرحلة الصحفية ، وجائزة أدب «اليوميات» .

فاز بالجائزة هذا العام عن «تحقيق المخطوطات الكلاسيكية» أربعة محققين هم : د .سوزان ميلار (الولايات المتحدة) ، د . خالد بن الصغير (المغرب) ، د . محمد الصالحي (المغرب) ، أ . قاسم وهب (سوريا) ، وفاز بجائزة «الرحلة المعاصرة» د . خليل النعيمي (سوريا) . وفاز بجائزة «الدراسات في أدب الرحلة» د . نواف الجحمة (الكويت) ، وفاز بجائزة «الرحلة الصحفية» إبراهيم المصري (مصر) ، وفاز بجائزة «اليوميات والمذكرات» فاروق يوسف (العراق) .

وبذلك يبلغ عدد الحائزين على الجائزة حتى تمام دورتها الرابعة 23 باحثاً وكاتباً عربياً وأجنبياً .

الأعمال المتسابقة

تشكلت لجنة التحكيم لهذا العام ، كما في الأعوام السابقة ، من 5 أعضاء من الأساتذة المختصين والأدباء العرب ، وبلغ عدد المخطوطات المشاركة 42 مخطوطاً جاءت من 13 بلداً عربياً ، وتوزعت على الرحلة العربية المعاصرة والدراسات بصورة أكبر ، وعلى المخطوطات المحققة بصورة أقل . وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد عدد قليل من الأعمال لم تستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق ،

واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للأعمال المعاصرة . وقد نزعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السريّة وسلامة الأداء .

وحسب بيان الجائزة ستصدر الرحلات الثلاث المحققة الفائزة في سلسلة «ارتياد الآفاق» ، والرحلة الفائزة بجائزة الرحلة المعاصرة في سلسلة «سندباد الجديد» ، والكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للدراسات في سلسلة «دراسات في الأدب الجغرافي» . والكتاب الفائز بجائزة الرحلة الصحفية في سلسلة «أرض الحدث» ، والكتاب الفائز بجائزة «اليوميات» في سلسلة «يوميات» . توزع الجوائز في احتفال يقيمه المركز في لندن مطلع العام 2007 . ويعلن لاحقاً عن توقيته ، ويعقب الحفل ندوة علمية يشارك فيها الفائزون بمحاضرات حول أعمالهم .

جائزتان جديدتان، وثالثة تقديرية

وهكذا تضيف «دار السويدي» هذا العام إلى سلسلة جوائزها جائزتين جديدتين فتصبح جوائز ابن بطوطة 5 جوائز ، وتعلن في الوقت نفسه عن جائزة سادسة تفتح لها باب الترشح من العام القادم وهي جائزة ابن بطوطة التقديرية ، وتمنح كل عام لشخصية أجنبية أو عربية أثرت حقل المغامرة الأدبية والبحث في أدب الرحلة وأنصفت بأعمالها الثقافتين العربية والإنسانية والعلاقات بين الشعوب ، وبنت بأعمالها جسراً بين ثقافات الشرق والغرب .

شروط الاشتراك في الجائزة:

- يمكن لأي كاتب أو باحث محقق أن يشارك في مسابقة الجائزة بترشيح عمله بنفسه .
- أن يكون النص محققاً وفق قواعد التحقيق العلمية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية .
- تقبل المخطوطات التي هي رسائل أكاديمية لنيل درجات علمية .
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء التعديلات الفنية التي تراها مناسبة على

النص الفائز ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار بالاتفاق مع المؤلف أو المحقق .

- أن يرسل النص في نسخة ورقية واحدة مرفقة بنسخة إلكترونية .
- يمكن لأي مؤسسة ثقافية أو جماعة أدبية غير رسمية أن ترشح شخصية أدبية عربية أو أجنبية لنيل جائزة ابن بطوطة التقديرية .
- تستقبل النصوص والترشيحات على عنوان «دار السويدي» في أبو ظبي ص . ب 44480 أو على البريد الإلكتروني : info@alrihla.com

قبول الطلبات للدورة الخامسة 2007

يفتح باب قبول الطلبات للمشاركة في الجائزة بدءاً من اليوم 10 حزيران/ يونيو 2006 . ويستمر حتى منتصف آذار/مارس من العام 2007 .

معلومات عن الجائزة

تأسست جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست إيماناً من الشاعر محمد أحمد السويدي راعي «المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها

رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه ، كما في دوراتها الثلاث السابقة ، تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

الأعمال الفائزة وبيان لجنة تحكيم الجائزة لسنة 2006

اجتمعت لجنة التحكيم ما بين 15 مايو و5 يونيو وتوصلت إلى اختيار الأعمال التالية للفوز بجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات، والرحلة المعاصرة، والدراسات في الأدب الجغرافي، والرحلة الصحفية والكتابة اليوميات.

وقد اختارت اللجنة الأعمال الفائزة التالية للاعتبارات المذكورة :

أ - جائزة المخطوطات المحققة:

*** رحلة الصفار إلى باريس**

1846-1845

محمد الصفار الأندلسي التطواني

تحقيق : د. سوزان ميلار، عرّب النص وشارك في التحقيق د. خالد بن الصغير

تكمن أهمية رحلة الصفار في قدرة كاتبها على تقديم أجوبة عن أسئلة من قبيل : أين يكمن سر قوة الفرنسيين؟ كيف تمكنوا من الوصول إلى ذلك المستوى من القوة؟ كيف استطاعوا قهر الطبيعة وإحكام قبضتهم على مسارها بطرق وأساليب مازالت خافية عنا؟ كيف يعيش الفرنسيون حياتهم اليومية، وكيف يربون أبناءهم وخدامهم؟ ما هي أحوالهم التعليمية، وكيف يسلون أنفسهم ويروحون عنها، وماذا يأكلون؟ وباختصار، ما هو وضع حضارتهم، وما هي أوجه اختلافها عن حضارتنا؟ وبالتالي على تسجيل تجربته في صور دقيقة الرسم وذات عمق إنساني. فكانت له القدرة على فتح نافذة على عالم بعيد عن عالمه هو، ونقل مشاهدته إلى غيره. ومن خلال وصفه الدقيق لما هو جديد، ويكاد يكون كل شيء جديدا، نحس بنسيج اللقاء الثقافي : وبقراءتنا لما دونه عن رحلته، نجد أنفسنا أمام فرصة نادرة تتاح لنا لتقمص شخصية أحد رجال الفكر المغاربة في لحظة حرجة تمتحن معتقداته ومشاعره وتوجهاته. إن «موعد» الصفار مع الجديد، على حد تعبير رولان بارت (Barthes)،

يحدث مواجهة أكبر حجما مجد خلالها تجربته مرات عديدة . وتمثلت خلفيات رحلته في أحداث ووقائع أدت ، بشكل عميق ، إلى قلب التصور الذي كان لدى النخبة الحاكمة في المغرب عن قوتها إزاء الغرب رأسا على عقب . وفي الواقع ، كانت الرحلة في حد ذاتها جزءاً من ذلك الجهود الذي استهدف القيام بمحاولة لتصحيح الخلل والتبصر بمعرفة الأسباب الكامنة وراء الإخفاقات . وقد تميز العصر الذي عاش فيه كاتب الرحلة بالقلق الذي انتاب المغاربة من قدرتهم على مواجهة الغرب المتحكم في جميع مقومات التفوق العسكري . كما تميز أيضا بوجود تخوفات كبيرة من وقع القضايا الخارجية وخطورة تأثيرها على الأحوال الداخلية لنظام اتسم بهشاشته . وكانت هذه القضايا العريضة مطروحة مسبقا قبل الرحلة . وقد ارتأت لجنة التحكيم أن كلاً من تحقيق الرحلة ودراستها التي قامت بها الباحثة الأميركية سوزان ميللر ، وتعريب الدراسة والتحقيق بالعربية يستحقان بامتياز جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات ، ويعتبر العمل الذي قاما به إثراء بيناً للثقافة العربية .

* **النفحة المسكية في السفارة التركية 1589**

علي بن محمد التمكَروتي

تحقيق وتقديم : محمد الصالحي

اختارت لجنة التحكيم هذا النص لجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات لتمتع تحقيقه بالشروط العلمية واستيفائه هذه الشروط باقتدار علمي .

رحلة مرآوية ، يتقابل فيها السَّفَر واللغَة . اللغة مرآةُ السَّفَر . والسَّفَر مرآةُ اللغة . لم يَسْعَ التمكَروتي في سفارته ما بين المغرب والمشرق وهو مندوب السلطان المغربي أحمد المنصُور الملقب بالذهبي ، للقاء السلطاني العثماني مراد الثاني ، إلى وضع ذاته في صُلب رحلته ، ولا إلى جَعل هذه الذات المرآةَ التي تنعكس عليها الجغرافيا والتمظهُرات الثقافية العامّة من عُمرانٍ وعادَات . ولا سعَى التمكَروتي ، وهذا هو المدهِش ، في هذه الرِّحلة ، إلى اكتسابِ بطولة أو إعلاء شأنِ الذَّاتِ المغامِرَة . بل عكسَ كل ذلك سعى إلى تثبيت صُورَة الفقيه الملفّع بعباءة الأدَب ، والأديب الملفع

بعباءة الفقيه . وفي اعتقاد المحقق أنه نَجح في ذلك .

في هذه الرحلة يصف الرحالة مدينة القسطنطينية ، ومراسيم الاستقبال في القَصرِ . وعلى رغم أن قَلم التمكَروتي يَحرَنُ إذ يُشيحُ ببصره عن المكامنِ التي يُمكنُ أن يقدحَ زِنَادَها فينبعث منها المدهش والغريب مما شاهده في عاصمة الخلافة ، فإن نص رحلته يعتبر بامتياز وثيقة بالغة الأهمية عن سلطنتين وسلطانين وقصرين والطريق بينهما في القرن السادس عشر . ولعل وصف أهوال البحر من بين أميز ما دونه هذا الرحالة المولع باللغة والشعر والبيان . وكما يلاحظ المحقق فإن في مظنُون التمكَروتي أنه لا يمكن فَهمُ الآنِي والآتِي إلاّ بالاتكاءِ على الماضِي . الماضِي هُنا هو ذاكرة التمكَروتي المحشوّة بالشِّعرِ والحكمة والبلاغة المنمطة المسكوكة التي لا يَبذُل صاحبُهَا أي جهدٍ في تطويعها . كلّ دَيْدنه ومبتغاه أن يكشف عن عُلوّ كَعْبِهِ في الاستِظهار .

*** رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني إلى إيطاليا 1618.1613م**

حققها وقدم لها : قاسم وهب

تُعد رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني من الوثائق النادرة في بابها ؛ فهي من أقدم المدوّنات العربية التي وصفت جوانب مهمة من مدنيَّة أوربا في مطلع القرن السابع عشر ، فبعض المدن التي زارها المعني أو أقام فيها ضيفاً على آل ميديتشي شهدت بدايات النهضة الأوربية الحديثة التي عمّت آثارها فيما بعد أرجاء المعمورة كافة ، وكانت إقامته ضيفاً على آباء النهضة الأوروبية آل ميديتشي لخمس سنوات سبباً في ما حاول إحداثه من نهضة في بلاد الشام . دفع ثمنها عنقه وعنق ولده . ولعل المثير أن الملاحظات المدونة في هذه الرحلة تجعلنا نكتشف أن التفاوت الحضاري بين العرب والغرب آنذاك لم يكن كبيراً ، بل ربما كان بوسع العرب تجاوزه لو لم يقُم العثمانيون بقطع الطريق على بوادر التطورات الرامية إلى تأسيس نهضة عربية تستلهم نهضة الغرب ، أو تستفيد من بعض منجزاتها . ومما يزيد من أهمية هذه الرحلة أن صاحبها رجل دولة محنَّك ، ومحارب لا يلين ؛ لم يتوان عن الوقوف في

وجه أكبر إمبراطورية في الشرق دفاعا عن شعب أرهقته المظالم، وأنهكته الحملات العسكرية المتوالية التي طالما شنها عليه الحكام والولاة العثمانيون.

والميزة التي لا تقل أهمية عما سبق هي اللغة التي كُتب بها هذا النص، وما تحمله من دلالات تعكس المستوى الذي انحدرت إليه أساليب الكتابة في زمن تفشّى فيه الجهل والتجهيل بين الخاصة والعامة على السواء.

أخيراً ولعل من الضروري الإشارة إلى أن اللغة التي كتبت بها الرحلة تغري المعنيين بالدراسات اللغوية بالنظر في تطور اللهجات المحكية في بلاد الشام خلال القرون الأربعة الأخيرة، وما طرأ عليها من تغيير، وما حملته من مصطلحات، وما خالطها من مفردات مستحدثة أو مُعرَّبة.

اختارت لجنة التحكيم هذا النص للفوز بجدارة بجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات لسنة 2006 لكونه يعتبر كشفاً علمياً وتاريخياً اجتهد محققه في كشفه وتحقيقه وزوده بمقدمة ضافية تلقي ضوءاً على نص لا غنى عنه لكل قارىء مهتم.

ب - جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة:

*** قراءة العَالَم**

رحلات في كوبا، ريو دي جانيرو، مالي، لشبونة، والهند الأوسط

خليل النعيمي

حاز هذا الكتاب على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة لخصوصية الرؤية والتجربة والكتابة التي اجتمعت لصاحبه بين دفتيه. فالرحالة هنا ليس سائحاً وكتابه ليس دليلاً للسائحين. إنما «الرحّالة قارىء! لكنه لا يقرأ الكلمات، وإنما العلامات.» بهذا الوعي يكتب الرحالة والروائي خليل النعيمي كتاباً جديداً في السفر. 6 نصوص عن 6 رحلات قام بها الكاتب حول العالم غطت أربع قارات، ووقفت على جغرافيات الأرض والناس، وعلى الروح الإنساني بصفته كلاً لا يتجزأ مهما اختلفت اللغات وتباينت التجارب والأعراق. لأن «التعوّد على رؤية الأشياء،

والكائنات ، نفسها ، يصيبنا بالعمى» نحن نسافر ، فنحن «لا ندرك ، وإنْ كنا نعلم» أن الكون مليء بالشغف والأساطير الحية ، إلا عندما نسافر .» ، فالسفر بهذا المعنى ، ومن خلال هذه الرؤية الشفافة والعميقة بحث عن الحرية . إنه ، أيضاً ، محاولات متكررة لاستكشاف الذات من خلال استكشاف العالم ، والتعبير عن الألم الشخصي من خلال لمس ألم الآخر المجهول ، والخلاص من خلال البحث عن أمل جديد فـ«للسفر وجوه! والوجه الذي يهمنا هو الذي يجعلنا نتشبّث بمشاهد الكون ، وكأنها لم تكن إلا لنا» .

بهذه الرؤية النافذة يكتب المسافر ، وقد سافر مغامراً لئلا يريد أن يعود بالوعي الذي بدأ به . فالرحالة بالنسبة إليه «لا يجوب العالم بحثاً عن الصورة ، وإنما عن الجوهر .» ، ولأجل هذا السمو الروحي في التعبير عن الأرضي ، والبراعة في الكتابة حاز كتابه ، بامتياز ، على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة لسنة 2006 . وترى فيه لجنة التحكيم إضافة حقيقية إلى أدب الرحلة المعاصر ، ولعله أن يكون من تلك الكتب التي ستبقى طويلاً في أيدي القراء .

ج- جائزة الدراسات في الأدب الجغرافي:

*** صورة المشرق العربي**

في كتابات رحالة الغرب الإسلامي

في القرنين السادس والثامن الهجري 12 و14

د . عبد العزيز الجحمة

دراسة بانورامية قيمة لصورة المشرق العربي من خلال مدونات الرحلات المغربية والأندلسية التي تتجاوز محتواها كمجرد مذكرات ، إلى كونها مصدراً من مصادر التأريخ للمشرق العربي في ثقافاته وحضاراته الإنسانية المختلفة ، بحيث إن الرحلات المذكورة تعتبر - من هذه الناحية - تأريخاً لما أهمله التاريخ . ولما كانت هذه الرحلات من إنتاج مغاربة ، بينما أحداثها جرت في مسرح بيئات أخرى مشرقية كالحجاز

ومصر والشام والعراق وفي المسافات التي تفصلها ، فإن اهتمام مؤلفيها انصب على معالم جديدة عليهم ومظاهر وأمثلة ومعطيات ونظم وأشخاص من صميم البلدان التي حلوا بها ، وهو ما أثرى تجاربهم الشخصية .

ولما كانت قلة من المتخصصين والباحثين في التاريخ الوسيط قد تناولت بالدرس مجالات الحياة في المشرق العربي من خلال الرحلات المغربية والأندلسية ، فلا بد من الإشادة هنا بهذا الجهد العلمي المركز الذي تناول رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق بالدراسة والتعريف والتحليل واستخلاص النتائج . ومن جريدة الكتاب يمكن للقارىء أن يلاحظ ما اعتمد عليه الدارس من مصادر ذات أصول ومشارب متنوعة . ساعدته على استكشاف وتركيز تلك الصورة التي رسمها الرحالون المغاربة والأندلسيون للمشرق العربي في العصور الوسطى . وكما جاء في بيان لجنة التحكيم فقد أنجز الدارس عمله ببحث دؤوب وذهن متقد ، وعقلية منفتحة وموضوعية لافتة للانتباه ، فاستحق على هذا العمل العلمي الممتاز جائزة ابن بطوطة للدراسات في أدب الرحلة .

د - جائزة اليوميات:

*** لا شيء .. لا أحد**

يوميات في الشمال الأوروبي

فاروق يوسف

هذا هو الكتاب الأول الفائز بجائزة ابن بطوطة لكتابة «اليوميات» مؤلفه شاعر وناقد تشكيلي عراقي مقيم في السويد ، ويومياته هذه تعكس الداخل الإنساني الهارب من صقيع المنفى الأوروبي وجهنم مسقط الرأس إلى عالم الذات في اتساق الخارج مع الداخل . «لا شيء . . لا أحد» كتاب من الجمال الطبيعي ، يخلو من لعبة التلفيق ، ليهب قارئه أوقاتاً من الصفاء الحقيقي . وإذا كانت كتابة اليوميات فناً يقع في خانة التأريخ لليومي والشخصي ، متقاطعاً مع حياكات مجتمعية وتاريخية

أخرى ، بالغة التعقيد بفعل مركّباتها النفسية والمزاجية المتعلقة بلحظة الكتابة ، فإن هذه الكتابة تتقاطع أيضاً مع المكان الآخر بوصفه الشاهد الصامت على كل لحظة يعيشها المنفي .

بالنسبة لواقعنا الشرقي ، وثقافتنا العربية تبدو كتابة اليوميات عملاً بالغ الندرة ، فقد ألف الكتاب العرب القدامى فكرة التأليف المعرفي والأكاديمي بصورته الموضوعية غالباً ، غير الشخصية ، وغير المتماهية مع الذات بوصفها فاعلاً في إنتاجنا المعرفة وفي علاقتها الوجودية بالمعرفة .

في هذه اليوميات يمزج الكاتب تأملاته وخواطره عن ذاته وعالمه بسطور شعرية سرعان ما تطغى على الجزء الثاني من كتابه ليتحول الشعر إلى شريك أساسي في هذه اليوميات . وعلى رغم أن الشق الأول من الكتاب أكثر إبداعية لما في نثره المضيء من سطوع وعلو ، مقابل سطور الشعر التي ستغادر قدرتها على الإدهاش لتستقر في نمط متوقع ، إلا أننا بإزاء يوميات عجيبة في قدرتها على نقل ما يعتمل في نفس صاحبها وما يتوارد إلى خاطره ، وكذلك ما يغامر فكره وملكاته الإبداعية صوبه .

كتاب استحق عن جدارة كبيرة جائزة ابن بطوطة لكتابة «اليوميات» في دورتها الأولى ، فهو لبنة أكيدة في سلسلة من الكتب التي ستترى الواحد بعد الآخر لتثري المكتبة العربية والقارىء العربي بأدب التجارب الشخصية ، وبالسفر مع الكائن ليس في رحلة واحدة أو بضع رحلات في الجغرافيا ، وإنما ، هذه المرة ، في رحلة حياته كلها . إنها اليوميات .

هـ - جائزة ابن بطوطة للرحلة الصحفية:

*** رصيف القتلى**

مشاهدات صحافي عربي في العراق

إبراهيم المصري

يوميات ملتهبة لشاعر يتجول بعينين مفتوحتين وعقل متحفز مستطلعاً فاجعة

الحرب من الزوايا الأكثر إيلاماً : الإنسان ومصيره . على أنقاض الديكتاتورية وفي ظلال آلة الحرب الأميركية وجنودها ، قام الشاعر بلباس الصحافي وعدّته بمغامرة تنطوي على مجازفة وخطر كبيرين ، ليروي في كتابه هذا قصصاً إنسانية التقطها من شهود الفاجعة بوصفه مراسلاً تلفزيونياً يغطي أحداثاً في منطقة تلتهمها الحرائق .

أفاد صاحب الرحلة مما سبق وأنجز من تقارير تلفزيونية عن مآسي الديكتاتورية والحصار والحرب ، فإذا به يؤلف كتابه من مقبرة جماعية في كربلاء ، وأرض مجففة في الأهوار ، ومعارض إسلامي حفر مخبأ في بيته وتوارى فيه اثنين وعشرين عاماً ، هرباً من أجهزة الأمن السياسي ، وطفلة مشلولة لم تجد علاجاً ، ومخدوعاً بالديكتاتور فهو من فدائييه ، وشاب يباهي بقميصه الذي داس عليه صدام ذات يوم بحذائه ليخاطب الجماهير ويرتقي عربته العسكرية ، إلى مساجد الديكتاتور التي أنفق في بنائها مئات الملايين من الدولارات فيما كان شعبه يئن تحت وطأة حصار أودى بحياة الملايين ، وخصوصاً الأطفال .

لجنة التحكيم ، التي أبدت عدم اتفاقها مع الكاتب حول بعض التفسيرات السياسية للأحداث ، ارتأت أن الكتاب يستحق جائزة ابن بطوطة للرحلة الصحافية لصدقه وجرأته في الكشف عما توصل إليه من قصص وأحداث ومشاهد ذات دلالات إنسانية ، انتصر معها الكاتب لقضايا الناس المظلومين ولفكرة الأمل وإرادة الحياة على مظاهر اليأس .